الحياة الدينية عند العرب

بين الجاهلية والإسلام

دراسة مقارنة

بقلم

محمد حامد الناصر

خولة درويش

دار عالم الكتب

للطباعة والنشر والتوزيع

الحياة الدينية عند العرب

بين الجاهلية والإسلام

© دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٤١٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

الناصر، محمد حامد

الحياة الدينية عند العرب في الجاهلية والإسلام/ محمد حامد الناصر، خوله درويش .- الرياض.

٥٦٨ صفحة ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك ٤-٥٣-٧٧٥-٩٩٦٠ (مجموعة)

٨-٥١-٧٧٥-٩٩٦٠ (ج ١)

١- الوحدانية ٢- الإيمان (الأسلام) ٣- الشرك بالله

أ- درويش، خوله (م. مشارك) ب- العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٦/٣٤٨٠

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

رقم الإيداع : ١٦/٣٤٨٠

ردمك : ٤-٥٣-٧٧٥-٩٩٦٠ (مجموعة)

٨-٥١-٧٧٥-٩٩٦٠ (ج ١)

دار عالم الكتب

للطباعة والنشر والتوزيع

العليا - غرب مؤسسة التحلية - ت ٤٦٥١٦٨٩ / ٤٦٣١٧٢٢

ص. ب ٦٤١٠ - الرياض ١١٤٤٢ - تلفاكس ٤٦٣١٣٣٦

المملكة العربية السعودية

الجاهلية في الشعر الجاهلي

الحياة الدينية عند العرب

بين الجاهلية والإسلام

دراسة مقارنة

بقلم

محمد حامد الناصر   خولة درويش

دار عالم الكتب

للطباعة والنشر والتوزيع

الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونصلي ونسلم على رسول الله ﷺ ، فقد ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك.

﴿يا أيها الذين آمنو اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[آل عمران / ١٠٢]

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا. يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ .[الأحزاب / ٧٠ـ ٧١]

أما بعد:

فهذا هو الكتاب الرابع من سلسلة «الجاهلية في الشعر الجاهلي»، وقد خصصناه للحياة الدينية عند العرب.

وعقيدة الأمة هى الأساس المتين الذي يحفظها من الخطوب.

وها نحن نرى أمتنا وقد لفّها الظلام ،وعصفتْ بها الأهواء ، ومتاهات المبادىء والأفكار ، فلابد لها من عودة جادة إلى مبادىء دينها القويم.

لابد لنا من أن نحث الخطوات لمعرفة ذاتنا وإثبات هويتنا بين الأمم، ولن يستولي علينا اليأس ولا تمزقنا الحسرات، مهما طال الطريق، ولعلنا نخلع قناع التبعية ولباس الذل، ونستعيد قيادة أمتنا المسلمة للبشرية الحائرة في دياجير الظلمات، ونزغات الشياطين وخداع الأوهام.

لقد جاء هذا البحث لنسبر أغوار أمتنا فنطل على تاريخ الجاه تمل البعثة من خلال دواوين شعرائها ومن ثم لندرك عظمة الإسلام من خلال مبادئه، وتصوراته وسلوك أتباعه من المؤمنين. . . ونتأمل بعدها حاضر أمتنا المرير الذى ابتعدنا فيه عن القمم الشامخة التى ارتقاها سلفنا تقى وعبادة وجهادا. .

ولعلنا نتوق آنذاك إلى مستقبل زاه يعم البشرية بأنواره طالما رنت إلى دين الإسلام، وجاهدنا من أجل تحقيقه في أنفسنا وعند غيرنا.

وإننا لا نريد من هذه الأبحاث المعرفة الذهنية فقط، ولا نريد أفكاراً وعلوماً من تراث الإسلام فحسب، إننا نريد العودة الصادقة إلى حياة إسلامية، تسود مجتمعاتنا: عقيدة صافية، وتوحيداً لله خالصاً وعبادة وسلوكاً، نريد واقعاً إسلامياً يتحرك في حياة الأجيال المعاصرة.

كما أننا لا نريد أن يدل بعضنا على مبادىء الإسلام ولا يعمل بها، فاللافتة التى ترشد إلى الطريق لن توصل إليه، إلا إذا سلكه الواعي الرشيد، المتفهم لمفاجآت الطريق!

إن من يحمل الرسالة ولا يعمل بما فيها، سيعيش وأمته في قهر وخذلان، ويتعذر عليه الوصول، لأن سلعة الله غالية، ولابد من التضحيات مهما طال الطريق.

هذا وحيث أن الإسلام مفهوم شامل لنشاطات الحياة كلها، فقد تحدثنا فيما مضى من هذه السلسلة عن أخلاق العرب، وحياتهم السياسية، وعن المرأة في الجاهلية والإسلام.

وها نحن نكمل السلسلة ببحث «الحياة الدينية عند العرب» معتمدين من خلال هذه الدراسة على المقارنة المستمرة بين الجاهلية والإسلام، مع الوقوف وقفة متأنية عند واقعنا المعاصر، لنرى أين استقرت بنا الأقدام، وقد قسمنا البحث إلى خمسة أبواب.

الباب الأول: تحدثنا فيه عن أديان العرب قبل البعثة النبوية، من ديانة التوحيد عند إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، مروراً بالانحراف الخطير الذى عم جزيرة العرب خلال عبادتها للأصنام وتقديسها للأوثان.

وكان الحنفاء يتلمسون الحق على قلتهم، أما أهل الكتاب من يهود ونصارى فقد كان أثرهم في العرب ضعيفاً، وتعرضنا لأديان أخرى كالصابئة وعبادة الملائكة والكواكب ونحو ذلك مما صوره الشعر الجاهلي، وحديث القرآن عن تلك الجاهلية تنديداً وتقريعاً.

الباب الثاني : وقد خصص للمعتقدات الدينية في الجاهلية والإسلام، وهو أطول الأبواب.

إذ تحدثنا فيه عن أركان الإيمان المختلفة، كما صورها الشعر الجاهلي، بما في الجاهلية من باطل كثير اختلط بخير قليل، كالإيمان بالله خالقاً ومصوراً رازقاً، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل وباليوم الآخر والقدر خيره وشره، بصور شائهة حيناً صحيحة حينا آخر.

حتى إذا جاء الإسلام بيّن عوار هذه الجاهلية، وصحح مفاهيمها المنحرفة، وغرس العقيدة على أسس راسخة بينة. وكنا نتحدث عن كل ركن من هذه الأركان في الجاهلية ونتبعه بموقف الإسلام وهديه، معتمدين على الأدلة الشرعية.

الباب الثالث:خصص للعبادة في الجاهلية والإسلام، إذ تحدثنا عن مفهوم العبادة في الفصل الأول، ثم أتبعناه بفصل عن شعائر العبادة في الجاهلية والإسلام، كالحج والصلاة والزكاة والصيام.

الباب الرابع: وقد جاء في فصلين: ا

الأول: التشريع في الجاهلية والإسلام والثاني: تغلغل الخرافات والأساطير في المجتمع الجاهلي، وموقف الإسلام من هذه الأساطير مثل الكهانة والعرافة والتنجيم والتطير والسحر

الباب الخامس: وقد تحدثنا فيه عن مظاهر الانحراف في المجتمعات المعاصرة.

إذ ظهر الإلحاد وانتشرت ألوان من الشرك، ومن ثم سادت القوانين الوضعية

في معظم ديار المسلمين، ونخرت في مجتمعاتهم البدع الكثيرة وخاصة بدع الاعتقاد كالإرجاء والتصوف والغلو، وظهر الولاء لغير المسلمين عند أصحاب المدرسة العصرية الجديدة خاصة.

أخي القارىء الكريم:

إننا نقدم هذا البحث خلال زحمة العقائد المنحرفة، وهجوم الأفكار الشوهاء على معاقل أمتنا، ورغم عودة الجاهلية في بعض صورها وأشكالها، وانبهار كثير من المسلمين بكل غريب براق، إننا نعرض الإسلام - عقيدة وشريعة - صافياً من مصادره الأصلية، من الكتاب والسنة، وتراث السلف الصالح وعلمائه المخلصين.

نقدم الإسلام - سلوكاً وعبادة - ليكون زاداً لأجيالنا المؤمنة خلال طريقهم المضني الطويل... وحتى نصحح كثيراً من المفاهيم المنحرفة والبراقة، تحت اسم الإسلام شكلاً بلا مضمون عند كثير من المخدوعين بحضارة التيه والضياع..

والله نَسْأل أنْ يلهمنا الصواب، أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يرد المسلمين إلى دينهم الحق، وأن يبعد عن ديارهم كيد الخائنين وحقد الحاقدين، إنه سميع مجيب، والحمدلله رب العالمين.

مكة المكرمة ٢٢ رجب سنة ١٤١٤ هـ

محمد الناصر — **خولة درويش**

أبو أسامة — **أم أسامة**

الباب الأول

أديان العرب قبل البعثة النبوية

الفصل الأول: ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

الفصل الثاني : شيوع الوثنية في جزيرة العرب

الفصل الثالث: الحنفاء يتلمسون طريق الحق.

الفصل الرابع: اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب.

الفصل الخامس: أديان أخرى : كالصابئة والمجوسية وعبادة الكواكب.

أديان العرب قبل البعثة النبوية

تمهيد: كانت البشرية فى الأصل تدين بالتوحيد لله تعالى وكان الإسلام هو دينها الذى جبلت عليه «وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها على الإسلام»[1] فكلما اجتيلت عن ذلك بعث الله إليها رسولاً ، يدعوها إلى العودة إلى الإيمان، ويستحثها إليه.

وكانت جزيرة العرب في العصر الجاهلى مسرحاً لعدد من العقائد والأديان المختلفة، تلك التى شاعت في أقاليمها الواسعة.

وتعتبر الوثنية وعبادة الأصنام، من أبرز هذه الأديان، كما دان بعض العرب باليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة.

ويبدو للمتأمل في أديان العرب آنذاك أن بعضهم اعتنق تلك الأديان بالمعايشة أو المجاورة، إذ لم تكن أدياناً أصيلة عندهم.

فالعرب فى الأصل مؤمنون موحدون، كانوا على دين أبيهم اسماعيل وجدهم إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، كانوا على دين الحنيفية ، ديانة التوحيد، واستمروا على ذلك، إلى أن تحولوا إلى عبادة الأوثان ، وابتعدوا عن دين آبائهم وأجدادهم ، حتى أعادهم الإسلام إليه:

قال تعالى **﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾**[سورة الحج ٧٨]

كان العرب قد ضلوا الطريق، وغووا بعبادتهم للأصنام، عندما جلبها لهم عمرو ابن لحي الخزاعي فقد «اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام في عبادة الأوثان مع الله جل وعلا، وبدلوا ما كان الله بعث به إبراهيم خليله من الدين القويم، والصراط

١- البداية والنهاية: ابن كثير ١/١٠١، والمراد بالقرن: الجيل أو المدة.

والحديث رواه البخاري «انظر البداية والنهاية» طبعة دار الفكر بيروت / ١٩٧٨ م.

المستقيم، من توحيد عبادة الله وحده لا شريك له، وتحريم الشرك، وغيروا شعائر الحج ومعالم الدين بغير علم ولا برهان ولا دليل صحيح ولا ضعيف، واتبعوا في ذلك من كان قبلهم من الأمم المشركين وشابهوا قوم نوح، وكانوا أول من أشرك بالله وعبد الأصنام»[1]

وكان العرب رغم ذلك قد تمسك بعضهم بأشياء من أصلهم الموروث، وظلوا متمسكين ببقايا من عهد جدهم، وإذ «كانت الفترة ما بين إسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة»[2]

حيث انتشرت الوثنية وكثرت الأصنام، واختلطت هذه المفاهيم والعقائد بما وفد من تأثير بعض الديانات السماوية، وعبادة الكواكب، أو بقايا ديانة إبراهيم عليه السلام، حتى جاء الإسلام وكانت هذه هي معتقدات العرب وأديانهم وسوف نتحدث في هذا الباب عن هذه الأديان.. التى تركت لنا خليطاً من المفاهيم المضطربة، والعقائد المتباينة والتشريعات المختلفة.

ومن أبرز هذه الأديان:

١ـ ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

٢ـ الوثنية وعبادة الأصنام.

٣ـ الحنيفية والحنفاء في جزيرة العرب.

٤ـ اليهودية والنصرانية في بلاد العرب .

٥ـ أديان أخرى: كالصّابئة والمجوسية، وعبادة الكواكب.

١- البداية والنهاية: لابن كثير، ٢/ ١٩٠، طبعة دار الفكر بيروت.

٢- بلوغ الأرب: في معرفة أحوال العرب محمود شكري الالوسي، ط ٢ عمان، ١٤٠٤

الفصل الأول

ديانة إبراهيم واسماعيل
عليهما الصلاة والسلام[1]

ورث العرب منذ القديم دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، وهو دين حنيف، ذو منهج مستقل، ليس إلى اليهودية ولا إلى النصرانية، وذلك مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين﴾،[آل عمران :٦٧].

وكان إسماعيل على دين أبيه إبراهيم عليهما السلام، وكأنه امتداد له، وسارت القبائل العربية في تاريخها القديم على ما كان عليه إبراهيم وإسماعيل من توحيد للهواستقامة على الطريقة.

وخير ما يوضح لنا ذلك إجماع القبائل العربية على تقديس البيت الحرام، والحج إليه في كل عام، حيث كان إبراهيم هو الذى بنى البيت الحرام بأمر من الله سبحانه وتعالى، وهو الذى أعدّه للعبادة من صلاة وطواف بأمره تعالى، إذ يقول جل شأنه **﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾**[الحج :٢٦].

ثم نسيت القبائل كثيراً من شرائعها بعد أن طال العهد،وبعد أن أدخل عمرو بن لحي الخزاعي عبادة الأصنام إلى أرض العرب.

لذلك لم يبق للعرب قبل البعثة ، إلا أثارة من دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، هذه الأثارة هي التي حفظت لهم بعض الشرائع والمعتقدات وبعض المناسك والعبادات.

١- انظر : المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي : محمد محمود صيام رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى عام ١٤٠٢هـ

فمن المعتقدات: التى عرفها العرب أنهم كانوا لايسوون بالله غيره من المعبودات الأخرى.

يقول النابغة الذبيانى[1]:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة

وليس وراءَ الله للمرءِ مَذْهَبُ

ومن هذ المعتقدات: **الاستعانة بالله سبحانه وتعالي** كما كان يفعل عبد المطلب جد النبى ﷺ إذ يقول:[2] عُذْتُ بما عاذ به إبراهيمُ: مستقبل القبلة وهو قائمُ

ومنها معرفتهم أن الله لا يرد سائليه ولا يخذل مستنصريه، يقول عبيد بن الأبرص[3]:

من يسأل الناس يحرموه: وسائل الله لا يخيبُ

فمما لا شك فيه، أن القوم عرفوا هذه المعاني من بقية دين إبراهيم الذى ثبت عنه أنه قال حين أُلقي فى النار:

(حسبى الله ونعم الوكيل) [4]

ومما ورثه العرب كذلك من دين إبراهيم عليه السلام، اعترافهم بأن الله خالق السماوات والأرض، وأن علمه محيط بكل شيء، يتضح ذلك من قول ذي الإصبع العدوانى:[5]

الله يعلمني والله يعلمكُم والله يجزيكم عني ويجزيني

ويتضح أيضا من قول قيس بن الحدادية الخزاعي:[6]

١- ديوان النابغة الذبياني: تحقيق د. شكرى فيصل، دار الكتب بيروت ١٩٦٨

٢- المعرب للجواليقي: ص٦١، عن المعتقدات والقيم ص٧٥

٣- ديوان عبيد : ص٥١، ت: د.حسين نصار، ط الحلبى بمصر سنة ١٣٧٧هـ

٤- التوسل والوسيلة لابن تيمية: ص٣٥

٥- المفضلية رقم (٣١)، المفضل الضبي ، طبعة دار المعارف ت: أحمد شاكر وعبد السلام هارون.

٦- معجم الشعراء . . المرزباني، دار إحياء الكتب العربية - ١٩٦٠

فـقالت وعـيناها تفـيضـان عبـرة

بنَفْـسي بيّن لـي مـتـى أنت راجعُ

فـقلتُ لهـا والله مـا منْ مسـافـر

يحـيط بـعلم الله مـا اللـهُ صـانعُ

فمن أين أخذ الشعراء هذه المعاني وعـرفوها، إنْ لم تكن من قول إبراهيم فيما حكى عنه القـرآن الكريم. : ﴿وحاّجه قـومه قال أتحاجـوني في الله وقد هدان ولا أخـاف مـا تشـركـون به إلا أن يشـاء ربي شـيئـاً ، وسعَ ربي كل شيء علمـا أفـلا تتذكرون﴾[الأنعام: ٨٠]

وإذا انتقلنا إلى الملائكةومعرفة الجن والشيـاطين وجدنا شواهد من الشعر تؤكد ذلك: [(١)]

أما البعث والجزاء: والجنة والنار، فليس هناك شك في أنهـا معتقـدات موروثة عن إبراهيم وإسماعيل اللذين كانا على الحنيفية السمحة.

يقول ابن قـتيبـة في كتـابه الشعر والشـعراء، عن زهير بـن أبى سلمى، «وقد وردت هذا المعاني في شـعره): «وكان زهير يتـأله ويتعفف في شعـره ويدل شعره على إيمانه بالبـعث». ومن تحدث عن البـعث والحسـاب الأعشى، كـما ذكـر ابن حبيب، وذلك في قوله فيمن يمدح: [(٢)]

بأعظـمَ منه تقّـى فى الحســـــاب

إذا النّســـمَـاتُ نَفَــضنَ الغُــبـارا

«ولم يكن الإيمان بالبـعث والحساب مـقصـوراً على أولئك الشعـراء. وإنما كان أحد المعتقدات التى ورثها العرب عن إبراهيم وإسمـاعيل ، فحفظها أناس، ونسـيها آخرون، وانتدب الذين حفظوها للتذكير بها»[(٣)]

١- سنتعرض لذلك في الباب الثانى خلال الحديث عن المعتقدات مفصلاً.

٢- انظر للمحبر لابن حبـيب ص ٣٢٢، المكتب التجاري بيروت، وديوان الأعشى: ص ١٠٣

٣- المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلى: محمد محمود صيام ص ٧٨

من ذلك ما ذكره الشهرستـانى فى الملل والنحل، أن عبد المطلب بن هاشم كان «يأمر أولاده بترك الظلم والبغي،ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيآت الأمور»، وكان يقـول لهم فيما يقول: (والله إن وراء هذه الدار داراً يجزى فـيها المحسن بإحسانه، ويعاقب فيها المسيء بإساءته»[1]

هذا بعض ما كان للعرب من دين أبويهم إبراهيم وإسمـاعيل عليهما السلام في المعتقدات، فماذا كان قد بقي لهم فى:

الشرائع والمناسك والعبادات؟

بقي لهم الحج ومناسكه، فقد كان أول ما نزل على إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ يقول تعالى له:

﴿وأذن فى النـاس بالحج يأتوك رجـالاً، وعـلى كل ضـامـر يأتين مـن كل فج عميق﴾[سورة الحج : آية ٢٧].

ومن ثم نزلت الآيات الكـريمة على المسلمين من قـوله تعـالى: **﴿ وأتموا الحج والعمرة لله﴾**[البقرة:١٩٦]

وقوله تعالى: **﴿ ولله على الناس حج البيـت من استطاع إليه سبـيلا﴾**[آل عمران :٩٧].

لتوضح الصلة الوثيقـة بين الملتين، بل لتؤكد كونهما ملة واحـدة، وتلك قضية معروفة منذ قديم الزمان، يقول تعالى: **﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصـارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾**[سورة البقرة: ١٣٥]

ويقول جل وعلا: **﴿إن أولى الناس بإبراهيـم للذيـن اتبعـوه وهذا النبي والذين آمنوا، والله ولي المؤمنين﴾**[آل عمران: ٦٨]

ولذلك فقد ذكر الشهرستاني في الملل والنحل: أن النبوة حين انتهت لإبراهيم، اجتمع هو وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام «فرفعا قواعد البيت على مقتضى إشارة الوحى، مرعياً فيها جميـع المناسبات، التى بينها وبين البيت المعمور، وشرعا

١- الملل والنحل للشهرستاني: ص ٨٣ ـ ص ٨٤، طبع الحلبي بمصر سنة ١٣٨٧ :

المناسك والمشاعر. محفوظاً فيها جميع المناسبات التى بينها وبين الشرع الأخير»[1] وصدق الله العظيم إذ يقول فى كتابه العزيز:

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾[البقرة : ١٢٧، ١٢٨]

«إذن فإن ما كان لدى العرب في الجاهلية من شرائع وعبادات ومناسك لها صلة من قريب أو بعيد بالإسلام، فإن مرجعها إلى دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. . شأنها في ذلك شأن معتقداتهم في الله وملائكته ورسله.

ومن ذلك ألوان من الصوم والصلاة والزكاة ، على تفاوت بعيد البون، بين ما كان عندهم، وما هو موجود في الإسلام من هذه العبادات»[2]

وكان فى العرب أمور أخرى عرفها بعضهم وطبقها آخرون. . من ذلك قطع يد السارق، وتحريم أكل الميتة، وتحريم الخمر[3] ومن تلك الأمور كذلك ما كانوا يصنعُونه من سنن الفطرة بأنفسهم والتى جعلها الإسلام الحنيف من سننه.

سنن الفطرة: قال محمد بن حبيب:[4]

«وكانت العرب دون غيرها من الأمم، تصنع عشرة أشياء ، منها في الرأس خمسة وهي : المضمضة والاستنشاق والسواك والفرْق وقص الشارب.

وفى الجسد خمسة وهى: الختان وحلق العانة، ونتف الإبط ، وتقليم الأظافر والاستنجاء، خصت بها العرب دون سائر الأمم».

وقد ذهب العلماء إلى أن سنن الفطرة هذه، هى ما ابتلى الله به إبراهيم عليه السلام.

١ـ الملل والنحل للشهرستاني، طبع الحلبي بمصر ١٣٨٧ هـ

٢ـ المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي: ص ٨١، وسوف نتحدث عن هذه الشعائر في فصل العبادات عند أهل الجاهلية

٣ـ سنفصل ذلك في فصل قادم إن شاء الله «التشريع عند أهل الجاهلية».

٤ ـ المحبر لابن حبيب: ص ٣٢٩، طبعة دار الأمان الجديدة - ـ بيروت

فقد ذكر الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات﴾ [سورة البقرة : ١٢٤]

قال: «ابتلاه الله بالطهارة ، خمس في الرأس، وخمس في الجسد» ثم ذكر الطبري تلك العشرة التى ذكرها ابن حبيب[١]

وقد وردت سنن الفطرة هذه في الأحاديث الصحيحة. قال رسول الله ﷺ : «عشر من الفطرة: قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار ، وغسل البراجم ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء. . والمضمضة»[٢].

وفي الصحيح عن أبى هريرة: «الفطرة خمس : الختان والاستحداد وتقليم الأظافر ونتف الإبط وقص الشارب [٣] وكان الختان قد شاع وعرف بين العرب، وكانوا يعيرون ويعيبون من لم يفعله، وطعام الختان ووليمته كان يسمى عندهم الأعذار والعذار.

أما السواك فقد بقي من هذه السنن الماضية، وكثر الحديث عنه عند الجاهليين وخاصة خلال وصف ثغور النساء وكيف كن يجلينها بأعواد السواك. .

يقول المخبل السعدي في وصفه للقينة: إنها تجري السواك على أسنانها المفلجة مع عفتها:

تجري السُّواك على غُرٍّ مفلَّجة
لم يغرها دنسٌ تحت الجلابيب[٤]

١ـ انظر تفسير الطبري: ٩/٣ طبع دار المعارف.

٢ ـ رواه مسلم بشرح النووى: كتاب الطهارة، جـ ٣ ص ١٤٧ طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الثانية والبراجم: العقد في ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ وانتقاص الماء يعنى الاستنجاءكما فسره وكيع.

٣ـ المصدر السابق: مسلم بشرح النووى ١٤٦/٣ والاستحداد: حلق شعر العانة وإزالته.

٤ ـ انظر المفضليات: ص ١٢٠، وأدب الحنيفية: حبيب بن حنش الزهرانى في سنن الفطرة ص ٢٦١ وما بعدها ومعنى الغر* البيضاء يعني الثنايا، والمفلجة: ذوات الفلج وهو تباعد مابينها ـ لم يغرها: لم يلصق بها، يريد أنها عفيفة.

وتشير المصادر إلى أن الغسل من الجنابة كان معروفاً لدى عرب الجاهلية، ولا شك أنه من بقايا شعائر الديانة الحنيفية.

قال الزجاجي: «الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن»[1]

وجاء عن أبي سفيان: أنه لما نجا بقافلته، وما كان لقريش في معركة بدر من الفشل والفجيعة، حلف الا يقرب رأسه ماءُ جنابة حتى يغزو محمداًﷺ[2] هذه الأمور لم تطمسْ نهائيا بين عرب الجاهلية، بل بقي بعضها واضحاً كالختان والسواك وإعفاء اللحى، وما سوى تلك من هذه السنن كانت العرب تعمل بها، وتحافظ عليها، وإن اعترى بعضها شيء من التحريف بزيادة أو نقصان، فلما جاء الإسلام أقر ذلك[3]

تقديس العرب للبيت الحرام [4]: هو أبرز ما ورثه العرب من ديانة التوحيد الحنيفية، إضافة إلى حجهم إليه على مر العصور.

يقول ابن الكلبي: «وهم بعدُ يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام»[5]

من ذلك ما يشير إليه قول عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ :[6]

يارِبِّ لا تجعل لهم سبيلاً على بناء لم يزل مأهولا
قد كان بانيه لكم خليلاً

١- لسان العرب مادة «حنف» :٩/ ٨٥
٢- انظر غزوة ذات السويق في سيرة ابن هشام : ٢/ ٤٤
٣- انظر المحبر لابن حبيب: ص ٣٢٩، بلوغ الأرب ٢/ ٢٨٧
٤-انظر كتاب البداية والنهاية لابن كثير :٢/ ١٨٧، والمعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي: ص٨٧-٩١
٥- كتاب الأصنام : هشام بن محمد بن السائب الكلبي: نسخةمصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٤م، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة سنة ١٩٦٥م.
٦- الأضداد لابن الأنباري ص١٨٣

فهـو يضرع إلى الله ألا يمكن أصحـاب الفيل من البيـت الحرام الذى بناه خليل الرحمن، وأن البيت لازال مأهولاً ومعموراً.

وقد ولي البيت بعد اسمـاعيل ابنه نابت، ولما مات غلبت جرهم «أخواله» على ولاية البيت وفي ذلك يقول عمرو بن مضاض الجرهمي(١):

وكنا ولاة البيت بعد نابت

نطوف بذاك البيت والخير ظاهر

ثم إن جرهماً لم يراعوا حرمة مكة فأجلتهم عنها خزاعة

وفي ذلك يقول عمرو بن الحارث بن عمرو الخزاعي(٢)

ونحن ولينا البيت من بعد جرهم

لنمنعه من كل باغ وآثم

ونَقْبَلُ ما يُهدى له لانَمسهُ

نخاف عقاب الله عند المحارم

وظل البيت في ولاية خزاعـة حتى حولّها قصيّ إلـى قريش، وظلت ولايته في قريش حـتى جاء الله بالإسـلام. ومما تقدم يتـبين لنا أن القبـائل العربيـة ظلت فى الجاهلـية تتناقل حب البـيت الحرام وتتـوارث تقديسـه والحج إليه، بقيـة من دين إبراهيم واسمـاعيل عليهمـا السلام، بل ظلت تحتـفظ بأمور كثيـرة من معتقـداتها الدينية بقية من ذلك الدين.

وسوف نلاحظ أنه خلال ثلاثة آلاف سنة ما بين اسماعـيل والبعثة النبوية ، قد تناست العرب كثيراً من شـعائر دينها ومعتقداتها، واختلطت البقـية الباقية من دينها بشعائر الوثنيـة، وتقديس الأصنام ، وعبادة الأوثان، مما سنفـصله في الباب القادم إن شاء الله تعالى.

١-شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص٢٥٤

٢- معجم الشعراء: المرزباني ص٥٧، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠م

الفصل الثاني

شيوع الوثنية في جزيرة العرب

١ -الأنصاب والأوثان والأصنـــــــــام.

٢ـ كيف دخلت عبادة الأصنام بلاد العرب.

٣- الأصنام المشهورة عند العـــــــرب.

٤ ـ ملاحظات حول وثنية العـــــــرب.

١ - الأنصابُ والأوثان والأصنام:

عندما نسي العرب ملة إبراهيم عليه السلام، شاعت الوثنية بينهم، وقد تغلغلت فيهم رويداً رويداً، حتى صارت عبادة الأصنام أشهر أديانهم ، وكأنها هى المعنية عند ذكر دين العرب بصفة عامة، ويرجع ذلك إلى كثر تها وسعة انتشارها.

وكانت قد امتلأت بها البيوت والمعابد، وهي على أنواع، فمنها الأوثان ومنها الأنصاب والأصنام، وقد «ازدحمت عند الكعبة حتى كانت على ما قيل في جوف الكعبة وفي فنائها ثلاثمائة وستون صنماً»[١]

وقد بلغ من عبادتهم هذه أن عبدوا الأحجار، وفاضلوا بينها، حتى جاء في الصحيح أنهم قالوا: «كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً هو خيراً منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حُثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به»[٢]

فما الأنصاب هذه ؟ وما تلك الأصنام التي استهوت هؤلاء الناس، وأضلتهم ضلالاً بعيداً؟!

الأنصاب والأوثان:[٣]

يرى بعضهم أن الأنصاب هي الحجارة التي كان أهل الجاهلية ينصبونها ويطوفون حولها ويذبحون عندها.

وأصل الأنصاب عندهم: «أنه كان لايظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة لمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به، كطوافهم بالكعبة، تيمنا منهم بها، وصبابة بالحرم وحباً له»[٤].

١- فتح البارى شرح البخارى : ٨/ ١٥/١٦، المكتبة السلفية ـ القاهرة
٢- السابق : ٨/ ٩٠
٣- انظر رسالة المعتقدات والقيم: ص١٩٤-١٩٨
٤ - الأصنام لابن الكلبى: صـ ٦

أما الوثن: فهو كل ماصنع من حجر أو خشب أو معدن أو ما أشبه ذلك بقصد العبادة والتقديس[١] وقد ذكر الشعراء الأنصاب والأوثان في شعرهم. من ذلك قول الأعشى[٢]:

وذا النصُب المنصوب لا تنسكنه

ولا تعبد الأوثان والله فاعبُدا

أى لا تأته ولا تقدسه ولا تذبح عنده.

وقول طرفة بن العبد[٣]:

إنى وجدّك ماهجوتُك والأنصاب يسفح بينهّن دمُ

فهو يقسم لعمرو بن هند، بأنه ماهجاه كما بلغه الوشاة، ويؤكد قسمه بالأنصاب التي تذبح عندها الذبائح، لأنه يقسم بما أجمع العرب على تقديسه في ذلك الزمان.

أما الأصنام: فواحدها «صنم» وهو فيما ذكر ابن فارس: شيء يتخذ من خشب أو فضة أو نحاس، فيعبد»[٤].

وقال ابن الكلبي معرفاً بالأصنام: «وكانت للعرب حجارة غبر منصوبة يطوفون بها ويعترون عندها، يسمونها الأصنام[٥].

ويرى العلماء: أن الأصنام هي كل مايعبد من دون الله[٦].

وقد ترادفت الكلمتان في كثير من الأحيان، أى الأصنام والأوثان، فعنيتا كل

١- لسان العرب: مادة (وثن).

٢ - ديوان الأعشى: ص ٤٦ ط دار بيروت سنة ١٩٨٣ م

٣ - الديوان: صـ ١٠٦ طبعة دمشق

٤ - ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: ٣/ ٣١٤ «صنم»

٥ - كتاب الأصنام لابن الكلبي: ص ٤٢ ويعترون: أى يذبحون عندها

٦- اللسان: مادة (نصب).

مايعبد مـن دون الله، وقد يعنى بالـصنم كل ماله صورة، وبالـوثن أي مقدس بلا صورة[1].

وقد ذُكرت الأصنام في الشعر الجاهلي، من ذلك قول عنترة:

تجللتْنى إذا أهوى العصا قِبَلى

كأنهما صَنَمٌ يُعتارُ معكـــوف

يشيـر الشاعر إلى أن امرأة أبـيه كانت قد ألقـت بنفسهـا عليه تحميـه من ضرب والده، مشبها إياها بالصنم[2].

١ - اللسان: «صنم - وثن»

٢ - ديوان عنترة: تقديم وشرح محمد عبدالمنعم الخفاجى، مكتبة القاهرة ١٩٦٩م

٢- كيف دخلت عبادة الأصنام بلاد العرب

إنه لمن المحير حقاً أن نرى طغيان الوثنية على عقول الناس في جزيرة العرب، هذه الحجارة التي لاتضر ولا تنفع كيف سيطرت على أفهامهم؟ كيف قدسوها وعبدوها بل كيف دخلت إليهم؟ ومن أين جاءتهم؟!

هناك روايات متعددة تتحدث عن أسباب عبادة العرب للأصنام، سنستعرضها بإيجاز.

الرواية الأولى: رواية ابن الكلبي في كتابه الأصنام فهو يرى أن «نسل إسماعيل بن ابراهيم لما تكاثر في مكة حتى ضاقت بهم، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، أخرج بعضهم بعضاً وتفسحوا في البلاد والتماس المعاش.

وكان الذى سلخ بهم الى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لايظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمنا منهم بها وصبابة بالحرم وحبا له. وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. ثم سلخ ذلك بهم الى أن عبد واما استحبوا ونسوا ماكانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره. فعبدوا الأوثان، وصاروا الى ماكانت عليه الأمم من قبلهم....»(١)

الرواية الثانية: وهذه الرواية ترى أن الناس لم يتعبدوا في القديم وبادىء ذى بدء للأصنام، إنما صوروها ونحتوها لتكون صورة تذكرهم بالآلهة، والأشخاص الصالحين، فلما مضى عهد طويل عليها نسي الناس أصلها ولم يعرفوا أمرها، فاتخذوها أصناما وعبدوها من دون الله (٢).

---

١ - كتاب الأصنام لابن الكلبى: ص ٦: وانظر البداية والنهاية لابن كثير: ٢/ ١٨٨

٢ - الروض الأنف: ١/ ٦٤

وذلك كالذى رووه عن الأصنام: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً.

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم. فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: «إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم»[1].

الرواية الثالثة: ينقلها ابن هشام، على أن عمرو بن لحي الخزاعي كان قد خرج من مكة الى الشام في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق، رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ماهذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنما، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنما يقال له: هُبل، فقدم به مكة، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[2]

ثم انتشرت عبادة الأصنام في العرب، ويبدو أن الذى ساعد على استجابة العرب لهذا الأمر، أن عمرو بن لحي كان يتمتع بمكانة رفيعة في مكة، اذ كان حاكمها وولي بيتها العتيق، يضاف الى ذلك ماكان يقوم به من إكرام الحجيج، فربما ذبح أيام وفود الحجيج عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة، ويطعم العرب الحَيس ويلت لهم السويق، مما جعل قوله وفعله منهم كالشرع المتبع لشرفه عندهم وكرمه عليهم[3].

أورد البخاري في سنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال" إنَّ أول من سيّب السوائب وعبد الأصنام، أبو خزاعة، عمرو بن عامر، وإنى رأيته يجر أمعاءه في النار»[4]

---

١ - البداية والنهاية لابن كثير: ١/٥ ١٠ ـ ١٠٦ ط دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ

٢ - السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٧٧

٣ - البداية والنهاية: ٢/ ١٨٧ لابن كثير

٤ - البداية والنهاية: ٢/ ٨٨ وقد تفرد به أحمد من هذا الوجه

والواضح أن عمـرو بن لحي كان قد أبدع للعـرب أشياء في الدين غيـر بها دين الخليل فاتبعوه بذلك، وضلوا ضلالا بعيـدا، ويبدو أن القوم كان لديهم الاستعداد القوي لهـذا الشرك، وكان عمرو بـن لحي من أولئك الذين كان لهم دور بارز في عبادة العرب للأصنام حتى غلبت هذه العبادة وانمحتْ الحنيفية منهم الا لماما، حتى ضج بعض العقلاء يستنكرون ذلك.

قال سخن بن خلف الجرهمي[1]:

ياعمرو إنك قد أحدثت آلهة

شتى بمكة حول البيت أنصاباً

وكان للبيت ربٌ واحدٌ أبداً

فقد جعلت له في الناس أربابا

لتعرفنّ بأن الله في مهـــل

سيصطفي دونكم للبيت حجاباً

وأيا كـانت الطريقة التي دخلت عـبادة الأصنام فـيهـا على العـرب، فقـد جاء الإسلام، والوثنية طاغـية، والأصنام منتشرة في أرجاء الجـزيرة، ناهيك عن البيت الحرام، وعن الأصنام الرابضة في جنباته.

١ - مروج الذهب: ٢/ ٢٩ عن المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٨٠ د. جواد علي

٣ ـ الأصنام المشهورة عند العرب

انتشرت عبادة الأصنام في جزيرة العرب انتشاراً كبيراً، وتعلق بها عبادها ظناً منهم أنها تقربهم إلى الله زلفى، فطافوا بها، وتضرعوا عندها ونحروا إليها.

يقول ابن الكلبي: «واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتا، ومنهم من اتخذ صنما، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت «للعبادة» نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت.. فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا، أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاثة أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه، فكانوا ينحرون ويذبحون عندها، ويتقربون إليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها، يحجون ويعتمرون إليها...»[١]

وسوف نستعرض أشهر هذه الأصنام، مستنيرين بروايات التاريخ وكتب (السيرة) ودواوين الشعر الجاهلي موضحين مناطق وجودها ومدى تقديس أهل الجاهلية لها، وما قيل فيها من أشعاره.

ومن أبرزها: هبل واللات والعزى ومناة، ثم إساف ونائلة، وأصنام قوم نوح: ودو سواع ويغوث ويعوق ونسر، وأصنام أخرى متفرقة في أنحاء الجزيرة العربية.

هُبَل[٢] كان أعظم أصنامهم، كان على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى، ومن عقيق أحمر أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من ذهب.

كان موضعه في جوف الكعبة، قدامه سبعة أقداح، وعنده ضرب عبدالمطلب بالقداح على ابنه عبدالله، وهبل هو الذى كان يناديه أبوسفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد: اعل هبل، فقال رسول الله ﷺ: الله أعلى وأجلّ.

---

١ - الأصنام لابن الكلبي: ص ٣٣، والاستهتار يعنى الولوع بالشيء والإفراط فيه

٢ - الأصنام لابن الكلبي: ص ٢٨، وبلوغ الأرب: ٢/ ٢٠٥

كان هذا الصنم لبني بكر ومالك وملكان وسائر كنانة[1] وهو من الأصنام التي تعظمها قريش، وفيه يقول زيد بن عمرو بن نفيل[2]: (وهو من الحنفاء)

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني غَنْم أزور

ولا هبلا أزور وكان رباً ... لنا في الدهر إذ حلمي صغير

اللات[3] كانت في الطائف وهي أحدث من صنم مناة، كانت صخرة مربعة وسدنتها من ثقيف، وكانوا قد بنوا عليها بناء، وكانت قريش وجميع العرب تقدسها.

قال أوس بن حجر يحلف فيها[4]

وباللات والعزى ومَنْ دان دينها

وبالله إن الله منهن أكبرُ

ولها يقول عمرو بن الجُعَيْد:

فإني وتركي وصل كأس لكالذي ... تبرأ من لاتٍ وكان يدينها

ولم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة رضي الله عنه فهدمها وحرقها بالنار.

وفي ذلك قال شداد بن عارض الجشمي حين هدمت وحرقت[5]

إن التي حرّقت بالنار فاشتعلتْ

ولم تقاتل لدى أحجارها، هدَرُ

---

١ - المحبر لابن بن حبيب: ص ٣١٨

٢ - السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٢٦ «مع بعض الاختلاف»

٣ - انظر الأصنام لابن الكلبي: ص ١٦، ١٧، وبلوغ الأدب: ٢/ ٢٠٣

٤ - الديوان: ص ٣٦، تحقيق د. محمد يوسف نجم - بيروت سنة ١٣٨٧ هـ

٥ - الأصنام: صـ ١٧، والإصابة: رقم ٣٨٥٢.

إنَّ الرسول متى ينزل بساحتكم

يظعن وليس بها من أهلها بَشرُ

ويظهر من بيت ينسب الى كعب بـن مالك الأنصارى رضي الله عنه، أن الناس كانوا يعلقون القلائد والسيوف على تلك الأصنام وهو قوله:

ونسى اللات والعزى وودا ونسلبها القلائد والسيوفا

وباللات كانت تسمي العرب «زيد اللات» و«تيم اللات»

العزّى(١)وهى أحدث من اللات ومناة، وقـد سمت بها العرب. فعـبد العزى ابن كعب من أقدم ماسمت به العرب.

كانت العزى بوادي نخلة، وتعتبر من أعظم الأصنام عند قريش، كانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح، وكانت قـد حمت لها شِعْبا من وادي حُراض يضاهون به حرم الكعبة، وكان لها منحر ينحرون فيه هداياهم.

يقال له: الغَبْغَب، وقد ذكره نهيكة الفَزارى لعامر بن الطفيل عندما قال(٢)

ياعام: لو قدرت عليك رماحُنا

والراقصاتِ الى منى فالغبْغَبِ

لتقيت بالوجعاء طعنة فاتــك

مُرّانَ أوْ لثويْتَ غيرَ محـسّب

وكان قـد ذكرها زيد بن عمـرو بن نفيل، وقـد ترك عبادتهـا وعبادة غـيرها من الأصنام.

---

١ - انظر الأصنام لابن الكلبى ص ١٧ ـ ٢٧، بلوغ الأرب ٢/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤، السـيرة النبوية لابن هشـام الجزء الأول/ ص ٨٣ ـ ٨٤.

٢ - البيت الأول في كـتاب الأصنام، والثـانى في لسان العرب. ومـعنى الوجعاء: الأست: يقـول: لو طعنتك لوليتني دبرك واتقيت طعنتي؛ بوجعائك، ولثويت هالكا غير مكرم ولا موسد ولا مكفن.

وكان سدنتها بنو شيبان.. من بني سُليم، وكان آخر سدنتها منهم دُبَيَّة بن حَرمي السُّلمي.

فلم تزل العزى، كذلك حتى بعث الله نبيه محمداً ﷺ فعابها وعاب غيرها من الأصنام، ونهاهم عن عبادتها، ونزل القرآن فيها، واشتد ذلك على قريش.

فلما كان عام الفتح دعا النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه، فقال: «انطلق الى شجرة ببطن نخلة فاعضدها» فانطلق وأخذ سادنها دبية وقتله.

وكان من أخبار العزى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أمر خالد بن الوليد بعضد السمُرات الثلاث. فلما عضدها ووصل الثالثة، خرجت حبشية نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها تصرف بأنيابها، وخلفها دبية السادن، فلما نظر الى خالد قال:

أعُزّى شُدى شدة لأتكَذّبي
على خالد! ألقي الخمار وشمّري
فإنك إلا تقتلي اليوم خالداً
تبوئي بذلٍ عاجل وتنصّري

فقال خالد رضي الله عنه:

ياعزُّ كفرانك لا سبحانك!
إني رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها. وعضد الشجرة، وقتل دبيّة السادن.

ثم أتى النبي ﷺ فأخبره الخبر فقال عليه الصلاة والسلام: «تلك العزى ولا تعبد أبداً»(١)

١ - البداية والنهاية لابن كثير: جـ ٤/ ٣١٦

قال ابن الكلبي: «ولم تكن قريش بمكة، ومن أقام بها من العرب، يعظمون شيئا من الأصنام إعظامهم العزى ثم اللات ومناة».

مناة [1]: تعتبر من أقدم الأصنام عند العرب، كان هذا الصنم منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقُدَيْد بين المدينة ومكة.

وكانت العرب جميعاً تعظم مناة، وتذبح حولها وتسمي باسمها: كعبد مناة وزيد مناة.

وكانت الأوس والخزرج، ومن ينزل المدينة ومكة من أكثر العرب تعظيماً لها، فقد كان هؤلاء يحجون، ويقفون مع الناس المواقف كلها، لا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوه فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده، لايرون لحجهم تماماً الا بذلك.

وفي إعظام الأوس والخزرج لمناة يقول عبدالعزى بن وديعة المزني:

إني حلفت يمين صدق برّة

بمناة عند محلّ آل الخزرج

وكانت العرب في الجاهلية تسمي الأوس والخزرج: الخزرج «ولذلك قال: عند محل آل الخزرج. وقد ذكر هذا الصنم مع غيره من أصنام الجاهلية في القرآن الكريم على سبيل التبكيت والتقريع، قال تعالى ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى**﴾ [سورة النجم: ١٩]

وكانت مناة لقبائل هذيل وخزاعة كذلك، إضافة الى أن قريشاً وكافة العرب كانت تعظمها، حتى إذا كان الفتح وقد خرج رسول الله ﷺ من المدينة عام ثمان من الهجرة بعث عليا رضي الله عنه الى مناة وتعهد بأخذ ما كان لها.

إساف ونائلة: كانا صنمين حول الكعبة، عبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب.

---

١ - انظر كتاب الأصنام لابن الكلبي: صـ ١٣ ـ ١٥

وهناك قصص كثيرة تزعم أنهما كانا رجلاً وامـرأة وقد فعلا ما استحقا عليه من العقاب الشديد فمسخا حجرين، ثم وضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها(١)

ونقل ابن اسـحق بسنده عن عمـرة بنت عبـدالرحمن بن سـعد بن زرارة أنـها قالت: سمعت عـائشة رضي الله عنها تقول: «مازلنا نسمـع أن إسافا ونائلة، كانا رجلا وامرأة من جرهم، أحدثا في الكعبة، فمـسخهما الله تعالى حجرين(٢) وكان إساف بالصفا، ونائلة بالمروة»(٣).

ويظهر أن قـريشاً كانت تعظم هذين الصنمين مـعاً، فها هو أبو طالب يذكـرهما يوم تحالفت قريش على بني هاشم في أمر النبي ﷺ ويقول(٤)

وأحضـرتُ عند البيت رهطي ومعـشري
وأمـــسكـت من أثوابه بالـوصـــائل

وحـــيث ينيخ الأشـــعـــرون ركـــابهم
بمُـفْضَى السـيول من إسـاف ونائل

أصنام قوم نوح(٥):

وهى الأصنام التي كان يعبدها قوم نوح عليه السلام، قال تعالى: «قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا ملة من لم يزده مـاله وولده الا خسارا، ومكروا مكراً كبارا، وقـالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرُنَّ وداً ولا سُـواعـاً ولا يغوث ويعـوق ونسراً، وقـد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً».

---

١ ـ الأصنام لابن الكلبي ص ٢٩
٢ ـ السيرة بن هشام: ١/ ٨٣
٣ ـ جمهرة انساب العرب لابن حزم ص ٤٩٢، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١
٤ ـ انظر تاج العروس: ٦/ ٤٠ «مادة أسف» والسيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٨٢ طبعة البابي الحلبي بمصر
٥ ـ انظر البداية والنهاية: ٢/ ١٩١، والأصنام: صـ ٩ ـ ١٢

وفي الأصل كان هؤلاء قوماً صالحين بين آدم ونوح فلما ماتوا جاء أناس يقتدون بأتباعهم فصوروهـم، ليتذكروهم وحتى يتشوفوا الى العبـادة، فكان ذلك سبباً في نسيان الأصل لهذه الأسماء، وعبادة صورهم ثم الأصنام التي تحمل أسماءهم.

وقـد تسربت عـبـادة هذه الأصنام الى العـرب بعد أن نسـوا دين ابراهيم عليـه السلام.

فاتخذت قبيلة كلب ودّاً بدومة الجندل، واتخـذت هذيل بن مدركة سواعاً وكان برهاط من أرض ينبع وفي ذلك يقول الشاعر:[1]

تراهم عند قَيلهم عـكـوفـــــاً　　　كما عكفت هذيلُ على سُـواع

وعبد أهل جُرش يغوث فقال الشاعر:

وسـار بـنا يغـوثُ الـى مُـرادٍ　　　فناجـــزناهم قـــبل الصـبـــاح

وفي صنم ودّ يقول الشاعر:

حياك ودٌ فـإنا لايحـــــل لنا　　　لهو النساء وإن الدين قـد عَزمَا

واتخـذت قبيلـة خَيْوان يعـوق «وهي بطن من همـدْان» واتخذت حـمير نـسراً فعبدوه في ديارهم.

ذو الخَلصَة[2]:

وكان مروة بيضاء منقوشاً عليها كهيئة التاج، موضعه في تبالة بين مكة واليمن، وممن كان يعظمها ويهدي اليها قبائل خثعم وبجيلة وأزد السراة.

قال شاعرهم:

لو كنت ياذا الخلص الموتـورا　　　مثلي وكـان شـيخـك المقبـورا

لـم تنه عن قتل العداة زورا

---

١ - تاج العروس: (مادة ساع)

٢ - انظر: الأصنام لابن الكلبي ص ٣٤ ـ ٣٥، وبلوغ الأرب، ٢/ ٢٠٧، ولسان العرب: ٧/ ٢٩ «خلص».

وكان أبوه قد قتل فأراد أن يطلب بثأره، وأتى هذا الصنم واستقسم بالأزلام عنده، فخرج السهم ينهاه عن ذلك، فقال هذا الشعر. ومن الناس من ينحلها امرأ القيس الكندي.

وفي ذي الخلصة يقول خداش بن زهير العامري لعثعث بن وخشي الخثعمي في عهد كان بينهما، فغدر عثعث:

وذكرتـه بالله بيني وبينـه ... ومـا بيننا من مدة لو تذكرا

وبالمروة البيضاء يوم تبالة ... ومحبسة النعمان حيث تنصرا

وهنالك روايات تزعم أن ذا الخلصة هو «الكعبة اليمانية» لخثعم، ويبدو أن ذا الخلصة كان بيتاً وكان يدعى الكعبة أيضا، وكان فيه صنم يدعى «الخلصة» لدوس وخثعم وبجيلة وغيرهم.

ولما فتح الرسول ﷺ مكة وأسلمت العرب، ووفدت عليه وفودها، قدم عليه جرير بن عبدالله مسلماً فقال له: ياجرير ألا تكفيني ذا الخلصة؟ فقال: بلى!

فوجهه اليه. . وقاتلت دونه خثعم وباهلة وقتل من سدنته من باهلة يومئذ مائة رجل، وأكثر القتل كان في خثعم، حيث قتل الصحابي الجليل رضي الله عنه منهم مائتين، وهزمهم وهدم بنيان ذي الخلصة، وأضرم فيه النار فاحترق.

وذكر رسول الله ﷺ ذا الخلصة طاغية دوس، وبين أن عبادة الناس له ستكون من علامات الساعة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لاتقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة، وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية»[1]

سَعْد:[2]

وهو صنم لمالك ومِلْكان ابني كنانة وهو عبارة عن صخرة طويلة، كانت بساحل

---

١ - روه البخاري: ٨/ ١٠٠ في الفتن، باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان، ومسلم برقم/ ٢٩٠٦ في الفتن، باب لاتقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة.

٢ - انظر الأصنام: ص ٣٧، والبداية والنهاية: ٢/ ١٩١

جدة ومن طرائف مـايروى حول هذا الصنم، أن رجـلاً من عباده أقـبل بإبل له، ليوقفهـا عليه ويتبرك في زعمه به، فلمـا أدناها من الصنم نفرت منه الإبل، وكان مهـراق عليـه الدماء، فذهـبت في كل وجه وتفـرقت عليه وأسف الرجل فـتناول حجـراً فرماه به، وقـال: «لا بارك الله فيـه إلهاً، أنفرت علي إبـلي» ثم خرج في طلبها فلما اجتمعت له قال:

أتينا إلى ســعـد ليـجـمع شـــملنا

فـشتـتنا سعـدٌ فـلا نحن من سعـد

وهل سعدٌ الا صخرةٌ بتنوفةٍ: من الأرض لايدُعى لغي ولا رشد

ومن الأصنام الشهيرة كذلك:

بَعْل: قال تعالى: «أتدَعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين» الصافات: ١٢٥.

قال الأزهرى[١]: قـيل أن بعلاً كـان صنماً من ذهـب يعبـدونه وجاء في لســان العرب[٢]: أن بعلا كان لقوم يونس وقيل بل كان لقوم إلياس.

ومن أصنامهم المعروفة ذو الكعَبات:

كان بيتاً لربيعة يطوفون به ويعظمونه، ويصدرون إليه من حجهم[٣].

وذكر العلماء أن ذلـك البيت كان بسنداد من أرض بين الكوفة والبـصرة، وكان لبكر وتغلب ابنى وائل بن ربيعة[٤] وفيه يقول الأسود بن يعفر النهشلي[٥]

بين الخورنق والسدير وبارق: والبيت ذى الكعبات من سنداد

هذه نماذج من أصنام العرب، وهى كـثيرة، ويكفي أن نعلم أنه لما فـتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمئة وستـين صنماً، جعل يطعن بسية قوسه في وجوههـا وعيونها وهي تتـساقط على رؤوسها، ثم أمـر بها فأخرجت من المـسجد وحرقت[٦].

---

١ - تهذيب اللغة: ٢/ ٤١٢،

٢ - لسان العرب: مادة (بعل)

٣ - اللسان: «كعب»

٤ - الأصنام لابن الكلبى: ص ٤٥

٥ - السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٨٨

٦ - بلوغ الأرب: ٢/ ٢١١.

٤ ـ ملاحظات حول الوثنية عند العرب

نلاحظ من خلال دراستنا لعبادة العرب للأصنام، وتقديسهم إياها، أن هنالك خلطاً عجيباً بين القيم والتصورات المتناقضة، ولعلنا نوجز ذلك في الملاحظات التالية:

١ ـ يتضح من خلال مواقفهم، أنهم كانوا يعبدون الأصنام حتى تقربهم إلى الله زلفى، وهم يزعمون أنهم ليسوا أهلاً ولا ذوي قدرة على عبادة الله مباشرة.

وذلك مانطقت به أشعارهم، وما أشارت إليه آيات من كتاب الله الكريم.

فقد كان أهل الجاهلية يؤمنون بأن الله جل وعلا، هو رب السماوات والأرض، وأنه هو خالقها، وهو الضار والنافع وهو الرازق والمعطي[1].

قال تعالى يصور حجتهم في عبادة الأصنام: **﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾** [سورة الزمر/ ٣].

وقال تعالى: **﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض، ليقولون الله﴾**[لقمان/ ٢٥]

وأنهم يفعلون مايفعلون، من أجل التقرب إلى الله والتشفع بالأوثان عنده، ليس إلا.

فالأصنام هي الأرباب لديهم، وهي التي تشفع لهم عند الله كما يزعمون.

قال تعالى: **﴿ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾** [يونس/ ١٨].

٢ ـ ولعل أبرز مايميز الشرك الجاهلي هو هذا الاعتقاد البسيط الساذج المتمثل في عبادة حجارة لاتضر ولا تنفع، والسذاجة بنت الجهل، وهذا يحمل في طياته الكثير من مظاهر الميل إلى تصديق الخرافة والأسطورة.

---

١ - سنفصل الحديث في هذا الموضوع في الباب الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

لقـد كانت عـقيـدتهم في أوثانهم لاتقـوم على أساس واضح واع، وإنما كـانت مجـرد عقيدة بدائيـة، تنسجم إلى حد بعـيد مع حياة احـاهلى البعيـدة عن العمق والشمول[1].

وكان هذا الاعتقاد الساذج البسيط، يتـمثل احياناً بأنه مجرد نزوة عابرة، تتحكم بها المصلحة ويفرضه الواقع ويمليه التعصب الشديد، لما كان عليه الآباء والأجداد.

٣ ـ ولئن شاعت عبادة الأصنام عند العرب قبل البـعثة فينبغى أن نسجل ان هذا الذيوع لم يكن عمـيقاً شاملاً بين القـوم بدليل أنا وجدنا عددا مى حـالات التمرد على هذه الآلهـة المزعـومة، لأنهـا سـجلت عجـزا وقـصورا يـدعو الى ازدرائهـا والسخرية منها.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك: قصة الصنم (سـعد) الذى ضربه صاحب الإبل عندما نفرت منه وقوله:

وهل سـعــد الا صـخـرة بتـنوفـة

من الأرض لايدعى لـغي ولا رشـد

وما حـصل من استشارة امـرىء القيس لذى الخلصة عندمـا أراد أن يطلب بثأر أبيه، وخرج السهم من الأزلام ينهاه عن ذلك فقال:

لـو كنـت ياذا الخـلَـص الموتـورا مـثلي وكان شـيـخك المقبـورا

لم تنه عن قتل العداة زورا[2]

وأي شيء أدل على الاستخفاف بـالوثنية من أن يأكل الناس إلههم الذى صنعوه بأيديهم؟ ذلك أن بني حنيفة اتخـذوا صنما من الحَيْس[3] فعبدوه دهراً طويلا، ثم أ

١ - انظر الشرك الجاهلي وآلهـة العرب المعبودة قبل الاسلام: د. يحـيى شامي، دار الفكر اللبناني ـ بيروت، طبعة اولى ١٩٩١

٢ - كتاب الأصنام: صـ ٣٤

٣ - الحيس: تمر يخلط بسمن وأقط ويعجن عجناً شديدا وربما جعل من سويق

أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال قائل[1]

أكـلـت حنيفة ربـهـا زمـن التقحّم والمجاعة
لم يحذروا من ربهـم سوء العواقب والتِّباعَه

ومن أطرف مايروى عن أصنامهم، أن رجلاً من أهل الجاهلية رأى الثعلبان يبول على رأس صنم لهم في فلاة، فاستخف بصنمهم هذا الذى لايستطيع أن يمنع الأذى عن نفسه، مما يدل على تهافت عقيدة المشركين وعلى ضعف آلهتهم. وفي هذا يقول بشر بن أبي حازم:

أربٌ يبول الثعلبان برأسه
لقد ذلَّ مَنْ بالتْ عليه الثعالب[2]

فهذه أمثلة تبرهن بوضوح أن إيمان الجاهلى المشرك بآلهته كان إيمانا واهياً، ما كان يصل قط بصاحبه الى الثقة بالنفس، أو الى الاعتقاد العميق الجذور، وأهل الجاهلية كانوا يفهمون أمور الدين حسب أهوائهم، ويطبقون من تعاليمه ما ينسجم مع مصلحتهم، ويتخلون عنها حين تتعارض مع عاداتهم وتقاليدهم فيحلون ماحرم الله ويحرمون ما أحل الله.

٤ ـ التناقض واضح في معتقدات القوم ومواقفهم من أصنامهم، فعندما نرى ضعفاً واستخفافاً في وثنية العرب قبل البعثة نرى صورة أخرى تبين شدة تمسك الجاهلى بعقيدته، والتعصب لها تعصباً شديدا قد يصل الى حد الموت، في سبيل الدفاع عنها.

وإلا فكيف نفسر مواقف سادات قريش كأبى سفيان وأبى لهب وأبى جهل من الإسلام! لقد بلغ من تعلقهم بأصنامهم أن يتخوف أبو أحيحة ألا تعبد العزى من بعده. ذلك أنه مرض مرضه الأخير فدخل عليه أبو لهب يعوده فوجده يبكي

١- بلوغ الأرب: ١٩٧/٢، والتباعة: المسارعة الى الشر.

٢- انظر القاموس المحيط: مادة الثعلب ، والثعلبان: ذكر الثعالب

فقال: مـا يبكيك يا أبا أحيحة؟ أمن الموت تبكي ولابدّ مـنه؟ قال: لا ولكن أخاف ألا تعبد العزى من بعدي. قال أبولهب: والله ما عُبدَت حياتك لأجلك، ولا تترك عبادتها لموتك، فقال أبو أحيحة: الآن علمت أن لي خليفة(١)

ولقد قـاتل العرب من قبائل خـثعم وباهلة دون ذي الخلصة جرير بن عـبدالله رضي الله عنه، وقتل منـهم خلق كثير كـما عرفنا. لقـد كان المشركـون محكومين بالتعصب لعبادة الآباء والأجداد ذوداً عن مصالحهم وحفاظاً على مكاسبهم، فكان تقليدا وسنة متـبعة ألفوا عليـه آباءهم، قال تعالى: ﴿**بل قالوا إنا وجـدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون**﴾ [الزخرف: ٢١].

ويلاحظ التناقض بين مايعـتقده الجـاهليون وبين مايتـصرفون وما يطبـقونه في حياتهم.

وقد تجلـى هذا التناقض في كثـير من الأمـور، في العقـيدة إذ صارت الوثـنية عندهم تضـاهي التوحيـد الذي ورثه العرب من ديانة إبراهيـم وإسماعـيل عليهـما السـلام، وأصبح الوثن يحـل محل الإله، وغـسي الصـورة والحـجر مـلاذا للوثني وملجأ من دون الله.

كان الله جل وعلا حاضرا في أذهان القوم، ولكن حضوره مشوب بالغموض، إذ كان الجاهلي يتوسل الى الصنم ليقربه من الله زلفى.

وفي العبادة كانوا يحجون الى البيت الحرام، إلا أن هذا الحج صار تقليدا، فَقد عُمْق الإيمان، وصار مشوباً بالتحريف في التلبية والطواف وبقية المشاعر.

وكانت الأشهر الحرم لا قـتال فيها إلا أن عرب الجاهلية صـاروا ينسأون بعضها ويغيرون موعدها حسب مصالحهم، مما يدل على سطحـية فهمهم للدين، وتبعيتهم لبعض الأشـخاص. هذه التبـعية التي كـانت أقوى من الانتمـاء الديني وأقوى من ايمانهم وتدينهم(٢).

١- انظر الأصنام: لابن الكلبي، والحـياة العـربية من الشعـر الجاهلي ص ٣٩١ والسـيرة النبـوية لابن هشام: ١/ ٨٤ الهامش

٢ - انظر: مـلامح الفكر الديني في الشـعـر الجـاهلي: د. صادق مكـي ـ دار الفكر اللبناني/ بيـروت سنة ١٩٩١. (ص ١٥٦ ـ ١٥٨)

فالتناقض كـان أبرز مقومات الجـاهلية العربية، ومـايزال التناقض أبرز مايلاحظ على كل جاهلية في القديم والحديث، لأن اتباع الهوى، وسيطرة الخرافة، تضيعان ماتبقى من تراث الديانات السابقة.

٥ ـ على أن هنالك من كـان يقدس الأصنام مع الاحـتفـاظ لله تعالى بحـقه، كاملاً، وأنه هو الأكبر الأقدس الذى لا إلـه فوقه، ومن ذلك قول أوس بن حجر التميمي مقسماً باللات والعزى من جانب، وبالله تبارك وتعالى الأكبر منهما قدسية من جانب آخر يقول أوس بن حجر[١]:

وباللات والعـــزى ومن دان دينهـــا

وبالـله إن اللـه منهـنّ أكـــبــــــر

ومنهم من كان يرد الأمر كله للـــه. كقـول النابغة الذبيانى مقـسماً باللـه الـذى لامذهب للمرء إلا إليه[٢]:

حلفــت فلم أترك لنـفـــسك ريبـــة

وليس وراء الـله للمـــــرء مـــذهبُ

حـلفـت بـاللـه إن الـلـه ذو نعَـم

لمنْ يشـــاء وذو عـفـــو وتصـفـــاح

هذه صورة موجزة عن الوثنية عند العرب، وعن تناقضاتهم ومعتقداتهم حولها.

ولـم يبق من ديانة إبراهيم عليـه السلام إلا ذلك البصـيص الواهي الذي توارثه القوم، باعتـباره عادات، وما كان من صرخـات ضعيفة عند الحنفـاء، كانت تضيع وسط ظلام الجاهلية وطغيانها.

---

١ - كتاب الأصنام: ص ٦

٢ - انظر: تيارات عقدية وثقافية في الأدب الجاهلى د. صالح آدم بيلو، مطابع الصفا بمكة سنة ١٤٠٩ هـ

الفصل الثالث

الحنفاء يتلمسون طريق الحق

١ ـ معنى الحنيفية والحنفـــــاء.

٢ ـ نبذة عن المشهورين من الحنفاء.

٣ ـ عقيدة الحنفاء وشريعتهـــم.

١ ـ معنى الحنيفية

الحنَف في اللغة من الأضداد، فهو الميل والاستقامة في آن واحد.

قال ابن منظور: « إنما قيل للمائل الرِّجل أحنف، تفاؤلاً بالاستقامة» (١)

وأما الحنف اصطـلاحاً: «فهو الذى يتحنف عن الأديـان، أى يميل إلى الحق، وقيل: هـو المخلص المستـقيم، وقيل : كـل من أسلم لأمر الـله، ولم يلتـو فهو حنيف» (٢)

وقيـل : «الحنيف الـعادل عن دين، و بـه سميت الحـنيفيـة، لأنها مالـت عن اليهودية والنصرانية» (٣)

والمعروف من سيـرة الحنفاء «أنهم أناس كانـوا لا يشركون بالله شيـئا، وتنزهوا عن عبادة الأوثان وذهبوا يـتأملون في ملكوت الله، وينقـبون عن الهدى في كل مكان، يبحثون عن دين هو أهدى مما كان عليه قومهم في ذلك الزمان.

وما كان هؤلاء يألون جهدا في دعوة قومهـم إلى نبذ عبادة الأصنام والترفع عن السفـه الذى عرفوا فيه، وانـحرفوا به عن منـهج الله سبـحانه وتعالى، بـل كانوا يستغلون كل مناسبة ليذكروا قومهم بأنــهم قد بعدوا عما تركهم عليه أبوهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام» (٤) إلا أن هؤلاء الحنفاء، كانوا قلة قلـيلة، ولم يبق منهم مع توالي القرون إلا عدد محدود في كل عصر إلى زمن البعثة النبوية (٥)

لقد كانوا أفرداً قلائل بالنسبة إلى مجتمعهم الكبير الواسع، فلم تكن هذه الفئة كثرة كـاثرة، بحيث تـطبع المجتـمع بطباعـها فتجعـله مجتـمع طهر ودين وتـعبد،

١- اللسان: مادة «حنف»

٢- اللسان وتاج العروس : مادة «حنف»

٣- جمهرة اللغة لابن دريد: ١٧٨/٢

٤- المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي: محمد الشيخ محمود صيام ص ١١٧/١١٦

٥- بلوغ الأرب: ١٩٦/٢

ولاتنفي عنه صفة الجاهلية، أو « الضلال المبين». ﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [سورة آل عمران ١٦٤] .

وعلينا أن نفرق بين القول بكثرة المتحنفين، والقول بأن كثيراً من صفاتهم وإشراقاتهم كان موزعاً متفرقاً في أفراد ذلك المجتمع» [1]

لقد كان هؤلاء يرفضون الواقع الجاهلي الوثني المنحرف ويتطلعون إلى ما هو أفضل حالاً وأقوم سبيلاً، إلى ميراث نسي مع توالي القرون، ميراث إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، الذى قد ضاع وحلت محلة الوثنية بكل ظلماتها.

وللعلماء آراء في الحنيفية:

أجملها الفخر الرازى والطبري في تفسيريهما للآية ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنفياً وما كان من المشركين﴾[2] فقالا في الحنيفية أربعة أقوال:

١- **أحدها:** أنها حج البيت الحرام

٢- **وثانيها:** أنها اتباع الحق.

٣- **وثالثها:** أنها اتباع إبراهيم عليه السلام فيما أتى به من الشريعة التى صار بها إماماً للناس بعده من الحج والختان والغسل من الجنابة، وتحريم ما ذبح على الأوثان..

٤- **والرابع:** أنها الإخلاص لله وحده والإقرار بالربوبية والإذعان للعبودية[3]

وقد ذكر ابن جرير الطبرى رحمه الله في تفسيره[4]

١- تيارات عقدية وثقافية فى الأدب الجاهلى : د. صالح آدم بيللو

٢- سورة البقرة/ ١٣٥ .

٣ - مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٤٨٧ للفضل بن الحسن الطبرى طبعة ١٣٨٠هـ، دار مكتبة الحياة بيروت، والتفسير الكبير: للفخر الرازي: ٤/ ٨١، ط٢، دار الكتب العلمية، طهران.

٤- جامع البيان عن تأويل القرآن لابن جرير الطبرى ٣/ ١٠٧، ١٠٨ تحقيق وتخريج محمود شاكر

أن بعض هذه التأويلات لا تكفي لمعنى الحنيف أو الحنيفية، ولعل مراد ذلك أنها تمثل جزءاً أو جانباً من جوانب الحنيفية ثم قال: «الحنف عندى هو الاستقامة على دين إبراهيم واتباعه، على ملته، وذلك أن الحنيفية لو كانت حج البيت لوجب أن يكون الذين يحجونه في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء، وقد نفي الله تعالى أن يكون ذلك تحنفاً بقوله تعالى ﴿ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ ، وكذلك القول في الختان، لأن الحنيفية لو كانت هي الختان لوجب أن يكون اليهود حنفاء وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾.

فقد صح إذن أن الحنيفية ليست الختان وحده ولا حج البيت وحده. ولكنه ما وصفناه من الاستقامة على ملة إبراهيم واتباعه عليها والائتمام به فيها». انتهى الاقتباس من كلام الطبرى»

«فالعرب الذين تمسكوا ببقية الحنيفية ثم أحاطوا الكعبة البيت الحرام بجيش هائل من الأصنام، العرب الذين كانت كل قبيلة منهم قد اتخذت لها صنما تصلي إليه، والعرب الذين كان هذا شأنهم لم يكونوا حنفاء حقاً»(١).

والذى نستطيع أن نخلص إليه من معنى الحنيفية أنها دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام وملته السمحة المسلمة التي دان بها العرب ، وظلوا يزعمون أنها دينهم حتى أدخلوا الشرك إليها، وبقوا كذلك إلى أن بعث الله فيهم رسولنا محمداً ﷺ(٢).

وكانوا قد انحرفت عقيدتهم وفسد دينهم حينما أرسل إليهم خاتم الأنبياء، وتبقى الحنيفية هى تلك الآثار المتبقية من تلك الملة ويدخل فيها ما وجد من أحكام وعبادات عرفت في الجاهلية وأقرها الإسلام، لأنه لا يقرر إلا ماكان من تلك الملة. قال تعالى: ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾[النحل - ١٢٣] .

١ - المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى : ص١١٦

٢-أدب الحنيفية : حبيب بن حنش الزهرانى ص٢٣

٢- نبذة عن المشهورين من الحنفاء

سنتحدث بإيجاز عن أبرز هؤلاء المتحنفين علنا نلقي الضوء على سيرتهم ومعتقداتهم وسلوكهم، وسط خضم الوثنية في جزيرة العرب.

لقد كان هؤلاء ثورة جامحة ضد ما كان عليه قومهم من عبادة للأصنام وشرك بالله تعالى.

كانوا يتوجهون إلى الله وحده بالعبادة، ويتنزهون عن عبادة الأصنام، ويسفهون أحلام قومهم، بل يحاربون كثيراً من أفعالهم وأخلاقهم.

ونذكر من هؤلاء: رئاب بن البراء من ربيعة ، وأسعد أبو كرب الحميرى من اليمن، وخالد بن سنان العبسى، قس بنّ ساعدة، مزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة ابن نوفل، وقد ترجم العلماء لعدد ممن كان على دين فى الجاهلية. . من هؤلاء : أمية بن أبى الصلت ، ووكيع بن سلمة، وسيف بن ذى يزن، وزهير بن أبى سلمى، وعبد المطلب بن هاشم ، وهاشم بن عبد مناف وغيرهم كثير.(١)

ويذكرون أن رئاب بن البراء كان على دين المسيح عليه السلام وقد توفي قبل الإسلام، وأما أسعد أبو كرب الحميرى فقد كان أول من كسا الكعبة الأنطاع والبرود، وبشر بالنبى ﷺ قبل بعثته بزمن طويل.(٢)

أما أبو قيس صرمة بن أبى أنس ـ فقد ترهب ولبس المسوح وفارق الأوثان وهم بالنصرانية ثم أمسك عنْها ، واتخذ لنفسه بيتاً جعله مسجداً لا يدخل عليه طامث ولا جنب، وقال أعبد رب إبراهيم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلم وحسن إسلامه(٣)

ومن أشهر هؤلاء : قس بن ساعدة الإيادي:

كان من خطباء العرب المعدودين، وأحد حكمائهم المشهورين، وقد ذكر ابن

١- انظر بلوغ الأرب: ٢/ ٢٤٤ -٢٨١

٢-انظر بلوغ الأرب ٢/٢٥٨، ٢٦٠.

٣- انظر المعارف لابن قتيبة ص ٦١، تحقيق ثروت عكاشة ، دار المعارف بمصر / ط ٢.

كثيـر في تاريخه أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قـال: «لما قدم وفد إياد على النبي ﷺ قال: يا معـشر وفد إياد، ما فعل قس بن سـاعدة الإيادي؟ قالـوا: هلك يا رسول الله: لقـد شهدته يومـاً بسوق عكاظ، على جمل أحـمر، يتكلم بكلام معجب مونق لا أجدني أحفظه»[1]

فقـال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله فـإني أحفظه، كنت حـاضراً ذلك اليـوم بسوق عكاظ فـقال في خطبـته: (أيهـا الناس اسمـعوا وعـوا، فإذا وعيـتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. إن في السماء لخبـراً، وإن في الأرض لعبراً. . أقسم قس: أن لله ديـنا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟! أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا» والخطبة منثورة في بطون الكتب الكثيرة[2]

ثم أنشد أبو بكر شعراً لقس وكان يحفظه: [3]

في الذاهبين الأولين من القـرون لنا بصائر لما رأيت موارداً للـموت ليس لها مـصادر
ورأيـت قـومي نحـوهـا يـسـعى الأكـابر والأصـاغـر
لا يـرجـع المـاضـي إلـيّ ولا مـن البـاقين غـابـر
أيـقنـت أني لا مـحـالة حـيـث صـار القـوم صـائر

وفي الخطبة كثير من التـدبر في آيات الله، وحث القوم على سلوك ما يكسبهم رضاه وتذكيرهم بمصائر الأقوام مثل عاد وثمود.

زيد بن عمرو بن نفيل:

هو أبو الصحابي الجـليل سعيد بن زيد رضي الله عنه. كـان زيد اعتزل الأوثان

١- البداية والنهاية: ٢/ ٢٣٠، والمونق والأنيق: كل شيء يعجبك. اللسان مادة أنق».
٢- انظر بلوغ الأرب: ٢/ ٢٤٥- ٢٤٦، والبداية والنهاية: ٢/ ٢٣١ والبيان والتبيين للجاحظ: ٣٠٨ - ٣٠٩ ت عبد السلام هارون
٣- البداية والنهاية: ٢/ ٢٣١، والمراجع السابقة.

والميتة والدم، وابتعد عن الذبائح التى تذبح على الأوثان، ونهى عن الموءودة ، وكان يعجب من قومه الذين يذبحون على النصب، ويقول : « يا معشر قريشَ أيرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى فيه، وتذبحونها لغيره والله ما أعلم أحداً على دين إبراهيم غيرى»[1] قال ابن اسحق: واجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، يعتبرون ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نجياً، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض ، قالوا : أجل وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف لم يدخل في يهودية، ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل المؤودة وقال: أعبد رب إبراهيم وبادى قومه بعيب ما هم عليه..

قال ابن اسحق: يروى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما.

قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول : « يا معشر قريش والذى نفس زيد بيده، ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو انى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته،[2]

لقد أوذي زيد في سبيل معتقده، فكان الخطاب بن نفيل عمه يخرجه من مكة ويوكل به شباباً من قريش وسفهاء من سفائهم ويقول: لا تتركوه يدخل ، فكان لا يدخلها إلا سراً منهم،فإذا علموا به أخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم

١- انظر المحبر لا بن حبيب : ص١٧١ ، وبلوغ الأرب : ٢٤٧/٢

٢- السيرة النبوية لابن هشام: ٢٢/١ - ٢٢٥

دينهم، أو يتابعه أحد إلى ما هو عليه [١]

وكان زيد قد رحل إلى الشام يسأل عن الدين الحق، وعندما وصل البلقاء دله الرهبان على الدين الحنيف على دين نبي يخرج من بلاده يدعو إلى دين إبراهيم[٣] ومما قاله شعراً في تحنفه: [٢]

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخراً ثقالاً
دحاها فلما رآها استوت على ... الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ: له المزنُ تحمل عذباً زلالا

وهو القائل: [٤]

أرباً واحداً أم ألف رب ... أدينُ إذا تُقسمتّ الأمور
عزلتُ اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلْد الصبور
عجبت وفي الليالي معجبات ... وفي الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالاً ... كثيراً كان شأنهم الفجور

ويعد زيد أشهر الحنفاء وخير من تمسك بالحنيفية منهم، وهي وإن لم تتضح له على كثرة أسفاره وبحثه عنها فقد كان يعمل عقله، ويميز ما في الأديان من أباطيل حتى أنه امتنع عن الدخول في يهودية أو نصرانية، وظل يبحث عن دين إبراهيم عله يظفر به[٥]

ورقة بن نوفل: [٦]

كان ممن وحد الله في الجاهلية واعتزل عبادة الأوثان، واجتهد في طلب

١- البداية والنهاية : ٢٣٨/٢.
٢- السيرة النبوية لابن هشام : ٢٣١/١
٣- السيرة النبوية لابن هشام : ٢٣١/١، وفتح القدير للشوكاني: ٣٧٩/٥، طبعة بيروت
٤- السيرة النبوية لابن هشام : ٢٢٦/١
٥- أدب الحنيفية في العصر الجاهلي حبيب بن حنش الزهراني رسالة ماجستير من جامعة أم القرى، عام ١٤٠٦هـ
٦- انظر بلوغ الأرب: ٢٦٩/٢ - ٢٧٣

الحنيفية دين إبراهيم وكان ورقة قد قرأ الكتب واتبع دين النصرانية دون أن يتبع النصارى فى التبديل بل فى التوحيد.

وموقفه مع النبى ﷺ عند البعثة الشريفة يدل على صدق حنيفيته، وسلامة منهجه، وعندما أخبرته ابنة عمه الصديقة الكبرى خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بما رأت وأخبرت به في شأن النبى بعد رحلة ميسرة إلى بلاد الشام سر بذلك.. وكان مما قاله لزيد بن عمرو: أنا أبقى على نصرانيتي إلى أن يأتي هذا النبى، فلما حقق الله الأمر، ونزل جبريل على محمد ﷺ بالرسالة قال ورقة: «هذا الناموس الذى نزل الله على موسى، يا ليتنى فيها جذع، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ أو مخرجىّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودي، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي»[1]

ومن شعر ورقة المؤثر الرقيق، ما قاله وهو ينتظر النبي عليه الصلاة والسلام ويستبطىء الأمر ويقول حتى متى؟ [2]

لججت وكنت في الذكرى لجوجا	لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف	فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائى	حديثك أنْ أرى منه خروجا
فياليتنى إذا ما كان ذا كم	شهدت فكنت أولهم ولوجا
ولو جاء فى الذى كرهت قريش	ولو عجّت بمكتها عجيجاً
أرجّي بالذي كرهوا جميعاً	إلى ذى العرش إن سفلوا عُروجا

١- البخارى : باب بدء الوحى ومسلم : كتاب الإيمان، باب بدء الوحى: ٢/ ١٩٧ـ ٢٠١ مع شرح النووي.

٢- السيرة النبوية لابن هشام:/ ١٩١-١٩٢.

وقدثنى المكتين وهى واحدة لأن لها بطاحاً وظواهر.

النشيج : البكاء مع صوت.. عجت: ارتفعت أصواتها

العروج: الصعود والعلو.

أمية بن أبي الصلت :

كان ممن اختُلف في أمره، إذ يعتبره بعضهم أنه من الحنفاء لأنه «نظر فى الكتب وقرأها، ولبس المسوح تعبداً، وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر وشك في الأوثان، والتمس الدين وطمع فى النبوة، لأنه قرأ فى الكتب أن نبياً سيبعث من العرب، فكان يرجو أن يكونه، فلما بعث النبى ﷺ قيل له: هذا الذى كنت تستريث وتقول فيه، فحسده عدو الله وقال: إنما كنت أرجو أن أكونه»[1]

والغريب أنه كان يخشى الكفر ويرجو الإيمان فى كل حين كما قال: [2]

يا رب لا تجعلنى كافراً أبداً: واجعل سريرة قلبى الدهر إيمانا

وقد كثر التوحيد في شعره، ولذلك قال ﷺ: «آمن شعره، وكفر قلبه»، وقد صح أيضا أن الرسول ﷺ قال فيه: «كاد أمية أن يسلم»[3]

والواقع أنّ أمية لو كان حنيفياً لأسلم، ولكنه مات كافراً، وهذا مما يقدح في تحنفه.

وكان قد سئل عن سبب امتناعه عن اتباع محمد ﷺ ؟؟الذي كان ينعته ويخبر عنه، قال: « ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف أنى كنت أحدثهن أني هو، ثم يريننى تابعاً لغلام من بنى عبد مناف؟» [4]

وبينما كان الحنفاء يتلمسون الضياء وسط الليل المظلم، أشرق الإسلام بأنواره، وعمت ديانة التوحيد أرجاء العالم.

١- الإصابة : ١٣٢/١، تحقيق على محمد البجاوى، دار النهضة ـ القاهرة

٢- ديوان أمية ص٥١٨ تحقيق د. عبد الحفيظ السطلي ، دمشق سنة ١٩٧٧م

٣- صحيح البخارى: باب أيام الجاهلية ٥٣/٥٢ طبعة كتاب الشعب.

٤- البداية والنهاية: ٢٢٤/٢ لابن كثير ، طبعة مكتبة المعارف بيروت

٣- عقيدة الحنفاء وشريعتهم (١)

إن الحديث عن عقيدة الحنفاء وشريعتهم، قد يكتنفه الغموض ، ذلك لأن الأخبار عن عقيدة هؤلاء الناس وشرائعهم نزرة يسيرة.

«وليست الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاء واضحة، فهي صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي، والأخبار تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية، إذ ليس فيها شيء عن عقيدتهم في الله ، وكيفية تصورهم وعبادتهم له، بل ليس فيها شيء من كتاب كانوا يتبعونه ، أو كتب كانوا يسيرون عليها.

نعم إن نفرا منهم كانوا قد قرأوا الكتب، ووقفوا عليها، ولكن ما تلك الكتب وما أسماؤها؟ وهل هى بالتوراة والإنجيل؟ وأى توراة وإنجيل؟ . . يذكر الرواة أنّ الحنفاء يرون تحريفاً في هذين الكتابين . . . وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية إلى دين إبراهيم الحنيف، فقرأوا كتبه وتعبدوا بعبادته، ولكن ما هي كتب إبراهيم وما هى عبادته؟» (٢)

إلا أن الأمر الواضح من أخبارهم، أنهم وإن تعددت طرقهم في طلب الدين، وتباينت مشاربهم، واختلفت مفاهيمهم في ملة إبراهيم عليه السلام، فإن مفهوم الدين القيم عندهم جميعاً يرتكز حول فكرة التوحيد الخالص، التوحيد الذى لا يشوبه شك ولا يكدره شرك، والذى يبدو من أخبارهم أن مفهوم هذا الدين غير واضح عندهم لعدم وجود مرشد وموجه يرجعون إليه، فهم لا يعرفون عن هذا الدين غير أمور محدودة. . فهذا زيد بن عمرو بن نفيل يقتل وهو في قمة التحير يناجي ربه: «اللهم لو أني أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به، ثم يسجد على راحته».

١- انظر ادب الحنيفية فى العصر الجاهلى : حبيب بن حنشى ص٨٨ - ٩٣

٢- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد على ٦/ ٤٥٤

ولذلك فإن معظمهم ساحوا فى الأرض زاهدين عابدين متحملين المشاق في سبيل حصولهم على معلومة توصلهم إلى بغيتهم وتطفىء ظمأ حيرتهم وتعطشهم»[١]

فالحنفاء رفضوا عبادة الأوثان ، وعبدو الله وحده، وكان كثير منهم قد تردد في الدخول في النصرانية، ومن تيقن من بطلانها لم يلتفت إليها.

وكانوا يرون أن الله على ما يشاء قدير، وأنه مطلع على أعمال العباد، وأنه متصف بصفات الكمال.

وكانوا يؤمنون بالثواب والعقاب والابتداء والإعادة[٢]

قال زيد بن عمرو يذكر الحساب: [٣]

فلن تكون لنفس منك واقية يوم الحساب إذا ما يجمع البشر

ومما قاله قسى بن ساعدة في ذلك: [٤]

كلا بل هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد
أعاد وأبدى وإليه المآب غدا

ثم أنشد فى معنى الإعادة هذا الشعر الوجداني المؤثر :[٥]

ياباكي الموت والأموات فى جدث عليهم من بقايا بزهم خِرَق
دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم كما يُنبهُ من نوماته الصَّعِق
حتى يجيئوا بحال غير حالهم خَلْق مضى ثم هذا بعد ذا خُلِقوا
منهم عراة ومنهم في ثيابهم منها الجديد ومنها الأزرق الخلق

وقد كان الحنفاء يرون فى القضاء والقدر ما يحيرهم، ولكننا نلحظ أن بعضهم

١- انظر بلوغ الأرب : الجزء الأول ، وادب الحنيفية ص٨٨ - ٩٣
٢- تلبيس إبليس : ص٦٣
(٣-٤) الملل والنحل: الشهرستاني ص٥٨، ٥٨٤ طبعة ١٩٧٧م
٥- السابق: ص٥٨٤

يصبر ويتجلد أمام الكوارث والنكبات، ومنهم من يرى أن ذلك مكتوب على كل إنسان، وأن الله هو مقدر ذلك، فلا مفر من قضائه.(١)

ويظهر من شرائع هؤلاء الحنفاء أنهم حرموا على أنفسهم الخمر والأزلام، لما رأوا منها من مفاسد أخلاقية ذميمة، كما أن بعضهم حرم على نفسه أكل لحم الميتة وما ذبح للأصنام، ويرى أن الذبح لله، ويظهر من أخبار الحنفاء أيضا أنهم كانوا يسبحون الله ويستغفرونه.(٢)

وتشير أخبار بعضهم إلى أنهم اتخذوا لهم مواضع يتعبدون فيها ويعتزلون الناس، مثل صرمة بن أبى أنس ووكيع بن زهير الإيادي.(٣)

وأكبر الظن أن من هؤلاء الحنفاء من كان يعلم ويحافظ على سنن الفطرة (٤) .

وختاماً لهذا البحث: فإننا نود أن نؤكد أن هذه الإشراقات قد ضاعت بين أجواء الجحود والكفران، والشرك والعصيان .. لقد ذبلت دعوات الحنفاء الموحدين، الذين بحتّ أصواتهم، وضاعت وسط هدير الشرك صيحاتهم.

ففي الوقت الذى كان واحد القوم كزيد بن عمرو بن نفيل يقول(٥)

وأسلمت وجهى لمن أسلمتْ له الأرض تحمل صخراً ثقالاً

كانت كل قبيلة قد عكفت على صنم لها تعبده، من دون الله حتى قال قائلهم(٦): وفرت ثقيف إلى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر

وفي الوقت الذي كان زيد بن عمرو يقول:

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلْد الصَّبورُ

١- أدب الحنيفية : حبيب بن حنش ص٩٠
٢- المحبر لابن حبيب: ص٢٣٧، والبداية والنهاية: ٢/ ٢٤٠
٣- بلوغ الارب : الألوسى ٢/٢٦٦
٤- الملل والنحل: ٣/ ٩٤ طبعة الحلبى سنة ١٩٦٨م
٥- فتح القدير للشوكاني : ٥/ ٣٧٩
٦- ضرار بن الخطاب في حرب الفجار، الأغاني: ٢٢/ ٧٥ طبعة دار الثقافة

فلا يمثل بهـذا القول إلا نفسه وثلة قـليلة من الناس، كان أوس بـن حجر يمثل الكثير من الأخرين الذين يشركون الأصنـام فى التقديس مع الله سبحانه وتعالى إذ يقول(١)

وباللات والعزى ومن دان دينها: وبالله إن الله منهن أكبرُ

وإذا استعاذ عبد المطلب بن هاشم برب إبراهيم:

عذتّ بما عاذ بـه إبراهــيم مسـتقبل القبلـة وهو قائم

كان كثيرون آخرون يعوذون بغير الله سبحانه كالجن مثلاً (٢)

وواضح أن مـا بقى من ديـانة إبراهيـم واسماعيـل عليهـما السلام بـين هؤلاء الناس، مما نعده أثـراً نجم عن تلك الملة، وما وجد من أحكـام وعبادات عرفت في الجاهلية، وأقرها الإسلام، هو من بقايا ديانة التوحيد الحنيفية بين العرب(٣).

قال تعالى ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾

[سورة النحل : ١٢٣]

١- كتاب الأصنام : لابن الكلبي ص٢٢ و- ديوان اوس ص٣٦

٢ـ انظر المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلى : محمد محمود صيام ص٦٩٠ -٦٩٢

٣- ادب الحنيفية: ص٢٣

الفصل الرابع

اليهودية والنصرانية فى جزيرة العرب

١ - اليهودية بين العرب

* تأثر اليهود وتأثيرهم

*ضعف الأثر اليهودى

*تأثير العرب فى اليهود

٢ - النصرانية بين العرب

* آثار النصرانية فى الشعر الجاهلى

* ضعف الأثر النصرانى فى العرب.

١ - الديانة اليهودية والعرب قبل البعثة

ينبغى أن يعلم أن ما تعارف عليه الناس حول هذه الديانة السماوية في الأصل، قد حرفها أصحابها، وما عادت كما أنزلت على أنبياء بنى إسرائيل، وما بقيت النصرانية دون تحريف كذلك «فقالت اليهود عزير بن الله» [التوبة: ٣٠].

وقالت النصارى عن المسيح ابن مريم : أنه ابن الله.

وبقي هؤلاء جميعاً يتوارثون هذه الأباطيل مفاخرين بها ينافحون عنها حتى اليوم.

ونحن لن نتعرض في هذا الفصل إلى تفصيلات تتعلق بعقائد هاتين الديانتين أو بتاريخهما، فلذلك مراجعه ومناسبته، إنما نود أن نتعرض الى أثرها بين الديانتين في جزيرة العرب ولو كان هذا الأثر ضعيفا، حتى تكتمل لنا صورة المعتقدات الدينية والتيارات المختلفة التي أثرت في معتقدات العرب، قبل البعثة النبوية.

لقد انتشرت الديانة اليهودية في عدد من أحياء العرب مثل قبائل حمير وبنى الحارث بن كعب وغسان.. وانتشرت جماعات أخرى من اليهود واستقرت في مواضع المياه والعيون، كوادي القرى وخيبر وتيماء وفي يثرب. بنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأراضيهم وزروعهم من اعتداء الأعراب، وقد أمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل المقيمة في جوارهم على دفع إتاوات لهم، وعلى تقديم الهدايا لاسترضائهم[١].

وكان من شأن اليهود أن يفرقوا بين رؤساء القبائل. حتى لاتصفو الأحوال فيما بينهم، ولئلا يكون اتفاق هذه القبائل خطراً يهدد اليهود ومصالح اليهود.

وكان في اليمن جاليات يهودية ضعفت بدخول الحبشة اليها[٢].

---

(١) وقد ذكر الشهرستانى: أن اليهود بنوا الحصون والقلاع قرب للدينة لنصرة رسول الله ﷺ، نبى آخر الزمان.. حتى إذا ظهر وأعلن الحق بفاران، وهاجر الى دار هجرته بيثرب، هجروه وتركوا نصرته» الملل والنحل صـ ٢٢١ طبعة ١٩٧٧م

(٢) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. وجواد على ٦/ ٥١٤ - ٥٤٢.

تأثر اليهود وتأثيرهم:

لقد أثرت قبائل العرب في اليهود أكثر من تأثرها بهذه الجاليات، إذ اصطبغ اليهود المقيمون في الحجاز- وبشكل خاص - بالصبغة العربية، واتخذوا لغة العرب، لغة الأدب لديهم، حتى كان منهم شعراء ينظمون الشعر العربي الفصيح.

ذكر الجمحي أن عددا من شعراء اليهود كانوا يقيمون في المدينة، منهم السموأل ابن عادياء، والربيع بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وغيرهم. يقول ابن سلام:

«وفي يهود المدينة وأكنانها شعر جيد»(١).

وقد تحدث بعض شعراء اليهود عن معتقدات القوم وإيمانهم بيوم الحساب، وأن الصحف ستنشر على الناس آنذاك، يقول السموأل بن عادياء:(٢)

ليت شعري وأشعرنّ إذا ما ... قربوها منشورة ودُعيتُ
لي الفضل أم علي إذا حو ... سبتُ إني على الحساب مُقيتُ

ولاشك أن هذا المعنى كان منتشرًا بين العرب، ولابد أن يتأثروا به بشكل أو بآخر.

ولقد التفت علماؤنا إلى ذلك التأثير، قال الأصمعي:

«جامع زهير قوماً من يهود، أي قاربهم، فسمع بذكر المعاد فقال في قصيدته:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فيُنقَم

ويقول ابن سلام الجمحي:

«وكان أمية بن أبي الصلت كثير العجائب يذكر في شعره خلق السماوات والأرض، ويذكر الملائكة.. وكان قد شامّ أهل الكتاب»(٣)

---

١ - طبقات الشعراء: محمد بن سلام الجمحي، تحقيق أحمد شاكر صـ ٢٣٥.

٢ - ديوانا عروة بن الورد والسموأل: صـ ٨١.

٣- طبقات فحول الشعراء : ١/ ٢٦٢ -٢٦٣، ويقال شامت فلانا إذا قاربته وتعرفت ما عنده بالاختبار والكشف / اللسان شمم «..

وعلـى العموم يـعتبـر هذا أثراً محـدوداً إذا قيس إلى مـا في الشـعر الجاهلـي من معتقدات دينية، وإذا قيس بما وجد فيه من إشارات للنصارى ومعتقداتهم[1].

ويشير ابن خلدون إلى أسباب ضعف تأثير اليهود في العرب بقوله: «وذلك لأن اليهود الذين كانوا بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولايعرفون من أمور التوراة إلا ما تعرفه العامة مـن أهل الكتاب، ولـم يظهر في يهود جزيـرة العرب من خلف حاز على شـهرة في العلم والـتأليف على نـحو ما ظهر بـين يهود العراق وفلـسطين أو مصر، وقد لجـأ العرب إلى اليهـود آخذين منهم الـرقى والتعاويذ لأن يـهود يثرب عرفوا بإتقان السحر وعلم التعاويذ» [2].

ومن المـلاحظ أن حصيلة تـأثير اليهود في البيئـة العربية كانت حصيلـة ضعيفة جداً، ولعل ذلك يعود إلى أسباب كثيرة من أهمها :[3]

إن الدين اليهودى بطبعه ليس دينا تبشـيرياً، وإنما هودين قومي قبلي خاص ببني إسرائيل، ولذلك فهم لا يهتمون كثيرا ولا قليلا، بأن يبشروا بدينهم هذا ، ولا أن ينشروه بين غير بني جلـدتهم ، فهم بخلاء بعقيدتهم القومية يضـنون بها على بقية الأمم والشعوب، بل إن اليهود يحظر عليهم نشر دينهم[4]

ولذلك فإن الأمم لـم تستـفد من تدين اليهود شيئا، ولـم يـبذل اليهود أي جهد للأخذ بأيدي الأمم الوثنية يدعونهم إلى عقيدتهم الإلهية.

*علـى أن اليهـود كانوا أهـل صناعة وزراعـة ، والعرب يـحتقـرون الصنـاعة ويزدرون الزراعة، كـما هو معلوم. . إضافة إلـى أن اليهود كانوا يحتـرفون المهن

---

١ - انظر: رسالة المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي صـ ٨١ - ٩٨.

٢ - تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، ٥٥٧/٦ - ٥٦٠

٣- انظر في هـذه الأسباب : كتاب تيـارات عقدية وثقافيـة في الأدب الجاهلي ، د.صالـح آدم بيلو ص٣٩-٥٨، بتصرف واختصار وانظر كذلك رسالة المعـتقدات والقيم ص١٠٠-١٠١ ، والحياة العربية من الشعر الجاهلي : د. محمد أحمد الحوفي ص١٤٠ - ١٤١.

٤ - السيرة النبوية للندوي: ص١٥٠

الحقيرة، والممقوتة لدى العرب، مثل بيع الخمور والحجامة، وتربية الدواجن، وانسحب هذا النفور من المهن إلى التقزز من أصحابها، ثم النفور من دين القوم وثقافتهم.

*وقد اشتهر اليهود بالشح والبخل القبيح المؤدي إلى قذارة الملبس وقبح المنظر حرصاً على اكتناز المال، ناهيك عن الربح الفاحش المشروع وغير المشروع : بالربا والمكر والخديعة واستحلال أكل أموال الناس بالباطل قال تعالى :

﴿بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ [آل عمران : ٧٥] إذ تصور هذه الآية الكريمة تبجحهم في هذه الاستباحة.

والعرب كرهوا اليهود لما عندهم من أنانية وزهو وبعد عن الاندماج الصادق مع أحد، وكرهوا منهم التضليل والتدليس والدس والكيد والحسد الشديد للآخرين

وإلى جانب هذه الصفات المقيتة، كان اليهود يتصفون بمجموعة أخرى من الخصال التي يأباها العربي وينفر منها بطبعه مثل اتصافهم بالجبن والخوف ، وخشيتهم للغزو والاشتباك مع العدو وجهاً لوجه..

ولكن اليهود كانوا بارعين في إيقاد نيران الحرب والقتال من وراء جدر.. كانوا يحاولون باستمرار إثارة الأحقاد الدفينة بين قبائل العرب مع غيرهم بالغدر ونقض المواثيق. تلك هى أخلاق اليهود بصفة عامة ، ويهود الجزيرة العربية في ذلك الزمان بصفة خاصة..

والغريب أن هذه أخلاقهم حتى اليوم، مع توسع في الغايات الجهنمية، وتفنن في الفتن وإثارتها.

وذلك ما يجعل من غير المستغرب أن يكون تأثير اليهود في العرب الجاهليين ضعيفاً هيناً ، ذلك أن صورة اليهودية واليهودى عند ذلك العربى كانت شائهة دميمة، والقدوة منفرة ومقززة، لقد كانوا قدوة سيئة في كل نواحى الحياة، ولذلك كان تأثيرهم ضعيفا بل يكاد يكون منعدما[1]

---

١ - انظر تيارات عقدية وثقافية في الأدب الجاهلي : د. صالح آدم بيلو

وعلى العكس من ذلك كان تأثير العرب في اليهود أشد وأعمق في أغلب جوانب الحياة

* من ذلك أن اليهود كـادوا أن يذوبوا في المجتمع العربى في يثـرب خاصة ، وفي كثير من مظاهر حيـاتهم الاجتماعية، والمعيشية والسـياسية، كانوا في أزيائهم والبسـتـهم لا يختلفـون عن العـرب في شيء، فيـما سـوى الدين وشعـائره، بل تزاوجوا أحيانا مع العرب، كل ذلك على غير عادة اليهود

* وأعمق من هذا كله ما نراه من تأثيـر لغة العرب وأدبهم، فقد كـانت العربية لغة التخاطب والمعاش اليومى عند اليهود، داخل بيوتهم ومنتدياتهم. .

«وكان اليهود قد اتخذوا لقبائلهم أسماء عربية خالصة مثل: بنو عكرمة، وبنو ثعلبة وبنو النضير، وبنو عوف»[1]

١ - انظر المرجع السابق، وتاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على ،٥/ ٥٣٢

٢- النصرانية في جزيرة العرب

دخلت النصرانية إلى جزيرة العرب عن طريق التبشير أو بدخول بعض الرهبان إليها ليعيشوا فيها بعيدين عن ملذات الدنيا، وربما كان دخول النصرانية عن طريق التجارة والرقيق.

ولم يعبأ المبشرون بالمصاعب التي كانت تعترض سبيلهم، فقد رافقوا الأعراب وسكنوا الخيام معهم حتى عرفوا بأساقفة الخيام» و«بأساقفة أهل الوبر» ، وقد نعتوا بهذه النعوت لأنهم كانوا يعيشون في البادية مع القبائل عيشة أهل الوبر، وكان في مكة والطائف ويثرب رقيق نصراني ، يقرأ ويكتب ويفسر للناس ما جاء في التوراة والأناجيل. .

وقد بنى النصارى «أديرة» في أنحاء من جزيرة العرب كان لها تأثير مهم في تعريف التجار العرب والأعراب بالنصرانية، إذ وجد التجار في أكثر هذه الأديرة ملاجيء يرتاحون فيها، ومحلات يتجهزون منها بالماء ، كما وجدوا فيها أماكن للهو والشرب (١)

وكان للنصرانية وجود في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وكأنهم تلقوا ذلك عن الروم، وكان بنو تغلب أيضا من نصارى العرب وكانت لهم شوكة وقوة يد (٢)

كما كانت في لخم وطيء وبنى الحارث بن كعب في نجران ، حتى بنى في نجران كنيسة كبيرة سميت «كعبة نجران» ، وروى أن بناتها هم بنو عبد المدان الحارثي، وقد ذكرها الأعشى في قوله:

وكعبة نجران حتمٌ عليك حتى تناخى بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح: وقيساً هم خير أربابها (٣)

وقد عثر فى الحيرة على آثار كنائس في خرائبها ، وكان قد عرف النصارى فيها (بالعباديين) ، أو «العباد» وهم قوم من قبائل شتى اجتمعوا على النصرانية ، ونبغ بينهم أبرز شعراء النصارى العرب آنذاك ، هو عدى بن زيد العبادي

١- انظر جواد علي: ٦/ ٦٨٧ - ٦٨٩

٢- بلوغ الأرب : ٢/ ٢٤١

٣- الحياة العربية من الشعر الجاهلى: ص١٤٥ والشعر في الأغانى ١٠/ ١٣٥ ساسي»

وكان نصارى العراق على المذهب النسطوري ، وهـو يختلف عن المذهب اليعقوبي الذى كان يعتنقه نصارى الشام، [1]

آثار النصرانية فى الشعر الجاهلي:

تحـدث الشـعراء الـعرب عـن الأديرة الـتي مروا بـها، وقـد ذكر يـاقوت فـي معجمه«ديـر حنظلة» ، الذى بناه حنظـلة الطائى على شاطىء الفـرات وترهب فيه حتى مات، وبقي حتى العصر العباسي ، وفيه يقول عبد الله بن محمد الأمين وقد نزل به فاستطابه: [2]

ألا يا دير حنظلة المفدّى   لقد أورثتنى سقماً وكداًّ

وانتشرت ألفـاظ عن طقوس العبادة النصـرانية في ثنايا الشعـر الجاهلي، وذلك بسبب مخالطة هؤلاء الشعراء للنصارى أكثر من مخالطتهم لليهود.

من ذلك الحـبر والراهب والمـتبتل والـصرورة، وغير ذلـك من ألفاظ الأسـماء والصفات التي تطلق على رجال الدين عند النصارى[3] ففى الراهب المتبتل يقول امرؤ القيس :[4] تضيء الظلام بالعشاء كأنها: منارة مُمسَى راهب متبتل.

وفى الراهب الصرورة يقول النابغة الذبياني[5]

لو أنها عرضت لأشمط راهـــبٍ   عبد الإله صـــــرورة متّعبدِ

وذكر الشـعراء البيـع والصلبـان والهياكل والـنواقيس، وهـى أمكنة الـعبادات وأدواتها عند النصارى.

ففى البيعة يقول ورقة بن نوفل :[6]

أقول إذا صليتُ في كل بيعــــة   تباركتَ قد أكثرت باسمك داعياً

١- انظر جواد علي: ٦/ ٥٩١، ٥٩٢

٢- معجم البلدان : ٤/ ١٣٤، وشعراء النصرانية : ١/ ٩٠

٣- انظر المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلى : ١٠٤- ١٠٧

٤ - ديوان امرىء القيس : ص٧ طبعة دار المعارف بمصر

٥- ديوان النابغة : ص٣٣ طبعة دار الفكر بيروت، «والصرورة هو الذى ترك النساء ـ مادة صرر اللسـان.

٦- الأغاني : ٣/ ١١٩ دار الثقافة ، والمقصود من البيت : لقد خلقت كثيرا من المخلوقات التي تسبح باسمك

وفي البيعة والصلبان يقول بشر بن أبي خازم وقد ذكر قوماً عرجانا(١)

إذا غـدواْ وعصيّ الطلح أرجلـهُم كمـا تُنصّبُ وسط البـيعـة الصُّلبُ

كما ذكر الشعراء أعياد النصارى ، يقول الأعشى في عيد الفصح (٢)

بهم تقـرب يوم الفصح ضـاحـيـة يرجو الاله بما سـدّى وما صنعَـا

وفي عيد السباسب، وهو ما يعرف بعيد السعانين، يقول النابغة الذبياني(٣)

رقـاق النعـال طيـب حـجزاتهـم يحيـون بالرَّيحـان يوم السّبـاسب

كما أن الشعراء كانوا قد نقلوا إلينا بعض أفكار النصارى ومعتقداتهم

إذ كانوا يبكون للخطايا ويطمعون في مغفرة الله، يقول عدي بن زيد:(٤)

رحـم الله مـن بكـى للخطايـا كلٌ بـاك فـذنبـه مغـفـورُ

وكانوا يعرفون الجنة والنار ، يقول عدي بن زيد أيضا

أعاذلُ مَنْ تكتب له النارُ يلقها كفاحاً ومَنْ يكتبْ له السعدُ يَسْعَـد

تلك بعض معتـقدات النصارى في الشعر الجاهلى ، وهى ذات آثار ضـعيفة فى عرب الجـزيرة «ذلك أن الذين وحدت بينهم النصـرانية من العرب ينبـغي أن نعرف أنها لـم تكن عـميقـة في نفوسـهم أو كانوا ملتزمين بأحـكامها بدقـة . . فهم لم يختلـفوا كثـيراً عن غـيرهم من الوثنيين وسـوف نلاحظ أسباب هذا الـضعف فى الفقرة القادمة.

ضعف الأثر النصراني في العرب قبل البعثة

إن ورود شيء من الألفاظ الدالة على أمـور مشاهدة ومسمـوعة، وأمكنة دينية من مواسم وأعـياد، رآها الشاعـر نصرانياً كـان أو غير نصـراني لا يدل على عمق الأثر الدينى عند هؤلاء.

إن ذكر الكنيـسة والدير والصليب والراهبـات أو النواقيس والقناديل، لا يتـخذ

١- الديوان : ص٢٢٦ طبعة دمشق ١٣٩٢ هـ

٢- ديوان الأعشى : ص١١٠، دار بيروت للطباعة ، والنشر

٣- ديوان النابغة : ص٦٣ ويريد أن القوم أعفاء عن الفجور

٤- انظر العصر الجاهلى : شوقي ضيف (ص١٠٠ـ ١٠١) طبعة دار المعارف بمصر.

دليلاً على نصرانية الشاعر [1] ومثل هذا دفع بعض المتعصبين إلى القول: بعمق هذا الأثر الديني في شعراء الجاهلية ، بل زعم أن كل الشعراء الجاهليين كانوا نصارى يريد أن يقول : إن الطبقة الواعية المستنيرة كانت من النصارى دون غيرهم ، ومن هنا وضع كتابه:

شعراء النصرانية

ثم راح يتصيد الألفاظ والعبارات والمعانى الجزئية الدالة على عقيدة الهية ـ أى عقيدة ـ ويتخذ منها دليلاً على نصرانية الشاعر، مما حدا بالدكتور جواد على أن يسخر من الأب بقوله : لقد بقي على الأب لويس شيخو أن يبين لنا المذهب النصرانى الذى كان يعتنقه كل شاعر من هؤلاء الشعراء[2]

إن فهم الشعراء ـ حتى النصارى منهم) لهذا الدين وقضاياه الأساسية كان فهمامتواضعاً، وفيه خلط وتخليط كثير حتى أنك لتجد الشاعر منهم يجمع بين دينه النصرانى ودين الوثنيين كالذى تراه عند عدي بن زيد حينما قال[3] .

سعى الأعداء لا يألون شراً ... عليَّ وربِّ مكة والصليب

فتراه يجمع بين دين النصارى ودين الوثنيين . . رب مكة.

إن النصرانية لم تستطع أن تغير من واقع العرب الذين اعتنقوها ولم تنتزعهم من وثنيتهم التي كانوا عليها، وذلك أن النصرانية العربية كانت صدى وصورة للنصرانية الشائهة المشوهة بطبعها في غير بلاد العرب سواء في الناحية العقدية أو الواقع السلوكي[4]

من ذلك مثلاً إساءة بعض الرهبان التصرف فى الأموال التي كانت تقدم إلى الأديرة والهياكل والبيع، فأصبحوا يعيشون بها «عيشة مترفة، لا تتفق مع ما ينادون به من التقشف والزهد والعبادة» [5]

لقد تمثل التأثير السطحى في حمل الصليب وأكل لحم الخنزير، وقول النصارى إن لله ولدا أو عدم الاختتان. وما عدا ذلك:

١- تيارات عقدية وثقافية : ص٦٨ : ٧٠

٢- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦/ ٥٧٢

٣- الأغانى : ٢/ ١٠٢

٤- تيارات عقدية وثقافية فى الأدب الجاهلى ص٦١-ص٦٢

٥- تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي ، ٦/ ٦٤٣

فنصارى العرب يشتركون مع غيرهم من الوثنيين في الميل الشديد إلى الغزو والأخذ بالثأر خلافاً لمعتقد النصارى: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر».

ومن هنا رأينا أن الشاعر الجاهلى النصرانى «جابر بن حُني التغلبى».

يعلن ألا سبيل إلى العزة إلا بالخروج على النـصرانية والتمسك بأعراف الجاهلية المتمثلة في معلقة عمرو بن كلثوم.

يقول جابر فى مواجهته قبيلة بهراء منكـراً أنهم يختلفون عن بقية قبائل العرب في القتال وإراقة الدماء:

وقد زعمتْ بهراءُ أنّ رماحنـــــا رماحُ نصارى لا تخوض إلى الدّم

* ويشتـركون مع العـرب الوثنيـين في استحـلال الغنائـم والمرباع ما دامـوا قد استحلوا القتال والدم والأخذ بالثأر[1]

ولذلك فـإن عدي بن حاتم الـطائى أجاب رسـول الله ﷺ لما سـأله: « أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟

قال: بلى!قال الرسولﷺ : إن ذلك لم يكـن يحل لك في دينك ، فقال أجل والله، وأعلن إسلامه» [2]

أضف إلى ماتـقدم سببين آخرين فـى عدم عمق النصرانـية وفي سطحيتـها عند أتباعها وعند أهل الجاهلية هما.

أ- أن في النصرانية مبادىء أساسية معقدة لم يفهمها العقل العربى ولا غيره من العقول ـ ولم يـستسغها مثل: عـقيدة الصلب والتثـليث والخطيئة والغـفران، فهى أمور غيـر مفهومة حتـى لدى كبار النصـارى وحكمائهم وفـلاسفتهم. لقـد كانت النصرانيةمعقدة لا يُعلم كنهها بل إنها أصبحت «مزيجاً من الخرافة اليونانية والوثنية الرومية والرهبانية، لقـد اضمحلت في جنبها تعاليم المسيح «البسـيطة» كما تتلاشى القَطرة في اليم، وعادت نسيجا خشبيا من معتقدات وتقاليد لا تغذي الروح، ولا تمد العقل ، ولا تشعل العاطفة ، ولا تحل معضلات الحيـاة ولا تنير السـبيل ، بل

١- تيارات عقدية وثقافية في الأدب الجاهلى : ص٦٤ -٦٥

٢- سيرة ابن هشام : ٢/ ٥٨٠ ، طبعة مصطفى البابي الحلبى

أصبحت بزيادات المحرفين وتأويل الجاهلين تحول بين الإنسان والعلم والفكر وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية»[1].

ب- أن النصارى اتصفوا في حياتهم وسلوكهم بأشياء يستقذرها العربي ويأنف منها، مثل الاتجار بالخمور وما يصحبه من تجارة الجنس والقيان والمغنيات في الحانات والخمارات[2]

يقول الجاحظ في رسالة الرد على النصارى: «إن من استقذر حرفة رجل، وعمله، سحب استقذاره وكراهيته على دينه ومعتقده» ويبسط الجاحظ الحديث في هذا الجانب فيقول «والنصراني.. وإن كان أنظف ثوباً (من اليهودي) وأحسن صناعة، وأقل مساخة، فإن باطنه الأم وأقذر وأسمج، لأنه أغلف، ولا يغتسل من الجنابة ويأكل لحم الخنزير وامرأته جنب لا تطهر من الحيض ولا من النفاس يغشاها في الطمث.

وهم مع غلبة شهواتهم ليس في دينهم مزاجر.. كالحدود والقود والقصاص في الدنيا، وهل يصلح الدنيا من هو كما قلنا؟ وهل يهيج الفساد إلا من وصفنا؟!![3] ومن أعجب العجب أن يشارك أهل الكتاب من نصارى ويهود العرب، المشركين في شركهم ويشجعوهم عليه.

ولكن هذا العجب سرعان ما يزول إذا ذكرنا قول ابن تيمية رحمه الله يصف حالهم بقوله:

«إن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه، والنصارى عبدوا الله بغير علم»[4]

هذا ما كان من أثر الأديان السماوية على العرب، وهو أثر ضعيف كما لاحظنا، وبقيت جزيرة العرب في دياجير الشرك وظلمات الوثنية تتخبط إلى أن أشرق نور الإسلام، وعم البشرية بالخير والهداية.

١- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي ص٤٢، طبعة الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الإسلامية سنة ١٤٠١ هـ

٢- تيارات عقدية وثقافية ص٦٦

٣- الرد على النصارى في مجموعة ثلاث رسائل ص٢١، نشر يوشع فنكل المطبعة السلفية

٤- الرسالة التدمرية: ٧٥ لابن تيمية رحمه الله..

الفصل الخامس

أديــان أخــرى

١- عبادة الكواكب .

٢- عبادة النار «المجوسية» .

٣- الصابئة.

٤- عبادة الملائكة والجن.

٥- عبادة الشجر.

٦- الدهريون .

١ - عبادة الكواكب

عرفت أنواع أخرى من العبادة، وأشكال من الـوثنية عند العرب قبل الإسلام، وسوف نتحدث عن هذه الأديان بشكل موجز، لنلقى الضوء على الحياة الدينية في تلك المرحلة من الزمن اسـتكمالاً للبـحث ، وتفسـيراً للتـيارات العقـدية آنذاك، ويرى بعض العلمـاء أن عبادة أهل الجـاهلية هي عبـادة كواكب في الأصل ، وأن أسماء الأصنام والآلهة وإن تعددت وكثرت، إلا أنها ترجع كلها إلى ثالوث سماوي هو: الشمس والقمر والزهرة.

وقد لفت الجـرمان السـماو يان الشمس والقـمر نظر الإنسـان إليهمـا بصورة خاصة لما أدرك ما لهما من أثر فى الإنسـان وطباعه وعمله، وفي الجو الذى يعيش فيه.. إضافة إلى مالهما من مظهر جذاب ولون باهر خلاب.

وقد اعتبر الجاهليون القمر أبا، وصار هو الإله المقدم ، وكـبير الآلهة في هذا الثالوث ، بل صارت له منزلة خاصة في ديانة عرب الجنوب.

وكان يطلق عليه «وَدّ» أى رب الأرباب، أبو الآلهة وأبو الإنسـان الذى يعبده عند معين.

ويطلق عليـه الإله «المقَّة» عند سبـأ، فهو إلهها الـكبير، «وسنّ وسين» عند الحضارمة، واتخذ هؤلاء الثور من الحيوانات رمزاً للقمر»[1]

وقد اتخذوا له صنما على شكل عجل، وبيد الصنم جوهرة.

وكان الـوثنيون يعـبدونه ويسـجدون له، ويصـومون له أيامـاً معلومـة من كل شهر[2] وقد تعبـد العرب للشمس في مواضع مخـتلفة من جزيرة العرب، وتعـتبر «إلهة» لأنها أنثى فى العربية، وهم يتصورون فيها قدرة خارقة، وقوة غير منظورة،

١-انظر تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد علي،٦/ ٥٠-٥٤

٢- بلوغ الأرب : الالوسـى ،٢/ ٢١٦

وكامنة فيها. وسمى عدد من الأشخاص بـ «عبد شمس في الجاهلية» [1] وعبدت حمير الشمس قبل أن تتهود، ومن عبدتها قوم بلقيس، قال تعالى على لسان الهدهد : ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ [سورة النمل / ٢٤]

وقد اتخذوا إلها صنما بيده جوهر على لون النار، وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة وله سدنة وحجبة.

كان عباده يأتون البيت ويصلون فيه ثلاث كرات في اليوم، ويأتى أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفعون به، فإذا طلعت الشمس سجدوا لها، وإذا غربت وإذا توسطت الفلك ، ولهذا يقارنها الشيطان لتقع عبادتهم وسجودهم للشيطان، ولذلك نهى النبيﷺ المسلمين عن تحرى الصلاة في هذه الأوقات سداً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام [2] ويلي كوكب الزهرة الشمس والقمر، وهي ذُكَر في النصوص الجنوبية، ويسمى «عثتر» ، وهو بمثابة الابن للشمس والقمر [3]

وعبدت طائفة من العرب أجراماً سماوية أخرى، تقربوا إليها بالنذور والصلوات، فقد عبدت طائفة من تميم «الدّ بران» ، وعبد بعض العرب من قبائل لخم وخزاعة وقريش «الشعرى العبور» وهي التي عناها الله تعالى في قوله: ﴿وإنه هو رب الشّعْرى﴾وبعض طيء عبدوا «الثريا» [4]

ولما أشرق الإسلام ، هدم عبادة الكواكب وحرم السجود للشمس والقمر، والصلاة لهما، وحاول اجتثاث كل ماله صلة بتلك العبادة.

١-جواد على : ٦/٥٥

٢- بلوغ الأرب : ٢/٢١٥، ٢٣٧

٣- تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦/٥٦

٤- بلوغ الأرب : ٢/٢٣٩-٢٤٠

قال تعالى: ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذى خلقهن إنْ كنتم إياه تعبدون﴾ [فصلت الآية ٣٧]

وقد يكون من بقايا عبادة الشمس أن الأطفال كانوا يتقربون إليها بأسنانهم التي يخلعونها منادين إياها أن تعطيهم أسنان غزال، أى أسنانا جميلة بيضاء [1] إلى غير ذلك من أساطير يعرفها الأعراب، وكثير من أطفال الأرياف في بلاد العرب حتى اليوم.

١- تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦٠/١٧٧.

٢- المجوسية «عبادة النار»

أصحـاب هذه النحلة هم المجوس القـائلون بالأصلين «وهما النور والـظلمة ، يزعمون أن الخير من فعل النور، وأن الشر من فعل الظلمة»[١]

وقد أشـار القرآن الكريم إلى هؤلاء في الآية: ﴿ **إن الذين آمنـوا والذين هادوا والصـابئين والنصـارى والمجـوس والذين أشـركـوا، إن الله يفـصل بينهم يوم القيامة..**﴾[سورة الحج :١٧]

والمجوسيـة من الكلمات المعربة، عربت مـن كلمة «مغوس» الفارسـية، وتعني عابد النار[٢] وعبد بعض العـرب النار، ولعل هذه العقيدة سرت إليـهم من مجوس الفرس، إذ يفضل هؤلاء عبادة النار، ويفضلون النار على التراب ، ويصوبون رأى إبليس في استكباره أن يسجـد لآدم، وروي أن بشار بن برد كان على هذا المذهب لقوله: [٣]

إبليس أفـــضل مـن أبيـكم آدم ... فـتـبـينوا يا مـعـشـر الأشـرار
النـار، عـنـصـر وآدم طـيـنـة ... والطين لا يـسـمـو سـمـو النار
والأرض مظلمـة والنار مـشـرقـة ... والنار مـعـبـودة مـذ كـانت النار

وفى أخبـار أهل الأخبار ما يفـيد بتمـجس بعض العرب، اذ تشير الأخـبار إلى وجود للمزدكية والمجوسية في تميم، فقد ورد أن زرارة بن عدس وابن حاجب بن زرارة، وهما من سادات تميم كانا قد اعتنقا المجوسية[٤]

ولا يستبعد أن يكون بعض الأشخاص قد اعتنقوا المجوسية إذ كان للفرس دور

١- لسان العرب:٦/ ٢١٣و تاج العروس : ٤/ ٢٤٥ «مجس»
٢- بلوغ الأرب: ٢/ ٢٣٣
٣- الأغاني: ٣/ ٢٤
٤- بلوغ الأرب: ٢/ ٢٣٣-٢٣٥ (باختصار)

كبير في طرد الأحباش من اليمن، وقد جاء الإسلام وفي اليمن جالية الفرس عرفوا فيما بين العرب بالأبناء (١)

ومن آثار تقديس النار عند العرب:

* أنهم حلفوا بها ، فكانت لهم نار فى اليمن، ولها سدنة، فإذا تفاقم أمر بين قوم وحلفوا بها، انقطع ما بينهم من تعاد، وسموها «المهولة» ، وذكر الطبري في تاريخه أنه كان «لهم نار في اليمن زعم أهلها أنها تحكم بينهم فيما يختلفون فيه، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم».

وقال أوس بن حجر:

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه
كما صد عن نار المهول حالفُ

* وتحالفوا على النار كما تحالفوا على غيرها تقديساً لذلك الحلف.

* واستمطروا بها : فكانوا اذا أجدبوا استمطروا بربط السلع والعشر بأذناب البقر وأضرموا فيها النار، ويذكر الجاحظ أنهم كانوا يجمعون ما يقدرون عليه من البقر ثم يعقدون في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر، ثم يصعدون بها في جبل وعر ويشعلون فيها النيران ويضجون بالدعاء والتضرع، ويرون أن ذلك من أسباب السقيا (٢)

أما شريعة المجوس: فتتلخص فى عبادة النار والصلاة إلى الشمس، ويتأولون أنها ملكة العالم ، وهي التي تأتي في النهار وتذهب في الليل.

١- انظر السيرة النبوية لابن هشام :(١/٦٨-٧٠) ت السقا

٢- الحياة العربية من الشعر الجاهلى : الحوفي ،ص٤٢٥ - ٤٢٦

ورغم انتشار المجوسية بين بعض العرب إلا أن أثرها كان ضئيلا جدا بينهم، ونعنى بذلك من اعتقد المجوسية واتخذها ديناً له.

وتحيي الحيوان والنبات، وترد الحركات إلى أجسادها.

وكان المجـوس لا يدفنون موتاهم في الأرض تعظيـماً لها، ولا يغـتسلون بالماء تعظيما له، لأن به حياة كل شيء ، بل يغسلون وجوههم ببول الإبل تبركا به..

وكانوا يستـحلون فروج الأمهات وهم يرون في الأفـعال خيراً وشـراً، وأثبتوا إلهين، وقالوا: أحدهما نور حكيم لا يفعل إلا الخير، والآخر شيطان هو ظلمة لا يفعل إلا الشر[١]

وعموما فالمجوسية تحتوي على كثير من الفرق المتشابهة والتى ترجع فى جملتها إلى الثنوية، ومن ذلك المانوية والزرادشتية والمزدكية وغيرها[٢]

ويرى بعض أهل الأخبار، أن بعض العـرب كانوا من الثنوية القائلين بالأصلين النور والظلمة: الخير والشر ، ولعل الزنادقـة الذين ظهروا فى العصر العباسى من أتباع هؤلاء ، يقول ابن قـتيبة في في كتابه «المعارف» «وكـانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة» ولعل ابن قتيبة يقـصد من الزندقة هذه اعتقاد الثنوية أو القائل بالنور والظلـمة، وفـي الصحـاح: الزنـديق من الثنوية، وكـذلك في القـامـوس المحـيط، الزنديق بالـكسـر من الثنوية أو القـائل بالنور والـظلمـة أو من لا يؤمن بالآخرة.. أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان[٣]

١- تلبيس إبليس لابن الجوزى : ص٧٥-٧٦، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

٢- انظر الملل والنحل: محمد عبد الكريم الشهرستانى ٢/ ٧٠ وما بعدها على هامش الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، ط٢ سنة ١٣٩٥ دار المعرفة بيروت .

٣- بلوغ الأرب: ٢/٢٢٨ -٢٢٩ .

٣- الصابئة

هذه نحلة أخرى كان أهلهـا بجزيرة الموصل ، يقولون: «لا إله إلا الله» وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول لا إله إلا الله..

ولم يؤمنوا برسـول ، ومن أجل ذلك كان المشركـون يقولون للنبي وأصـحابه هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم ، يعني في قول لا إله إلا الله.(١)

والمطلع على ما يروى من تفسيرات لهـذه الطائفة وتحديد دينهم يقف حائرا بين جملة الآراء المتباينة حتى يصعب الخروج منها بنتيـجة مرضية تدل على حقيقة هذه الطائفة، وتصور لنا دينها (٢)

وقد اخـتلف الناس فيـهم اختلافـا كبيـراً، ومن أسباب اخـتلاف العلمـاء قديماً وحديثاً أن رجال الدين الصابئ يتكتمون على معتقدات دينهم ، حتى على معتنقى هذا الدين أنفسـهم.. فضـلاً على أن الصابئة عـموما يصطنـعون التقـية ويؤثرون العزلة والانزواء عن غيرهم.(٣)

ويرى بعض العلمـاء أن الصابئة ينـقسمـون إلى قسمين : مـؤمن وكافـر ، قال تعالى ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليـوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ .

وكان هؤلاء من أهل دعوة إبراهيم الخليل، ويقيمون في حرّان،وكانوا قسمين: صابئة حنفـاء ، وصابئة مشركين « أما تسـميتهم صابئة حنفـاء فمرد ذلك إلى أنهم وافقوا الحنيـفية من حيث العقـيدة: فى التوحيد، ومن حـيث الشريعة: في بعض مبـادئها، لذلك صح تسـميتـهم بحنفاء، وفارقـوا الحنيفيـة في أفكارهم أن يكون الوسيط «أي النبى» بشرياً».

١- تفسير ابن كثير: ١٤٩/١، طبعة دار الشعب بالقاهرة

٢- انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي : (٧٤،٧٥)

٣- أدب الحنيفية : حبيب بن حنش الزهرانى ص٦٠

أما قولهم بوسائط الكواكب لروحانيتها ونورانيتها فيقول الألوسي: «ولهذا لم تكن الصابئة من الأمم المستقلة التي لها كتاب ونبي، وإن كانوا من أهل دعوة الرسل، فما من أمة إلا وقد أقام الله عليها حججه، وقطع عنه حجتها، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وتكون حجته عليهم»[1]

أما المشركون منهم: فيعظمون الكواكب السبعة ، والبروج الاثنى عشر ، ويصورونها في هياكلهم.

ويعتقدون فى الأنواء اعتقاد المنجمين في الكواكب السيارة، وهكذا كان أحدهم لايتحرك ولا يسكن ولا يسافر ، ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء، ويقول : مطرنا بنوء كذا.

وهنالك فرقة منهم: كانوا يوافقون المسلمين في عباداتهم ويأخذون محاسن ديانات العالم ومذاهبهم، ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً وعملا. لهذا سموا: صابئة، أى خارجين، فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين وتفصيله[2]

والمقصود أن الصابئة فرق : فصابئة حنفاء ، وصابئة مشركون، وصابئة فلاسفة، وصابئة يأخذون بمحاسن ما عليه أهل الملل والنحل من غير تقيد بملة ولا نحلة[3]

وتدل الدراسات الحديثة أن من أهم شعائر الصابئة، الانغماس فى الماء والاغتسال بكثرة منه،والتوجه في عبادتهم إلى القطب الشمالي، ولهم في اليوم ثلاث صلوات، يكتفون فيها بالقيام والركوع، وهم يصومون بتحريم اللحم فقط

١-بلوغ الأرب: جـ ٢/ ص٢٢٥، الالوسي

٢- بلوغ الأرب: ٢/ ٢٢٣ -٢٢٥، وانظر جواد على في تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦/ ٧٠٢-٧٠٣

٣ - بلوغ الأرب: ٢/ ٢٢٥

على أنفسهم خلال الصوم، كما أنهم عرفوا بتوقير الكعبة[1] ورغم أن الصابئة طائفة دينية قديمة جدا، إلا أنه لا يزال لأتباعها بقية باقية في العراق ، وجنوب إيران حتى يومنا هذا.

ولا يزال لهؤلاء الأتباع قيم وطقوس، وشعائر دينية خاصة، ولهم لغة وحروف أبجدية مستقلة، ولهم كتبهم الدينية الخاصة.[2]

١- الصابئون : حرانيين ومندائيين ، ص٢٠، ٩٧ رشدي عليان، طبعة دار السلام بغداد ١٩٧٦م
٢- أدب الحنيفية: حبيب بن حنشي الزهراني ، ص٥٩

٤ـ عبادة الملائكة والجن

عرف أهل الجاهلية الملائكة، وذكرهم بعض الشعراء من أهل الجاهلية، إلا أن هؤلاء خلطوا في معرفتهم للملائكة الحقائق بالأساطير، ومن ثم عبد بعضهم الملائكة [١] يقول تعالى **﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾**[سورة سبأ ٤٠-٤١]

وتدل هذه الآية أن هناك من كان يعبد الملائكة ، وغير بعيد أن تكون هذه العبادة على شاكلة عبادة الأصنام، وأن عابديها أرادوا أن تقربهم إلى الله زلفى خاصة وأنهم كانوا يعتقدون قرابة ونسباً، بين الله والملائكة ، وأنها بنات الله، تعالى عن ذلك ومن اعتقد ذلك فلا ريب أنه يطمع في شفاعة هؤلاء المقربين له، يقول تعالى منددا بقربة نسب الملائكة إليه: **﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين، واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾** [الإسراء : ٤٠]

وكانوا في الجاهلية يسمون الملائكة عليهم السلام جناً لاستتارهم عن العيون، قال الأعشى يذكر سليمان عليه السلام:

وسخر من جن الملائكة تسعة قياما لديه يعملون بلا أجر[٢]

ومن عرب الجاهلية من عبدوا الجن: وهم شرذمة قليلون من أهل البوادى، وقد حكى الله تعالى عنهم **﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾** وقال تعالى **﴿بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾**

زادوهم رهقا: أى كبراً وغياً وعتوا بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم، فإن الرجل كان إذا أمسى بقفر قال: «أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه»[٣]

١- سنفصل الحديث عن معرفة أهل الجاهلية للملائكة في الباب الثانى من هذا الكتاب: المعتقدات الدينية»

٢- انظر تفسير ابن كثير : ١٣٨/١ طبعة دار المعرفة، والمعتقدات والقيم في الشعر الجاهلى : ص١٩-٢٣، وادب الحنيفية ص٢٤٢-٢٤٥

٣- بلوغ الأرب: ٢/ ٢٣٢

ولقد لعب الإيمان بالجن عند بعض الجاهلين دوراً فاق الدور الـذى لعبته الآلهة فى نحلتهم ، فنسبوا إليها أعمالاً لم ينسبوها إلى الأرباب وتقربوا إليها لاسترضائها أكثر من تقربهم للآلهة.

وقد صور القـرآن عقيدة أهل الجاهليـة في الجن ،إذ جعلوا بين الله وبين الجن نسباً **﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسـباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحـضرون﴾**[الصافات: ١٥٨] وأنهم جعلوا الجن شركاء لله **﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون﴾**[الأنعام: ١٠٠]

وأهم مـواطن الجن في نظر أهل الجـاهليـة هي المواضع الموحـشة، والأمـاكن المقفرة والمقابر والأماكن المظلمة والمهجورة(١)

ولذلك كـانوا يستـجيـرون برجال من الجـن في أسفـارهم إذا نزلوا منازلهم ، يقولـون: «نعوذ بأعز أهل هـذا المكان، أو يقول أحـدهم : إنى أعوذ بكبـير هذا الوادي»(٢) وقد جاء فى كتاب الأصنام: أن مُليحْ من خزاعة(٣) كانوا يعبدون الجن، وأنه فيهم نزلت الآية الكريمة **﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾**.

ومن هنا كان تعوذهم بالجن مـتناسين أن العزة للهجمعيـاً وأن القدرة لله وحده، خالق الجن وخالق إبليس، وخالق الملائكة والناس أجمعين.

وسوف نفصل القول في مـعتقدات أهل الجاهلية في الجن مستـشهدين بأشعار شعرائهـم،وسنشير إلى كثـرة الأساطير والخرافـات عندهم فـي الفصـل القـادم إن شاء الله(٤)

١- انظر جواد علي: ٦/ ٧٠٥-٧١٨

٢- بلوغ الأرب : ٢/ ٣٢٥

٣- كتاب الأصنام لابن الكلبي : ص٣٤

٤- انظر : الباب الثاني من هذا الكتاب

٥- وعبد بعضهم الشجر(١)

كما عبدوا الصنم وهم فى هذا وذاك يعتقدون أن قوة إلهية حلت في المعبود.

من ذلك ما أشرنا إليه خلال حديثنا عن صنم العزى، فقد اعتقد العرب أن العزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة، فلما افتتح النبىﷺ مكة، أمر خالد ابن الوليد بعضد الشجرات الثلاث.

ومن ذلك شجرة ذات أنواط: وهي من شجر الطلح الشائك لا يظل ولا يثمر، كانوا يعظمونها فى الجاهلية، وقال ابن الأثير في سبب تسميتها: إنها سميت بذلك لأن المشركين كانوا ينوطون بها سلاحهم ، ويعكفون حولها. وكان أهل نجران قبل اعتناقهم المسيحية يعبدون نخلة طويلة لها عيد في كل سنة، فإذا كان العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه، وعلقوا حلي النساء ،ثم خرجوا إليها فعكفوا عليها يوما.(٢)

١- انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ص٤٢٨ -٤٣١

٢- انظر السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٣٣ تحقيق مصطفي السقا وزملائه ، طبعة البابى الحلبى سنة ١٩٥٥م.

٦- الدهريـون

وهم الذين قالوا ﴿ما هي إلا حيـاتنا الدنيا نموت ونـحيا وما يهلكـنا إلا الدهر﴾ [الجاثية: ٢٣] يقصدون بالدهر مرور الزمن، وقد نـسبوا الإهلاك للدهر بمعنى مرور الزمن، فآمنوا بالأسباب الظاهرة وجعلوها هي الأسباب الفاعلة بذاتها[١]

لقد أنكر الـدهريون الخالق والبعث والإعادة ، ويرون أن الـعالم لا يخرب ولا يبيد، بل الطبع هو المحيي، والدهر هو المغني. قال قائلهم:

مـنع الـبـقاء تـقلـبُ الـشمـس — وطلـوعُهـا من حيـث لا تُمـسي
وطـلـوعـهـا حـمـراء صـافـيـة — وغـروبـهـا صـفـراء كـالـورس
تجري علـى كبد السمـاء كـــما — يجـري حِمامُ المـوت في النـفس
اليـوم أعلم مـــا يجـيء بـــه — ومضى بـفصل قضـائه أمس[٢]

وكان أهل الجـاهلية يضـيفون النوازل إلـى الدهر، فيـقولون: أصابتـهم قوارع الدهر وحوادثه ، وأبادهم الدهر وقد ذكروا ذلك في أشعارهم:[٣]

ديـار بنـي سعـد بن ثـعلـبة الألـى
أذاع بهـم دهر عـلى الـناس دائـب
فأذهبهم ما أذهب الناس قبلهم: ضراس الحروب والمنايا العواقب

وكان هذا الاعتقاد راسخاً في نفوس كثـير من الجاهليين حتى إذا جاء الإسلام قال رسـول اللهﷺ: «لا تسبوا الـدهر فإن الله هو الـدهر»[٤] ويعبر أهل الجـاهلية

١-كتاب لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة : محمد قطب ص١٦-١٧

٢- بلوغ الأرب: ٢/ ٢٢١-٢٢٣.

٣- تاج العروس : ٣/ ٢١٨ «دهر»

٤- الحديث : رواه مسلم عن أبي هريرة./ صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ٢/ ١٢٢.

بلفظ «الزمان» عن معنى الدهر كذلك، ونجد شعراءهم كثيراً ما يذكرون غدر الزمان وكذبه وما شابه ذلك[1]

ويشبه هؤلاء كثيرٌ من مشركي الجاهلية المعاصرة الذين ينسبون الفاعلية في الكون إلى «القوانين الطبيعية» ويتحدثون عنها كأنها ذات قوة حتمية[2]

هذه نبذة عن أديان العرب المختلفة، تياراتها المتنافرة وتصوراتها المتناثرة هنا وهناك في بلاد الجزيرة.

وسوف نرى آثار هذا الخليط من العقائد والتصورات والعادات والأساطير، على معتقدات القوم، وخلال عباداتهم وتصرفاتهم وأخلاقهم، في الأبواب القادمة إن شاء الله.

١-انظر المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد على، ٦/ ١٣٦ -١٥١.

٢- كتاب: لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة للأستاذ محمد قطب، ص١٧.

الباب الثانى

المعتقدات الدينية في الجاهلية والإسلام

وفيه ستة فصول:

١- **الفصل الأول:** الإيمان بالله جل وعلا

٢- **الفصل الثاني:** الإيمان بالملائكة

٣- **الفصل الثالث :** الإيمان بالكتب السماوية

٤- **الفصل الرابع :** الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام

٥- **الفصل الخامس :** الإيمان باليوم الآخر.

٦- **الفصل السادس:** الإيمان بالقضاء والقدر.

المعتقدات الدينية

تمهـــيد

سوف نتحدث في هذا الباب عن المعتقـدات الدينية عند العرب قبل البعثة، وهي خليط متنافر من بقايا ديانة التوحيـد ، ومن الوثنية والأديان الأخرى الشركية التى كان لها وجود في جزيرة العرب، كما عرفنا ذلك في الباب الأول.

ونعني بالمعـتقدات الديـنية عند أهل الجـاهلية، تلك المعـتقدات التي لـها صلة بالدين، سواء اعتقـدها الشاعر بقلبه وعبر عنها بلـسانه، أو بدت آثارها في أفعاله، أو كان يعـتقدها بقلبـه ويعبر عنها بلـسانه، ثم يبدو من أفعـاله مايناقضـها، وتلك طبيعة في البـشر أصيلة، وقد كان للعرب في الجـاهلية معرفة بكثيـر من المعتقدات الدينية التي لا يعـرفها إلا أصحـاب الديانات السماوية، وإن كـانوا قد خلطوا تلك المعـتقدات الديـنية بمعـتقدات خـرافيـة وأسطورية، وانتشـرت تلك الخرافـات في أشعارهم انتشار المعتقدات الدينية أو يزيد[1]

كانت هذه المعتقدات عـبارة عن مفاهيم مختلفة، يعرضها الشـاعر في مناسبة ما في سرعة واقتضاب، دون عمق ولا تأمل إجمالاً، وحين غدت هذه المدارك الدينية عبـارة عن معـتقدات مـوروثة فقلمـا تجد برهاناً عليـها، أو نقاشـاً فيـها ، بل هي مسلمات ثابتة عندهم [2]

إنّ المعتقدات الدينية التي عرفها العرب قبل الإسـلام كانت كثيرة منها: معرفتهم بوجود الله جل شأنه، ومعرفة كثير من صفاته سبحانه وتعالى

كمـا عرفوا الملائكة الكرام، وبعض الرسـل السابقين عليهم الصـلاة والسلام، وعـرفـوا قضيـة الموت والفناء والبـعث والحسـاب، ولهم اعتـقـاد بعـالم الجن والشياطين. .

١-المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي: ص٣٠

٢- ملامح الفكر الدينى فى الشعر الجاهلى : د. صادق مكي، دار الفكر اللبناني بيروت ص٧٥

وعبروا عن ذلك كله في أشعارهم تعبيراً يوضح لنا مجمل معتقداتهم صحيحة حيناً ومحرفة حيناً آخر . . وستتحدث كذلك في هذا الباب عن وضوح العقيدة في الإسلام، وكيف أنار الدين الجديد ـ على العرب خاصة والعالم عامة ـ معالم الضياء ، إذ قوم ما انحرف وقرر المعتقدات التي تنبثق من التوحيد الخالص بعد أن هدم رواسب الوثنية وبقايا الشرك، وذلك بعد صراع دام سنوات طويلة، هي الفترة المكية كلها، والعهد المدني، عهد إقامة دولة الإسلام، ونشر عقيدته في جزيرة العرب ثم فى أنحاء العالم كله . .

لقد ركز الإسلام على صفاء العقيدة، ونقاء التوحيد ليجتث بقايا الجاهلية، فكانت لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، أساس العقيدة، ومنهاج الحياة عند المسلمين ومن ثم انبثق من هاتين الشهادتين دستور هذه الأمة، في الاعتماد على الكتاب والسنة، وموالاة المؤمنين ومعاداة المشركين . .

ولذلك سيكون موضوع المعتقدات الدينية أطول فصول هذا الكتاب ، وأدقها لأن الانحراف العقدى مهما كان ضئيلا، يترتب عليه انحرافات خطيرة قد تودى بإسلام المرء وإيمانه.

الفصل الأول

الإيمان بالله سبحانه وتعالى

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معرفة الله وصفاته عند أهل الجاهلية

١ - الله جلّ وعلا في تصور أهل الجاهلية

٢- صفات الله سبحانه وتعالى كما عرفها أهل الجاهلية

٣- وقفة مع الإيمان بالله عند العرب قبل البعثة

المبحث الثاني: الإيمان بالله وحده ينقذ البشرية من ضلالها

١ - شهادة أن لا إله إلا الله

٢- الإيمان بالله والتوحيد الخالص

٣- شعب الإيمان

٤- الحب في الله والبغض فى الله: من لوازم لا إله إلا الله.

١ - الله جل وعلا في تصور أهل الجاهلية

كلمة الإله: تعني لغة المألوه أى المعبود ، وهو الذى يستحق العبادة لما اتصف به من صفات الكمال. ولفظ الجلالة الذي هو الله: علم على ذاته سبحانه وهو أعرف المعارف على الإطلاق ، وكونه سبحانه مستحقا للألوهية، مستلزما لصفات الكمال، فلا يستحق أن يكون معبوداً لذاته إلا هو، وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل، وعبادة غيره، وحب غيره يوجب الفساد.(١)

وإن كلاً من الألوهية والسلطة، تستلزم إحداهما الأخرى ، وأنه لا فرق بينهما من حيث المعنى والروح.

فالذى لا سلطة له لا يمكن أن يكون إلهاً، ولا ينبغي أن يتخذ إلها، وذلك لأن جميع حاجات المرء التى تتعلق بالإله أو التي يضطر المرء لأجلها أن يتخذ أحداً إلها له، لا يمكن قضاء شيء منها دون وجود السلطة.

ولذلك فلا معنى لألوهية من لا سلطان له لأنه مخالف للحقيقة ،ومن النفخ في الرماد أن يرجع إليه المرء ويرجو منه شيئا(٢)

قال تعالى **﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، فمن إله غير الله يأتيكم به﴾**[الانعام :٤٦]

عرف أهل الجاهلية أن لهم رباً خالقاً، وعرفوا بعض صفاته، . . إلا أن هذه المعرفة وحدها ما كانت قد حققت شيئا من معاني الألوهية؟ عرفوا أن الله موجود خالق، ومن ثم فقد انتشر لفظ الجلالة «الله» في أشعار الجاهليين انتشاراً واسعاً، ينم عن معرفة غالبيتهم بالله جل شأنه، ومعرفة كثير من صفاته وقدراته (٣) لكن ذلك كله لم ينف عنهم الشرك الأكبر.

١- انظر العبودية لابن تيمية: ص٥١، الكواشف الجلية: عبد العزيز المحمد السلمان ص١٢، ودرء تعارض العقل والنقل ج١ ص٢٢٦ لابن تيمية.

٢-المصطلحات الأربعة : المودودي ص٢٩

٣-انظر رسالة المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي: ص٦٠-١٩

* فقد عرفـوا أن الله موجود، وأنه حق، وما عداه الباطل وعـرفوا كذلك أنه سبحانه باق خالد، وأن ما عداه فان:

من ذلك ما قاله زهير بن أبي سلمى: (١)

بدا لي أن اللـه حـق فـزادنـي   إلى الحق تقـوى الله مـا قـد بداليـا
بدا لي أن النـاس تفنى نفوسـهم   وأمـوالـهم ولا أرى الدهر فـانيـا

وقال لبيد بن ربيعة :(٢)

ألا كل شيء مـا خـلا اللـه باطـلُ   وكـلُّ نعـيم لا مـحـالة زائلُ

وعرف الجاهليون أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض ومن فيهن.

قال أمية بن أبي الصلت: (٣)

إذا قـيـل مَنْ ربٌّ هذي السّمـا   فليس سـواه له مـضطرِبْ
ولـو قـيل ربٌ سـوى ربِّنـا   لقـال العبـادُ جـميـعـاً كـذِبْ

فأهل الجاهلية كانوا يعترفون بوجود الله فإنه هو رب السماوات والأرض، وهو الذي خلقهن، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولُنّ الله﴾ [الزمر: آية٣٨]

وعرف الشعراء الجاهليون أيضا من آيات الله : الشمس والقمر والشّعرى.

قال النمر بن تولب:(٤)

يا قـوم إني رجـل عندي خـبَـرْ   الله من آيـاته هـذا القَـمـرْ
والشمس والشّعرى وآيات أخرْ

١-ديوان زهير: ص١٠٦، دار صادر ودار بيروت سنة ١٩٦٤م
٢- شرح ديوان لبيد: تحقيق. إحسان عباسي، ط الكويت ١٩٦٢
٣-ديوان أمية: ص٣٤٣ - ٣٤٤، ت د. عبد الحفيظ السطلي، دمشق ١٩٧٤م
٤- الديوان تحقيق د. نوري القيسي، مطبعة المعارف بغداد ص٦٩.

ومن هذه الآيات الأخرى ، الماء والنار، والليل والنهار.

يقول لبيد: (١)

والماء والنيران من آياته فيهن موعظةٌ لمن لم يجْهلِ

ويقول النابغة الجعدي فى الليل والنهار : (٢)

المولج الليل فى النهار وفي الليل نهارٌ يفرِّجُ الظلما

* ويظهر من القرآن الكريم أن قريشا كانوا يؤمنون بإله واحد، خلق الكون، وهو رب السماوات والأرض ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض، وسخر الشمس،والقمر ليقولون الله فأنى يؤفكون** ﴾[العنكبوت : ٦١]

﴿**ولئن سألتهم مَنْ خلق السموات والأرض ، ليقولُنَّ الله ، قل الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون**﴾[لقمان: ٢٥]

* وقد تحدث شعراء الجاهلية كثيرا عن معتقدهم بأن الله هو خالق الناس، وهو الذى يصورهم في الأرحام كيف يشاء.

قال أمية بن أبى الصلت: (٣)

ويث الخلق فيها إذا دحاها فهم سكانها حتى التنادي

«وكان أمية كثير العجائب يذكر في شعره خلق السموات والأرض ويذكر الملائكة. . ، وقد شامّ أهل الكتاب» (٤)

والحقيقة أن المشركين من عرب الجاهلية، لم يكونوا يزعمون أن أحداً غير الله له قدرة على خلق نفسه . قال تعالى ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله.** ﴾[الزخرف ٨٧].

١- ديوان لبيد: ص٢٧٢ ، تحقيق إحسان عباس.

٢- النابغة الجعدي : المكتب الإسلامى بدمشق سنة ١٩٦٤م ص١٢٣.

٣- ديوان أمية : صـ ٢٨٣. .

٤ - طبقات الشعراء : لابن سلام الجمحي، ص٢٢، «ومعنى شامّ : أى خالط ودنا».

وقد ذكر ابن تيمية فى الجواب الصحيح: «أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلها آخر مساوياً له فى الصفات والأفعال، بل ولا كانوا يقولون إن الكواكب والشمس والقمر خلقت العالم، ولا أن الأصنام تخلق شيئا من العالم»[١]

مما يدل على أنهم عرفوا الخالق سبحانه وتعالى ؛ إلا أن فكرة الخالق التى لم تفارق ذهن الجاهلي، ظلت فكرة سقيمة ومشوهة، وخاضعة لتأثير الحس والانفعال لضروب شتي من الأوهام . . وإذا كان الشعر الجاهلى يشير إلى أن الله هو الخالق لهذا الكون، لكن فكرة هذا الإله ما كان لهم أن يقُوُوا على احتمالها إذ بقيت فكرة مجردة دون اللجوء إلى إلباسها ما هو قريب منهم، وما هو محسوس فكانت الاستعانة بالأصنام.[٢]

١- الجواب الصحيح لابن تيمية: ١/ ١٢٠ مطابع المجد التجارية

٢- الشرك الجاهلى وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام : د. يحيى شامي .

٢ـ صفات الله سبحانه وتعالى كما عرفها أهل الجاهلية [١]

لقد تعرض شعراء الجاهلية إلى صفات أخرى لله جل وعلا، غير معرفتهم بأنه موجود خالق.

تحدثوا عن صفات أخرى لله تعالى، حتى ليخيل إلى القارىء فكرة الإله ما ثلة في أذهانهم، تقوى حيناً عند بعضهم وتضعف عند آخرين حينا آخر، فقد يكون الله تعالى بالنسبة للبعض خالقاً مدبراً رقيباً، ويكون بالنسبة لآخرين موجوداً في الذهن، فلا يؤثر هذا الوجود في مجريات الأحداث.

بيد أن من الجاهليين من أنكر وجود الله أصلاً..

ومن أهم الصفات التي وردت في شعر الجاهلين:

أن الله هو الرزاق، الذى يسوق الغيث ويهب الرزق.

قال حاتم الطائى مصوراً هذه العقيدة [٢]

كلوا الآن من رزق الإله وأيسروا   فإن على الرحمن رزقكم غدا

ويقول عبيد بن الأبرص: [٣]

من يسأل الناس يحرموه   وسائل الله لا يخيب

فالرزاق هو الله الذى لا يرد لسائل سؤاله، بل أنه الرزاق لكل الخلائق، سألوه أو لم يسألوه، وهو الذى يسوق المزن، فتهطل الأمطار ويعم الغيث العميم، وذلك مصداقا لقوله تعالى: **﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض فسيقولون الله﴾**[سورة يونس: آية ٣١]

*وعرفوا من صفات الله أنه **الفعال الواقي**، وهو المعين والغالب والنصير، بيده الخير، له في خلقه الأمر والنهى.

---

١ - انظر: ملامح الفكر الدينى في الشعر الجاهلي، د. صادق مكى صـ ٧٨ - ٨٧ والمعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي: صـ١١ - ١٤.

٢- ديوان حاتم: ٤١، دار صادرو بيروت.

٣- ديوان عبيد بن الأبرص ص١٥، ت د. حسين نصار، طبعة الحلبى بمصر سنة ١٣٧٧هـ

يقول نفيل بن حبيب وقد ذكر أبرهة الأشرم وما حدث لأصحاب الفيل: (١)

أين المعز والإلـــه الطالـــب   والأشرم المغلـــوب ليس الغالبُ

فتلك القوة التي عرفـها الجاهليون لله سبحانه وتعـالى ، هي التي جعلت عبد المطلب ، جد الرسول ﷺ . لا يستنصر إلا الله، حين غزا الأحباش البيت الحرام عام الفيل، يقول عبد المطلب: (٢)

اللهـم إن العــبــد يمنع رحْلـه فــامنع رحـــالك

لايغلـبن صليـــبهـــم ومـحـــالهم غـدْوًامـــحـــالك

إن كنت تـاركـــهم وقــبلـتنا فــأمــرٌ مـــا بدا لك

* فلله القدرة المطلقــة يفعل ما يشاء، فــهو يعطي ويقي الشر، قــال عمرو بن كلثوم: (٣)

فلنا الفضـــل عليهم بالـــذى   صنـــع الله، فمن شاء رغـــم

والله يقي من الشر ، نجد هذا المعنى في قول أوس بن حجر: (٤)

فإن يهوَ أقــوام رداي فــإنمــا   يقــيني الإلـــه ما وقى وأصادف

فالله هو الذى يدفع الــشر، مع ثقة الشـاعر بأنه تعالى يقـيه كل ما يلاقـيه من عثرات.

(١- ٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٥٥٠ ، دار المعرفة «المحال : القوة والشدة».

٣- الديوان : ص٣، من منشورات المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٩٢٢م

٤- الديوان : ص٦٤ ، دار صادرو بيروت سنة ١٩٦٠م

* والله هو قاسم الأرزاق والحظوظ بين الناس

قال لبيد في معلقته :

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها

* وهو عالم الغيب الذى لا تخفى عليه خافية.

يقول زهير بن أبى سلمى في معلقته:

فلا تكتمُنّ الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يُكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

والله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم الغيب كل الغيب، بل لا يعلم الغيب إلا هو . يقول حاتم الطائي[1]

أما والذى لا يعلمُ الغيب غيرهُ ويحيي العظام البيض وهي رميم

ويقول لبيد بين ربيعة:[2]

إنما يحفظ التقى الأبرار وإلى الله يستقر القرار

وإلى الله تُرجعون وعند الله وردُ الأمور والإصدار

كل شيء أحصى كتابا وعلماً ولديه تجلت الأسرارُ

وقال أيضاً:

لعمرك ما تدري الطوراق بالحصا ولازاجرات الطير ما الله فاعل

١- ديوان حاتم : ص٨٦، دار صادرو بيروت

٢- ديوان لبيد: ص٤١ ، تحقيق إحسان عباس.

يشير إلى أن طرق الحصا، وزجر الطير لايكشف عما في علم الله.

* وتحدث الشعراء عن صفة العدل: قال النابغة الذبياني [1]

متحدثا عن عدل الله تعالى:

أبى الله إلا عدله ووفاءه

فلا النكرُ معروفٌ ولا العرف ضائعُ

* والله هو الخالد والمنعم والمعين:

قال عبيد بن الأبرص مشيراً إلى هذه الصفات: [2]

وليفنينّ هذا وذاك كلاهما

إلا الإله ووجهه المعبودا

* والله هو الحي الباقي الذي يرث الأرض ومن عليها

قال الممزق العبدي داعياً إلى التهوين من شأن المال، لأن المال لابد أن يرثه الله الباقي: [3]

هون عليك ولا تولَعْ بإشفاق

فإنما مالنا للوارث الباقي

ويقول عبيد بن الأبرص مشيراً إلى نعم الله وعفوه:

حلفت بالله إن الله ذو نعم لمن يشاء وذو عفو وتصفاح

وحول نفس المعنى يقول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

* هذه أبرز الصفات التي أثبتها الجاهليون لله سبحانه وتعالى، ومن هذه

---

١ - ديوان النابغة الذبياني: ص٨٢

٢ -ديوان عبيد : ص٧٠

٣- المفضليات : ص٣٠٠، طبعة دار المعارف

الصفات نتجت فكرة الخوف من الله وأنه هو المرتجى، ومن هنا كان الدعاء والقسم بمختلف أشكاله.

فالخوف من الله : هو الذى جعل الجاهلي يمتنع أحياناً ، عن إتيان الشر، كما أنه هو الذى دعاه لاتخاذ مواقف إيجابية، يقوم فيها ببعض الأعمال طمعاً في الثواب.

واعتقاد الجاهلى بأن الله هو المرتجى : هو الذى جعل الناس يتوجهون في طلب حاجاتهم إليه، ويلجأون إليه في الشدائد ، ومن هنا كان الدعاء والقسم .

أما الدعاء: (١) فقد ورد بصيغ مختلفة، إذ يدعو الشاعر لنفسه وللناس، بالخير أو الشر وكان الجاهليون يلجأون الى الله وقت الشدائد، ولا يدعون معه أحداً عند ذلك ، فإذا فرجت كربتهم عادوا إلى شركهم، قال تعالى مصوراً حالهم **﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾**[العنكبوت ٦٥].

ونجد في الشعر الجاهلى ما يشير إلى الدعاء كقول النابغة الذبيانى يدعو الله أن لا يبعد عنه جيرانه الأعزاء على قلبه إذ يقول:(٢)

لا يبعد الله جيراناً تركتهم   مثل المصابيح تجلو ليلة الظلم

ونجد في شعر قيس بن الخطيم ما يشير الى أنه كان يدعو ربه أن يكافىء جماعته عنه فيقول :(٣)

جزاهم الله عنا أينما ذكروا   لدى المكارم أو عُدتْ به النعم

ومن المأثور في دعاء العرب قولهم: (مسح الله فاه)، (ورماه الله بالذبحة)، (وشتت الله شعبه) ، وفي ذلك اعتراف بوجود الله عندهم.

١- انظر ملامح الفكر الدينى في الشعر الجاهلي: ص٨٧، وجواد علي ٦/ ١٠٥

٢- الديوان : ص١٠٧.

٣-ديوان قيس بن الخطيم: ص٦٥

والقسم: [1] ورد لفظ الجلالة فيه بألفاظ منها:

(لا وبارىء الخلق)،«لا والذى نادى الحجيج له»، وفي معلقة امرىء القيس نجد قسماً بالله تعالى:

فقالت يمين الله مالك حيلـــة

وما إنْ أرى عنك الغواية تنجلي

وأقسم النابغة الذبيانى حين قال: [2]

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة

وليس وراء الله للمرء مذهـــب

كما أنه أقسم ببعض شعائر الجاهليين ومقدساتهم، بعدأن أقسم بمن مسّح كعبته المشرفة، حين. . يقول: [2]

فلا لعمر الذى مسحت كعبتـــه

وماهريق على الأنصاب من جسد

والمؤمن العائذات الطير يمسحهـا

ركبان من مكة بين الغيل والسعـد

فقد قرن الشاعر تقديس الكعبة بتقديس الآلهة ، وأشار إلى بعض شعائر الجاهليين فى العبادة كتقديم القرابين للأصنام ولذلك أقسم الشاعر بها.

وما كان القسم بالله وحده عندهم، فقد أقسم أوس بن حجر بالأصنام وبالله الأكبر يقول: [3]

١- انظر ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلى : ص٨٨-٩٢ وتاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي:٦/١٠٨/ ١١٤

٢- الديوان: ص٣٥

٣- ديوان أوس بن حجر : ٣٦، طبعة بيروت

باللات والعــزى ومن دان دينهـــا

وبالــله إن اللـه منهـن أكــبــــرُ

ومن هذا القبيل قسم زهير بن أبى سلمى: [1]

حلفت بأنصــاب الأقـيصـر جـاهداً

وما سـحقت فـيه المقـاديم والقمل

وقد يكون القسم بالأنصاب وحدها، يقول عمرو بن جابر الحارثى: [2]

حلفــت غطيف لا تنـهنه ســـربهـــا

وحلفت بالأنـصــاب أنْ لا يرعــدوا

ومن الجدير بالذكر أن الجاهليين وإن أقسموا بغير الله، كالقسم بالأصنام، فإنهم كانوا يعدون القسم بالله أكبر واعظم من القسم بسواه كما لاحظنا آنفاً.

«وبينما نجد أهل الأخـبار ينسبون إلى هؤلاء الشـعراء وأمثالهم الاعـتقاد بالله، ينسبون إليهم الحلف بالأصنام والاعتقاد بها، ذلك أن الجاهليين كانوا يقسمون بكل شيء، يقسمــون بالقمر والشجر والحجــر ، والكواكب وبالليل والنهار، وبالأصنام وبعمر الإنسان، لا يرون في ذلك بأساً ولا تناقضاً مع عقيدتهم[3] .

١- كتاب الأصنام لابن الكلبي : ص٣٨

٢- كتاب الأصنام : (٤٣)

٣- تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦/ ١١٤

٣- وقفة مع إيمان أهل الجاهلية بالله سبحانه وتعالى

مما سبق يتبين لنا عدة ملاحظات أهمها:

١- أن العرب قد عـرفوا الله تعالى باسمه الصحـيح وهو «الله» ولم يشركوا معه بهـذا الاسم المفرد أحدا من آلهتـهم التى عبدوها، وعرفـوا كذلك أن الله هو الرب المالك لكل شيء . . عرفوه رباً خالقا رازقا يحيي ويميت . . وهذا هو توحيد الربوبية الذي عرفه العرب في جاهليتهم.

كذلك لاحظنا أن العـرب أثبتوا لله الأسمـاء وصفات سمى الله بهـا نفسه في كتـابه مثـل : العلم والعلام والرازق والمقـسم والمعطي . . وهذه المسائـل جاءت مطابقة لما قرره القرآن الكريم في حق الله تعالى. وقـد حكى القرآن عقيدة العرب الجاهليين فى آيات بينات(١)

قال تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ [الزخرف: ٨٧]

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾[لقمان ٢٥]

على أن القرآن نعى عليهم كفرهم بالبعث واليوم الآخر ، وقد ناقشهم في ذلك كثيرا ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أإذا متنا وكنا ترابا-وعظاما أإنا لمبعوثون ، لقد وعدنـا نحن وآباؤنا إن هـذا إلا أساطير الأولين﴾ [المؤمنون ٧٨- ٨٠] .

واتخذ أهل الجـاهلية لله أنداداً من دونه، اتخـذوا الأصنام والأوثان، وتوسلوا بالملائكة والكواكب وبغيرها لتقربهم إلى الله تعالى:

قال تعالى : ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء، ما نعبدهم إلا ليـقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر ٣].

١- انظر ملامح من دور الإسلام في بناء العمارة العـربية قبل البعثة المحمدية، د. محـمد رشاد خليل ، طبعة أولى سنة ١٩٨٢م ص٦٠٥،٦٠٧

٢- لقد سيطرت على ذهن الجاهلى فكرة وجود إله قوي قادر خالد رقيب، إلا أنه ما كان ليتقيد بوحي هذه الصفات إلا نادراً ،وفى نطاق ضيق.

فالجاهلى ما كان ليـعطينا صورة كاملة عن معتقداته لأنه كان مـضطرباً فيها، بين ماتوارثه من الأجداد، وبين هذه الصورة الباهتةمن أثر الدين في حسه.

فلئن كان مـؤمناً حيناً، تجـده ذا حميـة جاهليـة، ومقاتلا غـازياً فيـه من طباع الجاهلية مالا يقره عليها أى دين

«إن مصدر أفكاره الدينية يعود إلى أمرين:

أ- بقية من مدارك دينية كانت تبشر بها الأديان القائمة فى الجزيرة آنذاك ، كان العربي يتأثر بها بشكل أو بآخر وبمقادير مختلفة.

ب ـ الفطرة الإنسانيةالباحثة عن الحقـيقة، تتلمسها في كل شيء وفي كل مظهر من مظاهر الكون[١]

٣- إنّ معرفـة الله ومعرفة صـفاته، كانت معرفـة ذهنية مجردة، وكـانت عرفاً متوارثاً، واخـتلطت هذه المعرفة بكثيـر من الأوهام والشركيات، شـأن كل جاهلية على وجه الأرض.

«لقد اختلطت عند الشاعر الجاهلى المفاهيم، وابتذل بعضها وسطح حتى خوت وخلت من مضامينها الحقيقيـة، فقد وقع تحت تأثير الشائع والمتعارف عليه . . فلا نكاد نجد روحاً دينيـة تملأ صدر صاحبها ، كمـا نجد فيه من العفوية والـبساطة مالا يجعل له ميزة على سواها ، فيصبح التعبير الدينى أجوفَ فارغاً . .

فالوثنية والتوحيد يجتمـعان في البيت الواحد، وعفو الله ونصرته مطلوبان مع الغزو، وذلك لـتوكيـد شريعـة الظلم والتسلط، ومع الله أوثان تـرتجى، وعادات وتقاليد هي أقوى في النفوس من حق يعمل به أو شريعة تتبع، إلا أن هذا لم يمنع من أن نجد في هذا الشعر الجاهلى بعض المفـاهيم الدينية التى تصور الله تعالى في

١-ملامح الفكر الدينى في الشعر الجاهلى : د. صادق مكي ص١٠٢

الصورة التى عرفناهـا آنفاً، ورسمتها الـديانات الموحدة، فتتحـدث عن عدله تعالى وقدرته وبقية الصفات. .»[1]

٤- فالمعرفـة الذهنية المجردة لصفات اللـه، ما كانت تترجم إلى أعمـال إيجابية عند أهل الجاهلية.

فماذا تفيدهم معرفتهم بوجود الله تعالى؟ عندما يتوجهون في العبادة الى غيره؟

وماذا نفعـتهم معرفتـهم بأن الله هو الخالق الذى لا خالق غيـره، ثم لم يخافوا ولم يتبعوا شريعته؟.

وماذا تنفع الجاهلى عقيدته بأن الله هو الرازق المنعم المتفضل، ثم لم يشكر ربه الرازق على نعمائه؟!

وهكذا عندما تفرغ مـعرفة الله من مضـمونها والعمل بموجبـها ، يكون الشرك وتكون الجاهلية قديماً وحديثاً .

جاء الإسلام وهذه عقـائد القوم المضطربة، فكانت قضية التـوحيد من أهم ما ركز عليه، وذلك مجال حديثنا فى المبحث القادم.

١- ملامح الفكر الدينى : د. صادق مكي ص١٩-٢٠

المبحث الثاني: الإيمان بالله سبحانه وتعالى ينقذ البشرية من ضلالها

تمهيد: لما بعث الله نبيه محمداً ﷺ، كان أهل الأرض صنفين:

أهل كتاب، وزنادقة لا كتاب لهم.

وكان أهل الكتاب نوعين: مغضوب عليهم وضالون **فالصنف الأول**: وهم اليهود، أهل الكذب والبهت والغدر والمكر، قتلة الأنبياء، وأكلة السحت.. لا يرون لمن خالفهم فى كفرهم وتكذيبهم حرمة، ولا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة. **والصنف الثاني**: أمة الضلال وعبّاد الصليب، الذين سبوا الله الخالق مسبة، ما سبه إياها أحد من البشر، ولم يقروا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد.. وفيهم شرب الخمور، وأكل لحم الخنزير، والحلال عندهم ما حلله القسس والرهبان..

وأما من لا كتاب له: فهو بين عابد أوثان، وعابد نيران وعابد شيطان، وصابيء حيران.

يجمعهم الشرك وتكذيب الرسل، وتعطيل الشرائع، وإنكار المعاد وحشر الأجساد(١).

لقد كان فى عقائد العرب قبل البعثة خلط عجيب، ابتعدوا فيه عن الدين الحق الذى أرسل الله به الرسل كافة، فصارت معبوداتهم ركاماً من تقاليد آبائهم وأجدادهم، مع نتف من بقايا الديانات السماوية، وليست هى الدين الذى ارتضاه الله لعباده.

فهاهم مشركو العرب، كانوا يقرون بتوحيد الربوبية وأن خالق السماوات والأرض واحد، كما أخبر تعالى عنهم بقوله **﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾**[لقمان ٢٥] .

١- هداية الحيارى: ص٢٧-٢٨ [بإيجاز] لابن القيم رحمه الله.

وقوله جل وعلا ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله، قل أفلا تذكرون﴾ [المؤمنون ـ ٨٤، ٨٥] وكانوا يدعون الله سبحانه ليلاً ونهاراً، ثم كان منهم من يدعو الملائكة لتقربهم من الله ولتشفع لهم.

ومنهم من كان يدعو رجلاً صالحاً أو نبياً مرسلاً، وقاتلهم رسول الله ﷺ على هذا الشرك، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده، كما قال تعالى ﴿ وأن المساجد لله، فلا تدعوا مع الله أحداً﴾ [الجن (١)-١٨] فكانت النقلة إلى الإيمان بالله وحده نقلة قوية، فاعترفوا له بالملك والسلطان ، والأمر والنهي، ولأنفسهم بالعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا من أنفسهم المقادة، واستسلموا لحكم الله استسلاماً كاملاً، وأصبحوا عبيداً له، لا يملكون مالاً ولا نفساً ولاتصرفاً في الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به (٢) .جاء الإسلام ليخرج العرب والناس جميعاً من عبادة العباد لعبادة الله وحده، إلى الدين الذى لا يقبل الله سواه ﴿ إن الدين عند الله الإسلام﴾[آل عمران / ١٩].

كانت العقيدة وكان التوحيد ،والإيمان بالله، من أول ما نزل به الوحي الأمين، وبلغه الرسول الكريم. عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد . . حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال:

يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت قال: فعجبنا له يسأله

١- انظر شرح الطحاوية: ١/ ٢٩، والجامع الفريد: ص٢٢٦،ودره تعارض العقل والنقل: أ/ ٢٢٦

٢- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: الندوي/ ص١٠٦- ١٠٧

ويصدقه، قال فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر، خيره وشره، قال: صدقت. قال فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال صدقت، قال فأخبرني عن الساعة، قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: أخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمةُ ربّتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء العالة يتطاولون في البنيان ثم انطلق، فلبث ملياً ثم قال لي: يا عمر! أتدري من السائل قلت الله ورسوله أعلم، قال: هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[1]

وسوف يكون حديثنا في هذا المبحث حول الموضوعات التالية:

١- شهادة أن لا إله إلا الله: فضلها وشروطها.

٢- الإيمان بالله وحده ويتضمن:

أنواع التوحيد: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات ومنهج السلف فيها.

٣- شعب الإيمان: وشروط الإيمان.

٤- الحب في الله والبغض في الله: وفيها صور

- من مظاهر موالاة المؤمنين
- وصور من مظاهر البراء من المشركين
- ومتى تتحقق المعاداة في الله عند المسلم

فالمبحث: صورة مفصلة ومناقضة لمعاني الإيمان بالله عند المشركين وأهل الجاهلية..

وفيها مانحسه من نعمة الله على هذه الأمة، في صفاء التوحيد، ونقاء التصور، وأن التقيد بمقومات العقيدة هذه هو الذى حفظ للمسلمين دينهم، بينما انحرف أهل الملل الأخرى بشكل أو بآخر.

١-رواه مسلم في صحيحه، وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص٢٢.

١ - شهادة أن لا إله إلا الله

فضلها وأهميتها: هي رأس الإسلام مطلقاً، وبها بعث جميع الرسل ، كما قال تعالى: ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [سورة النحل / ٣٦] .

وقال جل وعلا : ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾[سورة الأنبياء ٢٥]

إنها الكلمة الفارقة بين الكفر والإسلام ، وهى كلمة التقوى ، وهى العروة الوثقي ، وهى التى جعلها إبراهيم عليه السلام كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون. (١)

إن هذه الشهادة كما ذكرها ابن رجب فى رسالته المسماة كلمة الإخلاص - ثمن الجنة، ومن كانت آخر كلامه دخل الجنة، فهى تخرق الحجب حتى تصل إلى الله عز وجل، وهى أفضل ما قاله النبيون، وهى أفضل الذكر وأفضل الأعمال وأكثرها تضعيفا، وتعدل عتق الرقاب، وتكون حرزاً من الشيطان.

هى أمان من وحشة القبر ، وهول الحشر ، وهى شعار المؤمنين إذا قاموا من قبورهم.

ومن فضائلها ، أنها تفتح لقائلها أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء، ومن فضائلها أن أهلها وإن دخلوا النار بتقصيرهم فى حقوقها، فإنهم لابد أن يخرجوا منها. (٢)

هذه المنزلة العظيمة، والمكانة الجليلة، هل يستحقها المرء بمجرد النطق بالشهادتين؟! لابد من التفصيل فى هذه القضية:

١- الفتاوى لابن تيمية: ٣/ ٩٤، والجامع الفريد: ص٢٠٦

٢- حقيقة لا إله إلا الله: ص٦٠، كلمة الإخلاص ص٥٤-٦٦ ،رسالة للمودودي - سيد قطب- صالح الفوزان.

«عن أنس بن مالك أن نبي اللهﷺ، ومعاذ بن جبل رديفه على الرحل قال: يا معاذ ! قال: لبيك رسول اللهوسعديك، قال: يا معاذ، قال لبيك رسول الله وسعديك.

قال: ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار، قال : يا رسول الله! أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال : إذاً يتكلوا، فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً»[1] وهل تكفي الهمهمة بها، والغمغمة بذكرها لينال بها المرء رضوان الله ويفوز بالجنة؟! إن المنافقين يقولونها وهم في الدرك الأسفل من النار، مع كونهم يصلون ويتصدقون؟! ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب ومحبتها، ومحبة أهلها، وبغض من خالفها ومعاداته[2]

شروط لا إله إلا الله ومقتضياتها:

ذكر أهل العلم

أن هذه الشهادة لا تنفع قائلها، فيظفر بفضلها إلا بسبعة شروط:

الأول: العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً.

قال تعالى ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله**﴾ [سورة محمد :١٩]

الثاني: اليقين المنافي للشك، بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً: ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، أولئك هم الصادقون**﴾ [الحجرات ١٥]

الثالث: القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وقد قضى الله عز وجل من أنباء ما قد سبق عن نجاة من قبلها، وانتقاص من ردها وأباها .

١- رواه مسلم، شرح صحيح مسلم: ١/ ٢٤٢
٢- الجامع الفريد: ص٢٦

الرابع: الا نقياد لما دلت عليه بأداء حقوقها ، قال جل وعلا ﴿ **ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾ [النساء ١٢٥]

﴿**ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى**﴾ [لقمان/ ٢٢] أي بلا إله إلا الله.

الخامس: الصدق المنافي للكذب، المانع من النفاق قال تعالى: ﴿**الـم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا أمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾ [العنكبوت/ ١-٣].

السادس: الإخلاص ، وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك ، قال تعالى: ﴿ **ألا لله الدين الخالص**﴾[الزمر ٣]

وقال جل شأنه ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء**﴾ [البينة٥].

السابع: المحبة لهذه الكلمة ، ولما اقتضته ، ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها ، وبغض ماناقض ذلك.

قال تعالى ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حباً لله**﴾ [البقرة : ١٦٥].

وقال تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم**﴾ [المائدة : ٥٤].

وعلامة حب العبد لربه: تقديم حبه وإن خالف هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله ورسوله ، ومعاداة من عاداه ، واتباع رسوله ﷺ ، واقتفاء أثره وقبول هواه. (١)

١- ينظر : معارج القبول : ٢/ ٤١٨، ١٢٧ للشيخ حافظ الحكمي وفتح المجيد : ص٩١، وأعلام السنة المنشورة ص٣٩-٤٠

٢- الإيمان بالله والتوحيد الخالص

دعا الإسلام إلي التوحيد الذى لا تشوبه شائبة، وعمق شعب الإيمان فى نفوس أتباعه، فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

ويتضمن التوحيد ثلاثة أنواع:

أحدها الكلام فى الصفات ، والثاني توحيد الربوبية، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء ، والثالث: توحيد الألوهية وهو استحقاقه تعالى أن يعبد وحده بلا شريك[١]

*** توحيد الربوبية:**

وهو الإقرار الجازم بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه، وخالقه ومدبره ، والمتصرف فيه لم يكن له شريك فى الملك، ولم يكن له ولي من الذل، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ولا مضاد له ، ولا مما ثل ولا سمي له ولا منازع لله فى شيء من معاني ربوبيته، ومتقضيات أسمائه وصفاته[٢]

*** توحيد الإلهية:**

إفراده تعالى فى العبادة والتأله والخضوع والذل ، والحب والافتقار والتوجيه إليه تعالى[٣]

وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس، فمن لا يقدر أن يخلق يكون عاجزاً، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، قال تعالى ﴿ **أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون**﴾ [الأعراف : ١٩١].

وقال تعالى﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون**﴾ [النحل -١٧].

١-شرح الطحاوية: ١/ ٢٤

٢- أعلام السنة المنشورة : ص٥٥

٣- لوامع الأنوار البهية للسفاريني ، ج١/ ص١٢٩، الإيمان :د.محمد نعيم ياسين ص٢١

وقال جل وعلا: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾[الإسراء : ٤٢[(١)].

وليس كل من أقر بأن الله رب كل شيء وخالقه يكون عابداً له دون ما سواه، داعياً له دون ما سواه، وراجياً له، خائفا منه دون ما سواه، يوالي فيه ويعادي فيه، ويطيع رسله، ويأمر بما أمر به، وينهى عما نهى عنه.

قال تعالى: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله﴾[الأنفال ـ ٣٩]

وعامة المشركين أقروا بأن الله خالق كل شيء، وأثبتوا الشفعاء الذين يشروكنهم به، وجعلوا له أنداداً(٢)

قال تعالى: ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء، قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، قل لله الشفاعة جميعاً﴾[الزمر ـ ٤٣ـ ٤٤].

والكفار الذين قاتلهم رسولﷺ، وقتلهم وأباح أموالهم واستحل نساءهم، كانوا مقرين للهسبحانه بتوحيد الربوبية وهو أنه لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت إلا الله وحده، كما قال تعالى: ﴿قل مَنْ يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله﴾ ومع هذا لم يدخلهم ذلك فى الإسلام ولم يحرم دماءهم وأموالهم (٣)

*** توحيد الأسمآء والصفات:**

أسماء الله: كل ما دل على ذات الله من صفات الكمال القائمة به، مثل القادر، العليم، الحكيم، السميع، البصير

١- شرح الطحاوية: ص/٤١
٢- دره تعارض العقل والنقل: ١/ ص٢٢٧
٣- الجامع الفريد : ص٢٦١

فقد دلت هذه الأسماء على ذات الله، وعلى ما قام بها من العلم والحكمة والسمع والبصر.

فالاسم دل على أمرين، والصفة دلت على أمر واحد.

ويقال : الاسم متضمن للصفة، والصفة مستلزمة للاسم، ويجب الإيمان بكل ما ثبت منهما عن الله تعالى، أو عن النبي ﷺ ،وعلى الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالى مع الإيمان بأنه سبحانه ، لا يشبهه خلقه في شئ من صفاته، كما أنه سبحانه لا يُشبّه في ذاته.[1] لقوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾[2]

وقوله سبحانه : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وقد نفت بعض الطوآئف كثيراً من صفاته تعالى، كما أولت طوائف أخرى بعض هذه الصفات، ويقي منهج السلف الصالح هو المنقذ والمنجي، حيث كانوا وسطا بين النفاة وبين المجسمة والمشبهة، تعالى الله عن ذلك.

منهج السلف الصالح: من أهل السنة والجماعة، الذين هم الفرقة الناجية في أسماء الله وصفاته يتلخص في إثباتها ، كما جاءت في الكتاب والسنة مع اعتقاد ما دلت عليه وأنها على ظاهرها، ولا يلزم من إثباتها تشبيه الله بخلقه، تعالى به، وصفات المخلوقين تليق بهم وتخصهم، ولا تشابه بين الوصفين [3]

وأسماء الله وصفاته لا يسع أحداً قامت عليه الحجة ردها، فإن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر، أما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذ ور بالجهل، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل، ولا بالرؤية والفكر.[4]

١- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث : جـ ٣/ص١١٦

٢- سورة الإخلاص، وهي مشتملة على توحيد الإلهية والربوبية والأسماء والصفات، متضمنة الرد على جميع طوائف الكفر «ينظر معارج الوصول: ١/ ١٤٣»

٣- انظر الإرشاد إلى صحيح الأعتقاد: ص١٢٦ الفوزان، في العقيدة الإسلامية: د. محمود احمد خفاجي ١/ ٢٢٩، ومختصر منهاج السنة/ ص٧٩، الفتاوى لابن تيمية: ص٧٥ الجزء الثالث.

٤- مختصر العلو: الذهبي ص١٧٧

أما الصفات المتشابهة: فقد روي عن سفيان الثوري، والأوزاعي والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك ، وغيرهم من علماء السنة، في الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة أنهم أمرُّوها كما جاءت بلا كيف.(١)

إن أهل السنة يثبتون لله ما أثبته لنفسه من الصفات وينفون عنه كل مماثلة للمخلوقات، فهو إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، **﴿ليس كمثله شيء﴾**[الشورى / ١١] رداً على المشبهة، **﴿وهو السميع البصير﴾** رداً على المعطلة.

(والله منزه عن مشاركة العبد في خصائصه ،وإذا اتفقا في مسمى الوجود والعلم والقدرة، فهذا المشترك مطلق كلي في الذهن لا وجود له في الخارج، والوجود في الأعيان مختص لا اشتراك فيه)(٢)

قيل لمالك رحمه الله: الرحمن على العرش استوى كيف؟

فقال : استواؤه معقول، وكيفيته مجهولة، وسؤالك عن هذا بدعة، وأراك رجل سوء.(٣)

ومن السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل، ولا تهدفوا للتشبيه أحمد بن حنبل والثوري وغيرهما.(٤)

وقد رد الإمام الذهبي رحمه الله على شبهات الخلف عندما قالوا: إن كل من يثبت الفوقية لله تعالى فهو مشبه أو مجسم، أو ينسب لله الجهة والمكان.(٥)

«وقد جاء في الحديث عن معاوية بن الحكم السلمي قال: كانت لي جارية ترعى غنماً لي في جبل أحد، فأطلعتها ذات يوم، وإذا الذئب قد ذهب بشاة من

١- تفسير البغوي: ٣/ ٢٣٦ في تفسير «ثم استوى على العرش» من سورة الأعراف الآية ٥٤، تحقيق النمر، ضميرية، الحرش

٢-مختصر منهاج السنة:الذهبي ص٧٩

٣- اجتماع الجيوش الإسلامية: ابن القيم ص٨١

٤- الملل والنحل: ص٩٣

٥ - انظر تفصيلاً لذلك مختصر العلو: (صـ٢٨، ٦٩ - ٧٤).

غنمـها، قال: وأنـا رجل من بنى آدم آسف كمـا يأسفـون، لكني صككتهـا صكة فأتيت رسول الله ﷺ ، فـعظم ذلك علي، فقلت يا رسول الله أفلا أعتـقها؟ قال: ائتني بها قال : فأتيته بها فـقال لها: أين الله ؟ قالت : فى السماء ، قال من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله قال: أعتقها فإنها مؤمنة»(1)

وكذلك رد ابن القيم على من صـرف كلام الله تعالى عن غير حقـيقته، وأوَّله حسب هواه.

رد على من قال: أنّ اسـتوى على العرش ، بمعنى اسـتولى لأن الاستـيلاء فى اللغة المغالبـة، وأنه تعالى لا يغالبه أحـد ومن حق الكلام أن يحمل على حقيـقته حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز..

وجل تعالى أن يخـاطب إلا بما تفهـمه العرب من مـعهود خطابـاتها، مما يصح معناه عند السامعين، والاستواء معلوم فى اللغة وهو العلو والارتفاع والتمكن.(2)

وعن الأوزاعى أنه قال: كنا والـتابعون نقـول : إن الله عز وجل فوق عـرشه نؤمن بما وردت به السنة من صفاته،(3)

وقال أبو حنيفـة رحمه الله: من قال: لا أعـرف ربي فى السماء أم فى الأرض فقد كفر، لأن الله تعالى يقول: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ، وعرشه فوق سبع سماوات(4)

إن صفة العلو ثار حولها آراء كما رأينا ، ومثلها صفات اليد والوجه والنفس.

قال أبو حنيـفة فى الفـقة الأكبـر: لله يد ووجه ونفس، كـما ذكر تـعالي فـى

1- أخرجه الإمام أحمد فى المسند: 5/447 من طريق ابن عليه ومصنف ابن أبى شيبة: 11/ ص19
2-اجتماع الجيوش الإسلامية: ابن القيم الجوزية، ص96
3- مختصر العلو للذهبي: ص137
4- اجتماع الجيوش: ص79

القرآن ، من ذكر الوجه والـيد والنفس، فهو له صفـة، بلا كيف، ولا يقال: إن يده قدرته ونعمته ، لأن في ذلك إبطالاً للصفة.[1]

وكذلك قيل في صفات العلم والسمع والبصر..

ذكـر أهل التـأويل: إن قلنا عليم، فـقـد شبـهناه تعـالى بغـيره مـن الأحيـاء العالمين،وكذلك إذا قلنا إنه سـميع بصير، فقـد شبهناه بالإنسان السميع البـصير ، وإذا قلنا هو رؤوف رحيم فـقد شبهناه بالنبي الرؤوف الرحـيم، بل قالوا: إذا قلنا إنه موجود، فقد شبهناه بسائر الموجودات لاشتراكهما في مسمى الوجود[2]

وهذا من الانحـراف الشـديد، والتـأويل الـظاهر ، وقـد رد على ذلك علمـاء السلف، وذلك مفصل في مصادره.

*أين عراجين عمر رضى الله عنه والتى أدب فيها صُبيغ بن عسل ، وقد كان من أهل الأهواء.

قدم المدينة ، وكـانت عنده كتب، فجعل يسـأل عن متشابه القـرآن، فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه، وقد أعد له عراجين النخل[3] فلما دخل عليه جلس ، قال من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صُبيغ، قال عمر: وأنا عبد الله عمر.

وجعل يضـر به بتلك العراجين، فما زال يضـربه حتى شجه وجـعل الدم يسيل على وجهه، فقال حسبك يا أمير المؤمنين، فقد ذهب الذي أجد في رأسي[4]

ومن باب سَدّ الذرائع كتب عـمر إلى أبي موسى الأشعـرى رضى الله عنهما : أن لا يجالس (صبيغاً» أحد من المسلمين[5]

١- شرح الطحاوية : ١/ ٢٦٤

٢- فى العقيدة الإسلامية: أ/ ٣١٤ الخفاجي

٣- العراجين : جمع عرجون، يطلق على العلق إذا يبس واعوج انظر : اللسان ، ١٣/ ٢٨٤.

٤- شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٢/ ٦٣٦، اللالكائي.

٥- لوامع الأنوار البهية: ص١٠٧

* رحم الله ابن الخطاب، فقد أعز اللـه به الإسلام، وجعل الحق على لسانه، وفى غيبة أمثالـه نبتت نباتات نكدة تبحث عن المتشابه فى الصفات ، وهم على مذاهب:

أ- مذهب الجهمية: وهو نفي جميع الأسماء والصفات، الا يعلم هؤلاء أن نفي الأسماء والصفات يلزم منه العدم، فكل موجود لابد له من صفات.

ولا يوجد ذات مجردة من الصفات.

ب ـ المعتزلة: ويعتمد مذهبهم على نفي جميع الصفات وإثبات الأسماء، وغاب عن هؤلاء أن القول فى الصفات كالقول فى الأسماء، فإذا كان يمكن إثبات الأسماء للهدون تشبيه، كذلك الشأن مع الصفات.

جـ مذهب الأشاعرة: إثبات الأسماء مع بعض الصفات ، وللرد عليهم يقال: إن القول فى بعض الصفات كالقول فى البعض الآخر، فإذا كان يمكن إثبات بعض الصفات دون تشبيه فكذلك الآخر[1]

هذه نبذة موجزة جداً عن نفاة الصفات أو عن المتأولين فى بعضها، والتفصيل فيها يرجع إلى كتب الفرق والمذاهب والنحل، أردنا الإشارة إليها فقط، أما الراسخون فى العلم فقد وصفهم الله تعالى فى كتابه : ﴿ **والراسخون فى العلم، يقولون آمنا به، كل من عند ربنا، وما يتذكر إلا أولو الألباب ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**﴾ [آل عمران / ٧-٨].

إننا لا نضرب كتاب الله، بعضه ببعض ،ولا نتتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، كما يفعله الذين فى قلوبهم زيغ، أعاذنا الله وعصمنا من ذلك بمنّه وفضله إنه سميع مجيب. . قال الشاعر: (٢)

نُمرُّها صريحة كما أتت ... مع اعتقادنا لما له اقتضت
من غير تحريف ولا تعطيل ... وغير تكييف ولا تمثيل

١-الكواشف الجلية: الحكمي (ص٢٦٠)
٢- معارج القبول : ٣٥٦/١

بل قـــولنا قـــول أئمـــة الـهـــدى   طوبى لمـن بهـــديهم قـــد اهتـــدى

في قصيدته النونية: [1]

والله أكـــبـــر ظاهر مـــا فـــوقـــه   شيء وشـــأن اللـه أعظم شـــأن
والله أكـبـــر عـرشـه وسع الســمـا   والأرض والكـرسى ذى الأركـــان
والله فـــوق العـــرش والـكرسي لا   تخـــفى عـليـــه خـــواطر الإنســـان
لا تحـــصـــروه فـى مكان إذ تقـــو   لوا ربـنا حـــقـــاً بـكل مـكان
نزهتـــموه بـجـهلـكم عن عـرشـــه   وحـــصـــرتموه فـى مكـان ثان
والله أكـــبـر جـل عن شـبـــه وعن   مـــثـل وعن تعطـيل ذى كـــفـــران

١- مختصر العلو: ص٧٣ ، والقصيدة النونية مطبوعة مع شرحها: توضيح المقاصد، طبع المكتب الإسلامى

٣- شعب الإيمان

لقد كثر الجدل حول شعب الإيمان ، وأثمر هذا الجدل مزالق قد تهوي بصاحبها والعياذ بالله، ويغذي هذا الجدل دعاة للشر وماذاك إلا لتوهين العرى بين المؤمنين ، ولجعل حقل الإيمان محدوداً ، فيبذرون فيه ما يرغبون. إلا أن معاول أهل الحق لهم بالمرصاد تهدم باطلهم، وترد كيدهم فى نحورهم..

فالإيمان أصل له شعب متعددة، كل شعبة منها تسمى إيماناً، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، ومنها ما يزول الإيمان بزواله إجماعاً، كشعبة الشهادتين، ومنها مالا يزول بزوالها إجماعاً، كترك إماطة الأذى عن الطريق..

وبين هاتين الشعبتين، شعب متفاوته، منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب ، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى ، ويكون إليها أقرب ، والتسوية بين هذه الشعب فى اجتماعها مخالف للنصوص، وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها [١]

شروط الإيمان: الإيمان اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح[٢]

١- ومما يدل على أنه اعتقاد بالقلب قوله تعالى ﴿ **ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم**﴾ [الحجرات : ١٤].

وقوله: ﴿ **وحبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم**﴾ [الحجرات / ٧].

وقوله: ﴿ **كتب فى قلوبكم الإيمان**﴾ [المجادلة/ ٢٢].

وقال تعالى: ﴿**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم**﴾[المائدة ٤١].

١-انظر الرسائل المفيدة / ص١٨ ، وقد جمع الإمام ابو بكر أحمد بن الحسين البيهقي شعب الإيمان فى ستة مجلدات واعتنى بتفاصيلها وشروحها، ومدارها على حديث رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان».

٢-انظر اجتماع الجيوش الإسلامية / ص٨١، شرح أصول اعتقاد أهل السنة، اللالكائى: ٢/ ٨٣٠، والعقيدة الطحاوية، الايمان لابن تيمية ، وشرح صحيح مسلم للنووي.

وحديث أبي برزة وبريدة والبراء عن النبي ﷺ « يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه»[1]

٢- والدال على أنه تلفظ باللسان قوله عز وجل: ﴿ قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ [الحجرات ـ ١٤].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبيﷺ قال: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى»[2]

٣- والدلالة على أنه عمل: قوله عز وجل ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ [البينة ـ٥].

وقال عز وجل: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ [آخر سورة الكهف ١١٠] .

والتحقيق : أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام دون عمل ظاهر[3]

وقد اتفق الصحابة والتابعون ومن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان لقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ إلى قوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾[الأنفال :٤٣] ، فجعل الأعمال كلها إيماناً وكما نطق به حديث أبي هريرة : «الإيمان بضع وسبعون شعبة. . .».

١- حديث حسن رواه أبو داود وأحمد

٢-رواه البخاري ومسلم: وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب ص٨٢

٣- الإيمان: ابن تيمية / ص١٩٢

وقالوا : إن الإيمان قول وعمل وعقيدة، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، على ما نطق به القرآن فى الزيادة وجاء فى الحديث بالنقصان فى وصف النساء [1]

فالمعنى الذى يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح.

وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة لايستحق اسم مؤمن. ولو عرفه وعمل وجحد بلسانه ، وكذب ما عرف من التوحيد، لا يستحق اسم مؤمن كذلك..

وإذا أقر بالله تعالى وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمنا بالإطلاق.

وإن كان فى كلام العرب يسمى مؤمنا بالتصديق، فذلك غير مستحق فى كلام الله تعالى لقوله عز وجل: ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وأولئك هم المؤمنون حقاً** ﴾ فأخبر سبحانه أن المؤمن من كانت هذه صفته[2]

* والإيمان يزيد بطاعة الله، وينقص بمعصيته جل وعلا.

قال تعالى: ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون** ﴾ [التوبة ١٢٤-١٢٥].

١- شرح السنة: ١/٣٨-٣٩، وفى ذلك إشارة إلى حديث عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن من الاستغفار ،فإنى رأيتكن أكثر أهل النار ، فقالت امرأة منهن جزلة، مالنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن، قالت : يا رسول الله وما نقصان العقل والدين قال: أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي وتفطر فى رمضان فهذا نقصان الدين» رواه مسلم شرح صحيح مسلم للنووى: ٢: ٦٥-٦٦.

٢- شرح صحيح مسلم ١/١٤٦-١٤٧

وإلا هل يعتبر أبو طالب مؤمنا إذ يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد | من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذار مسبة | لو جدتنى سمحاً بذاك مبيناً

وعن جندب قال: كنا مع رسول ﷺ فتياناً حزاورة فتعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً[1]

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: إن للإيمان فرائضَ وشروطاً وشرائعَ وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان[2]

وكان عمر رضى الله عنه يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول: تعالوا حتى نزداد إيماناً.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء فى القلب، فكلما ازداد الإيمان عِظَماً ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله[3]

ولو لم تتفاوت حقيقة الايمان وتتفاضل، لكان إيمان آحاد الأمة المنهميكن فى الفسق والمعاصي مساويا لإيمان الأنبياء والصديقين والملائكة المقربين.

وتصور هذا المذهب ولوازمه يغني عن إقامة البرهان على رده، مع ما فى الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة من التفاضل والتفاوت.[4]

قال الحكمي فى معارج الوصول متحدثاً عن عقيدة أهل السنة:

إيماننا يزيد بالطاعات   ونقصه يكون بالزلات [5]

وحيثما ذكر الإيمان فى القرآن أو ذكر المؤمنون، ذكر العمل الذى هو الترجمة الواقعية للإيمان.

= والكل يعلم عاقبته التى ذكرها الرسول ﷺ، إذ أنه ينتعل نعلين من نار يغلي من حرهما دماغه. وفيه نزلت الآية الكريمة: «إنك لا تهدى من احببت إن الله يهدى من يشاء».

١- إسناده حسن : كتاب السنة/ ١/ ٣٦٩ احمد بن حنبل

٢- تفسير البغوي: ٣/ ٣٢٦

٣- تفسير البغوي: ٤/ ٤١٤، (اللمظة: مثل النكتة من البياض)

٤- لوامع الأنوار البهية: السفاريني ،١/ ٤٣١

٥- معارج الوصول الحكمي، ١/ ٤١

فليس الأمر مجرد مشاعر، إنما هو مشاعر تفرغ فى حركة لإنشاء دوافع وفق التصحيح الإسلامى للحياة ، أو وفق التصور الإسلامى للحياة [1]﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، أولئك هم الصادقون﴾ [الحجرات :١٥].

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم، وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ [النور : ٥٥].

وعندما تذبل العقيدة يتحول أصحابها إلى حالات أليمة من السبات العميق.

وعندما ضعف الإيمان في نفوس أكثر المسلمين تحولوا إلى حالة من الوهن والخور ، يسومهم العدو أشد أنواع العذاب والمذلة.

والعقيدة الضامرة الهزيلة ، والذابلة الضئيلة، التى زاحمتها شئون الحياة اليومية، وألجأتها إلى حاشية من حواشي النفس، قد تركتها عاطلة لا عمل لها، هامدة لا حراك فيها، إلا في فترات قصيرة لا تلبث أن تعود إلى سباتها العميق.

هذه هي حال العقيدةـ وأسفاه ـ في نفوس الكثرة الكاثرة منا أفراداً وجماعات.

أليس أكثر الناس يؤمنون بواجب التضافر والتآزر وهم أشتات متفرقون، .

ويؤمنون بضرورة الأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية ، وهم ضعاف متثاقلون؟[2]

والخلاصة:

إن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد ذلك بالطاعة، وينقص بالمعصية نقصاً عن حقائق الكمال ، لا محبط للإيمان.

١- خصائص التصور الإسلامى: سيد قطب ص ٢٦٤

٢ - نظرات فى الإسلام: دراز / صـ ٢٥.

* الاختلاف بين أبى حنيفة والأئمة من أهل السنة، فيما يقع عليه اسم الإيمان هو إختلاف صورى: حول هل أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب ، أوهى جزء من الإيمان. «شرح الطحاوية»: ٢/ ٤٦٢»

ولا قول إلا بعمل، ولا عـمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نيـة إلا بموافقة السنه [1].

فمن استشعر عظمة الخالق، سيتورع عن مخـالفته ومعصيته ويجتهد فى التماس أسبـاب زيادة الإيمان ، يكثر المسلم من النوافل فتـزكو نفســه، ينصح لكل مسلم، يؤثر محبة الله ورسوله على ما سواهما، فتصبح حركاته وسكناته لله.

يستخـدم طاقاته فيبتـكر ويبدع، وهو يعلم أنه فى عبادة، وبهـذا الإيمان العميق الذى يتغلغل فى الـقلوب، ولا يعكره شك، يصان المجتـمع وتسمو الأمـة وتحتل مكان الصدارة الذى أرادها الله لها.

اللهم إنا نسألك إيماناً كاملاً، ويقيناً صادقاوعملاً صالحاً متقبلاً.

---

١ - ينظر اجتماع الجيوش الإسلامية : ص٩٠، وشرح اعتقاد أهل السنة والجماعة : ١/ ١٥١ ، وكتاب الإيمان: د.محمد نعيم ياسين ص٢٠٣-٢٠٧، ومعارج القبول : ٣/ ١٠٠٧

٤- الحب فى الله والبغض فى الله

أصل الموالاة الحب، وأصل المعـاداة البغض، وينشأ عنهـما من أعـمال القلوب والجوارح ما يدخل فى حـقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنـس والمعاونة والجهاد والهجرة ونحو ذلك (١)

فالولاء فى الله يعني محبة الله ونصرة دينه، ومـحبة أوليائه ونصرتهم، والبراء هو البغض لأعداء الله ومجاهدتهم(٢)

ولذلك فإن مـوالاة المشركين خطر على عـقيدة المسلـم، فقد كـان الجيل الأول ينفر منهـا ويتقـرب إلى الله بهذا النفور، أمـا موالاة المؤمنين ومـحبتـهم فهي من علامات الإيمان.

قال تعـالى : **﴿لا تجـد قـومـاً يؤمنون بالله واليـوم الآخـر يوادون من حـاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾**[المجادلة/ ٢٢].

لقد تميز جـيل الذروة بالبراءة من المجتمع الجـاهلي، ولو كان أفراده من الأهل والعشيرة، إذ تبرأ المسلم من روابط الأقـربين من أجل محبة المؤمنين ولو كانوا من قبائل بعيدة(٣) وقد تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه وقومه لأنهم يعبدون الأصنام. قال تعالى **﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني برآء مما تعبدون، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾**[الزخرف /٢٦ -٢٧] وها هو كتاب الله يحذرنا من موالاة الكافرين يقول تعالى: **﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء ، إلا أن تتـقوا منهم تقاة ويحـذركم الله نفسه وإلـى الله المصيـر﴾** [آل عمران / ٢٨].

١- الرسائل المفيدة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ

٢- الولاء والبراء: د. محمد سعيد القحطانى ص٤٣

٣- انظر : كتابنا «الحياة السياسية عند العرب» فصل التربية العقدية (ص١٠٨ - ١٢٠)

وقال ﷺ : «أوثق عرى الإيمان الموالاة فى الله والمعاداة فى الله والحب فى الله والبغض فى الله»(١)

وعندما سئل الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عن الموالاة والمعاداة، هل هى من معنى لا إله إلا الله أو من لوازمها؟ أجاب رحمه الله قائلا:

«الجواب: أن يقال، الله أعلم. لكن حسب المسلم أن يعلم أنّ الله افترض عليه عداوة المشركين وعدم موالاتهم، وأوجب عليه محبة المؤمنين وموالاتهم، وأخبر أن ذلك من شروط الإيمان، ونفى الإيمان عمن يواد من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم (٢)

«وإذا كان المسلم مطالباً بالتسامح مع أعدائه ، لكنه منهي عن الموالاة لهم، ومناصرتهم والتحالف معهم، لأنه مهما أبدى من السماحة والمودة فلن يرضى عنه الأعداء حتى يقضوا عليه ؟، وحتى ينسلخ من عقيدته.

ومن السذاجة أن يظن أحد إمكانية الجمع بين رضا الله ورضا الكفار معاً.

إلا أن هناك فئة من الناس تحاول كسر التضاد بين الإيمان والكفر، فتدعو تارة إلى الجمع بين الحق والباطل ، باسم التسامح وحسن المعاملة، وتارة تحرف بعض النصوص كي توافق هوى فى نفسها، وحتى تمزج المسلمين مع غيرهم، كى يذوبوا فى مستنقع الكفر العميق، وتدعو تارة أخرى إلى الأخذ من كل دين بطرف، باسم التقريب بين الأديان، والتعايش السلمي وقد تدعو إلي طرح الأديان جانباً، واتخاذ العلمانية مبدأ فى إدارة الدول والشعوب ، بحجة تجنب غائلة الحروب بين الأديان.

---

١ - صحيح الجامع الصغير : ٢/٣٤٣ح٢٥٣٦، وقال الألباني: حديث حسن

٢- الجامع الفريد : ص٣٨٤

ونحن المسلمين ، لن نرضى بغير منهج الإسلام فى التعامل مع الناس ، لأن ذلك شرط من شروط صحة إسلامنا »[1]

وواقع الأمة الإسلامية المرير، حيث تكالب الأعداء (من اليهود وأهل الصليب، والمجوس والهندوس) عليها، خير شاهد على بطلان الدعوات السابقة الذكر، وأن المسلمين عندما فقدوا روابط الإيمان، من الحب في الله والبغض فى الله، أذلهم أعداؤهم وتداعوا إلى بلادنا تداعي الأكلة «الشرهين الغلاظ» إلى قصعتهم.

---

١ - انظر الموالاة والمعاداة فى الشريعة الإسلامية: ١/ ٧١-٧٢، محماس الجلعود.

من مظاهر موالاة المؤمنين: كما بينها الكتاب والسنة

هناك: صور من مظاهر الموالاة للمؤمنين نجملها فيما يأتي:

١ - الهجرة إلى بلاد المسلمين، وهجر بلاد الكافرين. والهجرة هى الانتقال من بلاد الكفار إلى بلاد المسلمين فراراً بالدين.

٢- مناصرة المسلمين ومعاونتهم بالنفس والمال واللسان، فيما يحتاجون إليه فى دينهم ودنياهم.

٣- التألم لألمهم والسرور بسرورهم.

٤- النصح لهم ومحبة الخير لهم وعدم غشهم وخديعتهم.

٥- احترامهم وتوقيرهم وعدم تنقصهم وعيبهم.

٦- أن يكون المسلم مع المسلمين فى حال العسر والشدة، خلافًا لأهل النفاق الذين يكثرون فى حال اليسر، ويتخلفون فى حال الشدة.

٧- زيارتهم ومحبة الالتقاء بهم والاجتماع معهم.

٨- احترام حقوقهم، فلا يتعرض لما سبقوا له من المباحات.

٩- الرفق بضعفائهم.

١٠- الدعاء لهم والاستغفار لهم[١]

فهذه الأمور تعتبر دعائم قويمة لإقامة المجتمع المسلم، المتلاحم المتراحم القوي، والذى لا تستطيع العواصف أن تلعب به.

وبمقارنة بسيطة مع الواقع المرير، وما ينبغي أن يكون، نعلم مدى ما وصلت إليه مجتمعاتنا من ترد أليم.

١- انظر الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد : ص٢٨٤-٢٨٦ صالح الفوزان

*** صور من مظاهر البراء من المشركين:**

عندما كانت شوكة الإسلام قوية، كان للمسلمين قوة فى تطبيق دينهم فى الموالاة والمعاداة دون ضعف أو تردد.

فها هو أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يرفض أن يُعيِّن نَصرانيٌ كاتباً عند أحد ولاته.

فعن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال: قلت لعمر إن لى كاتبا نصرانياً، قال مالك قاتلك الله، أما سمعت الله تعالى يقول ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض**﴾ الا اتخذت حنيفيا؟ قال: قلت يا أمير المؤمنين، لي كتابته وله دينه.

قال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله»(١)

ومن منطلق عزة المؤمنين، وحفظ مجتمع المسلمين، وحمايةعقيدته، طبق المسلمون مع أهل الذمة مقتضيات مبادئ دينهم، وذكروا شروطًا فى عقد الذمة هذا ملخصها:

ـ أن لا يحدثوا كنيسة ولا يجددون ما خرب منها، إلا إذا فتحت البلاد صلحاً، واشترطوا ذلك.

ـ أن لا يمنعوا أحداً من أقاربهم من الإسلام إذا اختار ذلك

ـ أن لا يذكرو ا الله ـ بطعن أو انتقاص ـ وأن لا يجاهروا بمنكر.

ـ أن لا يتعرضوا للصحابة بذم، وألا يعينوا أعداء الإسلام.

ـ ألا يظهروا أى نوع من أنواع العبادة، كأصوات النواقيس.

ـ أن يتميزوا بهيئتهم من غير كشف عورة أو إحداث فتنة (٢)

١- رواه الإمام أحمد: ينظر اقتضاء الصراط المستقيم ص٥٠

٢-الموالاة والمعاداة فى الشريعة : ٢- ٦٤٥، عن أهل الذمة فى الإسلام: د/ابى ترتون، ترجمة د حسن حبشي ص١٦١

وطبيعي أن هذا لا يتنافى مع التسامح خلال معاملة اليهود والنصارى من أهل الذمة، وتاريخ الإسلام مع هؤلاء يؤكد العدل معهم، خلافاً لمواقفهم من المسلمين كلما لاحت لهم بادرة من قوة أو فرصة من غدر.

فقد كان من المغانم التي غنمها المسلمون في وقعة خيبر صحائف متعددة من التوراة، فلما جاء اليهود يطلبونها، أمر النبي ﷺ بتسليمها لهم، فأخذ اليهود يشيرون إلى الرسول بالبنان، ويحفظون له هذه اليد، لأنه لم يتعرض لصحفهم المقدسة، ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم القدس، وفتحوها سنة ٧٠/ب م، إذ حرقوا الكتب المقدسة ، وداسوها بأرجلهم وما فعله المتعصبون من النصارى عند اضطهاد اليهود في الأندلس، وقد أحرقوا أيضاً صحف التوارة.

هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرنا وبين رسول الإسلام[١] هكذا كان التسامح مع أهل الكتاب، وهكذا يطلب الإسلام من المسلم السماحة معهم.

«ولكنه ينهى عن الولاء لهم بمعني التناصر والتحالف معهم،وإن طريق المسلم لتمكين دينه وتحقيق نظامه المنفرد ، لا يمكن أن يلتقى مع طريق أهل الكتاب.

ومهما أبدى لهم من المودة والسماحة فلن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه، ولن يكفيهم عن موالاة بعضهم البعض في حرب المسلمين والكيد لهم.

وسذاجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة ، أن يظن أحد، أن لنا وإياهم طريقا واحداً نسلكه، للتمكين للدين أمام الكفار والملحدين: فهم عون للكفار والملحدين إذا كانت المعركة مع المسلمين.

١- الإسلام والحضارة العربية: ١/ ٢١٤، عن تاريخ اليهود فى بلاد العرب لإسرائيل ولفنسون..

وهذه حقائق يغفل عنها السذج منا فى هذا الزمان، وفى كل زمان حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا فى أيدي أهل الكتاب فى الأرض ، للوقوف فى وجه المادية والإلحاد، بوصفنا جميعاً أهل دين ناسين تعليم القرآن، وناسين تعليم التاريخ. . فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا، وأهل الكتاب هؤلاء، هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة فى المدينة ، وكانوا لهم درعاً ورداءً.

وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتى عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذين شردوا العرب المسلمين فى فلسطين ، وأحلوا اليهود محلهم، متعاونين فى هذا مع أهل الإلحاد والمادية.

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين شردوا المسلمين فى كل مكان : فى الحبشة والصومال والجزائر، ويتعاونون فى هذا التشريد مع أهل الإلحاد والوثنية، وقد فعلوا ذلك فى يوغسلافيا والصين وتركستان والهند، وما يزالون يرتكبون ذلك فى أيامنا هذه.[1]

ثم يظهر بيننا من يظن بعد هذا كله، أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر ، ندفع به الإلحاد والمادية عن الدين.

إن هؤلاء لا يقرأون القرآن،وإذا قرأوه ، اختلطت عليهم دعوة السماحة التى هى طابع الإسلام ، فظنوها دعوة الولاء الذى يحذر منه القرآن»[2]

١- وما تزال أحقاد الصليبية العالمية بالتعاون مع الصهيونية الحاقدة، وتواطؤ الوثنية، تقوم بمجازر ليس لها نظير فى بلاد المسلمين ، فى البوسنة والهرسك وجمهوريات أواسط آسيا، وكشمير ، وفلسطين المحتلة وأكذوبة النظام العالمى الجديد، مع احتجاجات واهنة تكاد لا تحرك ساكنا ، فى بلاد المسلمين.

٢- فى ظلال القرآن: سيد قطب./ ١/ ٩١٠

* متى تتحقق المعاداة فى الله عند المسلم!

المسلم مأمور بإظهار العدواة لأعداء الله ورسوله والمؤمنين وهذا لا يتحقق إلا بخمسة أمور رئيسية هى على النحو التالى:

الأمر الأول: هو ترك اتباع أهواء الكفار ، أو تحقيق رغباتهم فى معصية الله.

قال تعالى **﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم، ما لك من الله من ولى ولا نصير﴾** [البقرة/ ١٢٠].

الأمر الثانى: هو معصية الكفار فيما أمروا به، فإن الله تعالى نهى عن طاعة الكافرين، وأخبر أن المسلمين إن أطاعوهم ارتدوا عن الإيمان إلى الكفر، قال تعالى: **﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾**[آل عمران : ١٠٠].

الأمر الثالث: عدم الركون إلى الكفار أو الظالمين، أو اتخاذهم أمناء، أو مستشارين ، فإن ترك ذلك دليل على معاداتهم كما أمر الله عز وجل، قال تعالى **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار، ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾** [هود / ١١٣].

الأمر الرابع: ترك موادة الكفار والبشاشة، في وجوههم أو المبالغة فى استقبالهم وإكرامهم لغير نية الدعوة إلى الله ، فالكافر عدو الله ورسوله والمؤمنين، والمحارب منهم أشد عداوة من غيره، قال تعالى **﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾** [المجادلة/ ٢٢].

الأمر الخامس: مراغمة الكفار فى ترك التشبه بهم فى أقوالهم وأفعالهم، قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا، وللكافرين عذاب أليم﴾** [البقرة / ١٠٤].

كما أنه لا يجوز إطلاع الكافرين على أسرار المسلمين قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾[آل عمران/١١٨] (١)

* والخلاصة في الولاء والبراء:

١- أنّ مَنْ لم يحب الإسلام وأهله فهو ناقص الإيمان والتوحيد إن كان مسلماً، وهذا النقص قد يؤدي به إلي الشرك إن لم يكن هناك ملابسات أو قرائن تصرفه عن ذلك.

٢- إن من لم ينكر الشرك، ويعادي أهله فليس بمؤمن، ولو عبد الله وحده لأن من صحة التوحيد، الكفر بالطاغوت وأهله ، والكفر بالطاغوت يعني العداوة للشرك وأهله

٣- من يكره الإسلام، ويكره أن ينضم إلى جماعة المسلمين فهو كافر وإن ادعى الإسلام وعمل به

٤- من يدعو إلى مبادىء الكفر ،أو يسعى فى مناصرة الكفار وتأييدهم ، ويحب من دخل فى هذا الأمر ويكره من خالف ذلك، فهو كافر وإن زعم أنه مسلم ، وأن عمله هذا لا يتعارض مع الإسلام. (٢)

* وأخيراً قد يزعم من لا يدرك حقيقة العقيدة، ولا يعي مفهوم لا إله إلا الله، أن مصطلح الولاء والبراء، من مصطلحات الخوارج والشيعة، فكيف يدرج فى معتقد السلف الذين هم أهل السنة والجماعة؟!

والجواب على هذا الاعتراض من عدة وجوه:

١- نحن مطالبون بما ورد فى كتاب الله وسنة رسولهﷺ، فهي عقيدتنا وشريعتنا ، ونظام حياتنا.

١-انظر الموالاة والمعاداة فى الشريعة : ١/ ٢٩٤-٢٩٨ بإيجاز وتصرف يسير

٢- الموالاة والمعاداة: ٢/ ٩٣/ الجلعود

٢-من منطلق عقيدة سلفنا الصالح نقـول : لسنا مستعدين للتنازل عن أى شيء من أمور ديننا الصغيرة، فضلاً عن أمـور العقيدة الكبرى من أجل أن ناعقا أخذ بعض مصطلحاتنا، وبنى عليها مفاهيمه البدعية المنكرة. .

٣- هل يسـتطيع مسلـم يؤمن بكتاب الله وسـنة رسوله أن يقـول: إن إبراهيم عليه السـلام، وهو القدوة الأولى فى الولاء والبراء اسـتخدم مـصطلحات الخوارج والرافـضة الذين جاءوا بعـده بآلاف السنين، سبـحانك اللهم هذا بهتان عظيم. .

٤- إن قضية الولاء والبراء، باعتبارها مبـدأ عقدي، مبدأ صحيح لا غبار عليه، ورد به كتاب الله وسنة نبيه، ولكن الخطأ كل الخطأ، والبدعة كل البدعة، هو ما بنى عليه هؤلاء السفهاء من الخوارج والرافضة، من مفاهيم سقيمة، خرجوا بها على النصوص الصريحة، وإجماع الأمة المحمدية .

وصدق القائل:

ومـا ضـر الورود ومـا حـوته

إذا المزكـوم لم يطـعم شـذاها (١)

١-الولاء والبراء : د. محمد سعيد القحطانى ص٢٥٢ - ٢٥٣

الفصل الثاني

الإيمان بالملائكة

١ - الملائكة في تصور أهل الجاهلية.

٢ - الإيمان بالملائكة عليهم السلام.

* التعريف بالملائكة الكرام.

*أعمال الملائكة عليهم الصلاة والسلام.

١ - الملائكة فى تصور أهل الجاهلية [١]

عرف العرب فى الجاهلية الملائكة، وذكرهم الشعراء فى قصائدهم، بل ذكروا أسماء بعينها منهم، كجبريل وميكائيل عليهما السلام، والملكين الموكلين بالإنسان.

ولكن شعرهم فى الملائكة كان قليلاً إذا قيس بأشعارهم فى المعتقدات الأخرى. وكان أكثر من ورد ذكر الملائكة فى شعره هو أمية بن أبى الصلت.

فها هو يتحدث عن الملائكة تحت عرش الرحمن، طائعين خائفين فيقول: [٢]

ملائكة أقدامهم تحت عرشه ... بكفيّه لولا الله كلُّو وابلدُوا
قيامٌ على الأقدام عانين تحته ... فرائصهم من شدة الخوف تُرعَدُ

ويقول أيضا مصوراً عبادة الملائكة ، وما جبلوا عليه من العبادة الدائمة والطاعة المطلقة لأوامره جل شأنه [٣]

ملائكة لا يفترون عبادة كروبية ... منهم ركوعٌ وسجّدُ
فساجدهم لا يرفع الدهر رأسه ... يعظم رباً فوقه ويمجّدُ
وراكعهم يعنو له الدهر خاشعاً ... يردّد آلاء الإله ويَحْمَدُ

فهذا الوصف لعبادة الملائكة ينسجم مع ذكر القرآن لهم ، سواء اقتبسه الشاعر من القرآن ـ لأنه أدرك الإسلام ـ أم أخذه من بقايا الحنيفية، أو من أهل الكتاب. ويقول أيضا متحدثاً عن الملائكة: فهم عباد الله أشداء، لكنهم مع ذلك مطيعون لله:

وفيها من عباد الله قومٌ ... ملائك ذُلّلوا وهم صعاب

ويذكر خويلد بن أسد الملائكة عندما يخاطب عبد المطلب جد النبىﷺ، وكان

١-انظر رسالة المعتقدات والقيم: ص١٩- ٢٣، وادب الحنيفية ٢٤٢/٢٤٥

٢-٣ ديوان أمية بن أبى الصلت : ص٣٦٨-٣٦٩ومعنى : «الكروبيون: أى سادة الملائكة ، ومنهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام » انظر لسان العرب (مادة كرب) .

قد عرف بحفر بئر زمزم بقوله:(١)

أقول وما قولي عليكــم بسبةٍ ... إليك ابن سَلْمى أنت حافرُ زمزم

حفيرة إبراهيم يوم ابن هاجرٍ ... وركْضة جبريـل على عهــد آدم

ويذكر الأعشى الملكين الكاتبين فى شعره فى قوله وهو يمدح النعمان:(٢)

فلا تحسبنيّ كافراً لك نعـمة ... عليّ شهيدٌ ، شاهدَ الله فاشهد

فالأعشى ينقل أمورا كانت معروفـة في مجتمعه ، وشاهد الله هو الملك الموكل به ، وكان هذا من إيمان العـرب بالملكين ، بقية من دين اسـماعيل عليـه الصلاة والسلام .

وعندما أخبرت السيدة خديجـة رضى الله عنها ، ابن عمها ورقة بن نوفل ، بما حدث للـرسول ﷺ فى غار حـراء . قال لهـا : إن الذى يأتيه هو النـاموس الذى أنزل على موسى عليه السلام، وذكر جبريل وميكائيل فى شعره فقال(٣)

إن يكُ حقـا يا خديجة فاعلـــمى ... حــديثك إيانا: فأحمد مرســـل

وجبريل يأتيه وميكــــال معهمـــا ... من الله وحيٌ يشرح الصدر منزل

إلا أن أهل الجاهلية، خلطوا فى معرفتهم للملائكة الحقائق بالأساطير، إذ زعم بعضهم أن الملائكة بنات الله.

من ذلك مـا زعمـوه عن قـبيلة جـرهم، وأنهـاكانت من نـتاج مـا بين الملائكة والإنس ، والسـبب فى ذلك فى نظرهم، أن الملك من الملائـكة، كان إذا عـصى ربه، أهبطه من الســـماء إلى الأرض فى صـــــورة رجل، .كمـا صنع بهـا روت ومـا روت ، حتى كان من شأنهما وشأن (كوكب) الزهرة ما كان (٤)

١-الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى :١/ ٢٠٢

٢- الشعر والشعراء : ابن قتيبة ١/ ٢٢٦ وقوله : علي شهيد، يريد لسانه و«يا شاهد الله» يريد الملك الموكل به.

٣- خزانة الأدب: عبد القادر بن عمر البغدادى، تحقيق عبد السلام هارون مطبعة الخانجي ـ القاهرة: ٣/ ٣٩٦

٤- انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ١٣٨ طبعة دار المعرفة.

وقد صور الشاعر الجاهلي هذه الأسطورة بقوله:

لاهُمّ إن جـــرهمـــاً عـــبـــادكـــا الناس طِرْفٌ وهـــم تلا دكـــا

وقـد عبـد بعضـهم الملائكة : قال تعـالى **﴿ويوم يحشـرهم جميعاً ثم يقول للملائكة: أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا: سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾** [سبأ : ٤٠ـ ٤١].

وقال جل وعلا منددا بفرية نسب الملائكة لله تعالى: **﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾** [الاسراء : ٤٠].

لقد كـانت خزاعـة وكنانة يقولون: المـلائكة بنات الله تعالى فـقـال جـل مـن قائل : **﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾** [النحل / ٥٧].

وعرف مثل ذلك عن جهينة وبني سلمـة بن عبد الدار، وأنهم جعلوا البنات لله ولأنفسـهم البنين فنزلت الآيات: **﴿ فاسـتفتـهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شـاهدون، ألا إنهم من إفكهم ليـقولـون ولد الله وإنهم لكاذبون، أصطفى البنات على البنين﴾** [الصافات / ١٤٩- ١٥٣][1].

١- انظر تفسير البغوي: ٥/ ٢٤.

٢- الإيمان بالملائكة عليهم السلام

هو ركن أساسي من أركان الإيمان «فى الإسلام» بعد الشهادتين.

* التعريف بالملائكة الكرام:

المقصود بالإيمان بالملائكة هو الاعتقاد الجازم، بأن لله ملائكة موجودين، مخلوقين من نور، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمر الله بالقيام بها[1]

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها، قال رسول اللهﷺ «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار وخُلق آدم مما وصف لكم» رواه مسلم.

وهم خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله الذى خلقهم ، قال تعالى: **﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾** [المدثر / ٣١].

وإذا أردت أن تعلم كثرتهم فاسمع ما قاله ﷺفى البيت المعمور الذى هو فى السماء السابعة : «فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه، آخر ما عليهم»[2] والملائكة وإن كانوا غير مرئيين لنا فلا ينفي العقل وجودهم إذ أثبت البحث العلمى أن العين البشرية لا تستطيع أن ترى الأجسام التى تتحرك بسرعة أقل من سرعة النور، وكل جسم يتحرك بسرعة النور، أى / ١٨٦٠٠٠ / ميلا فى الثانية، أو أكثر ، يختفي عن الأنظار ، ولا يمكن للعين البشرية مراقبته بأى نوع من الأجهزة [3]

ولو أعطيت أبصارنا القدرة على رؤية الجن والملائكة ، فهل يطيب لنا عيش؟ لقد رأى رسول اللهﷺ جبريل عليه السلام فرجف فؤاده، وهو الشجاع القوى ، الثابت الجنان، وجاء لزوجته مسرعاً يقول: دثروني، دثروني!.

١-الإيمان د. محمد نعيم ياسين ص٤٧ عن الأسئلة والأجوبة الأصولية ص٢١

٢- عالم الملائكة الأبرار: د. عمر سليمان الأشقر ص١٦، وقد روى الحديث البخاري ومسلم

٣- روح الدين الإسلامى : محمد عفيف طبارة ص١٤٠

وقد كتب سبحانه وتعالى ألا يرى البشر الملائكة إلا عند حلول الساعة، أو حلول العذاب قال سبحانه:

﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون حجراً محجوراً﴾ [سورة الفرقان / ٢٢].

ومن رحمة الله بنا أنه حجب عنا أموراً كثيرة لا نطيق لها رؤية ولا سماعاً ، ولذلك فإن في طلبنا لها الخطأ البين الواضح[1] ولو كان الإنسان يرى ويسمع كل ما يحيط به لما أطاق الحياة، وحسبنا أن نتصور أن إنسانا تلتقط أذنه ما يلتقطه المذياع من أصوات، لنعلم البلاء الذى يحل بهذا المسكين، الذي لابد أن يصاب بالذهول والجنون.[2]

والملائكة مخلوقات لها أجنحة كما قال تعالى فى سورة فاطر **﴿ الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾** [فاطر / ١].

قال قتادة ومقاتل : إن بعض الملائكة لها جناحان ، وبعضهم له ثلاثة أجنحة ، وبعضهم له أربعة أجنحة ، ويزيد فيها ما يشاء ، وهو قوله تعالى : **﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء﴾** وقال ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله عز وجل: **﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾** [النجم / ١٨].

قال: رأى عليه الصلاة والسلام جبريل فى صورته، وله ستمائة جناح[3]

وللملائكة قدرة على التشكل ، كما مر فى حديث جبريل حين جاء الرسول ﷺ على هيئة رجل شديد بياض الثياب ، يسأل الرسول عن الإيمان والإسلام . .

وعلى المسلم أن يؤمن بجميع الملائكة ، فلا يفرق فى ذلك بين ملك وملك،

١- مقاصد المكلفين: د. عمر سليمان الأشقر/ ص٤٧٨

٢- عالم الملائكة الأبرار: الأشقر ص٥

٣- انظر تفسير البغوى: ٦/ ٤١١، النمر وضميرية والحرش

لأنهم جميعا عباد الله ، عاملين بأمره، تاركين لنهيه، وهم في هذا وحدة واحدة، لا يختلفون ولا يفترقون وقد زعم اليهود أن لهم أولياء ، وأن ميكائيل عليه السلام عدو لهم ، فكذبهم الله تعالى في دعواهم، وأخبر أن الملائكة لا يختلفون فيما بينهم، وكل من كان عدواً لله أو لملك فهو عدو لجميع الملائكة: **﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه، وهدى وبشرى للمؤمنين. من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾** [البقرة ٩٧-٩٨] (١)

أعمال الملائكة (٢)

الملائكة جند الله **﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾** [التحريم/ ٦].

وقد بين كتاب الله وسنة رسول الله أنواعاً مختلفة من أعمالهم نذكر منها:

١ - ملازمة الإنسان وحفظ أعماله.

قال تعالى: **﴿ وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت، توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾** [الأنعام / ٦١] .

والحفظة هم ملائكته الذين يتعاقبون ليلاً ونهاراً، يحفظون أعمالكم ويحصونها، ولا يفرطون في حفظ ذلك وإحصائه ولا يضيعون (٣)

وقال جل شأنه **﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾** [الانفطار / ١٠-١٢].

وقال تعالى **﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾** [ق / ٥].

١- عالم الملائكة الأبرار: الأشقر، وانظر تفسير ابن كثير ج١/ ١٢٦.
٢- ينظر في أعمالهم : الإيمان، د. محمد نعيم ياسين ص٤٨ -٦٦، وعالم الملائكة الأبرار / الأشقر.
٣ - تفسير الطبري : ٧/ ٢١٦.

٢- التسبيح لجلال الله تعالى والسجود له:

قال تعالى وترى الملائكة ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ [الشورى / ٥].

وعن أبى ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إني أرى ما لا ترون، وأسمع مالا تسمعون، أطّت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد»[١]

وقال تعالى : ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم﴾ [سورة الزمر / ٧٥].

٣- الدعاء للنبي ﷺ

لقوله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ﴾ فصلاة الله وثناؤه عليه عند الملائكة ، أما صلاة الملائكة فهى الدعاء له ﷺ [٢]

٤-شهود مجالس الذكر:

هؤلاء الملائكة السيارة ، لا وظيفة لهم، وإنما مقصودهم حِلَق الذكر[٣] كما جاء فى الحديث: "عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فُضُلاً يتبعون مجالس الذكر. فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم، وحف بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، وإذا تفرقوا، عرجوا وصعدوا إلى السماء. قال: فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم بهم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادلك فى الأرض يسبحونك، ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك»[٤] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

---

١ - رواه أحمد: ٥/ ١٧٣ ، ورواه الحاكم، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : ٤/ ٢٩٩

٢ - عون البارى : المجلد الخامس (/ ص٦٤٩)

٣ - شرح صحيح مسلم: جـ١٧/ صـ١٤.

٤ - رواه مسلم فى صحيحه.

«يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنـهار، ويجتمعون فى صلاة الفجر، وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فـيكم، فيسألهم ربهم، وهو أعلم بهم، كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون.» (١)

وعن أبي هريرة رضى الله عنه، وأبى سعيـد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:

«ما اجـتمع قوم يذكرون الله إلا حـفتهم الملائكة، وغـشيتهم الرحـمة وتنزلت عليهم السـكينة، وذكرهم الله فيمن عنده» (٢)

هؤلاء الملائكة يحرم من بركـة دخولهم، كل بيت فيـه كلب أو صورة كمـا جاء في الحديث:

"عن ابن عـباس يقـول: سمـعت أبا طلحـة يقول: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة" رواه مسلم فى صحيحه.

قال النووي فى الشرح: «أما هؤلاء الملائكة الذين لا يدخلون بيتاً فيه كلب ولا صورة، منهم ملائكة يطوفون بالرحمة والتبريك والاستغفار. أما الحفظة فيدخلون كل بيت، ولا يفـارقون بنى آدم في كل حال، لأنـهم مأمورون بإحـصاء أعـمالهم وكتابتها.» (٣)

٥ - تبشير المؤمنين:

ومن الملائكة طائفـة تكلف بتـبشـيـر المؤمنين، وهل هنالك أجـمل وأجل من تبشيرهم بجنة عرضها السماوات والأرض؟.

قال تعالى: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا**

---

١ - رواه مسلم: انظر شرح صحيح مسلم/ جـ٥ صـ ١٣٣ للنووي.

٢ - متفق عليه/ انظر شرح السنة / ٤ صـ ٦٥.

٣ - شرح صحيح مسلم للنووى: جـ١٤ / صـ٨٤.

ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون﴾ [فصلت/ ٣٠ - ٣١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي قد أتتك، فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لاصخب فيه ولا نصب» [1].

٦ - الدفاع عن المؤمنين:

كما حصل في غزوة بدر إذ أرسل الله جنوداً من عنده ينصرون عباده المؤمنين. قال تعالى: **﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾** [آل عمران/ ١٢٣ - ١٢٥].

وكقوله تعالى: **﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أن يمدكم بألف من الملائكة مردفين﴾** [الأنفال / ٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه ، والنبي ﷺ جالس فجعل النبي يعجب ويبتسم فلما أكثر ردّ عليه أبو بكر بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام . فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله! كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله، غضبت وقمت.

قال: إنه كان معك ملك يردُّ عنك، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان» [2] أما الشفاعة فلا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه .

---

١ - رواه البخاري ومسلم.

٢ - رواه الإمام أحمد في مسنده: جـ٢/ صـ ٤٣٦.

قال تعالى : ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ [النجم / ٢٦] وتبليغ الوحي، كما أخبر تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ [الشعراء / ١٩٣].

وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾ [الشورى/ ٥١].

٧ - ومن الملائكة: حملة العرش

وفيهم الموكلون بالجنه والموكلون بالنار، فعملهم عبودية كاملة لله تعالى، وطاعته الطاعة المطلقة.

٨ - قبض الأرواح:

قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة، يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ [الانفال / ٥٠].

وقال تعالى: ﴿إنّ الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾ [النساء / ٩٧].

فملك الموت وأعوانه، وهم ستة : ثلاثة لقبض أرواح المؤمنين، وثلاثة للكفار. أو المراد بذلك: ملك الموت وحده [١].

ومن أعمال الملائكة أنها تؤمّن على ما يقال عند الميت: عن أم سلمة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ «إذا حضرتم المريض أو الميت، فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون» [٢].

فإذا وضع الميت في قبره فإن الملائكة تسأله، لحديث رسول الله ﷺ الذى رواه

---

١ - عون الباري: م ٥/ صـ ٤١٧، أبو الطيب القنوجيي البخاري.

٢ - رواه مسلم / ينظر شرح صحيح مسلم، جـ٦/ صـ٢٢٢/ النووي.

أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ : «إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم. قال: يأتيه ملكان يقعدانه. فيقولان له : ماكنت تقول فى هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. قال: فيقال له: انظر مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة. قال نبى الله ﷺ: فيراهما جميعاً» (١)

وفى الختام :

فإن الملائكة عباد الله المكرمون، والسفرة بين الله وبين رسله عليهم الصلاة والسلام.

الكرام خلقاً، والكرام على الله تعالى، البررة الطاهرون صفة وأفعالاً، المطيعون لربهم عز وجل.

وهم عباد من عباد الله خلقهم من النور لعبادته.

ليسوا بنات لله عز وجل، ولا أولاداً، ولا شركاء معه ولا أنداداً، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون والملحدون علواً كبيراً. (٢)

قال تعالى: «وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه، بل عباد مكرمون. يسبقونه بالقول. وهم بأمره يعملون. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشيته مشفقون. ومن يقل منهم إني إله من دونه، فذلك نجزيه جهنم. كذلك نجزي الظالمين» [الأنبياء / ٢٦ - ٢٩].

وهكذا فإن الإسلام دحض الانحرافات والافتراءات التى كان يزعمها أهل الجاهلية عن الملائكة عليهم الصلاة والسلام، وجعل أن الإيمان بهم «كما ورد فى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ» ركن من أركان الإيمان لا يتم الإيمان إلا بها جميعاً.

وقد بينا طبيعة هذه المخلوقات الكريمة، وأشرنا إلى كثير من أعمالهم، والحمد لله الذى أكرمنا بالتصور الصحيح والمنهج السليم، لنفهم أمور ديننا.

---

١ - رواه مسلم / انظر شرح صحيح مسلم/ جـ١٧ صـ ٢٠٣.

٢ - معارج القبول: جـ٢ / صـ ٦٥٦.

الفصل الثالث

الإيمان بالكتب السماوية

١ - أهل الجاهلية والكتب السماوية .

٢ - الكتب السماوية كما وردت فى القرآن الكريم.

٣ - مزايا القرآن ومكانته في النفوس.

٤ - القرآن الكريم معجزة الرسول ﷺ.

٥ - حق كتاب الله تعالى:

أ - الإيمان بأن القرآن كلام الله تعالى.

ب - من شعب الإيمان تعظيم القرآن المجيد.

جـ - معرفة التفسير وأسباب النزول.

د - التمسك بكتاب الله والقيام بحقه.

١ - أهل الجاهلية والكتب السماوية

حدثنا الشعراء الجاهليون عن كثير من المعتقدات الدينية محرفة حيناً أو صحيحة حينًا آخر.

ذكروا الملائكة، وذكروا الرسل الكرام، وتحدثوا عن الموت والحساب بصورة أو بأخرى. وذكروا القدر كذلك . . . إلا أنهم لم يحدثونا عن الكتب السماوية . . مع أنهم تحدثوا عن بعض معتقدات اليهود والنصارى، وأن بعض العرب اتبع اليهودية أو النصرانية.

إلا أن الأثر الديني للنصرانية كان باهتاً ضعيفاً، وكل ما ورد من إشارات دينية كانت ألفاظاً ظاهرية، كذكر الرهبان والكنائس والصليب والنواقيس والأديرة.

كل ذلك لم يجعل عقيدة النصارى، تتغلغل إلى نفوس العرب ممّن تنصروا ولا إلى تصور شعراء الجاهلية.

أما اليهودية فقد كانت ديناً قبلياً قومياً خاصاً ببنى إسرائيل، وكان اليهود لا يهتمون بأن يبشروا به بين الناس، بل كان محظوراً عليهم أن ينشروا دينهم بين غيرهم من الأقوام . وإذا عرفنا أن العرب كانوا أمة أمية، لم تنتشر بينها القراءة والكتابة، أدركنا السبب فى عدم ذكر الكتب السماوية أو معرفتها عندهم.

ومن عرف شيئاً من كتب اليهود والنصارى - على ما فيها من تحريف - فإنه لم ينقل إلينا تفصيلاً لها أو ذكراً لأسمائها، ونعني بذلك بعض أتباع الحنيفية كورقة بن نوفل مثلاً "فقد كان امرءاً تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب» [١]

رغم ذلك لم يصل إلينا شيئ مما كتب أو نقل.

ولايعارض ما قلناه عن ضعف أثر الكتب الدينية أو معرفة ما فيها، ما ورد فى

١ - صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي صحيح مسلم : ٢/ ١٩٧ وما بعدها.

أبيـات النابغة الذبيـاني وهو يمدح الغسـاسنة بعد أن ذكـر عيـد السبـاسب عندهـم، فقال: [1]

رقــاق النعـال طيـب حـجــزاتهم
يُحَـيْـون بالريحـان يومَ السبـاسب
مَــجلتُــهـم ذات الإله ودينـهم
قـويم فمـا يرجـون غيـر العـواقب

فكنى الشاعر عن الكتب عند الغساسنة بالمجلة.

وعلى العموم فالكتب السماوية ما كان أمرها يهم

شعراء الجاهلية، كما كان أمر غيرها من أركان الإيمان ومعطياته.

١ - ديوان النابغة الذبياني: صـ٦٣. وعيد السباسب: هو عيد السّعانين عند النصارى.

٢ - الكتب السماوية كما وردت فى القرآن الكريم

الإيمان بالكتب المنزلة من الله سبحانه وتعالى على رسله، ركن من أركان الإيمان عند المسلم، لا يتم إيمانه إلا بها.

ويكون الإيمان بهـا، بالتصـديق من أنهـا من عند الله تعالى فى أسـاسهـا، ولا نؤمن بالتحريف الذى أبعدها عن أصولها.

والكتب السماوية التى أخبرنا الله عنها فى كتابه هى:

١ - **التوراة:** وقد نزلت على موسى عـليه السلام. قال سبـحانه وتعالى: ﴿**إنا أنزلنا التـوارة فيـهـا هدى ونور يحكم بهـا النبيـون الذين أسلمـوا للذين هادوا والربانيون، والأحبار بما استحفظوا من كتـاب الله وكانوا عليه شـهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ [المائدة / ٤٤].

٢ - **الإنجيل** : أنزل على عيسى عليه السلام، قـال تعالى: ﴿وقفينا على آثارهم بعيـسى بن مريم مـصدقًـا لما بين يديه من التوارة وآتيـناه الإنجيل، فيـه هدى ونور ومصدقًا لما بين يديه من التوارة وهدى وموعظة للمتقين﴾ (المائدة / ٤٦)

٣ - **الزبور:** نزله الله على داود عليه السلام. قال تعالى: ﴿**وربك أعلم بمن فى السـمـاوات والأرض ولقـد فـضلـنا بعض النبـين على بعـض وآتينا داود زبوراً**﴾ [الإسراء / ٥٥].

٤ - **الكتب السماوية الأخرى:**

وهى التى لم يخـبر الله تعـالى بأسمـائها، قال جـل شأنه: ﴿**كـان الناس أمـة واحدة، فبـعث الله النبيين مبـشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتـاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾ [سورة القرة / ٢١٣].

٥ - الصحف التى أنزلت على إبراهيم وموسى عليهما السلام

قال تعالى: **﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى﴾**[سورة الأعلى / ١٨ - ١٩].

والواجب علينا أن نؤمن بأن هذه الكتب نزلت بالحق والهدى، وتوحيد الله سبحانه فى ربوبيته وأسمائه وصفاته.

وأصول العقيدة فيها واحدة، تقتضيها وحدة الجهة التى صدرت عنها، أما ما نسب إليها مما يخالف ذلك فهو من تحريف البشر.

ففى تحريف اليهود للتوراة قال تعالى: **﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾** [البقرة / ٧٥]. وقال تعالى : **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾** [المائدة / ١٥] «فإيماننا بهذه الكتب السماوية التى بلغها الأنبياء لأقوامهم، أنها من عند الله تعالى، وأن الهوى والمصلحة دعت أهل الكتاب - من يهود ونصارى - إلى تعمد تحريف الكلم عن مواضعه، وكتمان الحق، خداعاً ومرواغة» (١)

---

(١) فى ظلال القرآن / صـ٨٤، وفيه تصوير لهذه النفوس المريضة التى حرفت كلام الله.

٣ - مزايا القرآن الكريم ومكانته

من عقيدة المؤمن، ومن الواجب على المسلم، أن يؤمن أن القرآن العظيم آخر الكتب السماوية التى أنزلها الله تعالى، وأنه خصّ بمزايا من أهمها: (١)

- أنه تضمّن خلاصة التعاليم الإلهية.

- وأنه الكتاب الرباني الوحيد الذى تعهد الله بحفظه قال تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾.

- وأنّ الله أنزله للناس كافة.

وللقرآن فى نفوس المسلمين مكانة عظيمة:

فهو النور المبين والذكر الحكيم، واللبنة الأولى فى تكوين عقيدة المسلم وأخلاقه، وفى الاحتكام إليه فى مشكلاته . قال تعالى: ﴿**قد جاءكم من الله نُور، وكتاب مَبين، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾.

فهو ينيرلنا الطريق ويعصمنا الله به من الزلل، بعيدًا عن الغفلة.

إنه كتاب الله الكريم، الذى قال عنه رسول الله ﷺ(٢) : «فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلق عن كثرة رد، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتَغَى الهدى فى غيره أضله الله».

إنه كتاب هداية للبشر جميعاً، يضمن لمن عمل به العقيدة السليمة والعمل الصالح المقبول، والتشريع العادل الذى ينظم أمور الحياة، ومن ترك ذلك فقد كفر وضل.

---

١ - مستفاد من كتاب الإيمان / د. محمد نعيم ياسين.

٢ - أورده الهندى فى الكنز والدارمى فى المسند/ انظر مصنف ابن أبى شيبة : جـ١٠/ صـ٤٨٢/ .

إنه يزيد الحسنات ويعلي الدرجات، ويعصم الله به من يتمسك به ويتلوه آناء الليل والنهار.

عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: إن هذا القرآن مأدبة الله، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله، والنور المبين، والشفاء النافع، إنه عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب ولايعوج فيقوم ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرّد، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: ألم حرف ، ولكن ألف حرف، ولام حرف وميم حرف» (١)

إنه دستور هذه الأمة، فيه ارتقت وعم نور الرسالة المقررة، وباتباع هديه وسنة رسول الله ﷺ، كانت خير أمة أخرجت للناس، فهل تعود بعد هذا الضعف والانحراف إلى رشدها وتحمل رسالة الهدى والخير لهذه البشرية التائهة من جديد؟!.

١- رواه الحاكم. وقال عنه المنذري: هو صحيح / ينظر الترغيب والترهيب صـ٣٥٤/ الجزء الثاني / المنذري.

٤ - القرآن الكريم معجزة الرسول ﷺ

لقد كان لكل نبي معجزة تناسب عصره، وكانت معجزة الرسول محمد ﷺ، هي القرآن الكريم.

كان معجزة بفصاحته وبلاغته وما يزال، تحدى العرب أئمة البيان وأفانين القول، فما استطاعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة أو آية.

كان القرآن معجزة فكرية، مادامت هنالك عقول تفكر، ونفوس تكشف عن فطرتها، وأذواق سليمة تتذوق أساليب البيان عند العرب.

قال ﷺ متحدثاً عن هذه المعجزة الخالدة: «ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنّما كان الّذى أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1].

ومعجزات الأنبياء انقرضت بانقراض عصورهم، لم يشاهدها إلا من حضرها بحضرتهم، ومعجزة نبينا محمد ﷺ القرآن المستمر إلى يوم القيامة، مع خرق العادة فى أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة مثله مجتمعين أو متفرقين فى جميع الأعصار، مع اعتنائهم بمعارضته. فلم يقدروا وهم أفصح القرون، مع غير ذلك من وجوه إعجاز القرآن المعروفة.[2]

قال تعالى متحدياً العرب أهل الفصاحة والبلاغة:

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [سورة الإسراء / ٨٨].

وعجز البشر وعجزت الجن، ومازالوا عاجزين عن الإتيان بمثله رغم التحدي، بل عجزوا عن الإتيان بعشر سور من مثله قال تعالى: **﴿ أم يقولون افتراه، قل**

---

١ - متفق على صحته: البخارى فى فضائل القرآن، ومسلم فى الإيمان، "ينظر شرح السنة: ١٣/١٩٥"

٢ - شرح صحيح مسلم للنووي: ٢/١٨٨.

فأتـوا بعشـر سور من مـثله مفـتريات، وادعـوا من استطعـتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يسـتجيبوا لكم فاعلمـوا أنما أنزل بعلـم الله، وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ [هود/ ١٣ -١٤].

بل تجاوز التحدي عشر سور إلى سورة واحدة.

﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسـورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتـم صادقـين فإن لـم تفعـلوا ولن تفـعلوا فـاتقـوا النار﴾ [سورة البقرة/ ٢٣].

«ومن تتبع أنوا ع المجـادلات التى حكاها القرآن عن الطاعنين فـيه . . . . رأى أن أكثر نـسـبتهم القرآن فـى جدلهم كانت إلى نفس صاحـبه، على اضطرابهم فى تحديد تلك الحالة النفـسية التى صدر عنها القرآن، أشـعر هي أم جنون أم أضغاث أحلام؟! . . . .

ولقد نعلم أنهم كـانوا فى قرارة أنفسـهـم غير مطمئنين إلى رأي صـالح يرضونه من بين تلك الآراء . . . وكانوا غير مستقرّين على حال من القلق . . . وإن شئت أن تَطلع على هذه الصورة المضحكة من البلبلة الجدلية فـاقرأ وصفها فى القرآن : **﴿بل قالوا أضغاث أحلام بـل افتراه بل هو شاعر﴾** [سورة الأنبياء/ ٥]. فهذه الجملة القصيرة تمثل لك بما فـيها من توالي حروف الإضراب مقدار مـا أصابهم من الحيرة والاضطراب فى رأيهم، وتُريك من خـلالها صـورة شاهد الزور إذا شـعر بـحرج موقفه كيف يتقلب ذات اليمين وذات الشمال، وكيف تتفرق به السبل فى تصحيح ما يحاوله من محال» (١).

«وقد ظل هذا التحدي قائماً فى حيـاة الرسول ﷺ وبعدها. وما يزال قائماً إلى يومنا هذا، وهو حجة لا سبيل إلى المماحكة فيـها، وما يزال القرآن يتميز عن كل

١ - النبأ العظيم : محمد عبد الله دراز صـ٦٧ - ٦٨.

كلام يقوله البشر تمييزاً واضحاً قاطعاً وسيظل كذلك أبدا، سيظل كذلك تصديقاً لقوله تعالى ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ..﴾ ولو كان في الطاقة تكذيبه ماتوانوا عنه لحظة . . . على أن كل من له دراية بتذوق أساليب الأداء، وكل من له خبرة بتصورات البشر للوجود وللأشياء، وكل من له خبرة بالنظم والمناهج والنظريات النفسية أو الاجتماعية التي ينشئها البشر، لا يخالجه شك في أن ما جاء به القرآن في هذه المجالات كلها شيء آخر، ليس من مادة ما يصنعه البشر.

والمراء في هذا لا ينشأ إلا عن جهالة لا تميز، أو غرض يلبس الحق بالباطل» [1].

هاهم العرب أهل الفصاحة واللسن، وقفوا مبهورين أمام إعجاز هذا الكتاب الكريم، رغم كل ما يحملونه من حنق على الدين الجديد وعلى كتابه الخالد، ولم يتمالك كبراؤهم حيث اعترفوا، أنه ليس مثل كلام البشر.

لما أنزل تعالى على نبيه ﷺ: ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾ [سورة غافر/ ١ - ٣].

قام النبي ﷺ في المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه قراءته، أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن ، وإن له حلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يُعلى عليه» [2].

فالمعجزة أعمق أثراً وأجدى مفعولاً إنْ كانت في صميم ما اشتهر به المخاطبون. . . وقد ذكر الزهري أنه: استمع أبو جهل وجماعة معه، وفيهم

---

١ - في ظلال القرآن: سيد قطب / جـ١ / صـ٤٨ - ٤٩ . .

٢ - تفسير البغوي: ٨/٢٦٨ ت النمر، ضميرية، الحرش .

الأخنس بن شريق وأبو سفيان، استمعوا قراءة الرسول ﷺ في الليل، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا (أو تحاذينا) على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك هذا؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه» [(١)].

استمع هؤلاء النفر إلى رسول الله ﷺ ثلاث ليال، وهو لا يعلم أمرهم، ثم كانوا يعاودون الاستماع، ويتعاهدون على عدم العودة ... إلا أن القرآن كان يستهوي نفوسهم ويؤثر فيها، وهم أهل الفصاحة فلا يملكون له رداً إلا عصبية وتبعية لمفاخر الماضين وترهاتهم!

وخلال العهد المكي أسلم عدد من الصحابة الكرام تأثراً بإعجاز القرآن الكريم، ومن هؤلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما قرأ آيات من كتاب الله في منزل أخته. وكانت قريش تمنع الغلمان والنساء من الاستماع إلى ما يتلى من كتاب الله خوفاً عليهم من الفتنة كما يزعمون [(٢)] لقد عجز العرب حقاً، وسجل التاريخ عليهم ذلك العجز في عصر نزول القرآن، وما أدراك ما عصر نزول القرآن؟ هو أزهى عصور البيان العربي ... وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها؟ ...... ما هذه الجموع المحشودة في الصحراء وما هذه المنابر المرفوعه هنا وهناك؟ إنها أسواق العرب، تُعرض فيها أنفس بضائعهم، وأجود صناعاتهم، وما هي إلا بضاعة الكلام من صناعة الشعر والخطابة، يتبارون في عرضها ونقدها، واختيار أحسنها، والمفاخرة بها ......

فما هو إلا أن جاء القرآن. وإذا الأسواق قد انفضّت إلا منه، فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة، أو حذف كلمة أو

---

١ - انظر السيرة النبوية: ابن هشام / ١/ ٣١٥.

٢ - انظر السيرة النبوية لابن هشام: الجزء الأول.

زيادة كلمة، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى لها [1] أما أن يستدل على صدق القرآن الكريم وإعجازه بالنظريات العلمية، فهذا تكلف تزل فيه الأقدام، فاليقيني من العلم لا يتعارض مع القرآن الكريم، أما النظريات فغير مقطوع بها» وتبقى قيد الدرس ومجال البحث.

فحماسناإلى تعلم المسلمين العلوم الكونية الحديثه، لا يصح أن يدفعنا إلى أمور خاطئة، كما حصل مع طنطاوي جوهري، فقد كان يرى أن أفضل السبل وأقومها إلى إدراك وإعجاز القرآن ومعرفته حق المعرفة، ورد الزائفين إلى هديه، هو تعلم علوم الآفاق ، ففي تفسيره للقرآن الكريم المسمى "الجواهر في تفسير القرآن" والذى يبلغ ستة وعشرين جزءاً، ينتقل فيه بين فنون من العلوم والمعارف ويعتمد على مفاهيم تخضع للتبديل والتغيير، بتغير الكشوف وتبدلها . . [2]

فالعلم لا يفسر المعجزات، نظراً لأن المعجزات على وجه التحديد، لا تقبل تفسيراً.

فالنصوص القرآنية صحيحة وصادقة بذاتها، لابشهادة من خارجها.

ثم إن ما تعارف البشر على أنه نظرية علمية؛ وأنه حقائق علمية، كلاهما لايعطي الدلالة، فهو علم ظنى فى أحسن الأحوال [3]».

القرآن معجز: فى ألفاظه ومعانيه، في تشريعاته، فى التوجيهات الكفيلة بتفجير الطاقات والاتجاه للإبداع فى شتى المجالات النفسية والعلمية والفكرية.

---

١ - النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز / صـ٨٣ - ٨٤.

٢ - ازمة العصر/ صـ١٦٥/ د. محمد محمد حسين.

٣ - مقومات التصور الإسلامي: سيد قطب / صـ٣٢٢.

٥ - حق كتاب الله تعالى

لكتاب الله على المسلم حقوق كثيرة، فهو الكتاب السماوي الذى أنزله الله تعالى ليكون رحمة وسعادة للعالمين في الدنيا الآخرة ومن هذه الحقوق:

أ - الإيمان بأن القرآن كلام الله تعالى:

قال تعالى: **﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾** [الجاثية / ٢٩] فالقرآن كلام الله، ووحيه وتنزيله وصفته، ليس بخالق ولا مخلوق ولا محدث ولا حادث، مكتوب في المصاحف، محفوظ فى القلوب، متلوّ بالألسن، مسموع بالآذان. [١]

قال تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾** ومن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذم الله من زعم ذلك وأوعده بسقر، حيث قال تعالى: **﴿سأصليه صقر﴾**[المدثر/ ٢٦].

فلما توعد الله بسقر لمن قال: **﴿إن هذا إلا قول البشر﴾** [٢]

علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر.

كان مالك بن أنس رحمه الله يقول: «من قال القرآن مخلوق يوجع ضرباً، ويحبس حتى يموت» [٣]

وأهل السنة كلهم: أهل المذاهب الأربعة، وغيرهم من السلف والخلف متفقون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق [٤]

والقرآن كتاب التوحيد الخالص. «فكل آية فيه، متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه».

---

١ - شرح السنة للبغوي / جـ١ / صـ١٨١

٢ - الجاثية / ٢٥.

٣ - شرح الطحاوية : جـ١ / صـ ١٧٢.

٤ - كتاب السنة / أبو عبد الرحمن ابن حنبل / ١/ ١٠٧.

فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمى الخبرى، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهى وإلزام بطاعته، فى نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته. فالقرآن كله فى التوحيد، وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم» (1).

فما أجدر المسلم أن يتلو ذلك مؤمناً به، مطبقاً لما فيه، متأملاً آياته، منفذاً أحكامه.

ب - **تعظيم القرآن المجيد** (2) : ويعتبر تعظيمه من شعب الإيمان ويكون ذلك بتعلمه وتعليمه، وحفظ حدوده ، واتباع احكامه وعلم حلاله وحرامه، وتبجيل أهله وحفّاظه، واستشعار آياته، يهيج إلى البكاء من مواعيد الله ووعيده.

قال تعالى: ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله**﴾ [الحشر / ٢١].

وقال تعالى: ﴿**ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، بل لله الأمر جميعاً**﴾ [الرعد / ٣١].

وقال تعالى: ﴿**وإنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون، تنزيل من رب العالمين**﴾ [الواقعة / ٧٧ - ٨٠].

قال ﷺ: «أفضلكم - أو خيركم - من تعلم القرآن وعلمه» (3)

وقال ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أنه قال: «تعاهدوا القرآن ، فو الذى نفس محمد بيده، لهو أشد تفلتاً من الإبل فى عقلها» (4).

---

١ - شرح الطحاوية / ١/ ١٨٥.

٢ - انظر مختصر شعب الإيمان/ القزوينى، صـ ٢٤ - ٢٦.

٣ - رواه البخاري فى فضائل القرآن.

٤ - رواه البخاري فى فضائل القرآن ومسلم فى صلاة المسافرين.

وقال فيما رواه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله هذا الكتاب، فقام به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل والنهار» (١).

هكذا يكون التسابق إلى الخير، نحو تطبيق ما فى كتاب الله، هذا الكتاب الذى قال عنه ﷺ فيما رواه مسلم عن عمر رضى الله عنه: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» (٢)

اللهم أعنا على تدبر آياته والعمل بأحكامه، وألهم المسلمين رشدهم للعمل فيما بين دفتيه، والاهتداء برسول الرحمة ﷺ.

وفى ذلك رفعة المسلمين وعزتهم.

جـ - معرفة التفسير وأسباب النزول

وذلك واجب على المسلم، وحق من حقوق كتاب الله حتى يبتعد المسلم عن الهوى والتخبط فى تفسير كتاب الله، ولا يكون الرأي هو الحكم في مثل هذا الأمر، لأنه مظنة الضلال والزيغ.

وقد تنبه أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه لهذا الأمر «فخلا ذات يوم، وجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحدُ؟.

فأرسل إلى ابن عباس رضى الله عنهما فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟! فقال ابن عباس يا أمير المؤمنين ، إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيما أنزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولايدرون فيما نزل . فيكون لكل قوم فيه رأي، فإذا كان كذلك اختلفوا . . . .

وما قاله ابن عباس رضى الله عنهما هو الحق، فإنه إذا عرف الرجل فيما نزلت

---

١ - رواه مسلم فى صلاة المسافرين.

٢ - حديث صحيح رواه الإمام مسلم، وأحمد والدارمي، وابن ماجة/ شرح السنة، جـ ٤/ صـ ٤٤٢.

الآية أو السورة، عرف مخرجها وتأويلها وما قصد بها، فلم يتعد ذلك فيها، وإذا جهل فيما أنزلت احتمل النظر فيها أو جهاً، فذهب كل إنسان مذهباً، لا يذهب إليه الآخر، وليس عندهم من الرسوخ فى العلم ما يهديهم إلى الصواب، أو يقف بهم دون اقتحام حمى المشكلات، فلم يكن بد من الأخذ ببادي الرأى أو التأويل بالتخرص الذى لا يغني من الحق شيئاً، إذ لا دليل عليه من الشريعة، فضلوا وأضلوا» [1].

ومن هنا يتبين لنا خطورة تحكيم الرأى والهوى فى تفسير كتاب الله تعالى.

لقد اعتمد أهل الأهواء والبدع «كالمعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم» على رأيهم ومعقولهم خلال تفسيرهم للقرآن.

ولهذا نجدهم لايعتمدون على أحاديث المصطفى ﷺ ، ولا يأخذون فى الاعتبار ما روي عن الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين من بعدهم فلا يعتمدون على السنة ولا على إجماع السلف وآثارهم وإنما يعتمدون على العقل واللغة، ولا يأخذون عن كتب التفسير المأثورة . . . . وإنما يعتمدون على كتب الأدب، وكتب علم الكلام التى وضعتها رؤوسهم» . [2]

ومن هنا ضل كثير من الناس، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً.

وهؤلاء من أخطر الطوائف على دين هذه الأمة. عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه ، إيمانه، ولا من فاسق بيّن فسقه ولكني أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أزلقه بلسانه ، ثم تأوله على غير تأويله» [3]

وها نحن نجد كثيراً من معتزلة اليوم، وأصحاب المدرسة العقلية فى التفسير،

---

١ - الاعتصام: الإمام الشاطبى، جـ٢ / صـ ١٨٣.

٢ - الإيمان لابن تيمية: صـ١١٤.

٣ - جامع بيان العلم وفضله: ابن عبد البر/ جـ٢/ صـ١٩٤.

يحكمون الهوى، ويضربون بالمأثور من أقوال الأئمة عرض الحائط، فيخرجون بتأويلات متعسفة، تطوع النصوص لا تباع ناعقي الغرب، والابتعاد عن بدهيات هذا الدين.

إن مثل متبعي عقولهم فى مجابهة النص الصريح كمثل، إبليس عندما حكم عقله في السجود لآدم وعصى ربه. قال تعالى «قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي، أستكبرت أم كنت من العالين. قال أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين». فماذا كانت النتيجة؟ «اخرجْ منها فإنك رجيم، وأن عليك لعنتي إلى يوم الدين».

كان الطرد من الجنة واللعنة إلى يوم القيامة جزاء للتأويل الفاسد، وتحكيم العقل الجاحد القاصر.

***ومعرفة اللغة العربية:** أساسٌ فِي فهم كتاب الله، حيث فيها أنزل، وحسب أصول لغة العرب تعرف أحكام التأويل، بعد أن تعرف أسباب التنزيل.

ومن أجل ذلك حاول أعداء هذا الدين أن ينعقوا بفرية حاقدة، ودعوة مسمومة، فى مطالع هذا القرن الميلادى، إذ دعواْ إلى أن تكون اللهجات العامية هى لغة التخاطب والكتابة بدلاً من اللغة الفصحى، بل دعا بعضهم إلى كتابتها بالحروف اللاتينية . . .[1]

وكان وراء هذه الدعوة بعض الرؤوس الصليبية، والاستعمار فى عدد من أقطار العرب مثل لبنان ومصر، ثم وجد من بني جلدتنا ممن ينعقون وراءهم، ويظهرون كل عقوق نحو لغتهم لغة القرآن، يدعون حيناً لاستعمال العامية وأخرى لتغيير الحروف العربية، وقد رفضت هذه الدعوة من قبل كتاب العرب والمسلمين، ومن قبل شعراء العربية. قال حافظ إبراهيم على لسان اللغة :

---

١ - انظر أزمة العصر/ لمحمد محمد حسين، صـ٢٥٩ وما بعدها. الاتجاهات الوطنية / د. محمد محمد حسين جـ٢/ صـ٣٥٩ وما بعدها .

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى
وأسمع للكتاب فى مصر ضجة ... فأعلم أن الصائحين نعاتي
أيهجرنى قومي - عفا الله عنهم ... إلى لغة لم تتصل بِرواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى ... لعاب الأفاعي فى مسيل فرات

وردّ الكتاب المخلصون هذه الدعوة، وقد لخص الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله الردود وفنّد دعاوى الحاقدين إذ يقول: إن عامة المسلمين وخاصتهم لا يستغنون عن الفصحى لمطالعة القرآن والحديث وسائر كتب الدين، وإن هذه اللغة ليست غريبة على أفهام العامة، إلا إذا أريد التقعر واستعمال الألفاظ الغريبة.

هذا مع أن العامي من العرب يفهم الفصحى، وليس كذلك الإنجليزي والفرنسى (فى اللاتينية).

ودعوة أن يتخذ كل بلد عربي لهجته العامية، قول من يريد تمزيق وحدة المسلمين، ولو هجرنا الحروف العربية إلى حروف تخالفها، لنسيت الأداب والعلوام فى تراثنا. [1]

والعربية لغة حية ، بينما اللاتينية لم يبق واحد فى الدنيا يتكلم بها، بل صارت من قبيل الآثار التاريخية ومع ذلك، فها نحن نرى الأمم الكاثوليكية، مثل الفرنسيين والبلجيك، وأهل أمريكا الوسطى، جميع هذه الأمم تقيم **شعائرها الدينية باللغة اللاتينية** دون أن تفهمها . . . وإنما يفسر رجال الدين ما يريدون فهمه من الشعيرة الدينية من اللاتينية إلى ألسنتهم» [2] واللغة العبرية رغم تخلفها خدمها أبناؤها وتعلقوا بها فلم هذه الحملة على اللغة العربية، ألانها لغة القرآن؟! ولولاه لكانت العربية فى عداد اللغات التى اندرست مع الزمن؟ لاشك أن أعداءنا يدركون

---

١ - انظر الاتجاهات الوطنية: د. محمد محمد حسين جـ٢/ صـ٣٦٠ -٣٨٨.
٢ - حاضر العالم الإسلامي: ١/ ٢١٣.

أنه بفهم الناس لهذا القرآن سوف تتبدد الجهالة من نفوسهم، وتنقمع الشهوات من قلوبهم، وتتغلغل عزة الإسلام فى أعمالهم، عزة لا ترضى الضيم، وانى لعدو أن يهدأ له بال بذلك.

فكيف نتعلم أصول الدين من غير كتاب الله وسنة رسوله ؟!

وكيف يُفَسَّر كتاب الله بغير ما فسره به رسوله ﷺ ، وأصحاب رسوله الذين نزل القرآن بلغتهم، وقد قال ﷺ: «مَنْ قال فى القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار».

وفي رواية: «من قال فى القرآن بغير علم، فليتبوأ مقعده من النار».

وسئل الصّديق رضى الله عنه عن قوله تعالى:

﴿وفاكهة وأبّاً﴾ [سورة عبس/ ٣١].

ما الأبّ؟ فقال : «أي سماء تظلنى وأرض تقلنى، إذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم» (٢)

د - التمسك بكتاب الله والقيام بحقه

وذلك يعني منا حفظه وتلاوته، والقيام بما فيه، وإحلال حلاله، وتحريم حرامه، والانقياد لأوامره، والانزجار بزواجره، والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بقصصه، والعمل بحكمه، والتسليم لمتشابهه، والوقوف عند حدوده والذب عنه، ضد انتحال المبطلين، وتحريف الغالين، والنصيحة بكل معانيها، والدعوة إلى ذلك على بصيرة. (٢)

١ - انظر: شرح الطحاوية: ٢١٨/١ - ٢١٩.

٢ - اعلام السنة المنشورة / صـ ٨٣.

﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هى أقوم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ [الإسراء/ ١١].

فلنجعله لنا هادياً لخيري الدنيا والآخرة. قال ابن عباس رضى الله عنهما: «تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل به أن لا يضل فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة»[1]. ثم قرأ: ﴿ومن أعرض عن ذكري، فإن له معيشة ضنكاً﴾ [طه/ ١٢٤].

فلابد أن نتلقى القرآن كما تلقاه رسول الله ﷺ وصحبه الكرام، وسلفنا الصالح رضي الله عنهم أجمعين.

نصغي لإرشاداته، ونتحلى بآدابه، ونعمل بأحكامه، وبذلك تطهر القلوب، وتسمو النفوس . . .

أما الغفلة، وإغلاق القلوب دونه، فهو من شأن الكافرين الذين حُرموا متعته، وأقفلت قلوبهم دونه: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ وكلما ضعف الإيمان، ضعفت الصلة بالقرآن الكريم، وابتعد الناس عن هديه القويم، وتفرقت بهم السبل.

فهذا يتلقى من الشرق، وآخر ينقاد إلى الغرب، تتقاذفهم التفاهات، وتتشعب بهم الأهواء.

«والحياة مع القرآن تثير فى النفس عالماً من المشاعر لا يعرفها ولا يتذوقها إلا من يصاحب القرآن بحس متطلع وقلب متفتح. عالم تسبح الروح فى جنباته، ويجول الفكر فيه جولاته، وتعب النفس من فيضه بقدر ما ترتوي أو بقدر ما تطيق! والحياة مع القرآن هى الحياة . . . . فالقرآن كتاب الله المنزل وكلامه الموجه إلى الإنسان . . . إلى نفسه وقلبه، وفكره وروحه.

١- المنتقى من منهاج الاعتدال / صـ ١٠٩.

فحري بالمسلم أن يتلوه مع حضور القلب، أثناء التلاوة، يتدبر آياته، ليعمل بها، وينعم بفضلها، ليكون من أولي الألباب» [1]

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك، ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب﴾.

الواجب والواقع:

شتان بين الواجب المنتظر من المسلم، وما هو واقع، إن واقعنا مؤلم حقاً!

لقد أصبح الكتاب الذى غيّر واقع العالم، ونقل البشرية من الظلام إلى النور، أصبح يتلى لمجرد البركة. يقرأ فى المواسم كشهر رمضان، وفى افتتاح الحفلات، إشارة إلى أن أصحاب الحفل من المسلمين! وذلك بدلاً من أن يكون القرآن أنيس المسلمين، ومعلمهم كل حين.

كما أن التلاوة قد تنسى معظم العام، وصار سماع القرآن إشارة إلى الموت في بيوت المسلمين، حيث يعلو صوت المسجل بالقرآن غالباً، والحديث قد لا ينقطع خلال ذلك.

وربما صارت التلاوة مهنة يتكسب منها بعض الناس، أو وسيلة من وسائل التكفف والتسول، وأصبح مألوفا أن يمد المتسول يده، وهو يرتل آيات من الذكر الحكيم! «وربما اجتمع الناس عند ختم القرآن لقراءة الأشعار» [2] وهكذا تحول كتاب الله إلى مظاهر فى حياة المسلمين، أو زينة تتصدر الرفوف فى المنازل، ومن أجل ذلك ابتعدوا عن تحكيم حلاله وحرامه وهم لا يشعرون بثقل المسئولية، وفداحة الخطب، ولابد من عودة المسلمين إلى عزهم ومجدهم، الذى يليق بهذا الكتاب العظيم، وسنة نبينا الكريم، ﷺ.

---

١ - دراسات قرآنية: الأستاذ محمد قطب/ صـ٤٨٧.

٢- ينظر الفتوى رقم / ٥٠٤٢/ جـ٢/ صـ٢٢٨/ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث.

الفصل الرابع

الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الرسل في تصور أهل الجاهلية

- والاستبشار بظهور النبي ﷺ

المبحث الثاني: الإيمان بالرسل ركن من أركان الإيمان وفيه عدة موضوعات:

١ - تعريف الرسول.

٢ - معنى الإيمان بالرسل.

٣ - دعوة الرسل رحمة للبشرية.

٤ - خاتم الأنبياء والمرسلين: محمد ﷺ.

٥ - من حقوق الرسول ﷺ على المسلم.

أ - الصلاة عليه عند ذكره.

ب - طاعته واتباع سنته.

جـ - محبته ﷺ.

٦ - شفاعته ﷺ.

المبحث الثالث: التقارب بين الأديان: النظرية والتطبيق

١ - أحقادهم عبر التاريخ.

٢ - مناقشة دعاة التقارب والحوار.

٣ - وماذا عن واقع أهل الكتاب اليوم.

المبحث الأول

الرّسُل فى تصور أهل الجاهلية (١)

كان أهل الجاهلية من العرب قد طال عليهم أمدٌ نسوا فيه رسالة إسماعيل ووالده عليهما الصلاة والسلام، وانحرفوا عما كان عليه أجدادهم زمن جدهم إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

وتناقل بعضهم ذكْر بعض الرسل الأقدمين فى رواياتهم وأشعارهم، وإن كانت هذه النصوص قليلة إلا أنها تعطينا صورة مبسطة لما كانت تزخر به الجاهلية من معتقدات وقيم صحيحة أو شائهة.

ولقد كان لأمية بن أبى الصلتّ وقفات متعددة مع كثير من الأنبياء السابقين، فديوانه زاخر بالشعر الدينى حتى قال فيه الأصمعى: «ذهب أمية فى شعره بعامة ذكر الآخرة» (٢)

وقد تحدث عن قصة الطوفان وعن سفينة نوح عليه السلام، وعن نجاة ركابها، فقال: (٣)

جزى اللهُ الأجلُّ المرء نوحاً ... جزاءَ البرّ ليس له كذابُ
بما حملتْ سفينته وأنجتْ ... غداة أتاهم الموت القُلاب
وفيها من أرومته عيالٌ ... لديه لا الظِّماءُ ولا السِّغابُ
وإذا هم لا لبوس لهم عراةٌ ... وإذا صخر السُّلام لهم رِطابُ
عشية أرسل الطوفان يجرى ... وفاض الماء ليس له جرابُ

---

١ - انظر المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى: صـ٢٣ - ٢٨.
٢ - الأغانى: ٤/١٢٥.
٣ - انظر ديوان أمية بن أبى الصلت: صـ٥٢٢، طبعة دمشق سنة ١٩٧٤م.

وذكر من الأنبياء موسى عليه السلام فقال:

وأنت الذي من فضـل مَنّ ورحمـة

بعـثت إلى مـوسى رسـولاً مناديـا

فقلت له يا اذهب وهارونُ فادعُـوَا

إلى الله فـرعونَ الذي كـان طاغيـاً

وذكر لوطاً عليه السلام فى قوله:

ثم لوطاً أخـا سـدوم أتاهـــا

إذا أتاها بـرشـدها وهُداهـــا

كما ذكر أمـية في ديوانه: إبراهيم وداوود ، وشيئا من قصـة ثمود مع الناقة كما ذكر عيسى بن مريم وأمه، عليهم جميعاً الصلاة والسلام[1]

وهنالك شعـراء آخرون ذكروا الرسل في أشـعارهم. فهذا بشـر بن أبي خازم الأسدي يذكر قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، خلال اعتذاره لأوس بن حارثة وكان قد هجاه، فقال: [2]

فقل كالذى قال ابن يعقوب يوسفُ

لإخوته والحكمُ فى ذاك راســبُ

يريد أن يصـفح عنهم أوس بن حـارثة، كمـا صفح يـوسف عليه السـلام عن إخوته.

وقد ورد ذكر نوح عليه السلام في ديوان الأعشى ، أماّ النابغة الذبيانى فقد ذكر سليمان عليه السلام في شعره .

١- ديوان أمية: وخاصة الصفحات / ٥٢٢، ٥٢٩/

٢- ديوان بشر بن أبي خازم : ص٥٢/ تحقيق د. عزة حسن

يقول الأعشى خلال مدحه[1] :

جزى الإ له إياساً خير نعمته
كما جزى المرءَ نوحاً بعدما شابا
في فلكه إذا تبدّاها ليصنعها
وظل يجمع ألواحا وأخشابا

وقال النابغة في ذكر سليمان عليه السلام[2] :

إلا سليمان إذ قال الإله له
قم في البرية فاحددها عن الفندَ
وخيّس الجن إني قد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصفاح والعَمَد

ومن الشعراء الذين تعرضوا لذكر الأقوام البائدة لبيد بن ربيعة، إذ ذكر عاداً وثمود في قوله[3] :

ولقد بلتْ إرمٌ وعادٌ كيده
ولقد بلته بعد ذاك ثمودُ

وذكر المزق القرشي كذلك بعض الأمم السابقة مع أنبيائهم بقوله:[4]

وتلكم قريشٌ تجحد الله حقّه
كما جحدت عادٌ ومدين والحجرُ

فهو يذكر قبيلة قريش بجحود تلك الأقوام، وإنكارهم لحقوق الله تعالى ، وقد عرفوها من أنبيائهم.

١- ديوان الأعشي: ص٥١ ، طبعة بيروت للطباعة والنشر

٢- ديوان النابغة : ص٢٦٥

٣-ديوان لبيد: ص٣٤

٤- المؤتلف والمختلف للآمدي /ص٢٨٤،ت عبد الستار فراج دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٨١هـ والمزق القرشي.. هو عبد الله بن حذافة السهمي أحد شعراء قريش.

الاستبشار بظهور النبى محمد ﷺ (1)

كان أهل الكتاب يعلمـون أنه سيبعث نبي، وتحدث كثيـر من علمائهم عن قرب زمـان خـروج هذا النبي، وقـد بين الـقـرآن الكريم أنهم ﴿يعرفونه كـما يعرفون أبناءهم﴾(2)

وكان اليهود يخوفون العرب بخروجه، ويزعمون أنه منهم ويقتلون به العرب

«وقد بنوا الحصون والقلاع قرب المدينة لنصرة رسول الله ﷺ ، نبي آخر الزمان فأمرهم أئمـتهم وكتابهم بمهـاجرة أوطانهم بالشام إلى تلك القلاع والبـقاع حتى إذا ظهر وأعلن الحق بفاران وهاجر إلى دار هجرته يثرب هجروه وتركوا نصرته»(3)

وعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عـمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صـفة رسـول الله ﷺ في التوراة؟ قـال أجل والله إنه لموصوف في الـتوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيراً﴾ وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي سمـيتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولاصخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ولن يقبض حتى تقيم به الملة العوجاء بأن يقـولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعيناً عمـياً ، وآذانا صماً وقلوباً غلفاً(4)

هذه صفة الرسول ﷺ في التوراة ، جعلت علمـاء اليهود يعرفون النبى ﷺ كما يعرفون أبناءهم:

قال ابن اسحق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال: إنه قدم علينا رجل من الشام من اليهود يقـال لـه ابن الـهيبان، فأقام عندنا، والله

1- انظر أدب الحنيفية / ص٢٤٦ - ٢٤٩

2- سورة الأنعام / ٢٠

3- الملل والنحل/ ص٢٢١ الشهرستانى / ط ١/ ١٩٧٧م مكتبة الانجلو المصرية

4- أخرجه البخاري فى البيوع/ شرح السنة ج ١٣/ ٢٠٨

مارأينا رجلاً يصلي خيراً منه، فقدم علينا قبل مبعث رسول الله ﷺ بسنتين فكنا إذا قحطنا وقل علينا المطر نقول : يا ابن الهيبان: اخرج فاستسق لنا فيقول: لا والله حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة، فنقول : كم؟ فيقول: صاع من تمر، أو مدين من شعير، فنخرجه ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا ونحن معه نستسقي، فوالله ما يقوم من محله حتى تمطر ويمر بالشعاب، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثة.

فحضرته الوفاة ، واجتمعنا إليه فقال: يا معشر اليهود! أترون ما أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا: أنت أعلم: قال فإني إنما خرجت أتوقع خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلاد مهاجره فاتبعوه ولا يسبقنّ إليه غيركم إذا خرج (١)

قال تعالى: ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين** ﴾ [البقرة / ٨٩].

ويبدو أنه لم يكن يعلم بظهور نبي منتظر إلا الطبقة المثقفة، كالحنفاء من العرب، وبعض أهل الكتاب. .

وفى الشعر الجاهلي نجد إشارات من أهل الكتاب الحنفاء فى هذا الموضوع.

فأمية بن أبى الصلت ، وكان قد طمع فى هذه النبوة، يُروى له شعر يتمنى فيه أن يأتيهم نبي فيخبرهم بما يحدث لهم بعد انقضاء هذه الحياة، يقول في ديوانه:(٢)

ألا رسولٌ لنا منا فيخبرَنا
مـا بُعدُ غايتنا من رأس مُجراْنا
وقد عجبت وما بالموت من عجبٍ
ما بالُ أحيائنا يبكون موتانا

١- انظر : هداية الحيارى / ٤٣ لابن قيم الجوزية.

٢- ديوان أمية بن أبي الصلت / ص١٧، ت السطلي دمشق سنة ١٩٧٧ م

وقد أكثر ورقة بن نوفـل من الاستبشار بظهور النبى ﷺ ، وقـد كان على علم بما في أسفار أهل الكتاب.

من ذلك قصيدته التي أشرنا إليها سابقاً ، وقد حدثته السيدة خديجة رضي الله عنها عـما ذكره غلامها مـيسرة من قول الراهـب فى الشام، من أنه كـان يرى منه ملكين يظلانه ﷺ.

قال ورقة: لئن كان هذا حقاً يا خديـجة ، فإن محمداً نبي هذه الأمة .(١) ومما قاله شعراً.

لججت وكنت فى الذكرى لجوجاً — لهم طالمـا بعـث النشيجـــا
ووصف من خديجة بعـد وصـف — فقد طال انتظـاري يا خديجـا
بما خبرتنـــا من قـــول قـس — من الرهـبان أكره أن يعوجـا
بأن محـمداً سيســود فيـــنا — ويخصم من يكون له حجيجـا

وقد روي أن عبـد الله بن سـلام دعا ابنى أخـيه سلمـة ومهاجر إلـى الإسلام فقال: قد علمتمـا أن الله تعالى قال فى التوراة: إني باعثٌ من ولـد إسماعيل نبياً اسمه أحـمد، فمن آمن به فـقد هدي ورشد، ومن لم يـؤمن به ملعون: فـأسلم سلمة وأبو مهـاجر . فنزلت الآيات : ﴿ومن يرغب عن ملة إبـراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطـفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصـالحين. إذ قال له ربه أسلم. قال أسلمت لرب العالمين﴾.

﴿ووصى بها إبراهيم بـنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لـكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [سورة البقرة / ١٣٠-١٣٢] (٢) .

١- السيرة النبـوية لابن هشام / ١/ ١٩١، ١٩٢/ القصيدة كلهـا فى السيرة ، وانظر كذلك البدايـة والنهادية لابن كثير فى الباب الأول فصل الحنفاء٢/ ٢٩٧

٢- مسائل الجاهلية: ص٢٦ للشيخ محمد بن عبد الوهاب.

المبحث الثاني

الإيمان بالرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ركن من أركان الإيمان

١- من هو الرسول:

هو كل من بعث برسالة، وأوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

فإن أوحي إليه ولم يؤمر بتبليغه فهو نبي ، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

قال ابن تيمية رحمه الله: « النبوة داخلة في الرسالة، والرسالة أعم من جهة أهلها، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

فالأنبياء أعم والنبوة جزء من الرسالة، والرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف النبوة فإنها لا تتناول الرسالة [١]

النبوة موهبة وإعداد من الله

ليست النبوة كسباً ينالها العبد بالجهد والاجتهاد ، وتكلف أنواع العبادات، واقتحام أشق الطاعات والدأب في تهذيب النفس وتنقية الخاطر، وتطهير الأخلاق ورياضة النفس كما يقول الفلاسفة: إنه يجوز اكتساب النبوة حيث يزعمون أن من لازم المشاهدة بعد كمال ظاهره وباطنه بالتهذيب والرياضة. فإنها تصقل مرآة باطنه ، وتفتح بصيرة لبه ، ويتهيأ له مالايتهيأ لغيره [٢]

فالنبوة تفضل واختيار من الله تعالى . كما قال تعالى: ﴿ **الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس** ﴾ [الحج/ ٧٥].

١- الكواشف الجلية / ص١٢-١٣ الحكمي

٢- الإرشاد الي صحيح الاعتقاد / الفوزان / ص١٥٥

هذا ما يدل عليه قوله تعالي : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ سورة الحج / ٥١»

« إنها هبة من الله تعالى ، لا كسباً من الإنسان ، وهي اصطفاء منه تعالى ورحمة وفضل ، هؤلاء الرجال المصطفون من أبناء آدم عليه السلام، تتلقفهم العناية منذ نشأتهم الأولى، لتقيهم أوضار الطبيعة البشرية، وترقى بهم صعداً في مدارج الكمال، وترشح قلوبهم الكبيرةلاستقبال ما يفِدُ به الملأ الأعلى من حضرة القدس، فإذا الحكمة تفيض من ألسنتهم، والأسوة تقتبس من أعمالهم، والنزاهة المطلقة تقترن بأحوالهم واتجاهاتهم، والوحي الذى تشرق به المعرفة على قلوب الأنبياء أنواع ومراتب، يبدأ بالرؤيا الصالحة في النوم »(١)

إنهم بشر، ولكنهم خير البشر، هيأهم الله لتلقي الرسالة، وتحمل ما يناط بهم من مهام لهداية البشر.

ولم يشأ الله أن يجعلهم ملائكة ، لأن من طبيعة النفس البشرية أنها تألف مثلها من بني البشر، وتقتدي بهم، ولوكان المرسل إليهم ملكاً كما قال المتعنتون لتمثل لهم في صورة بشر يلبس ما يلبسون.

قال تعالى: ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لاينظرون ، ولو جعلنا ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون**﴾ [سورة الأنعام/ ٨-٩] .

٢- معنى الإيمان بالرسل :

يعني التصديق الجازم بأن الله تعالى بعث في كل أمة رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ،لا شريك له، والكفر بما يعبد من دونه ،وأنهم جميعا صادقون مصدقون، بارون راشدون كرام بررة أتقياء أمناء، هداة مهتدون، وبالبراهين الظاهرة والآيات الباهرة من ربهم مؤيدون.

وأنهم بلغوا جميع ما أرسلهم الله به، لم يكتموا منه حرفاً ولم يغيروه ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفًا، ولم ينقصوه ، وهل على الرسل إلا البلاغ المبين؟! .

١- عقيدة المسلم / الشيخ محمد الغزالي / ص٢١٦

وأنهم كانوا على الحق المبين، والهدى المستبين، وأن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، واتخذ محمداً ﷺ خليلاً، وكلم الله موسى تكليماً، ورفع إدريس مكاناً علياً، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ، ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الله تعالى فضل بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم على بعض درجات(١)

ونؤمن أن من تيسير الله على العباد أن أرسل الرسل لهدايتهم: «رسلاً مبشرين ومنذرين لئلاً يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» النساء / ١٦٥

فقطع تعالى حجة كل مبطل ألحد في توحيده، وخالف أمره بجميع معاني الحجج القاطعة لعذره، وقد أخبر سبحانه أنه أخلصهم بخالصة ذكرى الدار، وأنهم عند ربهم لمن المصطفين الأخيار، ويكفي فى فضلهم وشرفهم أن الله تعالى اختصهم بوحيه وجعلهم أمناء على رسالته، وواسطة بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كراماته، ولم يجعل لعباده وصولا إليه إلا من طريقهم ودخولا إلى جنته إلا خلفهم. .

وفي الجملة فخير الدنيا والأخرة، إنما ناله العباد على أيديهم، وبهم عرف الله، وبهم عبد وأطيع، وبهم حصلت محبة الله تعالى فى الأرض ، وأعلاهم منزلة أولو العزم من الرسل الذين ذكرهم تعالى فى كتابه ﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ [الشورى / ١٣].

وهؤلاء الطبقة العليا من الخلائق، وعليهم تدور الشفاعة ، حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم ﷺ (٢)

«والإيمان بالرسالات السابقة هي الصفة اللائقة بالأمة المسلمة، وورثة النبوات منذ فجر البشرية، والحفيظة على تراث العقيدة وتراث النبوة وحادية موكب الإيمان في الأرض إلى آخر الزمان.

١- معارج القبول / ج٢/ ٦٧٧، والكواشف الجلية للحكمي / ص٤١

٢- طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم / ص٥٧٢

وقيمة هذه الصفة هي الشعور بوحدة البشرية ، ووحدة دينها، ووحدة رسلها ووحدة معبودها.

قيمتها في تنقية الروح من التعصب الذميم ضد الديانات والمؤمنين بالديانات ماداموا على الطريق الصحيح ، قيمتها هى الاطمئنان إلى رعاية الله للبشر ية على تطاول أجيالها وأحقابها.

هذه الرعاية البادية فى توالي الرسل والرسالات بدين واحد وهدى واحد، قيمتها هي الاعتزاز بالهدى الذى تتقلب الأيام والأزمان، وهو ثابت مطرد كالنجم الهادي فى دياجير الظلام [1] .

نؤمن أن عددهم كثير، منهم من ذكر في القرآن ، ومنهم من لم يذكر.

﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ، منهم من قصصنا عليك، ومنهم من لم نقصص عليك ، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون﴾ [سورة غافر ٠ ١٥- ١٥١].

هذا وإنّ الكفر بنبى واحد، كالكافر بجميع الأنبياء، قال تعالى: **﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقًا..﴾** .

ولم ينطبق هذا الأمر إلا على المسلمين الذين لا يكتمل إيمانهم إلا بالرسل جميعا، أما بقية الأديان فأمر أتباعها معروف من كفر بالرسل الآخرين، بل إن بني إسرائيل قتلوا بعض أنبيائهم ، وشوهوا سيرة آخرين فى كتب يزعمون أنها مقدسة ، مما يدل دلالة واضحة على التحريف الذى وقع عندهم فى دينهم وكتبهم سواء كانوا يهوداً أو نصارى.

١- الظلال لسيد قطب / جـ١/ ص٤١، وينظر دراسات قرآنية لمحمد قطب/ ص٩٠

ونحن المسلمين نؤمن بأن الله بعث رسله إلى الخلق لتحقيق غرض أساسي هو عبادة الله عز وجل ، وإقامة دينه وتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ويجب علينا تصديق رسل الله جميعاً بعد الإيمان بهم وبرسالتهم وأن لانفرق بينهم، وأن نؤمن أن كل رسول أرسله الله أدى أمانته وبلغ رسالته على الوجه الأكمل وبينها بيانا واضحا شافياً كافياً.

والواجب أن نعتقد أنهم أكمل الخلق علماً وعملاً وأخلاقا، وأنهم جميعا من البشر لا يملكون شيئاً من خصائص الألوهية ، والله تعالى أيدهم بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقهم فيما جاءوا به من عند ربهم تبارك وتعالى وأفضلهم جميعا نبينامحمد ﷺ (١)

٣- دعوة الرسل: رحمة بالبشرية:

القصور البشري جبلي في الإنسان، يجلعه عاجزاً عن وضع منهج يصلح له في معاشه ومعاده، ويجعل عقله لا يفي بنظره وبحثه للوصول إلى اليقين والصراط المستقيم.

«ولا سبيل إلى السعادة والفلاح ، لا في الدنيا ولا في الآخرة، إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق، ليس إلا هديهم، وما جاءوا به فهو الميزان على الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال والأقوال. وبمثابتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها ، والروح إلى حياتها»(٢) .

بُعث الرسل لتوحيد الله وعبادته واجتناب الطواغيت كلها قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [النحل/٣٦].

١-الإيمان : د. محمد نعيم ياسين / ص٧٥-٨٢

٢-زاد المعاد: ابن القيم / ج١/ ص١٥

واتفقت دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم على أصل العبادة وهو التوحيد، بأن يفرد الله تعالى بجميع أنواع العبادة اعتقاداً وقولاً وعملاً، ويكفر بكل ما يعبد من دونه.

أما الفروض المتعبد بها، فقد يفرض على هؤلاء من الصلاة والصوم ونحوها مالا يفرض على الآخرين، ويحرم على هؤلاء ما يحل للآخرين امتحاناً من الله تعالى: ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾ [الملك / ٢][1]

فاتفقت دعوة الرسل في الأصول لأنها ثابتة لا تتغير، ومصدرها ثابت من الله تعالى، أما الشرائع فتختلف حسب حاجة القوم وطبائعهم، وتطور عقول الناس ومداركهم . . فكانت رسالة عيسى عليه السلام ليخفف من غلواء بني اسرائيل بعد أن تحجرت قلوبهم، وغلظت أفئدتهم.

قال تعالى: ﴿ **ثم قست قلوبكم بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون**﴾ [البقرة / ٧٤].

وبذلك لما غلب الهوى على اليهود، وتنكروا لتعاليم السماء، جاءتهم البينات مذكرة مبصرة . .

ولما غالى أتباع عيسى عليه السلام في تبجيله ، ورفعوه فوق مرتبة الرسالة والعبودية لله تعالى، فادعوا أنه ابن الله- تعالى عن ذلك علواً كبيراً- جاءت الرسالة الخاتمة ، رسالة محمد ﷺ.

وجاءت الآيات القرآنية محذرة أتباع المسيح بن مريم من الغلو فيه، والانحراف في فرية التثليث، قال تعالى ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسوله، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم، إنما الله إله واحد،**

١- أعلام السنة المنشورة / ٨٧، ومعارج القبول / ٢/ ٦٧٧

سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات، وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ [النساء / ١٧١].

وقال تعالى داعياً إلى اتباع رسول هذه الأمة محمد ﷺ : **﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾** [الأعراف/ ١٥٧] .

«ولقد طال الزمن على الكتب الإلهية السابقة، وتناولتها الأيدى بالتبديل والتأويل. . وكانت البشرية فى خطر المروق من دين الله، والاستسلام للوثنية والإلحاد، وأصبح العالم في حاجة إلى وحي من الله يجنبه مواطن الضلال ويهديه إلى سواء السبيل، وكان أهل كل كتاب يكفرون من عداهم، واختلفوا فى معرفة الحقيقة الإلهية وكنه الدين الحق، فجاء القرآن يبين الحق من الباطل، ويبين للناس ما أشكل عليهم [1] . قال تعالى مخاطباً رسوله الأمين ﷺ **﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم. فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم. وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾** [النمل / ٦٣-٦٤].

٤- رسول الله إلى العالمين وخاتم الأنبياء والمرسلين: محمد ﷺ

أرسل الله محمداً عليه الصلاة والسلام للناس كافة، وكان الرسول يبعث في قومه خاصة.

قال تعالى **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾** [سبأ / ٢٨].

وقال تعالى : مخاطبا نبيه **﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾** [الأعراف / ١٥٨].

١-روح الإسلام : عفيف طبارة ص١٤٥

وقال ﷺ موضحاً طبيعة رسالته، وبعض المزايا التي خصه الله بها في الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»(١)

وكان ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، قال تعالى **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾** [الأحزاب/ ٤٠].

وما كانت النبوات والرسالات السابقة إلا تمهيداً لرسالته، تكمل ما بدأ به الأنبياء قبله كما جاء في الحديث الصحيح: «مثلي ومثل الأنبياء، كمثل رجل بنى بيتا، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» (٢)

ولا يرسل نبي بعد آخر إلا لأحد الأسباب الثلاثة التالية:

١- أن يكون تعليم النبي المتقدم قد انمحى، وظهرت الحاجة إلى عرضه على الناس مرة أخرى.

٢- أو أن يكون تعليم النبى المتقدم غير كامل

٣- أو يكون منحصراً في أمة خاصة، وتكون أمة أخرى بحاجة إلى نبى مرسل مثله.

وقد انعدم كل سبب من هذه الأسباب:

١- ذلك أن تعليم النبي محمدﷺ، ما يزال حياً في متناول الأيدي، فلا حاجة إلى نبي يجدد هذه التعاليم ويعرضها على الناس مرة أخرى.

١- أخرجه البخارى ومسلم والنسائي / ينظر صحيح الجامع الصغير ١/ ٢٤٠

٢- أخرجه مسلم في الفضائل والبخاري في باب خاتم النبين: انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج١٥/ ص١٥، وعون البارى / ٥/ ص٢٨

٢- إن تعاليم الإسلام كاملة ولا قصور فيها ، فلا حاجة أن يضاف إليها أو ينقص منها شيء.

٣- إنها للعالمين جميعاً، فلم يبق لأمة حاجة في إرسال رسول آخر ، وإنما حاجتنا إلى رجال يتبنون تعاليم النبى ويدعون الناس إلى اتباعه، ويفهمون هديه ويعملون به [١] .

ومن هنا كانت الرسالة المحمدية سمحة ميسرة ، تشمل ما فيه خير البشرية وصلاحها ، فتذكر بنعم الله وتدعو إلى توحيده ، وعبادته وترك مخالفة أمره.

تدعو إلى التفكير والنظر، وتكبح جماح الشهوات مع احترام للدوافع البشرية، وتقدير للكرامة الإنسانية.

وكل ذلك يؤهلها لتكون صالحة لكل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

*** معنى الإيمان بالرسول محمد ﷺ[٢] .**

يعني أن نؤمن بأنه مبلغ عن الله عز وجل ، ولم يقل شيئا من رأيه فيما يتعلق بالتبليغ ، لذا كانت طاعته طاعة لله عز وجل ومعصيته معصية لله ، وتكذيبه تكذيباً لإخبار الله عز وجل ، فى أنه رسوله ، قال تعالى: **﴿ وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً ، من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾** [النساء / ٧٩].

ونعتقد أنه بلغ جميع ما أرسل به ، لم يكتم منه حرفاً واحداً قال تعالى:

﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك فإن لم تفعل، فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة / ٦٧].

٣- وأن هذا الذي بلغه الرسول ﷺ عن ربه هو جميع دين الإسلام مكملاً

١- مبادى الإسلام : المودودى / ص٦٠-٦٢ «بإيجاز»

٢- معارج القبول : ج٣/ص١١٠٦-١١١٤/ بإيجاز

محكماً، لم يبق فيه نقص بوجه من الوجوه فيحتاج إلى تكميل، ولم يبق فيه إشكال فيحتاج إلى حل، ولا إجمال فيفتقر إلى تفصيل ، قال تعالى: ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾

وما توفي ﷺ حتى بين الشريعة أكمل بيان، وما توفاه الله عز وجل حتى بلغ ما أرسله الله به أكمل بلاغ، وبينه أتم بيان وفصله أوضح تفصيل، وأكمل به الدين وأتم علينا النعمة.

٤- إن هذا الدين لا يقبل زيادة على ما شرع فيه من أصول الملة وفروعها ، ولا نقصاً منها ولا تغييرا ولا تبديلاً،ولا يقبل من أحد ديناً سواه.

٥- نؤمن بأن محمداً ﷺ خاتم الرسل فلا نبي بعده،ولا شك أن ذلك من تحقيق الشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله،فمن فاته إحداهما فقد أخل بها، وفاته الإيمان.

ونؤمن بأن محمداً هو الصادق الأمين الذى اعترف بصدقه أعداؤه من المشركين. .

«سأل هرقل أبا سفيان بن حرب عندما كان في الشام للتجارة، وفي وجود أصحابه من التجار، قال: فاجعلوهم عند ظهره لئلا يستحيوا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب. .

وكان من الأسئلة ، قال هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل أن يقول ما قال؟

قال أبو سفيان : قلت لا.

قال هرقل: فهل يغدر؟!.

قال أبو سفيان قلت: لا ، ونحن منه «أي من النبيﷺ» في مدة ، أي صلح الحديبية.

وبعد الأسئلة التي سألها قال هرقل لأبي سفيان: وسألتك: هل كنتم تتهمونه

بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر «أي لم يكن ليدع الكذب على الناس قبل أن يظهر رسالته ، ويكذب على الله بعد إظهارها»(1)

٥- من حقوق الرسول ﷺ على المسلم

على المسلمين واجبات أساسية نحو رسولهم محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، ولا بد من القيام بهذه الواجبات لأنها من حقوق نبيهم الكريم ، وسوف نوجز بعضاً من هذه الحقوق ومن أهمها:

أ- الصلاة على رسول الله عند ذكره:

لقوله تعالى: ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب / ٥٦].

وصيغتها وردت فى الحديث الشريف.

«عن أبي مسعود قال: أتانا رسول الله ﷺ ، ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك؟

قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ : قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم»(2).

وعن أبي هريرة قال:

«قال رسول الله ﷺ : صلوا عليّ فإن الصلاة عليَّ زكاة لكم، اسألوا الله لى الوسيلة، قالوا : وما الوسيلةيا رسول الله؟.

قال: أعلى درجة فى الجنة لا ينالها إلا رجل واحد، أرجو أن أكون هو» (3)

١-رواه البخارى: باب الوحى عون البارى / ص٨٩ المجلد الأول

٢-رواه أحمد ومسلم والنسائي والترمذى وصححه انظر نيل الأوطار للشوكاني : ٢/ ٢٨٤

٣- اخرجه عبد الرزاق فى المصنف : ٢/ ٢١٦ ، ينظر مصنف ابن ابي شيبة ج١١/ ص٥٠٤

فالصلاة على النبي ترفع الدرجات وتضمن شفاعة المصطفى ﷺ

وقد جاء في الحديث الصحيح أنه خاب وخسر من إذا ذكر عنده الرسول ولم يصل عليه، اللهم صل وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبيﷺ أنه قال: « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة»(١)

ب - طاعته واتباع سنته:

من أهم الواجبات على المسلم طاعة رسول الله ﷺ ، وذلك دليل الإيمان، قال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾(٢) ، فالتسليم المطلق والاتباع الكامل مع الرضا من أبجديات هذا الدين، وقال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم، والله غفور رحيم﴾ [آل عمران/ ٣١].

والقدوة برسول الله واجب أساسي في حياة المسلم: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ [الأحزاب/ ٢١].

فمن لم يتبع الرسول ويسلم له ، نقص توحيده لأنه سيقول برأيه وهواه، أو يقلد أصحاب الأهواء بغير هدى من الله تعالى:

فينقص توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول (٣)

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء/ ٨٠].

وإن طاعة الرسول هي طاعة لله، وما على الرسول إلا البلاغ.

١- الحديث صحيح اخرجه الترمزي والحاكم / ينظر صحيح الجامع الصغير جـ ١/ ص٦٥٩
٢- النساء / ٦٥
٣- شرح الطحاوية : ١/ ٢٣٤

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه « وأنذر عشيرتك الأقربين»:

« يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبدالمطلب، لا أغني عنكم من الله شيئًا يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، ياصفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت رسول الله سليني بما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئا»[1] رواه مسلم.

جـ - محبة الرسول ﷺ:

وهي من شروط الإيمان كما جاء في الحديث الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[2]

فمن ادعى محبة النبي ﷺ بدون متابعته ، وتقديم قوله على قول غيره فقد كذب كما قال تعالى: **﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾** [النور / ٤٧].

فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ.

وقال ﷺ : «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[3]

وهذه المحبة مدعاة للاقتداء ، أما الغلو في مظاهر المحبة دون التأسي بالرسول ﷺ ، ودون عمل بشريعته فهو مجرد ادعاء يبقى بحاجة الى بينة.

من ذلك أن يتحول حبه ﷺ إلى احتفالات بمولده، واجتماع الناس، وإنشاد الأناشيد التي قد تحوي شركيات فى ثناياها ، كقول القائل في قصيدة البردة :

١- شرح صحيح مسلم: ج٣ / ص٨١

٢- متفق عليه / ينظر صحيح الجامع الصغير ج٢ / ١٢٥٧

٣- حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي / انظر صحيح الجامع الصغير١ / ٥٨٤

يا أكـرم الخلق مـالي مَنْ ألوذ بـــه

سـواك عند حلول الحادث العـمم

فـإن من جـودك الدنيا وضـرتهـــا

ومن علومـك علم اللوح والقـلـم

إن ذلك غلو شـديد، وتشبه بأهل الـكتاب، ولطالما نهـينا عن التشبـه بهم. بل يعتبر هذا من البدع التي ابتدعهـا الفاطميون فى القرن الـرابع الهجري ، هذا عـدا مـا يكون فى حفـلات المولد من المحـرمات ، كـاستـعـمال آلات اللهـو والطرب واختلاط الرجال بالنساء»(١).

وفي كثـير من البـقاع الإسلامـية قـد تعطل المدارس والدوائر الحكوميـة وتقام الاحتـفالات ، وذلك بدعة منكرة لمخـالفته لهـدي رسول الله ﷺ وما كـان عليه الخلفاء الراشــدون وأئمة السلف الصالح فـي القرون الثلاثة المفـضلة ، وقد ثبت عنهﷺ أنه قال «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» (٢).

٦- القول في الاستشفاع بالرسول ﷺ

إن دعاء الرسولﷺ للمـسلم وهو حي، شفاعة مباركـة مشروعة، ولا بأس أن يطلب منه الدعاء بالمطالب العامة والخاصة، وقد قال النبيﷺ لعمر ، لما عزم على العمـرة من المدينة: «لا تنسنايا أخي من صالح دعـائك» وكل صالح حي يرجى أن يستجاب له.

أما الميت فإنمـا يشرع فى حقه الدعاء له عـند حضور جنازته، وعلى قبـره وغير لك، هذا ما يشرع فى حق الميت، أما دعاؤه ومناداته بطلب الغوث فلم يشرع، بل دل الكتاب والسنة على النهي عنه والوعيد لـه، كما قال تعالى: ﴿ والذين تدعون

١-انظر رسالة الإنصاف فـيما قيل فى المولد من الغلو والإجـحاف ، ورسالة القول الفصل في حكم الاحـتفال بمولد خير الرسل.

٢- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية ج٣ ص١٤.

من دونه ما يملكــون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعـــوا دعاءكـم ، ولوسمعـــوا ما استجابوا لكم، ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ [فاطر/ ١٣-١٤].

فبين الله تعالى أن دعـاء من لا يسمع ولا يستجيب شـرك يكفر به، المدعو يوم القيامة، أي ينكره ويعادي من فعله »[1]

والاستشـفاع بالرسول ﷺ ، بعد وفـاته لا يجوز : ولا يصح القول: بـحق نبيك «وإذا توسلنا إلى الله تعالى بإيماننا بنبيه ومحبـته ،وموالاته واتباع سنته ، فهذا من أعظم الوسائل ، أما التوسل بنفس ذاته ، وعـدم التوسل بالإيمان به وطاعته ، فلا يجوز أن يكون وسيلة» [2] .

والتوسل بمعنى الإقسام على اللـه بذاته والسؤال بذاته ﷺ ، فهذا هو الذي لم يكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه في حياته وبعد مماته، لا عند قبره ولا قبر غيره» [3] .

والشفـاعة الكبرى للرســول ﷺ لأمته ستكون يوم القيامـة بإذن الله تعالى: «وقـد اضطرب الناس في مـسألة التـوسل وحكمـهـا في الدين اضطرابا كـبيـرا، واختلفوا فيها اختلافا عظيما بين محلل ومحرم، ومغال ومتساهل.

وقد اعـتاد جمـهور المسلمين منذ قرون طويـلة، أن يقولوا في دعائهم مـثلا: «اللهم بحق نبيك أو بجـاهه أو بقدره عندك عافني واعـف عني» وقولهم: «اللهم إني أسـألك بحق البيت الحـرام أن تغفـر لى » أو قـولهم : «اللهم بجاه الأوليـاء والصالحين مثل فلان وفلان» أو قولهم «اللهم بكرامة رجال الدين عندك وبجاه من نحن فى حـضرته وتحت مـدده فرج اللهم عـنا وعن المهمـومين» ويسمـون هـذا توسلاً ، ويدعون أنه سائغ مشروع» [4] .

١-فتح المجيد : ص٤٣٠.
٢- قاعدة جليلة لابن تيمية/ ص١٤١.
٣- قاعدة جليلة / ص٥٠
٤- التوسل : أنواعه وأحكامه / الشيخ ناصر الدين الألباني / ٦-٧.
الاعتقاد بإمـداد بشر ميت للأحياء اعـتقاد باطل، وطلب استغاثة من غـير الله، وهذا نوع من أنواع الشرك الأكبر والعياذ بالله.

وهنالك من يقول في هذا العصر: «إن الدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعى في كيفية الدعاء، وليس من مسائل العقيدة وهذا ليس صحيحاً على إطلاقه.

قال الإمام العز بن عبد السلام في رسالة «الواسطة ص٥»

ومن أثبت أن الأنبياء وسواهم من مشايخ العلم والدين، وسائط بين الله وبين خلقه، كالحجاب الذين يكونون بين الملك ورعيته يرفعون إلى الله تعالى حوائج خلقه، وأنه تعالى إنما يهدى عباده ويرزقهم وينصرهم ويتوسطهم، بمعنى أن الخلق يسألونهم، وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملك حوائج الناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم، من طلبهم من الملك.. فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه، فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب، فإنْ تاب وإلا قتل، وهؤلاء مشبّهون الله، شبهوا الخالق بالمخلوق، وجعلوا لله أندادا» (١).

والتوسل المشروع الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وجرى عليه عمل السلف الصالح، وأجمع عليه المسلمون هو:

١-التوسل باسم من أسماء الله تبارك وتعالى، أو صفة من صفاته.

٢- التوسل بعمل صالح قام به الداعى «كقصة أصحاب الغار الذين فرجت عليهم الصخرة بسبب دعائهم بأعمالهم الصالحة».

٣-التوسل بدعاء رجل صالح.

أما ما عدا هذه الانواع من التوسل ففيه خلاف، والذى نعتقده، وندين الله به أنه غير جائز ولا مشروع، لأنه لم يرد فيه دليل، تقوم به الحجة، وقد أنكره العلماء المحققون في العصور الإسلامية المتعاقبة» (٢).

١- التوسل : أنواعه وأحكامه / ص١٣٦ الشيخ ناصر الألباني.

٢- المرجع السابق / ص٤٣.

المبحث الثالث

التقارب بين الأديان : النظرية والتطبيق

ما دام أصل الديانات السماوية واحداً، فلماذا لا تتقارب هذه الأديان؟ ولماذا لا يسعى أتباعها إلى الحوار من أجل الألفة والتقارب؟ وفى سبيل التفاهم والمحبة؟! دعوة براقة قد تخدع السذج من المسلمين، وقد ظهرت في العصور المتأخرة باسم «الحوار بين الأديان» أو باسم التبشير، أو حتى باسم العالمية لمزج الأديان في ديانة عالمية إنسانية.

وإنا لنقول ابتداء: الإسلام جاء يعرض تصحيح انحرافات فى الأديان السماوية، وعلماء اليهود والنصارى يعلمون ذلك في كتبهم، وأن محمداً ﷺ كانت صفته في التوراة ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وقد بشر به بعض المخلصين من أحبارهم ، ولما جاء الرسول يدعو إلى رسالة الإسلام جحدوا ما علموا وأنكروه.

قال تعالى: ﴿**وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين**﴾ [سورة البقرة ٨٩].

أحقادهم عبر التاريخ:

وقد حاول اليهود اغتيال رسول ﷺ فأجلاهم عن المدينة، وحاربهم بعد أن غدروا به فى حرب الأحزاب، ويخبرنا العليم الخبير عن حقيقة حقدهم وحقيقة ما يبتغون فى الآية الكريمة: ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾ [البقرة / ١٢٠].

استمروا في أحقادهم يحاربون الإسلام وأهله، ويعتقدون أن ماهم عليه هو الحق ، قال تعالى: ﴿**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ [البقرة / ١١١].

﴿**وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾ [البقرة / ١٣٥].

وكانوا كلما احتكوا بالمسلمين سببوا لهم المآسي، قاموا بالتحالف مع أعدائهم، أو التشكيك في عقيدتهم «ففي العهد العباسي ابتدع بعض خلفاء العباسيين بدعة سخفية وهي أن يدعوا من متكلمي اليهود والنصارى من يناظر المفكرين المسلمين، وكانت بداية الغزو الفكري، إذ اتجه علماء المسلمين إلى الفلسفة الإغريقية لتعلمها، وليردوا على اللاهوت اليهودي واللاهوت النصراني وكانت عملية عابثة»(1) .

وعند الفتوحات الإسلامية شهد الأعداء والأصدقاء عدل المسلمين ورحمتهم، وتقيدهم بمبادئ شريعتهم، وعاشت الشعوب في كنف الإسلام آمنة مطمئنة قروناً مديدة، وماذا كانت النتيجة وما المكافأة على هذا الصنيع؟!

في الحروب الصليبية جرت الخيول إلى ركبها في دماء المصلين من المسلمين في المسجد الأقصى.

وفي الأندلس ؟! كانت محاكم التفتيش قد أشرفت على قتل نحو مائة ألف مسلم على أقل تقدير، ستة آلاف منهم: حرقوا بالنار على يد (تور كمادا الدمنيكي) الإسباني عام «١٤٢٠-١٤٩٨» وطلب جزاء عمله منصب كردينال من البابا(2) .

وفي فلسطين الجريحة ماذا صنعوا من جرائم؟ وما يزالون وفي البوسنة والهرسك. ظهر الحقد الصليبي واضحاً جلياً بسكوت مزر من الأمم المتحدة التي يسيطر اليهود والنصارى عليها، وهاهم يتبجحون بالنظام العالمي الجديد، ليدكوا باسمه أقطار المسلمين، ويتظاهرون بالعجز عن إيقاف المجازر الوحشية والإبادة الجماعية طوال عام ونصف حتى الآن.. وشعار الصرب صليبي عنصري لايتوارون من إعلانه.. أما المسلمون فمتعصبون متطرفون إذا فكروا بالتمسك بدينهم وعقيدتهم.. فأين نقاط الالتقاء ؟! وفي كل مكان يوجد فيه مسلمون فالاضطهاد

١-لا إله إلا الله: عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ص١٣٩

٢- الإسلام والحضارة العربية : ج١/ ص١٥-١٦/ محمد كرد علي

والدمار. . في آسيا الوسطى ، الصومال ، الهند وكشمير. . ونحن لا ننظر في كتاب الله تعالى بتمعن وهو يحذرنا . قال تعالى: **﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا: آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾** [سورة آل عمران / ١١٩].

هاهم في القديم والحديث، وكتاب الله لا ينطق إلا بالحق فهل نحن متعظون؟! أم ما زلنا نحسن الظن رغم شواهد التاريخ؟ ورغم أحداث الاستعماريين القديم والحديث؟ والسؤال الذى يفرض نفسه هو : لماذا إذن تقوم هذه الدعوات للتقارب بين الأديان؟ إنها سلعة جديدة ، وخداع يريد إبعاد المسلمين عن دينهم، ومن ثم تشكيكهم بعقيدتهم وشريعتهم.

وسوف نتناول حجج أهل التقارب والحوار فى الفقرة التالية:

٢- مناقشة أهل التقارب والحوار

هنالك أمور أساسية نود إلقاء الضوء عليها:

١- إن كان المقصود من هذه الدعوة المستحدثة، دعوة المسلمين إلى الإنجيل ، فالمسلمون يؤمنون بالإنجيل ، ورسالة المسيح عليه السلام ، كما أنهم يؤمنون برسالة موسى عليه السلام. . ويؤمنون بجميع الأنبياء البررة.

فالواجب أن يقنع هؤلاء أنفسهم بضرورة الإيمان بمحمد ﷺ ، وبرسالته السماوية، وإلا فلا معنى لهذا التقارب الذى يكيل بمكيالين متناقضين

٢- وإن كان المقصود من التقارب، هو تضافر الجهود لمحاربة الإلحاد فى الأرض ، وهداية الملايين الضالة من البشرية، فليبدأ كل من اليهود والنصارى ببني جلدتهم ممن نبذوا الدين وراء ظهورهم، وتحولوا إلى عبادة الآلة والمصنع والعلمانية. .

ومن ثم ليتلفتوا إلى الوثنيين الذين هم غالبية البشرية.

٣- وإن كان أهل التقارب بين الأديان يريدون التقارب الذي يجمع الكفار من

كل دين، والتقارب العلماني اللا ديني فهذا يعتبر من بعض مكايدهم، ليصرفوا المسلمين عن عقيدتهم، ويبعدوهم عن دينهم، وليمزقوا شملهم باسم التقارب والتسامح بين الأديان.

٤- أما إذا أرادوا التقارب الذي يجمع المؤمنين بالأديان السماوية فعلاً، فإن الله جل وعلا قد دعا إليه:

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ [آل عمران/ ٦٤] .

واستجابة لهذا النداء العلوي، فمن الممكن الحوار على الأساس الذي بينته الآية الكريمة **﴿ ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾**.

وإلا كيف يمكن أن نجمع ونوفق بين عقيدة التوحيد: لا إله إلا الله، و**﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾** وبين عقيدة : «إن الله ثالث ثلاثة الأب والإبن وروح القدس»؟!.

«وأي تقارب بين المسلمين وبين اليهود وهم أمة غضبية معروفة بعداوتها للأنبياء؟!.

أو بين المسلمين والنصارى وهم أمة أطبقت على أن الإله الحق سبحانه عما يقولون: صُلب وصُفع وسُمر ،ووضع الشوك على رأسه، ودفن فى التراب ، ثم قام في اليوم الثالث، وصعد وجلس على عرشه يدبر أمر السماوات والأرض..

وكيف يمكن لأمة أطبقت على صلب معبودها وإلهها ثم عمدت إلى الصليب فعبدته وعظمته، وكان ينبغي لها أن تحرق كل صليب تقدر على إحراقه ، وأن تهينه غاية الإهانة إذ صلب عليه إلهها الذي يقولون تارة إنه إله، وتارة يقولون : إنه ابن الإله، وتارة يقولون : ثالث ثلاثة، فجحدت خالقها وكفرت به أعظم

كفر، وسبّته أقبح مسبة، كيف يمكن لهذه الأمة ألا تجحد حق عبده ورسوله وتكفر به؟!(١).

٥- وإن كانوا يريدون من الحوار معرفة الحق، والانصياع لهذا الحق بموضوعية، فلا ينبغي أن نميع النصوص الشرعية وأن نبتعد عن إفقاد الإسلام شخصيته، وأن لا تكون هذه الدعوة سبباً في إضلال المسلمين.

فالإسلام هو الدين الحق الذى أوصى به الأنبياء جميعاً لأن دين الله واحد لا يتغير:

قال تعالى: ﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب، يا بني إن الله اصطفى لكم الدين، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت، إذا قال لبنيه: ما تعبدون من بعدى، قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون**﴾ [البقرة / ١٣٢-١٣٣].

والإسلام دين الحواريين: ﴿**قال الحواريون نحن أنصار الله، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون**﴾ [سورة آل عمران/ ٥٢].

وهو دين سليمان عليه السلام: ﴿ **إنه من سليمان وإنه باسم الله الرحمن الرحيم.. ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين**﴾ [النمل / ٣١].

إنه دين الله الذى أرسل به الرسل جميعاً، لكن القلوب الغلف التى علاها الصدأ، وطمسها الران، وغلفها الحسد، لن تنعم بتعاليم السماء، ولن تستظل بهدي الله، أو تنصاع للرسالة التى ارتضاها الله لبني البشر.

١-هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى ص٤٨ لابن القيم.

٣- وماذا عن واقع أهل الكتاب اليوم ؟!

نستعرض أولاً مواقف متباينة لعدد من علمائهم ورجال السياسة عندهم، فيما يخص موقفهم من الإسلام وأهله، وقد جاء بعض أقوالهم منصفاً ، والآخر متعصبا حاقداً. . حين أراد غوستاف لوبون أن يختتم دراسته عن الحضارة العربية اختتمها بهذا التأمل الحزين: «لعل القارىء يتساءل لماذا ينكر العلماء في هذه الظروف تأثير العرب «المسلمين»، وقد كان أولى بهم أن يتنزهوا عن اعتبارات التفرقة الدينية. . **والحق أن استقلال آرائنا وتجردها أمر ظاهري أكثر** من أن يكون واقعيا، وإننا لا نكون أحراراً في تفكيرنا كما ينبغي حيال بعض الموضوعات، فلقد تجمعت العقد الموروثة، عقد التعصب التي ندين بها ضد الإسلام ورجاله، وتراكمت خلال قرون سحيقة حتي أصبحت ضمن تركيبنا العضوى»[(١)]

وهذا نموذج من مواقف أهل الكتاب ممن يدعون الموضوعية، والروح العلمية في البحث. . وقد شخص أحقاد قومه وتعصبهم، ونموذج آخر يمثله المبشر «رايد» . يقول إنني أحاول أن أنقل المسلم من محمد إلى المسيح، ومع ذلك يظن المسلم أن لي فى ذلك غاية خاصة، أنا لا أحب المسلم لذاته ، ولا **لأنه أخ لي في الإنسانية**؟! ولولا أني أريد ربحه إلى صفوف النصارى لما كنت تعرضت له لأساعده[(٢)]

ولم يقف الحقد عند المبشرين « المنصّرين» عند هذا الحد إنما تعداه إلى رجال السياسة ، فقد خطب «مني كلش» أحد أعضاء الحكومة الإنجليزية في الهند ، فى صالة البرلمان العامة ، عام ١٨٥٧م، مستبشرا بسيادة الإنجليز على الهند ، حاثاً بني قومه على نشر الإنجيل فى تلك الأرجاء فقال:

«يجب على كل شخص منا أن يضحي بجميع قواه لنشر المسيحية فى الهند،

١- وجهه العالم الإسلامي : مالك بن بني / ص٣٨

٢- التبشير والإستعمار: د مصطفى الخالدي. ود. عمر فروخ ص١٩٣

وصرف الهنود أجمعين إلى الإنجيل المبارك، ولا ينبغي التساهل في هذا العمل الميمون طرفة عين» [١].

وغير هذا كثير مما يدل على الحقد الذى يغلي في صدورهم، وأنى لهم أن ينسوا ماذاقوه من مقاومة فى الهند تزعمها علماء الشريعة وطلابهم؟ وستبقى دار لقمان فى المنصورة نبراساً يذكر المسلمين بأسر ملك فرنسا العجوز الذى أسر وسجن في هذه الدار، وكان أحد قادة الحروب الصليبية[٢].

فالتقارب إذن هو خطة ماكرة لتقربنا إلى النصرانية وليس العكس، بل إن الغاية هي تشكيك المسلمين وإثارة الشبهات لديهم..

يقول خيرى البار في جريدة «ديبا» الفرنسية: «إن الغاية الأساسية من التقارب بين الكنائس المسيحية هو العمل على تحطيم الإسلام، ويضاف إلى هذا أن محاولات التقارب إنما تريد أن تفهم أركان الدفاع فى الإسلام للعمل على تشويهها وإثارة الشبهات حولها وتزيينها»[٣].

فمهمتهم إذن حتى مع هذه الدعوات البراقة للتقارب هو إثارة الشبهات والعمل على بلبلة النفوس، وماذا وراء اللقاء. المسيحي الإسلامي فى السنوات الأخيرة من هذا القرن؟ فى غانا عام (١٩٧٤م) فى مدينة أكرا، أقيم اللقاء الثالث بين المسلمين والنصارى.

ومن أهم التوصيات فيه : الدعوة إلى إقامة صلاة مشتركة بين النصارى والمسلمين ، والسؤال الذى يفرض نفسه هو:

«كيف صلى المسلمون ليسوع الرب؟!».

١- أثر الفكر الغربى فى انحراف المجتمع فى شبه القارة الهندية / ص٧٩ خادم حسين إلهي بخش.

٢- هو لويس التاسع .

٣- إطار إسلامى للفكر المعاصر: أنور الجندى / ص٣٧٦.

وفى عام ١٩٧٧م، خلال مؤتمر قرطبة، كان موضـوع اللقاء هو قيمة محمد نبي الإسلام وفيه اعتبروا أن محمداً «نبي من الدرجة الثانية»!!.

وفرح المسلمون بذلك[1] .

﴿قل للذين أوتوا الكتـاب والأميين، أأسـلمتم ؟ فـإن أسلموا فـقد اهتـدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ [آل عمران/ ٢٠].

كلمة لابد منها:

قد يقـول قائل : إن البـشرية تحث الخطوات نـحو الإلحاد ، وصـراعنا مع هذا الإلحـاد لابد أن يستـمـر وهو واجب على المسلمين لإنقـاذ هذا القطيع التـائه من شروده وضلاله ويقول هؤلاء:

وإن أهل الكتاب أقرب إلينا من الملاحدة والوثنين، فعلينا مداراتهم ومجاملتهم وخاصة أنهم يملكون القوة الآن..

والحقيقـة أنه ينبغى أن لا ييأس المسلمون من دعوة هؤلاء جمـيعاً إلى الإسلام وأن نجادلهم بالتي هي أحسن بشرط أن لا نداهنهم على حساب عقيدتنا.

فرق كبير بين المداراة والمداهنة:

«**فالمداراة تعنى** درء الشر المفـسد بالقول اللين وترك الغلظة، أو الإعْـراض عنها إذا خـيف أشد منه أو مـقـدار ما يسـاويه. وحكمـها : تجـوز مداراة أهل الشـر والفجور فيما لا ينتج عنه قدح فى أصل من أصول الإسلام وواجباته».

أمـا المداهنة : «فهى ترك مـا يجب لله من الغـيرة والأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر لهوى نفـسانى ، وهى المعاشـرة والاستئناس مع وجـود المنكر والمقدرة على الإنكـار ، وهى مـحـرمـة وتعـتـبـر من أنـواع المـوالاة»[2] وتعـتـبـر المداهنة من النفاق.

١- اللقاء المسيحى الإسلامي : جان أحمد تيان ص١٠٥

٢- الموالاة والمعاداة فى الشريعة الجلعود: ج١/ ص٢٢٦

«وأولى مراتب النفاق أن يجلس المـؤمن مجلساً يسمع فيـه آيات الله يكفر بها، ويستهزأ بها، فيسكت ويتغاضى ويسمي ذلك تسامحاً أو دهآء أو يسميه سعة صدر، وإيماناً بحرية الرأي. . !!.

وهى هى الهزيمة الداخلية التي تدب فى أوصـاله ، وهو يموه على نفسه فى أول الطريق، حياء منه أن تأخذه نفسه متلبساً بالضعف والهوان.

إن الحمية لله ولدين الله، ولآيات الله، هى آية الإيمان، ومـا تفتر هذه المحبة إلا وينهار بعدها كل سد ، وينزاح بعدها كل حاجز ، وينجرف الحطام الواهى عند دفعة التيار»[1] .

والتسامح الحقيقي يتمثل فى قوله تعالى: ﴿ ولا تسبـوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ [الأنعام ١٠٨].

مع دعوتهم ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمـة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [2] .

مع المفاصلة مـعهـم : ﴿قل يا أيهـا الكـافرون لا أعـبد مـا تعبـدون ﴾ [سورة الكافرون].

١- فى ظلال القرآن: سيد قطب. ج١/ ص٧٨٠

٢- النحل : ١٣٥

الفصل الخامس

الإيمان باليوم الآخر

المبحث الأول:

الموت والحساب فى تصور أهل الجاهلية

المبحث الثاني:

الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان وفيه عدة موضوعات:

١- الغيب فى التصور الإسلامى:

٢- الإيمان باليوم الآخر وأثره فى النفس والمجتمع

٣- من مستلزمات الإيمان باليوم الآخر :

أ - الإيمان بعذاب القبر

ب ـ الإيمان بالبعث والنشور

جـ ـ علامات الساعة

د ـ أهوال يوم القيامة

ـ الزلزلة وتبدّل حال الأرض والجبال

ـ النفخ فى الصور

ـ قيام الناس من قبورهم

ـ الحشر

هـ ـ عذاب أهل النار

وـ الإيمان بالجنة ونعيمها.

المبحث الأول

الموت والبعث والحساب فى تصور أهل الجاهلية

الموت: يأتي فى مطلع الموضوعات التى أثارت البشرية وما تزال.

فهو أمر مخيف راعب ، يثير مشاعر كل إنسان، إذ يتساءل المرء عما سيكون مصيره بعد الحياة؟!.

والموت عند أهل الجاهلية، وهو مفارقة الروح للجسد، فإذا مات الإنسان خرجت روحه من أنفه ، أو من فمه وإذا مات ميتة طبيعة قيل عنه: مات حتف أنفه، أو مات حتف فيه، أي أن روحه خرجت من أنفه أو فمه، أما القتيل والجريح، فإن الروح تخرج من موضع جرحه»(1).

وقد وقف شعراء الجاهلية عند حقيقة الموت مواقف مليئة بالعبرة والعظات ، ومن ثم تعرضوا للنهاية الأكيدة، والقضاء المحتوم، بأشعار شديدة التأثير ، وقد شمل هذا الأمر معظم شعرائهم.

فطرفة بن العبد ، وهو الشاعر العابث اللاهي ، ينطق بهذه النهاية المحتومة ، نهاية كل حي بقوله:(2)

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى

بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد

ولعل ظروف الحرب، ومصارع الأبطال هى التى كانت توحي لطرفة ولغيره من شعراء الجاهلية ما كانوا يقولونه عن حقيقة الموت..

وقد رد معظم هؤلاء الشعرآء أمر الموت لله سبحانه وتعالى، كما نرى ذلك عند عنترة فى قوله: (3)

١- انظر تاج العروس: ٦/ ٦٤ ، تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي: ٦/ ١٢٢

٢- ديوان طرفة بن العبد: تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال طبعة دمشق / ١٣٩٥هـ

٣- ديوان عنترة: ص٢٤٤

إذا كان أمر الله أمراً يُقدّرُ
فكيف يفرّ المرء منه ويحذر
ومن ذا يردّ الموت أو يرفع القضا
وضربته محتومة فليس تعثرُ

والمنية فى عرف عنترة قضاء حتمه الله على العباد، وإذا نزل فلا رادّ له، ومن ذا الذى يرد أمر الله أو يمنع قضاءه؟!.

والموت مقدر ومكتوب يصور ذلك أيضا عمرو بن كلثوم فى قوله: (١).

إنا سوف تدركنا المنايا   مُقدّرةً لنا ومقدّرينا

وحول هذا المعنى يقول زهير بن أبي سلمى:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
وإن يرق أسباب السماء بسلّم

وكثيرا ما تحدث عبيد بن الأبرص عن الموت، وله وقفات يذكر الناس فيها، بأنهم إلى الله صائرون ، ولماذا إذن يجزعون ، من ذلك قوله:

فأبلغ بنيّ وأعمامهم
بأن المنايا هى الواردة
لها مدة فنفوس العباد
إليها وإن كرهت قاصدة
فلا تجزعوا لِحمام دنا : فللموت ما تلدُ الوالدة (٢)

١- شرح المعلقات العشر : التبريزى / ص٢٥٧/ دار الكتب العلمية / بيروت سنة ١٩٨٥م.
٢- ديوان عبيد بن الأبرص: ص٦٢ / طبع الحلبي بمصر.

واعتبر الشعراء أن الموت لا يمتنع منه أهل الثراء، ولا أصحاب الحصون المنيعة ، ولا الذين يلبسون الدروع المتينة، فإن هؤلاء جميعاً وغيرهم من الناس، أمام الموت سوآء وخير ما يصور هذه النظرة قول حاتم الطائي إذ يقول [١].

وما أهل طود مكفهــــر حصونـــه

من الموت إلا مثلَ مَنْ حلَّ بالصّحرْ

وما دارعٌ إلا كآخر حاسر: وما مقتر إلا كآخر ذى وفْر

تنوط لنا حبَّ الحياة نفوسنا. . شقاءً ويأتي الموت من حيث لا ندري

تلك هى نـظرات القوم إلى قضية المـوت، وهى نظرات صائبة إلى حـد كبير ، فهم يعرفون القضاء والقدر، ويذكرون الناس بـــه، وكـأنهـم يريـدون أن يخففـوا ما يرونه من تصارع وتكالب على الحياة، كمـا يريدون أن يهونوا عليهم ما يلاقونه فيها من مصاعب ومصائب»[٢] .

*** البعث والحساب فى تصور .. العرب قبل البعثة:**

لم يكن اعتقاد العرب فى الجاهلية فى البعث والحساب واحداً، لقد كانوا على آراء متابينة

أ ـ فكثير منهم كانوا ينكرون اليوم الآخر: ويرون أن الموت هو نهاية الحياة، وأن البعث غيـر معقول لذلك تعجبوا مــن قوله ﷺ بأن هنالك بعثـاً ونشوراً وقالوا. . **﴿إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾** [الأنعام / ٢٩].

قال تعالى **﴿زعم الذين كفـرو أنْ لن يبعثوا ، قل بلـى وربي لتبعثن ثم لـتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير﴾** [التغابن / ٧]

فأهل الجاهلية عارضوا موضوع البعث مـعارضة قاسية شديدة، وكانوا قد سألوا

١-ديوان حاتم: ص٤٥/ دار صادر وبيروت

٢- انظر رسالة المعتقدات والقيم/ ص٣٥- ٣٩

الرسولﷺ أسئلة حول هذا الموضوع لتعجيـزه في إثبات البعث، فجاء عبد الله بن أبي أمية إلى النبيﷺ بعظم ، فكسره بيده ثم قال : يا محمد كيف يبعث الله هذا وهو رميم؟! فقال رسول اللهﷺ يبعث الله هذا ويميتك ثم يدخلك جهنم»[1] .

وحصل مثل ذلك مع أبي بن خلف والعاص بن وائل السهمي[2] .

هؤلاء المنكرون للبعث ، كانوا يرون أن الحياة حياة واحدة حياتنا التي نحن فيها في دار الدنيـا، ولن يكون بعد الموت هناك حساب ، نحيا ونموت، وما يميتنا إلا الأيام والليالي،على مرور الزمان وطول العمر.

وقد يسأل سائل : إذا كان أغلب أهل الجاهلية لا يؤمنون ببعث ولا بحساب، فلم تعبدوا إذن لإله ؟! ولم تقربوا إلى الأصنام ، وقدموا إليها النذر والقرابين؟! [3] .

والجواب هو ما ذكره المتقدمون ، قالوا:

«كانت العرب في الجاهلية، تدعو في مصالح الدنيا فقط، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدو ، ولا يطلبون الآخرة، إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها [4] فالخلود الذي طلبه العرب إذن كان خلود الأفعال الطيبة، خلود المكارم.

كان خلودا يقوم على أساس إنساني أخلاقي، ينبثق من القيم التي آمنوا بها ويتمثل هذا في قول عروة بن الورد:

أحاديث تبقى والفتى غير خالد
إذا هو أمسى هامة تحت صُبرّ

١- انظر تفسير الطبرى : ٢٣/ ٢١

٢- تفسير ابن كثير : ٣/ ٥٥٨ طبعة القاهرة سنة ١٤٠٨ الناشر دار الحديث. ٣- تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي ٦/ ١٢٧- ١٢٨ ٤- تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ./محمد بن أحمد القرطبي، مصورة من طبعة دار الكتب ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة سنة ١٣٨٧هـ ص ٤٣٢ الجزء الثاني. .

ب- غير أن فريقا من الجاهليين كان يؤمن بالبعث والحشر.

بعد الموت ، ولكـن بطريقة مشـوهة عن الأصل السمـاوي لها، ويتـمثل ذلك عندهم بالعقيرة:

«فـقد كـان أهل الجاهليـة يعقـرون عند قـبر الميت بقـرة أو ناقة ، أو شـاة ، ويسمـون العقـيرة: «البلية» وفى فـعلهم هذا، دليل على أنهم كانـوا يرون البعث والحشر بالأجساد وهم الأقل ومنهم زهير» [1] .

كانوا غالباً يربطون ناقة عند قبر صاحبها، ويدعونها حتى تموت جوعاً وعطشاً ، ويقولون: إنه يحشر راكباً عليها ومن لم يفعل معه هذا حشر راجلاً[2] .

هذه الناقـة كانوا يربطونهـا معكوسـة الرأس إلى مؤخـرها، ثم يأخذون خـيطاً يشدون به وسط الناقة، ويقلدونها من العنق، ثم يتركونها حتى تموت، وهذه الناقة كانوا يسمـونها «بلية»، والخيط الذى تـشد به اسمه «وليّة» ، ومن هـنا كان القول الشائع لدى أهل الجاهلية : « كالبلايا في أعناقها الولايا»[3] .

قال عويمر النبهاني[4] .

أبنيّ لا تنـس البليـة إنهـا لأبيك يوم نشـوره مركـوبُ

إذن كان هنالـك من آمن بالبعث والحـساب، واعتـقد بمبـدأ الثواب والعـقاب، ولكن نظرا للسـذاجة الغالبـة على أهل الجاهلية ولشـدة تعلقهم بالمحـسوس ، لم يستطيعـوا أن يؤمنوا بهذه الفكرة مجردة من الأسباب والأشـياء التي هي بقربهم ، والمنتزعة من عالمهم المادي المحسوس.

من هنا فإن البدوي، لم يكن ليقوى على مـجابهة يوم المعاد دون أن تكون معه

١- تاج العروس: ١٠/ ٤٣ وما بعدها
٢- انظر : جواد علي /٦/ ١٢٩
٣- الملل والنحل للشهرستاني :٢/ ٢٤٤، طبعة بيروت سنة ١٩٨٠م
٤- بلوغ الأرب : ٢/ ٣٠٩

ناقته التي يوصي ابنه من بعده أن يدعها على قبره ، لعلها تحشر معه يوم القيامة ، فيركبها من دون الآخرين[1] ومن جميل ما يروى في هذه العقيدة المضحكة قول الشاعر «جريبة بن الأشيم الأسدى» يوصي ولده وقد حضره الموت [2]

يا سعدُ إمّا أهلكن فإننى
أوصيك إن أخا الوصاة الأقربُ.
ولا تتركنّ أباك يعثر راجلاً
في الحشر يصرع لليدين وينكبُ
واحمل أباك على بعير صالح
وابغ المطية إنه هو أصوب
ولعل لي مما تركت مطية
فى الحشر أركبها إذا قيل اركبوا

فهذا اعتقاد ساذج إن دل على شيء فإنما يدل على إيمانهم بفكرة البعث والحساب، وإن كان ضمن حدود ومفاهيم ضيقة.

جـ- وهناك من كان يعتقد أن الميت وإن غيب فى قبره، إلا أن روحه لن تموت، وأنه يظل يقظاً وهو في قبره ، ومتبعاً لأخبار أهله، وتخبره بها هامته، والتي تكون عند ولد الميت ، تعيش في محلته وفى فناء أهله.

وقد ذكرت الهامة فى أكثر من موضع فى الشعر الجاهلى.

قال أميه بن أبي الصلت لبنيه:

١- الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام: د.يحيي شامي ص٥٦

٢- الملل والنحل للشهرستانى: ٢/ ٢٤٤، طبعة بيروت سنة ١٩٨٠م و انظر لسان العرب: ١٤/ ٨٥ بروايةفيها بعض الإختلاف.

هامى تخبرني بما تستشعروا

فتجنبوا الشنعاء والمكروها [1]

د- وقد ورد في الشعر الجاهلي ما يدل على إيمان بعضهم بالبعث والحساب

إلا أن تقادم العهد على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، والذي كان العرب يدينون به. .

وأن عدم اقتناعهم بما كان يقول اليهود والنصارى في قضايا البعث والحساب.

كل ذلك جعل القوم ينسون الحساب أو يتناسونه، وهذا ما جعل بعض عقلائهم يصيح في الناس يذكرهم بذلك اليوم الذى تشيب له الولدان[2]

فهذا المخبّل السعدي ، يذكر الناس بيوم الحساب، وينهاهم عن اقتراف الآثام، حتى لا يعرضوا أنفسهم للجزاء في قوله:[3]

فلا تدخلنّ الدهر قبرك حوبة   يقوم بها يوماً عليك حسيبُ

وها هو أمية بن أبي الصلت ، يعترف بذنوبه ، ويعلن للناس أن العقاب لابد واقع، ولن يكون ذلك إلا يوم الحساب[4]

ربّ إن تعفُ فالمعافاة ظني   أو تعاقب فلم تعاقب بريـاً

كما أن لأمية شعر يتحدث فيه عن البعث والحشر والحساب والميزان ، وذلك في قوله: [5]

١- انظر جواد علي ٦/ ١٣٢، ومروج الذهب : ٢/ ١٣٣٣

٢- انظر المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى : محمد محمود صيام ص٤٠- ٤٤

٣- الأمالي للقالي : ٢/ ٢٦٢، طبعة دار الفكر مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية« والحوب : الإثم، والحَوْبَةُ المرة الواحدة منه»

٤- ديوان أمية / ص٥٢٦

٥- الديوان: «ومعنى جرز: أي لا تنبت».

ويوم موعدهم أن يحشروا زمراً

يوم التغابن إذ لا ينفع الحذرُ

وأبرزوا بصعيد مستو جرزٍ

وأنزل العرشُ والميزان والزُبُرُ

ويعتبر ما ورد في شعر أمية عن الحساب والثواب والعقاب ، وعن الجنة والنار، من أوسع ما ورد في في الشعر الجاهلي في هذا الموضوع، وذلك أنه كان يشك في عبادة قومه، وكان يسفه أحلامهم، وقد تأثر باليهودية والنصرانية، ولعله كان متأثراً بالحنفاء من قومه(١)

ونجد شعراء آخرين على شاكلة أمية بن أبي الصلت، فقد كان (علاف بن شهاب التميمي) ممن يؤمنون بالجزاء وأن الله جل وعلا سيجزي على الأعمال الحسنة، نجد ذلك في قوله: (٢)

ولقد شهدتُ الخصْم يوم دفاعه

فأخذتُ منه خِطةَ المغتال

وعلمت أن الله جاز عبْدَه : يوم الحساب بأحسن الأعمال

وقد كان الحنفاء من أصدق بني قومهم تعبيراً عن هذا المعتقد، فها هو قس بن ساعدة الإيادي ، يتحدث عن مبعث الأموات، وأنهم سيفزعون من قبورهم، ثم يجزون على أعمالهم. . جاء التعبير عن هذه المعاني في تصوير بياني مؤثر إذ قال (٣)

يا ناعي الموت والأموات في جدَث

عليهم من بقايا بزّهم خرق

١- جواد علي: ٦/ ١٣٢

٢- المحبر: ص٣٢٢، وبلوغ الأرب: ٢/ ٢٧٦

٣- البداية والنهاية: ٢/ ٢٣٦، ومعجم الشعراء للمرزباني ص٢٢٣ تحقيق عبد الفتاح سراج، دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٦٠م. «ومعنى الجدث: القبر: - البز: الثياب- الصعق : المغشى عليه» اللسان

دعهم فإنّ لهم يوماً يصاح بهـــم

كـمـا ينبهُ من نومـاتـــة الصَّعِقُ

وقال ورقـة بن نوفل لزيد بن عـمرو بن نفـيل، إذ أعجـبه تعـففـه عن عـبادة الأوثان، كما أعجبته مجافاته لشياطين الإنس الذين لا يريدونها إلا عوجاً. . وحين أعجبه ذلك منه بشره بالنجاة من النار قال شعراً[1]

رشـدت وأنعمت ابـن عمـرو وإنما

تجنبت تنوراً مـن النار حـاميـــا

بدينك رباً لـيس ربٌّ كـمـثلـــه

وتركك جِنّان الجبـال كـمـا هيـا

وإذا كان ورقـة بن نوفل قد صرح بالنار في هذا الشـعر، فقد صـرحت الخنساء بالجنة، وهي ترثي أخاها صخراً عند قولها: [2].

فاذهب حـريباً جـزاك الله جنتّـــهُ

عنّا وخُلدْت في الفـردوس تخليـدا

ونجد إشارات عند حاتم الطائي إلى حسن الجزاء في الآخرة في قوله: [3]

فـاصْـدق حـديثك إن المرء يتـبـعـهُ

مـا كان يبنـي إذا ما نعـشـهُ حُمِـلا

وهذا يعني أن المرء إذا أحـسن العمل دخل الجنة، وإذا أساء عـمله دخل النار، وإن لم يصرح الشاعـر بالجنة ولا بالنار. على أن ذكر الحساب والعـقاب، وإن كان يرد عابراً عند بعض هؤلاء الشعـرآء، بيد أنه كان يقصد لذاته عند بعـضهم الآخر، كما كان الحال عند زهير بن أبي سلمى مثلاً.

١- المعارف لابن قتيبة: ص٥٩

٢- ديوان الخنساء : دار صادر وبيروت سنة ١٣٨٣هـ، والحريب: السليب

٣-ديوان حاتم : ص٧٣

قال ابن قتيبة فى الشعر والشعراء: «وكان زهير يتأله ويتعفف في شعره، ويدل شعره على إيمانه بالبعث، وذلك فى قوله:

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر

ليوم الحساب أو يُعجل فينقم

هـ - ولا نريد أن نصرف الأذهان «من خلال ما تقدم» :

إلى أن العرب فى الجاهلية، وقد عرفوا البعث والحساب كانوا بهما مؤمنين ، ولكننا نريد أن ندلل على أنه كان فى القوم من يؤمن بذلك ، ويعظ به الآخرين . .

وأن هنالك من كان ينكر فكرة البعث والحساب- وهم الأكثرية ـ وعاشوا ليومهم وورثوا هذا لأبنائهم ، فلما جاء الإسلام وجد من مثل هؤلاء استجابة وإقبالا، ووجد من مثل أولئك رفضاً وإعراضاً ، ومقاومة وقتالاً [1]

روى ابن هشام أن شداد بن الأسود قال وهو يرثي قتلى المشركين فى بدر: [2]

يخبرنا الرسول بأنْ سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام

فماذا بالقليب قليب بدر ... من القينات والشَّرْب الكرام

ومن هنا فليس غريبا أن يعب طرفة بن العبد من الخمر وشهوات الدنيا، لأنه لا يؤمن بحياة أخرى. .

فيقول فى معلقته: [3]

كريم يروّي نفسه فى حياته

ستعلم إنْ متنا غداً أيُّنا الصَّدي

١-المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى (ص٤٢-٤٤)

٢- السيرة النبوية: لابن هشام، ٢/ ٢٩

٣-شرح المعلقات العشر للتبريزى : ص١٠٤ «الكميت من الخمر : هى التي تضرب إلى السواد والمجنّب : فرس أقنى الذراع ـ والسِّيد» : الذئب - الدجن: الندى والمطر الخفيف وقيل : مع الغيم ، والبهكنة : الجارية الخفيفة الروح المليحة الحلوة. .

فعدم تصور أهل الجاهلية لحياة أخرى بعد الممات هو الذى جعل الحياة قصيرة فى تفكيرهم، وكأنها فرصة سرعان ما تذهب ولن تعود، فصاروا يتسابقون إلى اللهو والملذات ويسرفون فيها.

والحياة لا قيمة لها فى تصور فتيان الجاهلية، لولا ثلاث هي: خمر معتقة، وفتاة حسناء ، وفرس أصيلة نجيبه، كما صور ذلك طرفة بن العبد:

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى

وجدك لم أحفل متى قام عُوّدي

فمنهنّ سبقي العاذلات بشربة : كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكري إذا نادى المضاف محنباً : كسيد الغضاذي السّورة المتورد

وتقصير يوم الدّجْن والدجن معجب: ببهكنة تحت الطراف المعَمَّرِ*

فحياة أهل الجاهلية كانت شتاتاً لا يتجمع

كانوا لا يؤمنون بالآخرة، ومن ثم فلا صلة فى حسهم بين الدنيا والآخرة. . ! فالأرباب المعبودة شتى، ومن ثم كانت العبادة مفرقة موزعة فالأصنام تعبد ساعة ، والقبيلة تعبد ساعة، وعرف الآباء والأجداد يعبد ساعة ، والهوى والشهوات تعبد ساعة، أو هي تعبد كلها جميعاً ولكن بغير اتصال في الحس ولا ترابط فالحياة تعاش ساعة بساعة بغير هدف حقيقي ولا غاية(1) .

﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ [سورة الجاثية / ٢٤].

كان الخلل فى الجاهلية العربية هو انفصال الدنيا فى حس الناس عن الآخرة ،

١- مفاهيم ينبغي أن تصحح: الأستاذ محمد قطب / ص٢٨٦

* ينظر شرح المفردات فى هامش (ص ٢٢٠).

لعـدم إيمانهم بالآخرةوالـبعث والحـساب، ومن ثم إيثـار الحـياة الدنيـا، وهو الآن انفـصال الدنيـا فى حس الناس عن الآخـرة، لا ستـصغـارهم شأن الحـياة الدنيـا واحتقارها، ومن ثم إيثار الآخرة»(١).

ففي الإسلام تغير الأمر تماماً، ويجتـمع الشتات المتناثر وتوحد التصور، وأصبح العرب أمة جديدة تعمل لخيري الدنيا والآخرة، كما سيأتي بيانه.

١- المرجع السابق: ص٣٠٤

المبحث الثانى
الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان

١ - الغيب فى التصور الإسلامى :

الغيب علم مستقل استأثر الله بعلمه، هذا الغيب هو ميزان الخشية، إذ أن الخشية فى الغيب أفضل بكثير من الخشية بالشهادة.

ولا يعلم الغيب أحد من البشر، حتى الرسولﷺ (١) .

قال تعالى ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ [الأعراف / ١٨٨].

والقرآن الكريم هو المصدر الأول لهذه المغيبات، حيث أنه قطعي الثبوت، لأنه نُقل إلينا بالتواتر بطريق لم يعرف له مثيل بين الأمم.

فإذا آمن الإنسان بالقرآن، فلا بد أن يعتبره المصدر الأول فى كل شيء، وخاصة في أمور الغيب ، لأن القرآن كلام مَنْ لا يغيب عنه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وما كان وما سيكون.(٢) .

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان فيتجاوز مرتبة الحيوان، الذى لا يدرك إلا ما تدركه الحواس، يتجاوزها إلى مرتبة الإنسان الذى يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذى تدركه الحواس، أو الأجهزة التي هى امتداد للحواس.

«أما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة، بحدود هذه الأرض والحياة عليها، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة، وترك حصتة للغيب لا ترتادها العقول. أما هذه المحاولة ، فهى محاولة فاشلة أولاً، ومحاولة عابثة أخيراً.

(١-٢) الإيمان بالغيب : بسام سلامة / ص٩ ، ١٣٠-١٣١

فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال، وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال

ومتى سلم العقل بالبديهة العقلية الأولى، وهى أن المحدود لا يدرك المطلق، لزمه احتراماً لمنطقه ذاته أن يسلم بأن إداركه للمطلق مستحيل، وأن عدم إداركه للمجهول، لا ينفي وجوده فى ضمير الغيب المكنون، وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل، وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن والغيب والشهادة.

هذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون»[١]

ففي إطار هذا الدين يلقى الإنسان رشَداً من الوحى لا غناء له من دونه ، كما يتهيأ له مناخ صالح للتفكر الحر، وطلب العلم حتى يتخذ من وسائل المعرفة العقلية والتجريبية ما يوسع به مداركه فتنسق بالإيمان مناهج المعرفة، وتتخذ وجهة العلم ، فيستعمل الإنسان عقله وتجربته ليزداد اطمئناناً فى اعتقاده الديني، وليفقه حكمة التعاليم الموحاة إليه حق الفقه ، ويطبقها بأكمل الوجوه، التي تتيسر في واقعه، ويهتدي بشريعته لضبط خطرات عقله، وتوجيه تجاربه حتى يكتسب العلم الصحيح، ويسخره لأعمال حياته.

ومن خلال ذلك وفي أثنائه ، لتكثيف العبادة لله، وزيادة القرب إليه[٢] .

ومن حكمته سبحانه أنه حجب عن الخلق علم الساعة، ومعرفة أجلهم، وفي ذلك من الحكمة البالغة مالا يحتاج إلى نظر.

فلو عرف الإنسان مقدار عمره، فإن كان قصيرا لعمر لم يهنأ بالعيش، وكيف يهنأ به، وهو يترقب الموت فى ذلك الوقت؟ فلولا طول الأمل لخربت الدنيا، وإنما عمارتها بالآمال. وإن كان طويل العمر، وقد تحقق ذلك ، فهو واثق بالبقاء، فلا

١-فى ظلال القرآن: سيد قطب، جـ ١ /ص٣٩-٤٠

٢-الإيمان : د. الترابي ،ص٢٦٤-٢٦٥

تبالي بالانهماك في الشهوات والمعاصي وأنواع الفساد. ويقول: إذا قرب الوقت أحدثت توبة(١).

ومن هنا علمنا القرآن أن نتلو آياته صباح مساء، نزداد بها إيماناً: ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**﴾ [الأنعام /٥٩] .

﴿**إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير**﴾ [لقمان/ ٣٤] .

١- مفتاح دار السعادة: ابن القيم / ج١ / ص٦١.

٢- الإيمان باليوم الآخر وأثره في النفس والمجتمع

الإيمان ببعث ونشور وحساب وجزاء، من أكبر شعاب العقيدة وأشدها أثرًا في حياة الناس.

ولولا ذلك لكانت شريعة الغاب سائدة، والظلم طاغياً وتحولت الحياة إلى جحيم لا يطاق.

«فالآخرة هى دار الجزاء الأوفى والأبقى، وهي الحيوان التي لا يتناهى سعدها ولا ينقضي مداها.

ووعد الآخرة هو الذى يدفع المؤمن بما يقذف فى خاطره من مشاعر الرجاء والخوف إلى بذل أقصى طاقة تسعفه واستغلال كل إمكان يتاح له، ليتقدم فى حساب الآخرة ولا يتأخر.

فلا يقنع المؤمن بأن يبلغ رغائب الدنيا ويحصل على شهواتها، ولا بأن يسلم من حرمانها وشقائها، بل يتجاوز ذلك بجهاد دائب ينجو به من العذاب الأكبر ويتطلع إلى النعيم العظيم»[١] « فمن اتخذ من لقاء الله هدفه الأعلى، ومن عبادته الهم الأول طوع قوته وضبط شهواته، ووجد فى الطاعة والتسليم طمأنينة لنفسه وشعوراً بالتسامي نحو الكمال»[٢]

والإنسان الجاحد لهذا اليوم العظيم «لا يزال في حضيض ضيق محبوساً قلبه عن كماله الذي خلق له مصدوراً أو منكوساً ، قد أسام نفسه مع الأنعام ، راعيا مع الهمل، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة واستبعد فراش العجز والكسل . . خلافاً للمؤمن الذى جعل غليان شوقه في الهجرة إلى الله ورسوله. .»[٣]

الإنسان ما خلق عبثاً، خلق لعبادة الله، وعمارة الأرض بالعمل الصالح.

قال تعالى ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ [القيامة / ٣٦] .

(١ ,٢) الإيمان : د. حسن الترابى/ ص٨٤، ص٢١٤.

٣- مفتاح دار السعادة: ابن القيم، جـ١/ ص٦١/ . .

وقال ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون / ١١٥].

﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [الملك / ٢].

فالمؤمن الذي يعرف أنه لم يخلق عبثاً، وأن الحياة الدنيا هي دار ابتلاء، لابد أن إيمانه سيدفعه إلى التطلع إلى المتعة الأبدية، والعمل بهمة عالية للفوز بدار الخلود فلا تغره دار الغرور ، ولا يغفل عن السعي لمرضاة مالك يوم الدين.

« فالاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر، بعد عالم الأرض، فلا تستبد بهم ضرورات الأرض، وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات، ولا يستبدبهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود، وفي مجال الأرض المحصور، وعندئد يملكون العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله في الإرض، أو في الدار الآخرة سواء في طمأنينة لله، أو في ثقة بالخير وإصرار على الحق..

ومن ثم فإن هذه الكلية تعد مفرق الطريق بين العبودية للنزوات والرغائب ، والطلاقة الإنسانية اللائقة لبني الإنسان[1] .

لقد نقل الإسلام الإنسان العربي نقلة بعيدة بسبب هذه العقيدة ، عقيدة الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالجزاء، في ذلك اليوم العظيم، لقد توحد سلوك الإنسان على منهج موحد.

لم يعد الإنسان العربي يقول: اليوم خمر وغداً أمر، إذ ما الفرق بين اليوم والغد؟ هل اليوم لإله والغد لإله؟ أم هو إله واحد له اليوم والغد وجميع الحياة؟

لقد تجمعت ألوان النشاط المختلفة عند المسلمين لينتظمها منهج واحد، مستمد من عند الله الواحد ، وموجه إليه.. »[2] .

« لقد كان من شدة التركيز في القرآن على البعث والحساب والجزاء ، ومن

١- في ظلال القرآن: ١/ ٢٤ لسيد قطب رحمه الله.

٢- مفاهيم ينبغي أن تصحح : الأستاذ محمد قطب ، الصفحات : ٢٨٨و٢٩١،٢٩٢»

الحيوية الفياضـة فى عرض مشاهد القيامة فى القرآن ، أن عـاش المسلمون بحسهم وخيالهم في اليوم الآخر كأنما يرونه أمامـهم اللحظة ، ويعيشون أحداثه ، بل كأنما الدنيا بكل واقعها ماض قد كان ، والآخرة بأحداثها هي الحاضر الآن»[1] .

«و بهـذا الإيمان الراسخ باليـوم الآخر إلى درجـة اليـقين، وبهـذه الحيـوية فى العرض، التى تهـز الوجدان من أعماقـه، كان المسلم يعيش لحظته الحـاضرة ، ثم يعيش - فى الـتو - جزاءها فى الآخـرة ها هو ذا يعمل العـمل فى هذه اللحظة فى الحياة الدنيا، ثم يتصور موقفه من الجنة حيث يكون عمله فى طاعة الله، ثم هاهو ذا يعـمل العمل فى هذه اللحظة فـى الحيـاة الدنيا- أو يهم به ثم ينظر فـى خوف وإشفاق ليرى موقفه من النار، وإذا كان العمل فى معصية الله.

ومن ثم صلحت أعمالهم فى الحـياة الدنيا - فى غالبيتـها العظمى - بل ارتفعت إلى تلك الآفاق العالية التى تشبه المعجزات [2]

(١-٢) مفاهيم ينبغي أن تصحح : الأستاذ محمد قطب ، الصفحات : ٢٨٨و٢٩١،٢٩٢»

٣- من مستلزمات الإيمان باليوم الآخر

أ - الإيمان بعذاب القبر

أثبت أهل السنة عذاب القبر، ونفاه المـعتزلة والخوارج، ومنهم من زعم أن الله ينعم الأرواح ويؤلمها ، أمـا الأجساد التي فى القبور فلا يصل ذلـك إليها وهى في القبور [١] .

وقد وردت أحاديث صحيحة تثبت عذاب القبر.

عن أبي هريرة رضي الـله عنه قال: «كان النبى ﷺ يدعو الـلهم إني أعوذ بك من عذاب القـبر، ومن عذاب النار، ومـن فتنة المحيا والمـمات، ومن فتنة المـسيح الدجال»[٢]

وعن أنس رضـى الله عنه أنّ رسول اللهﷺ كـان يقول: «اللهم إنـي أعوذ بك من العجـز والكسل، والجبن والهرم والـبخل وأعوذ بك من عذاب الـقبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»[٣]

وعن أنس رضى الله عنه عن الرسول ﷺ قال:

«إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه ، حتى أنه يسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكـان فيقعدانه ، فـيقولان له: ما كنت تـقول فى هذا الرجل؟«لمحـمد» فأما المؤمن فيـقول : أشهد أنه عبـد الله ورسوله ، فيـقال له : انظر إلى مـقعدك من النار، قد أبدلـك الله به مقعداً من الجنة ، فـيراهما جميعاً ، ويفسـح له فى قبره سبعون ذراعاً ، ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبـعثون، وأما الكافر أو المنافق، فيقال له ، ما كنت تقـول فى هذا الرجل فيقول : لا أدري كنت أقـول ما يقول الناس،

١- مقالات الإسلاميين: أبو الحسن الأشعرى / ص٤٣٠

٢- أخرجه البخارى ومسلم فى الصلاة ينظر عون البارى: ٢/ ٦٦٢

٣- إسناده صحيح: أخرجه الـبخارى فى الدعوات ، ومسلم فى الذكر والدعاء ، وأبـو داود فى الصلاة «ينظر كتاب السنة: ٢/ ٥٩٧

فيقال ، لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطراق من حديد بضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه»[1] .

وجاء في عذاب القبر أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ أنه قال ، وقد مرّ على قبرين: ﴿إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة﴾[2] .

إن القبر برزخ من برازخ الجنة أو حفرة من حفر النار. روى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قوله « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إنْ كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»[3] .

قال السفاريني في القبر وعذابه: [4].

فكل ما صح من الأخبار ... أو جاء في التنزيل والآثار
من فتنة البرزخ والقبور ... وما أتى في ذامن الأمور
وأن أرواح الورى لم تعدم ... مع كونها مخلوقة فاستفهم
فكل ما عن سيد الخلق ورد ... من أمر هذا الباب حقاً لا يرد

ب ـ الإيمان بالبعث والنشور :

وهو خروج الناس من قبورهم أحياء بعد موتهم، وكان الجاهليون كثيرا ما ينكرون البعث كما تقدم.

١- رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والنسائي / صحيح الجامع الصغير : ١/ ٣٤٤
٢- متفق عليه، صحيح الجامع الصغير : ١/ ٧٤٩
٣- البخاري ومسلم والبيهقي والترمذي / صحيح الجامع الصغير : ١/ ١٩١
٤- الكواشف الجليه: الحكمي ص٣٣١

قال شداد بن الأسود يرثي قتلى بدر من المشركين: [1].

يخبرنا الرسول بأن سنحـــيا   وكيف حياة أصـــداء وهـــام

فماذا بالقليب قلـــيب بـــدر   من القينات والشرب الكـــرام

وكان منكرو البعث على أربعة أصناف:

ـ صنف **أنكروا المبدأ أو المعاد** ، وزعموا أن الأكوان تتصرف بطبيعتها ، وتوجد وتعدم نفسها، ليـس لها رب يتصرف فيها ، وهؤلاء هم جمهـور الفلاسفة الدهرية والطبائعيين. .

ـ **الصنف الثاني**: طائفة من الدهـرية يقال لها الدورية وهـم منـكرون للخالق ، وزعموا أنه في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وهاتان الطائفتان يعمـهما قوله تعالى ﴿ **وقالوا مـا هي إلا حيـاتنا الدنيـا، نموت ونحيـا وما يهلكنا إلا الدهر**﴾ [الجاثية/ ٣٤].

ـ **الصنف الثالث** : الدهرية من مشركي العرب، ومن وافقهم، وهـم مقرون بأن الله خلقهم ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله**﴾[الزخرف ٨٧].

ومـع هذا قـالوا: ﴿ **إن هي إلا مـوتتـنـا الأولى ومـا نحن بمـنشـرين**﴾ [الدخان /٣٥] .

فأقروا بالبداءة والمبدىء وأنكروا البعث والمعاد.

الصنف الرابع: ملاحدة الجـهمية ، ومن وافقهم، أقـروا بمعاد ليس على ما في القرآن، ولا مـا أخبـرت به الرسل عن الله عـز وجل ، فأنكروا مـعاد الأبدان ، وزعموا أن المعاد بداءة أخرى.

وجاءت الآيات منذرة للذين كفروا:

١- السيرة النبوية لابن هشام : ٢/ ٢٩

﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض﴾[سورة ص/ ٢٧-٢٨] .

فلقد عارض مشركو قريش رسول الله في أمر البعث معارضة شديدة.

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار [١] ونزلت هذه الآيات من آخر سورة يس: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ [يس ٧٧-٨٠].

وقال تعالى يخاطب منكري البعث بآيات بينات من سورة الحج مسفهاً أحلامهم: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور﴾ [الحج / ٥-٧] .

فالقرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ومنطقهم وإدراكهم يوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم وهو يقع لهم في كل لحظة ،، فإن كانوا يشكون في إعادة الحياة،

---

١ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥٥٨/٣.

فليتدبروا كيف تنشأ الحياة لينظروا فى أنفسهم وفى الأرض من حولهم. .»[1] .

إن هذه الفكرة، فكرة إنكار البعث أخـذت مساحة عريضـة من الردود القرآنية على المشركين من أهل الجاهلية

لقد كانت القضية صعبة التصور لديهم:

﴿ وقـال الذين كفـروا هل ندلكم على رجل ينبـئكم إذا مزقـتم كل ممزق ، أنكم لفي خلق جديد ، أفـترى على الله كذبا أم به جنة ، بـل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ [سورة سبأ/ ٧-٨].

جـ- علامات الساعة :

إن الساعـة لا تقوم حتي تكون عـشر آيات «الدخـان والدجال والدابة، وطلوع الشـمس من مغـربها ، وثلاثة خـسـوف خسف بالمشـرق ، وخسف بالمغـرب ، وخسف بجزيرة العـرب، ونزول عيسى وفتح يأجوج ومـأجوج ، ونار تخرج من قعـر عدن تسوق الناس إلي المحـشر تبيت مـعهم حيث بـاتوا وتقيل معـهـم حيث قالـوا» [2]

د- من أهوال يوم القيامة:

إنه يوم عظيم ، يوم تذهل كل مـرضعـة عمـا أرضعت ، يوم يفر المـرء من أمه وأبيه وصـاحبتـه وكل عزيز عليـه ، حيث يقول: نفنسي نفـسي ، إنه يوم الكرب الشديد. .

---

١ - فى ظلال القرآن / ٤٠٩ ، المجلد الرابع.

٢ - رواه مسلم وأحمد/ صحيح الجامع الصغير: ١/ ٣٣٧ (والحديث صحيح) وتفـصيلاً لهذا الموضوع: انظر صحيح أشراط الساعة: محمد أبو النصر الشلبي - الناشر مكتبة السوادي بجده.

يوم الزلزلة:

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ [الحج / ١ - ٢].

يوم تبدل الأرض غير الأرض، وتنسف الجبال، فتصبح كالعهن المنفوش.

قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً، فيذرها قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا﴾ [طه/ ١٠٥ - ١٠٧].

هذه الجبال تنسف وتصبح قاعاً صفصفاً ، تنزع من أماكنها وتحمل وتدك دكاً. قال تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ [الحاقة/ ١٤] ثم يسيرها سبحانه في الهواء بين السماء والأرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿ويوم ينفخ فى الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله،وكل أتوه داخرين، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ..[1] ﴾ ثم بين تعالى أنه يفتتها ويدكها وذلك في قوله تعالى "وبست الجبال بساً" أي فتتت وصارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن أو نحوه.

ثم بين تعالى أنه يصيرها كالرمل المتهايل والعهن المنفوش.

وذلك في قوله" ﴿يوم ترجف الأرض والجبال، وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ .[2]

وقوله تعالى: ﴿يوم تكون السماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن﴾ ويوم ينفخ فى الصور: فيصعق من في السماوات والأرض إلا من شاء الله.

قال تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا

---

١ - النمل ٨٧/ ٨٨.

٢ - انظر أضواء البيان: ٤/ ٥١٢ - ٥١٣

من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ [الزمر / ٦٨ - ٧٠] وذكر القرآن نفخة أخرى في سورة النمل ﴿ونفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾

فهذه ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام. كما سماها ابن تيمية رحمه الله. (١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ ﴿ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة! أربعون يوماً قال: أبيتُ، قالوا: أربعون شهراً. قال: أبيتُ. قالوا: أربعون سنة. قال: أبيتُ. ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل قال: وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عجبُ الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة﴾ (٢). *

أما قيام الناس فهو أمر رعيب، يحدثنا عنه الصادق الأمين في الحديث الشريف:

حدثني المقداد صاحب رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قيد ميل أو اثنين، قال سليم (٣).

---

١ - الفتاوى: لابن تيمية، جـ٤ / صـ ٢٦٠.

٢ - رواه مسلم في الفتن ، والبخارى في تفسير سورة الزمر

* وعَجْبُ الذنب: بفتح العين وإسكان الجيم أي العظم الذي في أسفل الصلب وهو العصعص ﴿شرح النووي: جـ١٨/ صـ٩٢.

أبيت: معناه ابيت ان أجزم أن المراد اربعون يوماً أو سنة أو شهراً بل الذى اجزم بها أنها أربعون بجملة وقد جاءت مفسرة في غير مسلم اربعون سنة / شرح النووى: ١٨/ ٩٢/ .

٣- هو سليم بن عامر: راوي الحديث.

لا أدري أي الميلين يعني، مسافة الأرض، أو الميل الذي يكحل به العين. قال: فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق كقدر أعمالهم. فمنهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجاماً. قال: فرأيت رسول الله ﷺ، وهو يشير بيده إلى فيه. يقول: يلجمه إلجاماً». (١)

ويحشر الناس ليروا أعمالهم، وهنالك الحسابُ أيّ حساب، ونترك آيات القرآن تصف ذلك المشهد لأننا أعجز من أن نوفيها حقها، وأن نتصورها كما ينبغي قال تعالى: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً، ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ [مريم / ٨٥ - ٨٦].

وقال: ﴿من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً﴾ [الإسراء /٩٧].

ويحشر بعض الناس عمياً. قال تعالى: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ [طه / ١٢٤ - ١٢٦].

وتوضع الموازين ولا يضيع من أعمال الإنسان شيء وكله مكتوب يعرض على صاحبه.

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [سورة الأنبياء / ٤٧].

﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾ [لقمان / ١٦].

وينصب الصراط: قال تعالى: ﴿وإنَ منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ [مريم / ٧١ - ٧٢].

١-حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم في الجنة، وأخرجه أحمد والترمذي «ينظر شرح السنة: ١٥/١٢٩».

الآيات التى تصور مشاهد القيامة كثيرة [١] والأحاديث كثيرة كذلك ، ولا يسعنا إلا الاكتفـاء بهذه والنماذج فـى هذه الأهوال عند الحشـر تكون الشفاعـة بإذن من الرحمن كذلك يوم الدين.

الشفاعـة:

قال القاضي عياض رحمه اللـه: مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلاً ، ووجوبها سمعاً بصريح قوله تعالى: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ [سورة: طه/١٠٩] و قولـه: ﴿ولا يشفعـون إلا لمن ارتضى﴾[٢] قال هاتين الآيتين وبخبر الصادق ﷺ، وقد جاءت الآثار التي بلغت حد التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين.

وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها.

ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منها، ونعقوا بمذهبهم في تخليد المذنبين في النار، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ [الكوثر/ ٤٨] وبقوله تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ [غافر / ١٨] إلا أن هذه الآيات في الكفار.

والشفاعة خمسة أقسام:

أولها : مختصة بنبينا محمد ﷺ، وهي الإراحة من هول الموقف وتعجيل الحساب.

الثانية : في إدخال قوم الجنة بغير حساب، وهذه وردت لنبينا أيضاً .

الثالثة: الشفاعة لقوم استوجبوا النار، فيشفع فيهم نبينا ﷺ ومن شاء الله تعالى.

---

١ - انظر مشاهد القيامة في القرآن : سيد قطب رحمه الله

٢ - سورة : الأنبياء / ٢٨.

الرابعة: فيمن دخل النار من المذنبين ، فقد جاءت هذه الأحاديث بإخراجهم من النار بشفاعة نبينا محمد ﷺ، والملائكة وإخوانهم من المؤمنين.

الخامسة: في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها [١]

جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « يدخل أهل الجنة الجنة، يدخل من يشاء برحمته، ويدخل أهل النار النار، ثم يقول: انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيُخرجون منها حُمَماً قد امتحشوا فيلقون في نهر الحياة أو الحيا، فينبتون فيه كما تنبت الحبّة إلى جانب السيل، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية» [٢]

جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ : « لكل نبي دعوة دعاها لأمته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة» [٣]

هـ - عذاب أهل النار:

عذاب أهل النار حق نؤمن به، كما نؤمن بالجنة ونعيمها، والذي أثبتته الآيات القرآنية والسنة النبوية، ودرج عليه السلف الصالح، والصدر الأول من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أئمة التفسير والحديث والسنة: **أن العصاة من أهل التوحيد على ثلاث طبقات:**

الأولى: قوم رجحت حسناتهم بسيئاتهم، فأولئك يدخلون الجنة ولا تمسهم النار أبداً.

الثانية: قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم سيئاتهم من الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار - وهؤلاء هم أصحاب الأعراف الذين ذكر الله

---

١ - شرح صحيح مسلم: ٣/ صـ٣٥.
٢ -الحديث صحيح في مسلم: انظر شرح صحيح مسلم ٣/ ٣٥.
٣ - الحديث صحيح في مسلم: انظر شرح صحيح مسلم ٣/ ١٥.

تعالى أنهم بين الجنة والنار ما شاء الـله أن يوقفوا، ثم يؤذن لهم في دخول الجنة. كمـا قال تعـالى بعد أن أخـبر بدخول أهل الجـنة الجنة، وأهل النار النار ويناديهم فيها: **﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ...﴾** [الأعراف / ٤٦].

الطبقةالثالثة: قوم لقوا الله تعـالى مصرين على كبائر الإثم والفـواحش ومعهم أهل التوحـيد والإيمان، فرجحت سـيئاتهم بحسناتهم، فـهؤلاء هم الذين يدخلون النار بقدر ذنـوبهم، فمنهم من تأخـذه إلى كعبـيه، ومنهم من تأخـذه إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، حتى أن منهم من لم يحرم الله منه على النار إلا أثر السجـود، وهذه الطبقة هم الذين يـأذن الله تعالى في الشفـاعة فيـهم لنبينا محـمد ﷺ، ولغـيره من بعـده من الأنبيـاء والأولياء والملائكة ومن شـاء الله أن يكرمه» (١)

أما من غرهم طول الأمل، وآثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية من ران على قلوبهم ، وعميت بصائرهم، فماذا ينتظرهم غير العذاب المقيم والخسارة الأكيدة.

فطعـام أهل النار: من شـجـرة الزقـوم، وشـجر الشـوك كـأن طلعُـه رؤوس الشياطين.

قال تعالى: **﴿إن شـجـرة الزقوم طـعام الأثيـم، كالمهل يـغلي في البطون كـغلي الحميم﴾** [الدخان / ٤٣].

﴿هل أتاك حديث الغاشية، وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة، تصلى ناراً حامية، تسقى من عـين آنية، ليس لهم طعـام إلا من ضريع، لا يسمن ولا يغـني من جوع﴾ [الغاشية / ١] وشرابهم من حميم: **﴿كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم﴾** **﴿من ورائه جهنم ويسـقى من ماء صديد. يـتجرعه ولا يـكاد يسيغـه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ﴾** [إبراهيم / ١٦ - ١٧].

---

١ - أعلام السنة المنشورة: الحكمي، تحقيق الشلبي / صـــ ١٦٩/

صديد أهل جهنم شراب لهم، وماء يغلي تتقطع له الأمعاء.

أما ثيابهم: ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ [الحج / ١٩] هذا ومشاعر الندم تغمرهم والخصام بين أهل النار يزيد من حسرتهم، وكل ذلك ثابت في كتاب الله جل وعلا.

﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ [سورة ص ٦٤]- ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا، وقالوا : ربنا إننا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ [سورة الأحزاب / ٦٦ - ٦٨].

هكذا يتبرأ الأتباع من سادتهم عند الملك الديان، فهلاّ تنبّه هؤلاء قبل فوات الأوان؟!.

وانظر أخي القارئ إلى هذا الحوار المرير بين أفواج أهل النار. قال تعالى: ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق• وآخر من شكله أزواج• هذا فوج مقتحم معكم، لا مرحباً بهم إنهم صالو النار. قالوا: بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار• قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾ [ص/ ٥٧ - ٦١/].

وقال تعالى مصوراً التناحر والشجار بين أهل جهنم، يتذكر المخدوعون من الضالين الذين أضلوهم: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ [الأعراف / ٣٨].

إن مشاعر الندم عند المجرمين تزيدهم عذاباً: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ [السجدة / ١٢].

ما قيمة الدنيا ونعيمها إذا كانت النتيجة هي هذا العذاب ؟اما قيمة الترف والنعيم في الدنيا إذا كان المال إلى هذه النار المسعرة «عن أنس رضي الله عنه يرفعه: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به.؟ قال : نعم. قال الله تعالى: فقد سألتك ما هو أهون من هذا، وأنت في صلب آدم حين أخذت الميثاق [١] أن لا تشرك بي فأبيت إذ أخرجتك إلى الدنيا إلا الشرك» [٢].

هذه بعض أحوال أهل الجحيم وكتاب الله يحذرنا صباح مساء . أقر الله أعيننا بالثواب الجزيل، وصحبة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

و - الإيمان بالجنة ونعيمها :

أعدّ الله الجنّة للمتقين الموحدين. ﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون﴾[الفرقان / ١٥].

فالجنة أعدت للمتقين، لا لمن يشتري صكوك الغفران أو يستأجر قسماً من الجنة[٣].

ومساكنهم فيها كما قال تعالى: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار، وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾ [الزمر / ٢٠]

وبناؤها يصوره الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:

---

١ - إشارة إلى قوله تعالى في سورة الاعراف: ﴿وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى﴾ الاعراف / ١٧٢

٢ - أخرجه البخاري في صفة الجنة والنار، ومسلم في التوبة، وانظر عون الباري: ٤/ ٥٧٥.

٣ - يقول الراهب جروم عن القساوسة: ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران، ويمنحون شهادات النجاة، وإجازات حل المحرمات والمحظورات. «انظر تفصيلاً لذلك: ماذا خسر العالم با نحطاط المسلمين صـ ١٨٩».

﴿الجنة بناؤها لبنة من فضة ولبنة من ذهب، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران من يدخلها ينعم لا ييأس ، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم﴾ (1).

وثيابهم: ﴿يلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك﴾ [الكهف / ٤١].

﴿ولا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قليلاً سلاماً سلاماً﴾ [الواقعة / ٢٦].

وثمراتها وشرابها ليست كمسمياتها في الدنيا إنها شيء آخر ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفىّ ولهم فيها من كل الثمرات﴾ [سورة محمد/ ١٥].

فثمارها تتشابه في اللون والمنظر، والطعم يختلف إبعاداً للملل عن النفوس، وزيادة فى النعيم.

﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوابه متشابهاً ﴾ [البقرة / ٢٥].

ويكفي هذا النداء العلوي الندي للمؤمنين أهل الجنة ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين. ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون۰ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون۰ لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ [الزخرف / ٦٨ - ٧٢]. وتحييهم الملائكة ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[الرعد / ٢٣].

---

١ - صحيح الجامع الصغير: ١/٥٩٨، والحديث صحيح رواه أحمد والترمذى/

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يتمخطون ولا يتغوطون. آنيتهم فيها الذهب، وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم اللؤلؤ ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشياً» (١).

«وبعد دخول أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار. قال فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» (٢)

وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى فى الآخرة للمؤمنين، ورواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله ﷺ، وآيات القرآن فيها مشهورة واعتراضات المبتدعة كالمعتزلة والخوارج وبعض المرجئة لا أصل لها وخطأ صريح وجهل قبيح . . . . (٣)

«وفى الجنة الحوض، والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفته: أنه حوض عظيم ومورد كريم يحوض شراب الجنة، من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضاً من اللبن ، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، وهو فى غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر» (٤) ونختم هذا البحث بمختارات من قصيدة ابن القيم في وصف الجنة:(٥)

---

١ - رواه البخارى ومسلم والترمذى وأحمد / صحيح الجامع الصغير / ١/ ٥٠٢.

٢ -أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة وغيرهم/ ينظر شرح صحيح : ٣/ ١٧/.

٣ - شرح صحيح مسلم: ٣/ ١٥

٤ - شرح الطحاوية: ١/ صـ ٢٨٠

٥ - حادي الأرواح : لابن القيم / صـ١٣ - ١٥/.

فلله مـــا في حـشـوها من مـــسـرة وأصـناف لـذات بـهـــــا يـتـنعـم
ولله برد الـعـيش بـين خـيـــامـهـــا وروضـاتها والثـغر في الروض يبسم
ولله أبـصـــار ترى الـله جـــهــــرة فـلا الضـيم يغـــشـاها ولاهي تسـأم
فـيا خـاطب الحسناء إن كنت راغبـاً فـهـذا زمـــان المهـر فـهـــو المقـدم
وإن ضـاقتّ الـدنيـا عليك بـأسـرها ولم يك فـــيـهـــا منزل لك تـعلم
فـــحيّ علـى جنات عـــدن فـــإنهـــا منازلـنا الأولى وفـــيــهـــا المخـــيم
ولكننّا ســبي العـدو* فـــهـل ترى نـعُــــــود إلـى أوطـاننـا ونـسلـمَ
وحـي عـلـى يوم المـزيـد الـذي بـه زيارة رب العــرش فـاليـوم مـوسم
وحي عـلى واد هـنا لـك أفــــيـح وتربـتـــه من إذفـــر المسك أعـظم
فـــيـا بائعـــاً هذا بيـــخس مـعـــجل كـأنك لا تدري، بلـى سـوف تعلم
إن كنت لا تدري فـتـلك مـصـيـبـة وإن كنت تدري فـالمصـيـبـة أعظم

---

* سبي العدو: يقصد إبليس الذي اخرج ابانا من الجنة.

الفصل السادس

الإيمان بالقضاء والقدر

١ -مفهوم القدر عند أهل الجاهلية.

٢ -الإيمان بالقدر ركن من أركان العقيدة الإسلاميةوفيه عدة موضوعات:

أ- النزاع في مسألة القدر:وما عليه أهل السنة والجماعة

ب-التوكل مع تعاطي الأسباب لا يتنافى مع الإيمان بالقدر

جـ-الإيمان بالقدر قوة إيجابية في حياة المسلمين.

١-مفهوم القدر عند أهل الجاهلية

أكثر الذين كانوا يؤمنون بوجود إله خالق، كانوا يؤمنون بما نسميه «القضاء والقدر» أوالجبر في حياة الإنسان. فالخير والشر، وكل شيء في هذا الكون مرده إلى الله، وهو مكتوب ومحتوم. وما يصيب الإنسان لابد أن يكون قد كتب عليه ولا راد لما هو مكتوب-هذه فكرة كانت شائعة لدى بعض الجاهليين ونجد هذه القضية كذلك ظاهرة عند عبدة الأصنام، أو عند من كان يعبد القوى الخفية. . . حتى رسخ في عقول أهل الجاهلية، أن كل شيء في هذه الدنيا مكتوب ومقدر[1].

لقد تأمل الجاهليون وإذا بفكرة القضاء والقدر واقع لا يمكن تجاوزه، وإذا بالتسليم لهذا القضاء وهذا القدر يحل مشكلة الإنسان مع الحياة الدنيا، فيترك تدبير الأمور لله تعالى، يسيرها بقدرته كيف يشاء[2].

هذه المفاهيم نجدها بشكل أو بآخر في ثنايا الشعر الجاهلي. فعامر بن الطفيل يتحدث عن الإرادة الإلهية بما يفيد معنى القضاء، وذلك في قوله:

سرنا نريد بني نهد وإخوتهم
جَرْماً ولكن أراد الله هْمدانا

وزهير بن أبي سلمى يتحدث عن نفس المعني في قوله:[3]

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
وإنْ يرق أسباب السماء بسُلَّم

ونجد أن عبيد بن الأبرص يقرر أن الله علام ما أخفت القلوب، وأنه هوالذى يملك النفع والضر والرزق، فلابد من التوكل على الله والاعتماد عليه. يقول:[4]

١ - تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، ٦/ ١٢١-١٢٢.
٢ - ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلي: صادق مكي/ ص١١٦.
٣ - شرح القصائد العشر للتبريزي/ ص١٥١
٤ - شرح المعلقات العشرللتبريزي: ص٣٦٨

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

بالله يدرك كل خير والقول في بعضه تلغيب

والله ليس له شريك علامُ ما أخفت القلوب

ومن شعراء الجاهلية الذين آمنوا بفكرة القضاء والقدر عمرو بن كلثوم، فهو يرى أن الموت مقدر علينا يقول: [1]وأنا سوف تدركنا المنايا=مقدّرةً لنا ومقدرينا

أما طرفة بن العبد فيشير في شعره إلى أن الأمور بمشيئة الله تعالى رب كل شيء، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لاشريك له في ذلك. انظر إلى قوله: [2]

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد

ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثدِ

فأصبحت ذا مال كثير وزارني

بنون كرام سادة لمسوّدِ

هذا وكثيرا ما كانت عقيدة القدر تؤدي بصاحبها في الجاهلية إلى التشاؤم والقنوط والاستسلام، والشكوى من عبث الدهر بالإنسان، وهو ليس له دخل في رده أو صده.

نجد كثيراً من شعراء الجاهلية يبكون أيامهم، ويتوجعون لأنهم سائرون في مستقبل مؤلم موجع، لا حول فيه للإنسان ولا قوة...

وإذا تصفحت دواوينهم قلما تجد منهم شاعراً متفائلاً أو غير بالٍ بالأيام[3] فهناك اعتقاد بالقدر، وسخط عليه وعدم الرضا به لدى أهل الجاهلية.

---

١ - شرح المعلقات للتبريزي: ص٢٥٧

٢ - معلقة طرفة في شرح المعلقات للتبريزي/ ص١١٥-١١٦

٣ - جواد علي: ٦/١٥٩

٢-الإيمان بالقدر ركن من أركان العقيدة الإسلامية

تمهيد وتعريف:

الإيمان بالقدر جزء رئيسي من عقيدة المسلم، وهو من مميزات معتقد هذه الأمة خلال تاريخها الطويل.

«فبينما كان في حس الأجيال الأولى من هذه الأمة قوة دافعة بناءة محركة... صار في حس الأجيال المتأخرة منها قوة سلبية هدامة مخذلة، حين انحرف مفهوم القضاء والقدر في حسّها عن صورته الصحيحة التي عاشت بها الأجيال الأولى وبنتْ وعمرّت وتحركت»[١]

والقدر في الأصل مصدر: قدر، ثم استعمل في التقدير الذي هو التفصيل والتبيين، واستعمل بعد الغلبة في تقدير الله للكائنات قبل حدوثها.

أما القضاء: فقد استعمل في الحكم الكوني بجريان الأقدار وما كتب وقدر، وقد يطلق هذا على القدر الذي هو التفصيل ، والتمييز.

ويطلق القدر أيضاً على القضاء الذي هو الحكم الكوني لوقوع المقدرات.[٢]

وعندما تحولت مسألة القدر إلى علماء الكلام تعقدت وابتعدت عن بساطتها وصفائها في العصورالأولى وحصل بسببها نزاع بين أهل السنة وبعض الفرق المبتدعة...

أ-النزاع في مسألة القدر،وموقف أهل السنة والجماعة:

«إن مذهب أهل الحق هو إثبات القدر، ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم، وعلم أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى.

وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أنه سبحانه وتعالى لم يقدرها، ولم يتقدم علمه

---

١ - مفاهيم ينبغي أن تصحح: محمد قطب/ ص٢٥٥«مفهوم القضاء والقدر»

٢ - الرسائل المفيدة/ عبد اللطيف آل الشيخ، ص٢٥٨

سبحانه وتعالى بها، وأنها مستأنفة العلم، أي إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها، وكذبوا على الله سبحانه وتعالى وجل عن أقوالهم الباطلة[1] علواً كبيراً. وسميت هذه الفرقة قدرية لإنكارهم القدر»

وقد فُصِّلَتْ المسألة في شرح الطحاوية فقال شارحها:[2] .

«النزاع في مسألة القدر مشهور: والذي عليه أهل السنة والجماعة، أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن الله تعالى خالق أفعال العباد. قال تعالى: -﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ [٢٤- القمر/٩] وقال تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾[الفرقان/ ٢]. وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاؤه كوناً ولا يرضاه ديناً وخالف في ذلك القدرية ،والمعتزلة، وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر. فردا إلى هذا لئلا يقولوا شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه. ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار،

فإنهم هربوا من شيء، فوقعوا فيما هو شر منه، فإنه يلزمهم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى»

«والقدر الذي لا ريب في دلالة الكتاب والسنةوالإجماع عليه هو ماقدره الله من مقادير العباد وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والأئمة في ذم القدرية يعنى به هؤلاء القدرية المحضة الذين مجدوا القدر

«كقول ابن عمر رضي الله عنهما، لماقيل له: ويزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف قال أخبرهم: أني منهم بريء، وأنهم مني براء»[3]

«وقد بنت كل من الجبرية ،والقدرية شبهتها على أن خلاف المعلوم غير مقدور، فقالت الأولى بالتكليف بما لا يطاق، وقالت الثانية بمنع تقدم علم الله وخبره عن ألا يكون مما أمر به.

وقد خالفهم في ذلك الجمهور وقالوا: هذا منقوض عليكم بقدرة الله

١ - شرح صحيح مسلم: جـ١/ ص١٥٤
٢ - شرح الطحاوية: جـ١/ ص٣٢١
٣ - شرح الطحاوية: جـ٢/ ص٣٥٨

تعالى، فأنه أخبر بقدرته على أشياء مع أنه لم يفعلها كقوله سبحانه﴿وإنا على ذهاب به لقادرون﴾وقوله سبحانه﴿لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾[1]

فالله يعلم ما كان وما يكون وقد قَدَّر المقادير قبل الخلق:

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:

إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب، قال: ما أكتب؟قال: اكتب القدركما كان وما هو كائن إلى الأبد»[2]

وفى الفتاوى الكبرى لابن تيمية رحمه الله تفصيلات دقيقة حول هذه المسألة نقتطف منها ما يناسب البحث وحجمه فقد جاء منها«أن أهل السنة يؤمنون بأن الله على كل شيء قدير، فيقدر أن يهدى العباد ويقلب قلوبهم، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون فى ملكه مالايريد، ولا يعجز عن إنفاذ مراده، وأنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات. فأهل السنة يؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة. . . . والله سبحانه جعل العبد مختاراً لما يفعله، فهو مختار مريد ، والله خالقه وخالق اختياره، وهذا ليس له نظير، فإن الله ليس كمثله شيء فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله»[3]هذا وتؤمن الفرقة الناجية من أهل السنة أن الإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين.

فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذى هوموصوف به أولاً. وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصى والأرزاق والآجال. ثم كتب الله فى اللوح المحفوظ مقادير الخلق. فأول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطويت الصحف، كما قال تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات والأرض إن ذلك في كتاب، إن ذلك على الله يسير﴾وقال﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا

---

١ - أصل الدين: عبد المجيد الشاذلي/ ص٥٨

٢ - رواه الترمذي وهو صحيح صحيح الجامع الصغير/ جـ١/ ص٤٠٥

٣ - االفتاوى لابن تيمية: جـ٣/ ص٣٧٤

في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾[1].

أما الدرجة الثانية: فهو مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة وهو الايمان بأن ماشاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما فى السماوات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه لا يكون فى ملكه إلا ما يريد، وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير»[2]. «والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم: والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر، والمصلي، والصالح، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾.

وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبى ﷺ، مجوس هذه الأمة.

ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات، حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه، حكمها ومصالحها»[3].

وقد«وجد بعض الذين ليس للدين حريجة في نفوسهم فى القدر اعتذاراً عن مقابحهم وتبريراً لمفاسدهم فساداً فيما يشبه الإباحية وإسقاط التكليف. كما فعل المشركون وبعض المجوس قبل الإسلام.

وكان الكلام فى القدر يشتد كلما اتسع نطاق الفتن، ولذا كان الكلام فيه فى عهد علي (رضى الله عنه) أشد وأحدّ» [4]. قال الأوزاعى «أول من نطق فى القدر رجل من أهل العراق يقال له سَوسَن كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر، فأخذ عن معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد»[5].

ب- التوكل مع تعاطى الأسباب لايتنافى مع الإيمان بالقدر:

التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل فى استجلاب المصالح ودفع

١- الفتاوى٣/١٤٨

٢، ٣- الفتاوى : جـ٣/١٤٩، ١٥٠.

٤ - تاريخ المذاهب الإسلامية: محمد أبوزهرة/ ص١٠١.

٥ - رواه الآجري فى الشريعة وابن بطة فى الإبانة: انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة/ جـ٢/ ٧٥٠.

المضار من أمور الدنيا والآخرة، فالأمور كلها موكولة إليه تعالى، وتحقيق الإيمان يكون بأنه لايعطي ولايمنع ولايضره ولاينفع سواه[1].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ولو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً»[2].

«فاعتماد القلب على الوكيل وحده لايناقض حركة البدن في التعلق بالأسباب ولا ادخار المال.

قال تعالى ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾، أي قواماً لأبدانكم وقال ﷺ: «نعم المال الصالح مع الرجل الصالح». وقال ﷺ: «إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس».

واعلم أن الأمر الذى أمر بالتوكل أمر بأخذ الحذر فقال: ﴿خذوا حذركم﴾ وقال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ وقال: ﴿وأسر بعبادي ليلاً﴾. وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وشاور طبيبين، واختفى فى الغار، وقال: ﴿من يحر سني الليلة﴾، وأمر بغلق الباب، وفى الصحيحين من حديث جابر أن النبى ﷺ قال: «أغلق بابك» وقد أخبرنا أن التوكل لاينافى الاحتراز، ولم يأمر الله بالتوكل الابعد التحرز واستفراغ الوسع فى التحفظ: فقال تعالى: ﴿وشاورهم فى الأمر﴾[آل عمران/ ٥٩]، ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ [آل عمران/ ١٥٩]، فلوكان التعلق بالاحتياط قادحاً في التوكل لما خص الله نبيه حين قال له: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ وهل المشاورة إلا استفادة الرأي الذى فيه يؤخذ التحفظ والتحرز من العدو؟»[3].

«وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافى الاكتساب وتعاطي الأسباب وأن الأمور إذا كانت مقدرة فلاحاجة إلي الأسباب، وهذا فاسد.

١ - جامع العلوم والحكم لابن رجب: ص٤٣٥.

٢ - رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن حبان والحاكم وقال الترمذي: حسن صحيح «جامع العلوم والحكم: ص٤٣٥».

٣ - انظر تلبيس إبليس: لابن الجوزي/ ص ٣١٢-٣١٣.

فإن الاكتساب منه فرض، ومنه مستحب،ومنه مباح، ومنه مكروه ومنه حرام.
وقد كان النبى ﷺ أفضل المتوكلين، يلبس لأمة الحرب ويمشي فى الأسواق للاكتساب، حتى قال الكافرون ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي فى الأسواق﴾ [الفرقان/ ٧] (١).

وقد فهم السلف موضوع التوكل ، وأنه لابد من أخذ الأسباب معه. قال رجل للإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه «أريد أن أخرج إلى مكة- على التوكل من غير زاد- فقال له أحمد فاخرج فى غير القافلة. قال: لا ، إلا معهم. قال: فعلى جراب الناس توكلت؟»(٢).

وقد يسبق إلى أفهام كثير من الناس أن القضاء والقدر إذا كان قد سبق فلا فائدة فى الأعمال، وأن ماقضاه الرب سبحانه وقدره لابد من وقوعه.

وقد سبق إيراد هذا السؤال من الصحابة على النبى ﷺ، فأجابهم بما فيه الشفاء والهدى . ففى الصحيحين عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ، ومعه مخصرة فنكس، فجعل ينكث بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار، والا قد كتبت شقية أو سعيدة. فقال رجل يارسول الله: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان منا من أهل السعادة فيصير إلى أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة، فيصير إلى عمل أهل الشقاوة فقال: «اعملوا فكل ميسَّرٌ» أما أهل السعادة فييسرون لعمل السعادة، وأما أهل الشقاوة، فييسرون لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فسنيسره للعسرى﴾ [الليل/ ٥-٧].

فالنبى ﷺ، أرشد الأمة فى القدر إلى أمرين هما سبب السعادة: الإيمان بالأقدار فإنه نظام التوحيد. والإتيان بالأسباب التى توصل إلى خيره، وتحجز عن

---

١ - شرح الطحاوية: جـ٢/ ص٣٥١.
٢ - تلبيس إبليس/ ص١٦٦.

نره، وذلك نظام الشرع. فأبى المنحرفون إلا القدح بإنكاره فى أصل التوحيد، أو القدح بإتيـانه فى أصل الشرع، ولم تتسع عـقولهم التى لم يلق الله عليـها نوره، للجمع بين ماجمعت الرسل جميعهم بينه، وهو القدر والشرع والخلق والأمر»[1].

فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولايجعل عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسـباب المأمور بهـا، التى لايتم المقصود إلا بهـا كلها ، ومن هنا غلط طائفتـان من الناس : أحدهمـا زعمت أن التـوكل وحده سبب مـسـتـقل كاف في حصول المراد، وتعطلت له الأسباب التى اقتضـتها حكمة الله الموصلة إلى حياتها، فوقعوا فى نـوع تفريط وعجز بحسب ماعطلوا من الأسـباب، وضعف توكلهم من حيث ظنوا قوته بانفراده عن الأسباب[2].

قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت/ ٦٩].

«ذكر جل وعـلا فى هذه الآية أن الذين جاهدوا فيـه» يهديهم إلى سبيل الخـير والرشاد، وأقـسم على ذلك بدليل الكلام في قـوله: لنهدينهم، وهذا المعـنى جاء مبـيناً فى آيات أخر، كقـوله تعالى «والذين اهتـدوا زادهم هدى﴾ وقوله: ﴿فأما الذين آمنوا فزادهم إيمانا﴾ الآية[3].

فالمسلم يأخذ بالأسباب، لأنه مأمـور بالأخذ بها، والعمل وفق السنة لأنه مأمور بمراعاتها، لا لأنه يعتقد أن الأسباب والوسائل هى المنشـئة للمسببات والنتائج، فهو يرد الأمر كلـه إلى خالق الأسبـاب، ويتعلق به وحـده من وراء الأسبـاب بعد أداء واجبه فى الحركة والسعي والعمل واتخاذ الأسباب طاعة لأمر الله[4].

«لقد كان واضحا فى حس الأمة الأولى أن إيمانها بالقضاء والقدر لايتعارض مع اتخاذ الأسباب. . . لذلك كان فى حسهم أنه لابد لهم من مجاراة السنن الجارية إذا رغبـوا فى الوصـول إلى نتيـجة مـعينة فى واقع حـياتهم، أى أنه لابد من اتـخاذ

---

١ - شفاء العليل: لابن القيم، (ص٧٥-٧٩).

٢ - زاد المعاد: ٢/ ١٣/ لابن القيم.

٣ - أضواء البيان: ٦/ ٤٧٢ الشنقيطي.

٤ - خصائص التصور الإسلامي: سيد قطب ص٢٠٣.

الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب تلك السنن الجارية».

قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم..﴾ [الأنفال/ ٥٩].

﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [سورة محمد/ ٧].

«فلابد من اتخاذ الأسباب للنصرة وإن كان النصر قدرا مقدوراً من عند الله. ومن هنا تجاور في حس المسلم إيمانه بقدر الله، وإيمانه بأنه لابد أن يتخذ الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب السنة الجارية، وإن كانت هذه الأمة لم تترك لتفتن بالأسباب فتظنها مؤدية- بذاتها- إلى النتائج بمعزل عن قدر الله كما تصنع الجاهلية المعاصرة، فقد كان درس حنين لتثبيت هذا المعنى في نفوس المؤمنين ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً..﴾ [التوبة/ ٢٥].

«ثم إنه لم يكن في حس الأمة الأولى تعارض بين التسليم لقدر الله، والعمل على تغيير الواقع السيئ حين يكون.. إن كل شيء في هذا الوجود وفي حياة البشر واقع بقضاء الله وقدره لاجدال في ذلك، ولاشك فيه في نفوس المؤمنين.

ولكن الله لم يأمر الناس أن يستسلموا لقدر الله بمعنى عدم العمل على تغيير الواقع السيئ الذي هم فيه. إنما أمرهم بالتسليم أو الاستسلام لقدر الله بمعنى الرضا بما وقع بالفعل على أنه قدر محتوم لم يكن يمكن تلافيه. أما القعود عنده، وعدم تغييره ومحاولة تغييره فأمر آخر لم يأمر الله به ولاحث عليه، ولاعلاقة له بالرضا بما وقع على أنه قدر محتوم من عند الله»[1].

« والعبد له في المقدور حالان: حال قبل القدر، وحال بعده، فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله ويتوكل عليه، ويدعوه، فإذا قُدر المقدور بغير فعله فعليه أن يصبر عليه، أو يرضى به، وإن كان يفعله وهو نعمة حمد الله على ذلك وإن كان ذنباً استغفر إليه من ذلك»[2].

وببساطة فقد أجاب أعرابي عن القدر بما أصاب الحقيقة. «عن الأصمعي

---

١ - مفاهيم ينبغي أن تصحح : محمد قطب/ مقتطفات من الصفحات: (٢٦٢-٢٦٥) مفهوم القضاء والقدر.

٢ - الفتاوى لابن تيمية رحمه الله : جـ٨/ ص٧٦.

قال: سئل أعرابي عن القدر، قال: ذاك علم اختصمت فيه الظنون وغلا فيه المختصمون. فالواجب علينا أن نرد ما أشكل علينا من حكمه، إلى ماسبق من علمه»[١].

ونختم هذه الفقرة بالحديث الذى رواه عمران بن حصين قال «قال رجل: يا رسول الله أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم. قال عمران: يارسول الله، فلم يعمل العاملون؟ قال ﷺ: كُل يعمل لما خلق له (أو لما يسر له) [٢].

وفى الحديث إشارة إلى أن المآل محجوب عن المكلف، فعلى المكلف أن يدأب فى الأعمال الصالحة، فإن عمله أمارة إلى ما يؤول إليه أمره غالبا، وربك يفعل ما يشاء، وإن كان بعضهم قد يختم له بغير ذلك. لكنه لا اطلاع له على ذلك[٣].

جـ - الإيمان بالقدر قوة إيجابية فى حياة المسلمين:

كان الإيمان بالقضاء والقدر قوة دافعة فى حياة الأمة المسلمة، قوة إيجابية إذ سطر المؤمنون حضارة متوازنة، بشجاعة وإقدام، وعدل وخير.

كان للإيمان بالقضاء والقدر آثار عظيمة يمكن إيجازها بالنقاط التالية:

١ - تعميق الإيمان:

حيث أن المسلم يحس بتكامل أركان الإيمان لديه، لأن الإيمان بالقدر من أركان الإيمان الستة التى لايتحقق إلا بها، فتجد المسلم يشعر بطمأنينة القلب وارتياحه، وعدم القلق فى هذه الحياة عندما يتعرض لمشاقها.

قال عكرمة رحمه الله: ليس أحد إلاوهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً، والحزن صبراً[٤].

وعند المصيبة يشعر المؤمن. بأنها مقدرة فلا يجزع.

---

١ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: جـ٢/ ٦٩٢.

٢ - رواه البخارى. وعند أحمد بسند حسن (بلفظ كل امرئ مهيأ لما خلق له).

٣ - عون الباري: جـ٦/ ص٣٠٥.

٤ - الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: محمد الفوزان ص٢٧٥.

قال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة الا بإذن الله، ومن يـؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم﴾ [التغابن/ ١١].

وفي تفسير هذه الآية قال البغوي: يهد قلبه: يوفقه لليقين، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيسلم لقضائه[١].

وفي وقعة أحد كان الدرس هائلاً وعميقاً في نفوس المؤمنين، لقد خالف الرماة أمر قائدهم ورسولهم ﷺ، وشغلتهم المغانم، ظناً أن النصر قد تحقق، ثم كانت الهزيمة للمسلمين والاضطراب العنيف في صفوف الجيش، ونزل القرآن بعتاب شديد للمؤمنين على مافعلوا، ونزل كذلك بالشرح والبيان وكان من هذا الشرح تلك الآيات ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم، إن الله على كل شئ قدير. وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله، وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا﴾ [آل عمران/ ١٦٥-١٦٧].

إنه من عند أنفسكم وفي ذات الوقت هو بإذن الله.

المسئولية عن الخطأ قائمة، والإيمان بأنه من قضاء الله وقدره قائم لايتعارضان.

كل ذلك يكون بتوازن دقيق بين إيمان الإنسان لمسئوليته عن عمله، وإيمانه بقضاء الله وقدره، وإقرار الأمرين في القلب البشري ليتوازن بينهما في مسيرته في هذه الأرض[٢].

وهذا خير تربية للمؤمنين فهو تربية إيمانية عقدية فريدة.

٢- الشجاعة والإقدام:

المؤمن يعلم أن أهل الأرض جميعاً لو اجتمعوا على أن ينفعوه، لم ينفعوه إلا بشئ قد كتبه الله له، وإن اجتمعوا على أن يضروه، لم يضروه إلا بشئ قد كتبه الله عليه، فلن يذل لمخلوق ولن يخاف في الحق لومة لائم.

«لقد كانت عقيدة القضاء والقدر فلسفة إقدام في الحياة. اعملوا فكل ميسر لما

---

١ - تفسير البغوي: ٨/ ١٤٣.

٢ - انظر مفاهيم ينبغي أن تصحح ص ٢٦٠-٢٦١ بإيجاز.

خلق له، فليس إقدامك على جهاد ولا دخولك المعركة بقاتل لك إذا لم يأت أجلك، فلا تخف لو اجتمع الخلق كلهم على أن يضروك، فلن يصيبك ضرر إذا لم يرد الله ذلك، ولكن الوضع تغير فإذا بهذه العقيدة نفسها تصبح فلسفة تواكل وإحجام: لاتعجل لرزقك يأتيك، ولاتجاهد لأن الله ينصرك إذا أراد من غير جهاد ولاحرب.. وإذا بالزهد الأعجمي يطغى على الزهد الإسلامي»[1].

٣- مواجهة مشاق الحياة ومصائبها:

إن الإيمان بأن كل شئ مقدر يجعل المسلم يواجه المصائب بثبات ورباطة جأش بعيداً عن الجزع والتشكي، لأن المؤمن يعلم أن الخير كله فيما قدره الله.

• فمن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، الثبات عند مواجهة الأزمات، واستقبال مشاق الحياة بقلب ثابت ويقين صادق لاتزلزله الأحداث ولا تهزه الأعاصير، لأنه يعلم أن هذه الحياة دار ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾ [سورة الملك/ ٢].

ومن ثمراته أيضاً تحويل المحن إلى منح، والمصائب إلى أجر[2] قال تعالى: ﴿**ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله، ومن يؤمن يهد قلبه والله بكل شئ عليم**﴾ [سورة: التغابن/ ١١].

والإسلام يعلم أتباعه «واجب التسليم لقدر الله مع محاولة التغيير تطلعاً إلى قدر جديد من عند الله، وكان هذا من روائع ماتربت عليه الأمة الأولى، لتوازن به بين سلبية الاستسلام التى تحطم الإرادة، وبين الرغبة الجامحة التى لاتعرف التسليم، وكيف تحول هذا التوازن إلى قعود عن التغيير بدعوى الاستسلام لقدر الله؟»[3].

---

١ - الفكر الإسلامي : محمد المبارك رحمه الله/ ص٣٨.

٢ - الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: د.محمد الفوزان/ ص٢٧٥ ومابعدها بإيجاز.

٣ - مفاهيم ينبغي أن تصحح: ص٢٦٩.

٤- السعي الدؤوب فى عمارة الأرض:

فالمؤمن لن يتواكل ولـن يعتمد على المخلوقين، وإنما ينحصر اعتماده على الله سبحانه وتعالى، وإذا أصيب بنكسة فلن تقعده عن مواصلة العمل من جديد، ولن ينقطع لديه الأمل، مادام عمله فى مرضاة الله فى كل مجالات الحياة: تجاه، عمل يدوى، عمل دعوي، جهاد فى سبيل الله، وفى كل تلك الأحوال يعمل مابوسعه دون ملل أو كلل.

وإن عاق مطلبه عائق فلن يتخاذل ولن يتحسر، وبذلك ترقى الأمة وتزدهر حضارتها، وتسمو فيها النفوس، وتحلو الحياة رغم وعورة مسالكها.

وإذا نظرنا إلى حضارة التيه والضياع، فإننا نشاهد التبرم لدى أهلها، برغم تقدم الوسائل المادية، ورفاهية العيش ورغم التقدم فى مضمار العلوم.

إلا أن فقدان الإيمان بالله جل وعلا، وعدم الاطمئنان لما يقدر سبحانه وتعالى سبب لهم كثيراً من الأمراض النفسية والعقلية، وكثيراً من حالات الانتحار والانهيار. لأن قدرة البشر محدودة فتفاجأ عندما تأتي النتائج على غير المتوقع ولاتفسرها الأسباب الظاهرة، وهذا ماجعل هتلر ينتحر حين اتخذ كل الأسباب، فلما خاب مسعاه انتحر، ولم يتحمل النتيجة التى قدرها الله من وراء كل الأساب البشرية.

٥- القناعة والرضى بما قدر الله:

فيبتعد المسلم عن الحسد والغيرة ولايتطلع إلى ماعند غيره من مفاتن الدنيا، مادام مؤمنا بأن الرزق مقدور وأن ماعند الله خير وأبقى.

كما أن هذه العقيدة تبعد المسلم عن الكبر والبطر، لأنه يعلم أن مابه من نعمة فمن الله، ولو شاء لأذهب ماعنده.

وقصة قارون فى كتاب الله شاهد أمام عيني المسلم على نزوة البطر والجحود وقصة صاحب الجنة الذى كان يحاور صاحبه بتعال ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾. ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾ ﴿وأحيط

بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها، ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحدا﴾[1].

هذه نتيجة البطر وكفران النعمة، عند مَنْ لايتمتع بالقناعة والاستسلام لقوله تعالى.

٦- التوازن في الشخصية الإسلامية:

إن عقيدة القضاء والقدر فى صورتها الصحيحة تمثل نقطة توازن هائلة ورائعة فى حس الإنسان المسلم الذى يسير حياته لمقتضى هذه العقيدة... إنها نقطة توازن بين اتجاهات شتى يتعرض لها الإنسان حين لاينضبط سلوكه وفكره وتصوره بالمنهج الرباني الصحيح.

فشعور الإنسان بعظمة الله لاتحدها حدود، وهيمنته سبحانه على كل شئ، عرضة أن ينتهي بالإنسان إلى سلبية منحسرة لاتعمل شيئا ولاتتطلع إلى إنجاز شئ.. ويمثل هذا الانحراف في السلبية جاهليات البوذية والهندوكية والرهبانية..

وشعور الإنسان بذاتيته ومقدرته على العمل والتصرف، ورؤيته لإنتاجه الذى ينتجه بفكره وجسمه، عرضة أن ينتهي بالإنسان إلى التأله والجحود والطغيان، إعجاباً فيه بإيجابيته وفاعليته.

ويمثل هذا الانحراف الحضارة الغربية الحديثة.

وبين هذين الطرفين المتناقضين تجيئ عقيدة القضاء والقدر فى صورتها الصحيحة فى الإسلام، تقرر هيمنة الله الشاملة على كل ما يجري فى الكون وفى حياة الإنسان، ولا تلغي فى الوقت ذاته ما عليه الإنسان ولاتلغي العمل، ولاتلغى اتخاذ الأسباب.. فالإيمان بالقدر، يحدث فى حس المسلم هذا التوازن الرائع الجميل فيعينه على القيام بدور الخلافة الراشدة فى الأرض ، ويجعله يعمل فى الأرض وقلبه متطلع إلى الله فى السماء.

---

١ - سورة الكهف: الآيات ٣٥-٤٢.

وهذا هو الفارق الأصيل بين المسلم وبين نظيره من الجاهليين من هنا ومن هناك. أحدهما يقعد عن العمل، ولايحس بقيمة وجوده الإنسانى، والثاني يعمل مفتوناً بالأسباب، كأنها فى حسه أرباب [1].

إن عقيدة القضاء والقدر كانت دفعة هائلة عند هذه الأمة، فقد صنعت بإيمانها العميق المعجزات، فكانت حضارة رائدة عمت البشرية بالخير والعدل والنور، وبهذه العقيدة:

«أنشأت ما أنشأت من منجزات تشبه المعجزات.. فماذا أصابها خلال القرون؟ فانحدرت إلى ما هي عليه من الضعف فى كل مجالات الحياة؟! إن شكل العقيدة لم يتغير، ولكن جوهرها تغير تغيراً هائلاً.. لقد تحولت عقيدة القضاء والقدر إلى مباحث كلامية ولم تعد منهجاً للتربية الإسلامية.

ويجيئ طور على المسلمين المعاصرين ينسلخون من عقيدة القضاء والقدر كما انسلخ سادتهم الأوربيون من قبل، بحجة ترك العقلية الغيبية التى كانت سبب تأخرنا.

والمسلمون اليوم فى حاجة إلى تصحيح مفهوم القضاء والقدر، الذى اختل فى حسهم خلاله القرون الأخيرة..[2].

نحن بحاجة إلى التأكيد «على أن الإيمان بالقدر هدى، والاحتجاج به على الله ضلال وغي.

فالقدر يؤمن به ولايحتج به، فمن لم يؤمن بالقدر ضارع المجوس، ومن احتج به ضارع المشركين، ومن أمر بالأمر والقدر وطعن فى عدل الله وحكمته، كان شبيهاً بإبليس فإن الله ذكر عنه، أنه طعن في حكمته وعارضه برأيه وهواه وأنه قال: ﴿فبما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض﴾[3].

١ - مفاهيم ينبغي أن تصحح: الصفحات (٦٩ - ٧٧) مقتطفات بتصرف يسير.

٢ - مقتبس من المرجع السابق ص ٢٧٩-٢٨٢).

٣ - الفتاوى لابن تيمية : جـ٨/ ص١١٤.

الباب الثالث

العبادة بين الجاهلية والإسلام

وفيه فصلان :

الفصل الأول : مفهوم العبادة

١ - المبحث الأول : مفهوم العبادة فى الجاهلية .

٢ - المبحث الثانى : مفهوم العبادة فى الإسلام

الفصل الثانى : شعائر العبادة

١ - المبحث الأول : الصلاة

٢ - المبحث الثانى : مناسك الحج

٣ - المبحث الثالث : الصوم والزكاة .

الفصل الأول

مفهوم العبادة

العبادة أمر فطري في نفس الإنسان فهو يتوجه إلى خالقه يعبده ، فلا يوجد مَنْ لا يعبد ، وحين يدعي ذلك إنسان ويتوهم أنه طليق من كل عبادة ، فهو عابد لهواه ينطبق عليه قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » .

حتى فى هذه الحالة إنه عابد لغير الله .

والقضية إذن ليست قضية العبادة في ذاتها ، فكل الناس عابد ، وإنما هى قضية العبادة الصحيحة ، أو قل : إنها قضية المعبود .

فمن المعبود ؟ أهو الله الذى لا إله إلا هو ؟ أم آلهة أخرى معه ومن دونه ، لا ألوهية لها فى الحقيقة ، ومن ثم فلاتجوز لها العبادة ولا الطاعة ولا الانصياع.

وتلك هي قضية البشرية فى التاريخ كله ، وتلك هى قضية الجاهلية أية جاهلية على وجه الأرض ، وستظل هى القضيه حتى يرث الله الأرض ومن عليها [1].

« ومن هنا فقد ركز المنهج القرآنى كثيراً على قضية العبادة لشدة ما كان قائماً فى الجاهلية من انحراف فى تلك القضية، ولاتصالها المباشر بقضية العقيدة . . . فحين تنحرف العقيدة تنحرف العبادة بالضرورة ، وحين تستقيم العقيدة فالمفروض أن تستقيم العبادة على وضعها الصحيح » [2] .

إلا أن الناس في الجاهلية يأنسون عادة للوسطاء لأنهم في هبوطهم. . . .

وانغلاقهم ، يحسون بالوحشة من الإله المنزه الذى لا تدركه الأبصار ، فيأنسون للكائنات الوسيطة .

وفى هذا الباب سوف نتحدث عن تقلص مفهوم العبادة عند أهل الجاهلية ، حتى صارت طقوساً تتمثل فى تقديم النذور والقرابين لآلهتهم المزعومة ، أو في

---

١ - انظركتاب لا إله إلا الله : عقيدة وشريعة ومنها ج حياة للأستاذ محمد قطب ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٣.

٢ - المرجع السابق : ص ٥٧ .

صلوات فى معابدهم الوثنيــة ، أو الحج إلى بيت الله الحرام مع تحريف وشرك في شعائر الحج،ابتعدوا فيهــا عن صفاء ديانة التوحيد من لدن إبراهيــم الخليل وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام .

وستتحدث عن مفهوم العبادة فى الإسلام ، هذا المفهوم الشامل لكل نشاط فى الحياة ، إذ يصبح الإنسان عابداً لله فى كــل لحظة ، سواء كان يقــوم بــأداء شعيرة من الشــعائر ، أو يــذكــر الله فــى ســره أو جــهــره ، أو يبــتعــد عــن محــرم مــن محــارم الله .

ومن ثم نتحدث عن شعائر العبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج ، فى صورتها الجاهلية ، وفى صفائها فى الإسلام بعد ذلك . .

المبحث الأول

مفهوم العبادة فى الجاهلية

١ - التقرب إلى الآلهة بالنذور والقرابين .

٢ - بيوت العبادة عند أهل الجاهلية .

أ - تقديس البيت الحرام .

ب - بيوت العبادة الأخرى عند العرب .

مفهوم العبادة فى الجاهلية

١ - التقرب إلى الآلهة بالنذور والقرابين :

كان أهل الجاهلية يتقربون إلى أربابهم بالنذور أو المنح والذبائح التى تقدم فى المواسم ، وفى سائر الأيام .

وعند عرب الجنوب ، اقتضى تضخم أملاك المعابد إيجاد جهاز خاص لإدارة الأملاك، والإشراف على استحصال الأعشار عن الدخل وتركات الإرث إلى جانب النذور والقرابين ، وكان يرأس هذا الجهاز كبار رجال الدين .

وكان فى المعابد مواضع خاصة ، يرمي فيها الزوار ما يجودون به على المعبد ، وتكون هذه الأماكن أمام الأصنام غالباً .

وقد قدم الجاهليون لأصنامهم المأكل والمشرب ، وكانوا قد علقوا على صنم ذي الخلصة القلائد وبيض النعام ، وقدموا له الحنطة والشعير واللبن أيضاً ، ليشرب منه كما يزعمون ، كما أنهم ذبحوا له القرابين .

فهم يعتقدون أن فى الصنم روحاً ، وأن فى مقدوره التلذذ بهذه النذور [١] .

كان النذر شائعاً فى الجاهلية ، وكانوا يرون ضرورة الوفاء بهذه النذور على أنواعها المختلفة .

وفى شعر أهل الجاهلية ، ما يفيد شدة تمسكهم بالوفاء بالنذور ، والصدق فى القسم.

نرى ذلك فى وصية عبد قيس بن خفاف لابنه ، إذ أوصاه بتقوى الله والوفاءبالنذر ، كما أنه حثه على الاستثناء فى قسمه عند المجادلة، أو يخرج من يمينه بما يحللها له قال[٢] : الله فاتق وأوف بنذره: وإذا حلفت ممارياً فتحلل

---

١ - تاريخ العرب قبل الإسلام : د. جواد على ، ٦/١٨٦-١٨٩ .

٢ - الشعر والشعراء لابن قتيبة : ١/١٦٥ .

ومن ذلك ماجرى لامرىء القيس بعد مقتل والده، إذ حلف ألا يذهب دمه باطلاً، ثم نذر الا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ، ولا يصيب امرأة حتى يدرك ثأر أبيه وقال فى ذلك [١] .

والله لا يذهب شيخي باطلاً　　　حتى أبيد مالكا وكاهلاً

القاتلين الملك الحلاحلا　　　خيرَ معدٍ حسباً ونائلاً

وعندما ثأر لأبيه من قبيلة أسد ، ورأى أنه قد برّ بقسمه ووفى بنذره قال :

حلتْ لى الخمرُ وكنت امرءاً　　　عن شربها فى شغُل شاغلِ

فاليومَ أسقى غير مستحقبٍ　　　إثماً من الله ولا واغلِ

وأهل الجاهلية رغم هذه النذور التى كانوا يوجبونها على أنفسهم ، كانوا يرون الوجوب بوفائها ، وقد أيدّ الإسلام ذلك .

ففى الصحيح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، سأل النبى ﷺ ، قال : [كنت نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة فى المسجد الحرام ، قال ﷺ : «أوف بنذرك »[٣]] .

وكانت القرابين : [٤]

تؤلف جزءاً مهماً من عبادة الأمم القديمة بل تكاد تكون هي العلامة الفارقة عندهم للدين، الرجل المتدين فى عرفهم هو الذى يتذكر آلهته، ويضعها نصب عينيه دائماً ، وذلك بتقديم القرابين لها .

كانت القرابين والنذور وزيارة المعابد والحج من أبرز الشعائر الدينية عند سواد الناس، وتكاد تكون مفهوم الدين لديهم ، ذلك لما فيها من تماس مباشر بأمور حياتهم ومصالحهم الدنيوية .

---

١ - ديوان امرىء القيس : ص ١٣٤ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار المعارف بمصر ، والقصة فى الأغانى : ٩/ ٨٧ .

٢ - ديوانه : ص ١٢٠ وما بعدها .

٣ - رواه البخارى ، انظر فتح البارى : ، ٨/ ٣٤ ، المكتبة السلفية / القاهرة .

٤ - انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، ٦/ ١٨٦-١٨٩ .

فقد كـان أهل الجاهلية يقـفون بعد قضـاء مناسكهم ويقولون : «**اللهم ارزقنا إبلاً، اللهم ارزقنا غنمـاً** كانوا لا يسـألون ربهم إلا متاع الـدنيا ، وفى هؤلاء نزلت الآية الكريمة ﴿**فمن الناس من يقول:ربنا آتنا فى الدنيـا وماله فى الآخرة من خلاق**﴾ [سورة البقرة الآية ٢٠٠] [١] .

وهذه النظرة المادية السـاذجة هى التـى حملت عـوامهم على تهـديد آلهتـهم ، وإخـبارها أنهم سـيمـتنعون عـن تقديم أى نذر أو أداء أية زيارة لهـا ، إن لـم تمنّ عليهم، وتستجيب لمطالبهم [٢] .

وكان الجاهليـون يعظمون البيت بالدم ويتقـربون إلى أصنامهم بالذبائح ، يرون أن تعظيم البيت والصنم لا يكون إلا بالذبح ، وتقديم القرابين .

قال النابغة الذبيانى : [٣]

فـلا لعمْـرُ الذى مـسحت كـعبتـه

وما هُريق على الأنصـاب من جسد

فأهل الجاهلـية كانوا يريقون دم الضـحية على الأنصاب ، وهي مـوضوعه فى الكعبة عادة أو حولها، ثم يمسحون بدمائها الكعبة تقرباً .

ومن النذور والقرابين ما يكون حيوانـات حية ، تسمى باسم الأرباب ، وتحبس عليها، ومن ثم تترك حـرة طليقة لا يجوز مسها بسـوء ، ومن هذه الأنواع البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي .

وقد أشـير إليـها فى القـرآن الكريم ، قال تعـالى: ﴿**مـا جعل اللـه من بحيـرة ولاسـائبه ، ولا وصـيلة ولا حام ، ولكن الذين كـفـروا يفتـرون على الله الكذب ، وأكثرهـم لا يعقلون**﴾ [المائدة : ١٠٣].

---

١ - انظر تفسير الطبرى : ٢/ ١٧٤ .

٢ - جواد على : ٦/ ٣٤٥

٣ - ديوان النابغة : ص ٣٥ .

أما السائبة :

فهى الناقة المسيبة المخلاة ، يفعل ذلك أحدهم ببعض مواشيه فيحرم الانتفاع بها على نفسه .

وقد اختلف أهل التأويل فى صفات المسميات بهذه الأسماء ، وما السبب الذى كانت تفعل العرب ذلك من أجله .

ذلك أن الناقة إذا ولدت ثنتي عشرة إناثاً ، ليس فيها ذكر ، سُيبت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ، ولا يشرب لبنها إلا لضيف [1] .

وقد أخرج الإمام البخارى في صحيحه عن سعيد بن المسيب قال «السائبة التي كانوا يسمونها لآلهتهم ، فلا يحمل عليها شيء »[2] وقال شاعرهم :

وسائبة لله تنمى تشكُّراً

إنّ الله عافى عامراً ومجاشعاً

أما البحيرة :

وهى ابنة السائبة فكان مذهبهم منها ألا يجز وبرها، ولا يركب ظهرها، ولا يطعم الناس لحمها .

قال الشاعر (الجاهلي) :

محرّمةٌ لا يطعم الناس لحمها .

ولا نحن فى شىء كذاك البحائر[3]

وجاء فى تفسير الطبرى بعد الحديث عن السائبة قوله :

« فما نتجت بعد ذلك من أنثى شُق أذنها ، ثم خلي سبيلها مع أمها فى الإبل،

---

١ - تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن : محمد بن جرير الطبرى ، الطبعة الثالثة ، عام / ١٣٨٨ هـ ، مطبعة البابى الحلبى بمصر ، الجزء السابع / ص ٨٨ .

٢ - صحيح البخارى : كتاب بدء الخلق ، ٤/ ٢٢٣ / طبعة الشعب .

٣ - المحبر لابن حبيب : ص ٣٣٠ . .

فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف كما فعل بأمها ، فهى البحيرة ابنة السائبة»[1] .

وقد أخرج البخارى فى صحيحه عن سعيد بن المسيب قال : «البحيرة التى يمنع درّها الطواغيتُ ، ولا يحلبها أحد من الناس » [2] .

والوصيلة : هى الشاة إذا نتجت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن،ليس فيهن ذكر جعلت وصيلة ، قالوا : وصلت ، فكان ما ولدت بعد ذلك لذكورهم دون إناثهم، إلا أن يموت منها شىء ، فيشتركون فى أكله ، ذكورهم وإناثهم [3] .

أما الحامي : فهو الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر ، حُمى ظهره، ولم يركب ، ولم يُجزّ وبره ، ويخلى فى إبل صاحبه يضرب فيها ، لا ينتفع به بغير ذلك [4] .

وكان أول من سَنّ تلك العادات العجيبة للعرب فى الجاهلية ، هو عمرو بن لحيّ الخزاعي .

أخرج ، الإمام البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر بن لحى الخزاعى ، يجر قُصبهُ فى النار، وكان أول من سيب السوائب » [5] .

وفي رواية لمسلم : « أنه أول من غير دين اسماعيل ، وبحرّ البحيرة ، وسيب السائبة وحمى الحامي » .

---

١ - تفسير الطبرى : ٧/ ٨٨ .

٢ - صحيح البخارى : كتاب بدء الخلق ، باب قصة خزاعة ، ٤/ ٢٢٣ ، طبعة كتاب الشعب .

٣ - تفسير الطبرى : ٧/ ٨٨.

٤ - تفسير الطبرى : ٧/ ٨٨ .

٥ - صحيح البخارى : كتاب بدء الخلق ، ٤/ ٢٢٣ ، والقصب المعي وجمعه أقصاب وهى الأمعاء «اللسان : قصب».

وقد اعتقد الجاهليون فى تلك الأوابد ، وأغرقوا بها ، وظنوا أن فيها قرباناً إلى الله ، وتوقعوا لمن يخرج عنها سوء المصير ، فيقول شاعرهم : [1] .

عقرتم ناقة كانت لربي وسائبة فقوموا للعقاب

وكان من قرابينهم أيضاً : العتيرة ، وهي شاة كانوا يذبحونها في شهر رجب لآلهتهم [2] .

والفرع : وهو أول نتاج الإبل والغنم وكانوا يذبحونه لآلهتهم يتبركون بذلك[3] .

وربما قُدمت القرابين من الناس الأحياء ، ففى السيرة أن عبد المطلب جد الرسول ﷺ كان قد نذر : لئن ولد له عشرة من الولد حتى يمنعوه ، لينحرن أحدهم لله ، فلما تم له ذلك أخبرهم بنذره حتى وقع النذر على ابنه عبد الله .

وذلك بسبب ما لقيه من معارضة قريش له عند حفره زمزم [4] .

لقد أبطل الإسلام هذه المعتقدات الباطلة كلها ، « وجاء بالتوحيد الخالص، وبتحرير الناس من العبودية بعضهم لبعض ، ومن عبوديتهم لشتى الأرباب والآلهة . .

جاء ليحرر الضمير البشري من أوهام الوثنية وليرد إلى العقل البشرى كرامته، ويطلقه من ربقة الآلهة وطقوسها ، ومن ثم حارب الوثنية فى كل صورها وأشكالها.

قضى على هذه الخرافة المتمثلة في « هذه الصنوف من الأنعام التى كانوا يطلقونها لآلهتهم بشروط خاصة منتزعة من الأوهام المتراكمة فى ظلمات العقل والضمير « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » [5] .

---

١ - تفسير القرطبي : ٦/٣٣٦ .

٢-٣- اللسان : مادة (عتر - فرع)وانظر المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلي ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

٤ - السيرة النبوية لابن هشام : ١/١٥١ .

٥ - فى ظلال القرآن : سيد قطب رحمه الله ، جـ٢/ ٩٨٩ .

٢ - بيوت العبادة عند أهل الجاهلية :

عندما نسي العرب ملة إبراهيم عليه السلام ، شاعت الوثنية بينهم - كما عرفنا- حتى صارت عبادة الأصنام أشهر أديانهم وكانت قد امتلأت بها البيوت والمعابد، «وقد ازدحمت عند الكعبة حتى كانت على ما قيل فى جوف الكعبة وفى فنائها ثلاثمائة وستون صنماً »[١] .

أ - تقديس البيت الحرام :

وقد بقي للبيت الحرام فى نفوس الجاهليين العرب مكانة خاصة لا تضاهيها مكانة أى بيت آخر للعبادة ، وكان هذا التقديس منتشراً بين أغلب القبائل العربية ، ولم يكن فيها جميعها . . .

ومن هنا فقد كثر ذكر البيت الحرام فى أشعار الجاهليين وانتشر انتشاراً واسعاً، فهم يقسمون به ، ويمدحون القائمين عليه ويفخرون بما يقدمون له من كسوة ، أو هدي ، ويبكون لفراقه ، ويعترفون بحرمته ، ويحجون إليه ، ويطوفون به [٢].

فمن أمثله قسمهم بالبيت : قول زهير بن أبى سلمى [٣] .

فأقسمتُ بالبيت الذى طاف حوله

رجال بَنَوْه من قريش وجُرهم

وقول قيس بن الخطيم : [٤] .

واللهِ ذى المسجد الحرام وما جُلِّل من يُمنَةٍ لها خُنُفِ

أما مدحهم لسدنة البيت فمنه قول عمرو بن بياضة :

---

١ - فتح البارى شرح صحيح البخارى : ٨/ ١٥، ١٦ ، المكتبة السلفية القاهرة .

٢ - انظر المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى : (ص ٤٤ - ٦٠) .

٣ - ديوان زهير : ص ١٤ .

٤ - ديوان قيس بن الخطيم : تحقيق ناصر الدين الأسد « ومن يمنة : من اليمن - الخنف : ثياب من كتان وأحدها خنيف - اللسان : خنف » .

ولدناك ياشيبة المكرمات　　　ساقي زوار أهل الحَرم

فأكرم بشيبة بيت الإله　　　وأنت بنفسك بيتُ الكرم

فالشاعر يخاطب عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ « واسمه شيبة » وكان قد ولي السقاية والرفادة، فأقامها للناس وأقام لقومه ماكان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم [١] .

أما افتخار العرب بما كانوا يقدمون للبيت من هدي أو أكسية تقرباً منهم إلى الله سبحانه ، وتقديساً لبيته الحرام ، فهو كثير ، من ذلك قول أحد تبابعة اليمن: [٢]

فكسونا البيت الذى حرّم الله ملاء مُعضّداً وبروداً

وقول أبى قيس ، صفي بن الأسلت : [٣] .

نسوقُ الهدي ترسُفُ مذعناتٍ　　　مكشّفةً المناكب فى الجُلولِ

فذاك شاعر من ملوك اليمن يصيح من أقصى الجنوب مفتخراً بما قدمه قومه للبيت ، من ملاء وبرود يكسونه بها ، وهذا يهتف من يثرب ، مفتخراً بما كان قومه يسوقونه للبيت من القرابين . وهذا وذاك ، ما كانا ليفعلا ما فعلا ، ولا ليقولا ما قالا لولا حب البيت المتأصل فى النفوس وتقديسه المتمكن من القلوب[٤] .

أما هيامهم بالبيت الحرام : وبكاؤهم لفراقه فكثير . . .

يقول مضاض بن عمرو الجرهمى :

فسَحّت دموع العين تجري لبلدة

بها حَرمٌ أمْنٌ وفيها المشاعِرُ

---

١ - انظر السيرة النبوية لابن كثير : ١/١٢٧ .

٢ - المعارف لا بن قتيبة : ص ٦٣٥ ،

٣ - ديوان أبي قيس الأسلت ص ٨٨ ، دراسة وتحقيق . د. حسن باجودة «الجلول : جمع جُلّ وهو ما تلبسه الدابة تصان به / اللسان : جلل » .

٤ - المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى : محمد محمود صيام / ص ٤٧ .

حتى أنّ هذا الهيام بالحرم قد سلخ بهم إلى عبادة الأوثان وذلك: «أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن ، إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً له، وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمنا منهم بها وصبابة بالحرم وحباً له [١] .

وأما التفاف العرب حول الحرم : وبغضهم لكل من يناله بسوء

فإن قصة أصحاب الفيل خير الشواهد على ذلك .

يقول ابن كثير في تفسيره ، بعد أن وصف الكنيسة التي بناها أبرهة في صنعاء: « وعزم أبرهة الأشرم ، على أن يصرف حج العرب إليها ، كما يحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته ، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً » [٢] .

وكان قد انبرى أكثر من زعيم من زعماء القبائل العربية يقاتلون أبرهة الحبشي ويدفعونه عن البيت الحرام ، فقد انبرى له ذو نفر أحد زعماء العرب في اليمن بمن تبعه من أهل اليمن ، وانبرى له نفيل بن حبيب الخثعمي ومن ناصره من العرب .. رغم علمهم بقوة أبرهة وكثرة من معه من الحبش اللئام » [٣] .

ولقد قتلوا أبارغال دليل الحبشة إلى مكة. قال أمية بن أبي الصلت :

وهم قتلوا السبي أبا رغال　　　بنخلة حين إذ وسق الوضينا [٤] .

وقد تشبث عبد المطلب بن هاشم بأستار الكعبة ، يستنصر الله على أصحاب الفيل، أو يسأله أن يردهم عن بيته الحرام ،وهو يردد هذه الأبيات الممزوجة بالضراعة والخوف والرجاء .

---

١ - الأصنام : لابن الكلبي : ص ٦ .

٢ - تفسير ابن كثير : ٤/٥٤٩ .

٣ - ديوان أمية : ص ٥٠٩

٤ - السيرة لابن كثير : ١/٣٥ .

يقـول :

لاهـم إن العبـد يمنـــع　　رحله فامنع رحـــالك

لايغلــبنّ صليبُهـــــــم　　ومحالهُم غدْواً محَالَك

إن كنت تاركهم وقبلتنا　　فأمـــر مـــا بـــدالك

وكـانت العـرب تعظم الأشـهر الحـرم : وهي ذوالعـقدة وذو الحـجة والمحـرم ورجب، ويؤكد عمل العرب بهذا التحـريم ما ذكره الله تعالى في كتابه : **﴿إن عدة الشهـور عند الله اثنا عشـر شهراً في كـتاب الله ، يوم خلق السـماوات والأرض، منها أربعة حـرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفـسكم ، وقاتلوا المشركين كافة﴾** [سور براءة/ ٣٦].

وكان ذلك التحـريم سائداً بين العرب ، إلا ما كان من شـأن بعض القبائل من قضاعة قال الغوث بن مرّ المضري :

لا هُمّ إني تابـعٌ تبـاعَـة　　إنْ كان إثم فعلى قضاعة

ذلك أن الغرث بن مـر «هذا» ، كان يلي الإجازة للناس بالحج من عـرفة فكان إذا دفع بهم يقـول ذلك ،ويعني به أن يقع الإثم على قـضاعة التـي كانت خثـعم وطيء من قبائلـها يستحلون الأشهـر الحرم، وكانت العرب في الشـهر الحرام تأتي عكاظ ، وقد أمن بعضهم بعضاً وهم متقنعون كيلا يعرفوا » [(١)] .

ولما كان العـرب في الجاهلية أصـحاب حروب وغارات ، فـقد استـثقلوا توالي الأشهر الحرم المتواليات ، فكانوا ينسـأونها ، وذلك بأن يؤجلوا حرمة الشهر الذي يريدون الغزو فـيه إلى الشهر الذي يليـه ، وكان أول من نسأ الشهـور على العرب «القلَمّس » وهو حُذيفة بن عبد بن عدي وكان آخرهم أبو ثمامة «جنادة بن عوف» وعلى أبي ثمامة قام الإسلام .

وفي ذلك يقول عمير بن قيس من كنانة :

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير : ٢/ ٢٠٦ ، والمحبر لابن حبيب ص ٣١٩ .

لقد علمت معد أن قومي : كرامُ الناس أن لهمُ كراماً [1]
فــأىُّ الناس فاتونا بوتـر : وأىُّ الناس لم نُعْلِكْ لجاما
ألسنا الناسئين علـى معـدٍّ : شهور الحلِّ نجعلها حرامـا [2]

لقد تحولت العبادة إلى مجال اللعَب والتغيير والتبديل ، بل صار ذلك مجالاً للفخر والاعتزاز . .

وقد أبت أهواؤهم (وحب الزعامة) إلا أن تظهر ولو كان ذلك على حساب عقيدتهم آنذاك ، تلك التى كانوا يعتقدونها ، أو على حساب مقدساتهم لتصبح ألعوبة فى يد زعاماتهم .

ب - بيوت العبادة الأخرى :

اتخذ بعض العرب بيوتاً وكعبات لعبادة أصنامهم ، ووضعوا أصنامهم فى أجوافها ، واتخذ بعضهم صنماً لم يبن عليه بناء ، لعدم استطاعته ذلك، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره، مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب [3] .

وذُكر أن العرب كانت قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، تهدي إليها كما تهدي إلى الكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها وهى تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده » [4] .

وكانت الكعبة معروفة عند العرب خارج الحجاز ، وأن العرب عموماً كانوا يحجون إليها ويقدسونها .

---

١ - أى آباءً كراماً واخلاقاً كراماً .

٢ - البداية والنهاية : ٢/٢٠٦ - ٢٠٧ ، وسيرة ابن هشام : ١/٤٥ .

٣ - الأصنام : لابن الكلبي ، ص ٣٣ .

٤ - البداية والنهاية لابن كثير : ٢/١٩٢ .

ومن هذه البيوت الوثنية العزى واللات وذو الخلصة ورضاء ، وذو الكعَبات .

ذكر ابن كثير في تاريخه : « أن العزى كانت بنخلة وهي لقريش وبنى كنانه ، وكانت اللات لثقيف بالطائف ، ومناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل المدينة على ساحل البحر بقديد، وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة،ومن كان ببلادهم من العرب.. بتبالة ، وكان يقال له الكعبة اليمانية ... وكانت رئام بيتاً لحمير وأهل اليمن .. وكانت رضاء بيتاً لبنى ربيعة بن تميم ، وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب بن وائل ، ولإياد بسنداد » [1] .

وقد هدمت هذه البيوت كلها ، فعند ما جاء الإسلام جهز رسول الله ﷺ إلى كل بيت من هذه البيوت سرايا تخربه، وإلى تلك الأصنام من كسرها، حتى لم يبق لكعبته مايضاهيها، وعبد الله وحده لاشريك له [2] .

وكان بنجران بيت وثني كبير عرف بكعبة نجران ، وهو بناء بني على هيأة الكعبة ، وفي رواية تنسب لابن الكلبي ، أنها كانت قبة من أدم من ثلاث مئة جلد، وكان إذا جاء الخائف أمن، أو طالب حاجة قضيت ، أو مستر فد رُفد[3].

ومن المعابد الشهيرة فى الجاهلية « بيت الرب » كان بمدينة بطرا ... وقد خصص هذا البيت لعبادة الإله « ذي الشرى » الذى هو «رب البيت» هذا الاسم أطلقه النبط على إلههم .

وقد نصب فى هذا المعبد الصنم « ذو الشرى » على قاعدة مكسوة بالذهب فى بيت موشى بالذهب أيضاً ، وبالصور التى تمثل مشاهد القرابين المقدمة إليه ...

كان الناس يحجون إليه من مواضع بعيدة للتقرب إلى ذلك الإله ... وكان لهذا المعبد حج يقع فى اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول من كل عام[4] فيفد إليه الناس من أماكن بعيدة يجتمعون وينحرون، ويقضون الأيام المعينه ثم يعودون إلى ديارهم .

---

١ - البداية والنهاية لابن كثير : ٢/ ١٩٢-١٩٣ .
٢ - البداية والنهاية : ٢/ ١٩٣ .
٣ - تاج العروس : ٣/ ٥٥٦ « نجر » .
٤ - عيد الميلاد عند النصارى الشرقيين بهذا التاريخ من كل عام .

والظاهر أن هذه الكعبة لم تكن خاصة بأهل العربية النبطية ، إنما كانت محجة لغيرهم من العرب أيضاً [1] .

ولم تكن هذه المعابد مواضع عبادة وتقرب إلى الأصنام فحسب .

بل كانت مواضع استفسار عن المغيبات كذلك [2] : كان يقصدها أهل الحاجات لسؤال الآلهة عما عندهم من مشكلات ، أو عما سيخبئه لهم المستقبل من أمور، أو عن أعمال يريدون القيام بها.

مثل ذلك ما كان يحصل فى « بيت رئام »إذ كان الوثنيون يكلمون منه ، وينحرون عنده ، وما كانوا يسمعون فى بيت العزى من أصوات . وقد ذكر الجاحظ : «أنهم كانوا يسمعون فى الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة » ثم يقول: « وهذه فتنة لم يكن الله ليمتحن بها الأعراب ، وأشباه الأعراب من العوام وما أشك أنه كان للسدنة حيل وألطاف لمكان التكسب » [3] .

وكانت قريش والقبائل التى تحج إلى مكة تأتي إلى هبل لاستشارته فى قضايا تهمها فما يخرج فى القدح مما هو مكتوب يكون الجواب ، غير أن بعض الأجوبة قد يأتي على خلاف رغبة السائلين ، ولذلك كانوا يغرون الضارب على القداح بالضرب إلى أن يخرج القدح الذى فيه ما يشتهون .

وكان فى المعابد سقايا يستقى منها الماء للشرب وللتطهر ، وتلحق بها مذابح تذبح عليها القرابين ، وتلحق بالمعبد محارق تحرق فيها القرابين ، كما كان يحرق البخور، وللمباخر شأن كبير فى أداء الفروض فى المعابد .

وكان لهذه البيوت سدنة وحجبة وخدم ، يقومون بخدمة البيت ومافيه من أصنام[4].

---

(١) جواد علي : ٦/٤١٦ .

(٢) انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ٦/٤٠٩ - ٤٢٧ .

(٣) الحيوان : للجاحظ ، ٦/٢٠١ .

(٤) جواد علي : ٦/٤١٦-٤٢٧ (بإيجاز) .

القبور والمزارات :

أشار أهل الأخبـار إلى قبور اتخذت مزارات كـانت لرجال الدين ، أو لسادات قبائل يقـسم الناس بها ، أو يلوذون بصاحب القـبر ، ويحتمـون به ، كالذى كان من أمر ضريح « تميم بن مر » جـدبني تميم ،وكالذى ذكروه من أمر « اللات » من أنه كان رجلاً فى الأصل اتخذ قبره معبداً ثم تحول أمر الرجل إلى صنم [1] .

وقد نهـى الإسلام نهيـاً شديداً عن اتخـاذ القبـور مسـاجد، أو تعظيم القـبور وتجصيصها .

إلا أنّ تعظيم القبور والطواف حـول الأضرحة، عاد إلى المجتمعـات الإسلامية فى العصور المتأخرة مع الأسف الشديد .

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على : ٦/ ٤٨ .

المبحث الثانى

مفهوم العبادة فى الإسلام

تمهيد :

كانت العبادة فى مفهوم أهل الجاهلية ، تعني مظاهر من الطقوس تتمثل فى تقديم القرابين أو النذور للأصنام ، أو فى بيوت العبادة المنتشرة فى الجزيرة العربية، إضافة إلى بقية من الشعائر المشوهة المنحرفة ، وقد اختلط فيها الصحيح بالسقيم ، وبالخرافة والأسطورة .

وجاء الإسلام ليجتث هذه الانحرافات كلها ، ولينقل المسلم إلى آفاق التوحيد الخالص فى التوجه والعبادة ، في السلوك والتشريع ، فى العمل لخيري الدنيا والآخرة . . . .

جاء ليمحو كل أثر من آثار الشرك ، جاء ليربط العبادة بالإيمان الصادق ، والعقيدة السليمة ، جاء ليجعل العبادة شاملة لجميع نشاطات المسلم طوال حياته وجميع ساعات يومه وليلته .

وسوف نوجز الحديث عن هذه المعاني مركزين على :

١ - معنى العبادة فى الإسلام .

٢ - الارتباط الوثيق بين العبادة والإيمان .

٣ - أثر العبادة فى حياة المسلم ونشاطاته كلها :

أ - العمل الصالح .

ب - الخوف من الله وحده .

جـ - التوكل على الله جل وعلا .

د - الدعاء والتناصح .

هـ - التورع فى المطعم والمشرب .

و - أثر العبادة فى سلوك المسلم وأخلاقه .

١ - معنى العبادة :

العبادة : فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيماً لربه [١] .

ولغة : الذل ، والعبادة : الطاعة .

قال تعالى : ﴿**ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم**﴾ [سورة يس / ٦٠-٦١] .

قال البغوي : أن لا تعبدوا الشيطان « أي لا تطيعوا الشيطان في معصية الله »

معنى اعبدوني : أطيعوني ووحدوني [٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ، ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ [الأنعام / ١٢١].

ولعل تعريف ابن تيمية رحمه الله أشمل إذ يقول :

« العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة . فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث، وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء ، والذكر والقراءة، وامثال ذلك من العبادة .

وكذلك حب الله ورسوله وخشيه الله والإنابة إليه ، والإخلاص لدين الله ، والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضى بقضائه، والتوكل عليه والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه وأمثال ذلك هى العبادة لله .

وذلك أن العبادة لله هى الغاية المحبوبة له والمرضية له التى خلق لها. كما قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [٣] .

---

(١) التعريفات للجرجاني : ص ١٨٩ .

(٢) تفسير البغوي : جـ ٧ / ٢٣

(٣) سورة الذاريات: الآية (٥٦). .

فعبادة الله هى غاية الوجود الإنساني كله كما فهمتها الأجيال الأولى من الآية السابقة .

فقد كانت هذه الآية الكريمة تمثل فى حسهم معنى هائلاً جداً وعميقاً جداً ، وشاملاً لكل حياة الإنسان .

فالقرآن نزل بلغتهم ، وهم يدركون أسرار اللغة وبلاغتها ، فيدركون معنى الآية ، وأن غاية الوجود الإنساني كله محصورة في العبادة ، لا تتعداها إلى شيء غيرها على الإطلاق ومن ثم لم ينحصر مفهوم العبادة فى حسهم فى نطاق الشعائر التعبدية وحدها ، كما انحصر فى حس الأجيال المتأخرة التى جاءت بفهم للإسلام، غريب عن هذا الدين . . . (١) .

فمفهوم العبادة فى الإسلام يشمل حياة الإنسان كلها ، وهى تناسب طاقته ومجالات نشاطه الواسعة ، والأمانة التى يحملها وهى تتسع فى الوقت ذاته حتى تشمل وجوده كله وعمره كله ، من لحظة التكليف إلى لحظة الموت : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له** ﴾ [الأنعام / ١٦٢ : ١٦٣] وكانت الأجيال الأولى كما وصفها ربها ﴿ **يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم** ﴾ [آل عمران/ ١٩١] .

فالعمل بإخلاص كما أمر تعالى عبادة، وجميع مجالات العمل ابتداء بالعمل السياسي والاقتصادي ، والاجتماعي ، وانتهاء بشؤون الفرد الخاصة كلها عبادة ، مادامت النية خالصة لله تعالى ، ومادام المسلم متوجهاً به إلى الله تعالى ملتزماً فيه بما أمر جل وعلا . . حتى اللقمة يضعها في فيه يتقوى فيها على عبادة الله عبادة ، ومؤانسة أهله عبادة ، وجلب الرزق لعياله عبادة ، ما دام حلالاً طيباً ، ومن باب أولى فالجهاد عبادة (٢) .

---

(١) مفاهيم ينبغي أن تصحح : الأستاذ محمد قطب « مفهوم العبادة » ص ١٧٤ / ١٧٥ . طبعة دار الشروق الأولى / ١٤٠٨ هـ .

(٢) انظر : مفهوم العبادة من كتاب مفاهيم ينبغي أن تصحح ، (١٧٣-٢٥٣) ومفتاح دار السعادة لابن القيم : ٢/ ٣٨٦-٣٨٧ .

فقيمة الحياة الإنسانية ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله ، وحين يصبح كل نشاط فيها صغر أم كبر جزءاً من هذه العبادة أو كل العبادة » .

« والمسلم إذا توجه لمرضاة الله تعالى هو فى عبادة - يؤجر عليها لمراقبة الله عز وجل، وامتثاله لأوامره واستنفاذ طاقاته فى عمل ما يحبه جل وعلا »(١) .

هذا المفهوم الشامل للعبادة هو الذى نصت عليه الآيات وجاءت به الأحاديث ، وطبقه سلف هذه الأمة .

« فعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ! أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدنى عن النار قال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه:

تعبد الله لاتشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال له : ألا أدلك على أبواب الخير ؟

الصوم جنة ، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم تلا : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾حتى بلغ ﴿**يعلمون**﴾ ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت بلى يارسول الله . قال : رأس الأمر : الإسلام وعموده الصلاة ، وذروة سنامه : الجهاد ، ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت بلى ، يا رسول الله . فأخذ بلسانه ثم قال : كف (عليك) هذا ، قلت : «يا نبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال : على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم »(٢) .

هكذا يعلم رسول الله ﷺ أصحابه مفهوم العبادة فهو توحيد خالص لله تعالى، وشعائر تعبدية ، وصدقات ، ونوافل ، وجهاد فى سبيله تعالى وحفظ اللسان عن الزلات .

---

(١) فى ظلال القرآن : ٤/ ١٩٣٩ .

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، « انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٢٦٨ » .

بهـذا الشمـول فُهـمت العبـادة ، ومن أجل ذلك كانت مـجتـمعـات المسلمين مجتمعات الخير والفضيلة والاستقامة ، والحضارة الحقة طوال قرون خلت .

« وبهذا الشـمول جـاءت دعوة القرآن لتـجعل مـفهوم العـبادة بمعنى العـبودية والطاعة والتـأله ، كل ذلك خالصـاً لوجه الله تعـالى ، وأما حصـر معـاني كلمة «العبادة» في معنى بعينه ، فهو حصر لدعوة القرآن في معان ضيقة » [(١)] .

٢ - الارتباط الوثيق بين الإيمان والعبادة :

لقد ركز المنهج القرآني كثيراً على قضية العبادة ، لشدة ماكان قائماً في الجاهلية من انحراف في تلك القضـية ، ولاتصالها المباشـر بالعقيدة فحين تنحرف العـقيدة تنحرف العبادة بالضرورة ، وحين تـستقيم العقيدة فالمفروض أن تستقيم العبادة على وضعها الصحيح [(٢)] .

والأصل في العـبادات أنه لا حرام إلا مـا حرمـه الله ، ولادين إلا ما شـرعه الله .

فإن الله سبحانه عاب على المشـركين في سورتي الأنعام والأعراف أنهم حرموا مـالم يحرمــه الله ، وأنهم شــرعوا من الدين مــالم يأذن به الله . كـمـا قـال ابن عبـاس: (إذا أردت أن تعرف جهل الـعرب فاقـرأ من قوله) : ﴿ وجـعلوا لله ﴾ إلى ﴿مما ذرأ من الحرث والأنعام﴾ [(٣)] الآيـة ، وذلك أن اللـه ذم المشـركـين على ما ابتـدعوه من تحـريم الحرث والأنعـام ،وما ابتـدعوه من الشرك ، وذمـهـم على احتجاجهم على بدعهم بالقدر. قال تعالى :

﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ﴾ [(٤)(٥)] .

---

(١) المصطلحات الاربعة في القرآن : أبو الأعلى المودودي ص ٥٧٧ طبعة دار التراث العربي بمصر / ١٩٧٥م.

(٢) لا إله إلا الله : عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ص ٥٧ .

(٣) سورة الأنعام / ١٣٦ .

(٤) « الأنعام الآية : ١٤٨

(٥) الفتاوى لابن تيمية : جـ ٢٠ / ص ٣٥٧ .

والحقيقة أن العبادة الصحيحة دليل على صدق الإيمان :

« ذلك أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه لامحالة ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر » [1] .

قال تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون** ﴾ [البقرة / ١٧٧] .

وانشد بعض السلف مبيناً أهمية العمل الصالح فى حياة الإنسان [2] .

إنا لنفـــرح بـالأيـام نقطعهـا   وكل يوم مضى يدني من الأجل

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً   فإنما الربح والخسران فى العمـل

فما المقصود بالعمل ، ومتى يكون عبادة ؟!

قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حَياة طيبة، ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ [النحل / ٩٧].

جاء فى تفسير هذه الآية للشيخ الشنقيطى رحمه الله قوله :

« اعلم أولاً أن القرآن العظيم دل على أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور» :

الأول : موافقته لما جاء به النبى ﷺ ، لأن الله يقول : ﴿ **ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ .

الثانى : أن يكون خالصاً لله تعالى لأن الله تعالى يقول: ﴿ **وما أمروا إلا**

---

(١) الإيمان لابن تيميه / ص ١٩٢ .

(٢) جامع العلوم والحكم : لابن رجب ص ٣٨٣ .

ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ، فاعبدوا ماشئتم من دونه ﴾ .

الثالث : أن يكون مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة ، لأن الله يقول : **﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾** .

فقيد ذلك بالإيمان : ،ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح . وقد أوضح جل وعلا هذا المفهوم فى آيات كثيرة ، كقوله فى عمل غير المؤمن : **﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباء منثوراً ﴾** وقوله : **﴿ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون﴾** [1] .

ويقول ابن تيمية رحمه الله فى هذا المعنى : « لابد فى عبادة الله من أصلين : أحدهما إخلاص الدين لله ، والثانى موافقة أمره الذى بعث به رسله ، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » [2] .

- «فلو نفع العلم بلا عمل ، لما ذم الله أحبار أهل الكتاب» .

- ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذم الله المنافقين .

- «والعمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه»[3] .

والعمل يكون عبادة إذا كمل فيه شيئان : وهما كمال الحب مع كمال الذل. قال الله تعالى : **﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾** [4] .

وقال تعالى : **﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾** [المؤمنون / ٥٧] .

---

(١) أضواء البيان : جـ ٣ / ص ٣٥٣ .

(٢) الفتاوى : جـ ٣ / ص ١٢٤ .

(٣) الفوائد : لابن القيم ص ١٤٨ .

(٤) سورة البقرة / ١٦٥ .

وقد جمع الله تعالى بين ذلك فى قوله : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات، ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين ﴾ [الأنبياء / ٩٠] .

وعلامة ذلك أن يحب المرء ما يحبه الله تعالى ، ويبغض ما يسخطه فيمتثل أوامره، ويجتنب مناهيه ، ويوالى أولياءه ، ويعادي أعداءه ، ولذا كان أوثق عرى الإيمان الحب فى الله وا لبغض فى الله » [١] .

وقد قال من قال من السلف : [٢]

- من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق .

- ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء .

- ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري .

- ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد [٣] .

« فإذا عرف العبد أن الله ربه وخالقه ، وأنه مفتقر إليه محتاج إليه ، عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله . وهذا العبد يسأل ربه ، ويتضرع إليه ويتوكل عليه. لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه .

وقد يعبده مع ذلك ، وقد يعبد الشيطان والأصنام ، وكل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار ، ولا يصير بها الرجل مؤمناً ، كما قال تعالى: ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [يوسف / ١٠٦] .

فالمشركون كانوا يقرون أن الله خالقهم وهم يعبدون غيره . قال تعالى :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ [الزمر / ٣٨][٤].

---

(١) أعلام السنة المنشورة / ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) العبودية لابن تيمية ص ١٢٨ .

(٣) الزنديق : من يبطن الكفر ويظهر الإيمان مع الدس الخفي .

المرجئة : قوم يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفرطاعة .

الحرورية : فرقة من الخوارج ، خرجوا على علي رضى الله عنه بسبب التحكيم وحاربوه عند قرية حروراء فى العراق.

(٤) العبودية / ص ٤٨ .

وحول العبادة الحقة عند المؤمنين قال ابن القيم رحمه الله : [1]

وعبادة الرحمن غاية حبه   مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر   ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله   لا بالهوى والنفس والشيطان

فقيام دين الله بالإخلاص والإحسان إنهما له أصلان

والخلاصة في توحيد العبادة أنها لا تخرج عن ثلاثة معان هي :

١ - الحكم لله بلا شريك : ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ﴾ [يوسف / ٤٠] .

٢ - الولاية لله بلا شريك : ﴿ أغير الله أتخذ ولياً » أم اتخذوا من دون الله أولياء فالله هو الولي ﴾ ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾[المائدة / ٥٥] . والولاية أن تتولى الله سبحانه ، وتوالي فيه سبحانه وتعالى.

٣- النسك لله بلا شريك : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ [الأنعام / ١٦٢] .

والنسك حق خالص لله تعالى لا يقبل الشركة ، بخلاف الحكم ، فإن طاعة الرسول ، طاعة لله ، والحلال ما أحله الرسول والحرام ما حرمه ، بخلاف الولاية ، فإن ولاية المؤمنين في الله ولاية لله سبحانه وتعالى [2] .

وبذلك نلاحظ مدى الفرق الهائل بين عبادة العرب في الجاهلية ، وبين صفاء العبادة وإخلاصها لله وحده في الإسلام. هنالك الأولياء والشركاء ، والأحكام والنسك ، للشركاء والأنداد ، وهنا الحكم لله وحده ، والولاء لله خالصاً وكذا النسك وجميع الشعائر التعبدية .

---

(١) الكواشف الجلية / ص ١٧١ .

(٢) انظر : أصل الدين : للشيخ عبد المجيد الشاذلي / ص ٨٣ .

٣ - أثر العبادة فى سلوك المسلم وأخلاقه :

العبادة تنقي صاحبها من الأدران ،و تصفي سلوكه من الشوائب .

فعباد الرحمن يمشون على الأرض هوناً ، تواضعاً لله ، ويرتفعون فوق جواذب الأرض وشهواتها .

المسلم صادق العبادة ، يلتزم حدود ما شرع الله ، لا يخاف إلا إياه ، ولا يطأطيء رأسه إلا له سبحانه وتعالى . . . .

فهو متوكل عليه ، يتورع فى مطعمه ومشربه ، لا يأكل إلا حلالاً ، قلبه دائم الاتصال بربه ، فى الدعاء والاستغفار فالمؤمن حقاً هو العابد حقاً ، وهو الذى يقوم بالأعمال الصالحة ابتغاء وجه الله ، ويبتعد عن الشرور والآثام خشية عقابة **فالعمل الصالح** : «هو الإحسان ، وهو فعل الحسنات ، والحسنات هى ما أحبه الله ورسوله ، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب» .

فما كان من البدع فى الدين ، التى ليست فى الكتاب ولا فى صحيح السنة، فإنها ليست مشروعة ، وإن الله لا يحبها ولا رسوله فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح .

كما أن من يعمل ما لا يجوز من الأعمال ، كالفواحش والمظالم ليست من الحسنات ولا من العمل الصالح . . . .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » [١] .

المسلم يعبد ربه خوفاً من ربه ، وأملاً بثوابه . . .

والخوف من الله وحده:وهو أفضل مقامات الدين ، وأجلها ، وأجمع أنواع العبادة [٢] التى يجب إخلاصها لله تعالى: قال تعالى : ﴿ **وهم من خشيته مشفقون**﴾ .

---

(١) العبودية : ابن تيمية رحمه الله / ص ٧٥ .

(٢) سورة الأنبياء / ٢٨ .

وقال تعالى : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾(٣) .

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام : الخوف من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره ، « وهو ينافي التوحيد » والخوف من بعض الناس فيترك ما يجب عليه ، وهذا محرم وهو نوع من الشرك بالله ينافي كمال التوحيد ، والثالث : وهو الخوف الطبيعي كالخوف من عدو ، وسبع وهذا لا يذم (٤) .

والخوف من الله يدفع إلى الخضوع له وطاعته ، والبعد عن المعاصي وقد عاتب رجل بعض إخوانه على طول بكائه فبكى ثم قال (٥) :

بكيت على الذنوب لعظم جرمي وحق لكل من يعصي البكاء
ولو كان البكاء يردّ همي لأسعدت الدموعَ معاً دماءُ

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله لا يمل تكرار هذا البيت :

ولا خير في عيش امرىء لم يكن له
من الله في دار القرار نصيب

فالمسم يعبد الله تعالى ويعمر الأرض بما يحبه تعالى ، ونظره يتوجه دائماً نحو دار القرار ، وهناك المآل : إما نعيم وإما جحيم . . .

والتوكل على الله : من العبادة وحقيقة التوكل تتمثل في صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة.

والتوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدرات بها، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل.

---

(١) سورة النحل / ٥٠ .
(٢) الرحمن : ٤٦ .
(٣) المائدة / ٤٤ .
(٤) فتح المجيد : ص ٢٨١ .
(٥) مختصر شعب الإيمان / القزويني ، ص ١٣ / .

فالسعي فى الأسباب بالجـوارح طاعة، والتوكل بالقلب على الله، إيمان به. قال تعالى: ﴿واتقـوا الله، وعلى الله فليتـوكل المؤمنون﴾ [آل عمـران/ ١٦٠]. فجعل التوكل مع التقوى التى هى القيام بالأسباب المأمور بها، والتوكل وحده دون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محقق(١).

عن عمـر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون علـى الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطيـر تغدو خمـاصًا وتروح بطانًا»(٢).

أما الدعاء: فهو غاية التذلل له، والخضوع لـه، وفيه شعور بقدرته جل وعلا، وأنه هو وحـده الضـار والنافع ﴿وادعوه خـوفاً وطمـعًا، إن رحـمة الله قـريب من المحسنين﴾ [الأعراف/ ٥٦].

ومن الدعاء: الاستغفار فهو يطهر من الخطايا ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ [النسـاء/ ١١٠].

التورع فى المطعم والمشرب: المسلم يتحرى أن يكون طعامه حلالاً وعندما سئل سفيان الثوري عن الورع أنشد:

إني وجدت فلا تظنوا غيره ... هذا التورع عند هذا الدرهـم
فإذا قدرت عليه ثم تركتــه ... فاعلم بأن هناك تقوى المسلم

المكسب الحلال ، ثمرة العبادة والتورع...

وعن إبراهيم بن هشيم أنه استوصاه صـاحب له عند وداعه فقال: أوصيك أن **يكون عملك صالحاً وتأكل طيباً وأنشد:**

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمـة للبحوث العلمية والإفـتاء: ٢/ ٢٥٢. وانظر تفصيلاً لذلك: البـاب الثاني-فصل الإيمان بالقضاء والقدر.

(٢) شرح السنة: جـ١٤/ ٢٠١، وقال البغوي: هذا حديث حسن. والخماص: جمع خميص، والمخمصة الجوع.

ليس التـقي بمـتق لإلـهـه   حتى يطيـب شـرابه وطـعامه
ويطيب ما تحوي وتكسب كفه   ويكون في حسن الحديث كلامه
نطق النبي لنـا بـه عـن ربـه   فعلى النبـي صـلاته وسلامه(١)

التواصي بالخير: والمسلم يبتعد عن الشر ويلتزم الخـير، ويدعو غيره إلى الابتعاد عن كل محـرم، ويتواصى معـهم على العمل الطيب الصالح وذلك من صـفة هذه الأمة. قال تعالى: **﴿كنتم خيـر أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعـروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾** [آل عمران/ ١١٠].

وعن تميم الداري قال، قال رسول الله ﷺ:

«الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصـيحة. لله ولكتابه ولنبيه، ولأئمة المسلمين وعامتهم»(٢).

قال: أبوسليمان الخطابي: النصيحة كلمة جامعة، يعبر بها عن جملة، هي إرادة الخيـر، وليس يمكن أن يعبـر عن هذا المعنى بكلمة واحدة تحـصرها وتجـمع معناها غيرها...(٣).

فـالأخلاق جـزء أصيل من هـذا الدين، ينبع نبعـاً مـباشـراً من الإيمان بالله، ويمارس المؤمن أخلاقه عبادة لله، فلن تكون أموراً هامشية في حياته، ولا في حسه ولا خارجة عن نطاق العبادة(٤).

وحين يكون العمل عبادة فلن يدخله الغش ولا الخـيانة، ولاالكذب ولا الخديعة ولا الظلم، ولا ارتكاب المحرمات، من أجل الكسب أو التسلط أو المتاع(٥).

والارتباط الوثيق بين العـبادة والأخلاق: من أبرز السمـات الأخلاقية للمـجتمع

---

(١) مختصر شعب الإيمان للقزويني/ ص٥٦.
(٢) حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم في باب الإيمان. انظر شرح السنة جـ١٣/ ص٩٣.
(٣) انظر تفصيلاً لشرح الحديث: شرح السنة، جـ١٣/ ص٩٣-٩٦/
(٤-٥) مفاهيم ينبغي أن تصحح: الأستاذ محمد قطب ص١٢٠، ٩٢١.

المسلم، إذ أن العبادة تزكي نفس صاحبها، وتوجه سلوكه توجيهاً متورعاً عن المحرمات فالصلاة مثلاً تنهى عن الفحشاء والمنكر أو هكذا ينبغي أن تكون.

قال تعالى: **﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾**[1] والصيام جُنّة يمتنع فيها المسلم عن الطعام والشراب إلى جانب التقوى وانطلاقة الروح. قال ﷺ «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه»[2].

وقل مثل هذا فى سائر الشعائر والعبادات، وقد لا تنفع المرء صلاة ولا زكاة أو صيام يوم القيامة، إن كان من المفسدين والمعتدين على الناس[3].

سأل الرسول ﷺ أصحابه فقال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: المفلس من أمتي مَنْ يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح فى النار»[4].

وعندما انحسر مفهوم العبادة، وحصرت فى الشعائر فقط، أخرجت الأخلاق تدريجياً من العبادة.

فصار مألوفاً أن يخرج الرجل من الصلاة فى المسجد، ثم يغشّ المسلمين، بينما يقول رسول الله ﷺ «من غشنا فليس منا»[5].

وأصبح مألوفاً أن يخرج الرجل من الصلاة، وقد خان الأمانة التى أؤتمن عليها، ثم أخلف الوعد الذى أعطاه[6].

بينما يقول تعالى: **﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾**[7].

---

(١) العنكبوت/ ٤٥.

(٢) رواه البخاري وأبو داود والترمذى/ ينظر شرح السنة: ٦/ ٢٧٣.

(٣) انظر كتابنا: أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام (ص٢٩٥-٣٠٠).

(٤-٥) رواه الإمام مسلم.

(٦) مفاهيم ينبغي أن تصحح: ص٢٢٠.

(٧) سورة العنكبوت: الآية/ ٤٥.

الفصل الثاني

شعائر العبادة

المبحث الأول: الصلاة

١ - مفهوم الصلاة عند أهل الجاهلية .

٢ - الصــلاة ركن من أركان الإسلام.

المبحث الثاني: مناسك الحج :

١ - مناسك الحج عند العرب قبل الإسلام.

٢ - منـاسـك الحـج فـي الإســلام.

المبحث الثالث:شعائر أخرى:

١ - الصوم في الجاهلية والإسلام.

٢ - الزكاة في الجاهلية والإسلام.

المبحث الأول

الصلاة فى الجاهلية والإسلام

عرف العرب بعض شعائر العبادة، كالصلاة والحج، كما عرفوا شيئاً عن الصيام والزكاة... إلا أن هذه العبادات كانت مشوبة بالشرك وبشعائر الوثنية بأشكالها المختلفة.

لقد تقرب الجاهليون إلى أصنامهم بالسجود لها حيناً أو بالطواف حولها، وبالصلاة حسب مفاهيمهم عنها، ولعل الصلاة هي بعض ما تبقى من هذه العبادة فى ديانة إبراهيم عليه السلام. وكانت مناسك الحج أكثر وضوحاً، وأقرب إلى ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وكانت الأخبار قليلة ونادرة فيما يخص الصوم والزكاة.

هذه الشعائر ذات الأصول السماوية، كانت قد اختلطت بمظاهر الشرك والوثنية، حتى إذا جاء الإسلام اجتث رواسب الجاهلية، وأقام الدين لله خالصاً.

وفى هذا الفصل سوف نتحدث عن شعائر العبادة لدى أهل الجاهلية ثم نتحدث عن مفهوم العبادة فى الإسلام، وكيف أنقذ الله به البشرية من دياجير الظلمة والوثنية.

١ - مفهوم الصلاة عند أهل الجاهلية:

عرف العرب ألواناً من الصلاة، تختلف عن الصلاة في الإسلام ولا شك.

فقد عبد بعضهم الشمس: واتخذوا لها صنماً بيده جوهر على لون النار، وكان له بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة.

كانوا يأتون بيت الصنم، ويصلون فيه ثلاث كرات في اليوم، ويأتيه أهل العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون إليه ويدعونه بما يريدون...

وهم إذا طلعت الشمس سجدوا لها، وإذا غربت، وإذا توسطت الفلك ولهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة، حيث تقع عبادتهم وسجودهم له.

ولذلك نهى النبي ﷺ، عن تحري الصلاة في هذه الأوقات قطعاً لمشابهة الكفار «ظاهراً أو سراً» لذريعة الشرك وعبادة الأصنام.

وقد أشار القرآن إلى سجود الناس للشمس والقمر: **﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾**[٢].

كما تحدثت الآيات الكريمة عن سجود أهل سبأ إلى الشمس: **﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم، فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾** [سورة النمل / ٢٢-٢٤].

وقد ورد النهي عن الصلاة في أوقات كهذه لما في ذلك من مشابهة لسجود الكفار، فقد جاء في الحديث الشريف أن **﴿الشمس تطلع بين قرني الشيطان، وتغرب بين قرني الشيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار﴾**[٣].

---

(١) بلوغ الأرب: ٢/ ٢١٥-٢١٦.

(٢) سورة فصلت: الآية/ ٣٧.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده: ٤/ ١١١، من حديث عمرو بن عتبة.

وقد ذكر اليعقوبي: «أن العـرب كانت إذا أرادت حج البيت الحرام، وقفت كل قبيلة عند صنمها، وصلوا عنده ثم لبوا»(١).

ويظهر أن الجاهليين كانت لهم صلاة، وإن فسرت بالدعاء عند علماء اللغة، فإن الدعاء من أعظم مـا فى الصلاة وكان فى صلاتهم سـجود وتسبيح، كـما ورد فى شعر أهل الجاهلية.

يقول الأعشى(٢):

يـراوح مـن صـلوات المليـك طَوْراً سجـوداً وطـوراً جُؤاراً

ويقول أيضا(٣):

وصل على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان واللهَ فاحمدا

وفى معنى الدعـاء يقول الأعشى مـخاطباً ابنتـه وقد أرسلت إليـه من يثنيه عن سفره، فأبى فلجأت إلى الدعاء له بالسلامة، وغـير بعيد أنها كانت تدعو لأبيها فى صلاتها عندما أراد السفر:

يقول الأعشى فى ذلك(٤):

تقول بنيتي وقد قرّبتُ مر تحـلا يا رب جنب أبي الأوصاب والوجعا

عليكِ مثلُ الذى صليت فاغتمضي يـومـاً فإن لجـنب المرء مضطجعاً

ومما ورد من شعر الجاهليين فى صلاتهم(٥):

تركتُ المـدام وعـزف القيـان وأدمنـتُ تصـليـةً وابتـهـالا

---

(١) جواد على: ٦/ ٣٣٧.

(٢) ديوان الأعشـى: ص١٠٣ تحقيق مـحمـد محـمد حـسن، طبعـة سابعـة، مؤسسـة الرسالة- بيـروت سنة ١٤٠٣هـ.

(٣)الديوان: ص١٨٧.

(٤) ديوان الأعشى: ص١٥١.

(٥) تاج العروس: ١/ ٢١٣.

هذا وقد تحولت صلاة القوم عند البيت الحرام مع مرور الزمن، إلى تصفير وتصفيق، ولم تبق كما تركهم عليها إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى في كتابه: **﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاءً وتصديةً، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾** [الأنفال/ ٣٥].

يقول ابن عباس رضى الله عنهما، فى معنى هذه الآية فيما نقله ابن كثير فى تفسيره: «كانت قريش تطوف بالبيت عراة، تصفر وتصفق، والمكاء الصفير، والتصدية التصفيق»[١].

وكان هنالك بقية من العرب، كانت لديهم صلاة، وإن لم تتضح كيفية الصلاة هذه، ونعني بهؤلاء الحنفاء قبل البعثة النبوية.

وفى الصحيح عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال، قال أبو ذر: «يا ابن أخي صليت سنتين قبل مبعث النبى ﷺ قال: قلت فأين كنت توجه؟ قال: حيث وجهني الله»[٢].

وكان زيد بن عمرو بن نفيل يتوجه فى صلاته إلى الكعبة ويقول[٣]:

عذت بما عاذ به إبراهيم ... مستقبل الكعبة وهو قائم
يقول أنفي لك عانٍ راغم ... مهما تجشمنى فإنى جَاشم

ثم يسجد.

وكان أبو قيس بن الأسلت قد دخل بيتاً له (فى الجاهلية) واتخذه مسجداً، لا يدخل عليه فيه حائض ولا جنب، وقال: أعبد إله إبراهيم، وكان قد فارق الأوثان وكرهها، حتى إذا قدم الرسول ﷺ أسلم وحسن إسلامه. وكان شيخاً كبيراً له أشعار حسان وهو الذى يقول:

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٠٦.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى: ١٦/ ٣٣.

(٣) الأغاني: ٣/ ١٢٤، والسيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٣٠. «جاشم: أى قائم بالأمر ومتكلفه على مشقته».

سبحوا لله شرْقَ كل صـــباحٍ   طلعتْ شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان جميـــعاً   ليـس مـا قال ربنا بضلال
يا بنيّ الأرحام لاتقطعوهـــا   وصلوها قصيرة من طوال
واتقوا الله فى ضعاف اليتامى   وبما يستحل غير الحـلال(١).

وروي أن رجلاً جاهلياً من قبيلة كلب، قال لأبيه(٢) :

أعُمُروإن هلكتَ وكنستُ حـياً   فإنى مكثرٌ لك من صلاتـي
واجعل نصف مالي لابن سلمى   حياتى إنْ حييت وفي مماتي

هذه صـور باهتـة من صلاة القـوم، لاشك أنهـا من بقـايا دين إبراهيم عليـه السلام.

وكان عند العرب ما يشبه صلاة الاستسقاء: «فقد كـان من عادة أهل مكة أنهم إذا أجـدبوا وقحطوا واشـتـدت بهم الحاجـة، خرج مـن كل بطن منهم رجل، ثم يغتـسلون بالماء ويتطيبون ثـم يلتمسـون الركن ويطوفون بالبيت العـتيق سبـعاً، ثم يرقون أبا قـبيس فيتـقدم رجل منهم يكون من خيارهم... فـيدعو الله، ويستـغيث طالباً الرحمة والغـوث بالمتوسلين إليه، ويذكرون أن عبدالمطلب كـان ممن استسقى لأهل مكة ولغيرهم مراراً»(٣).

وفى سيـرة ابن هشام أن أبـا طالب أشار فى قـصيدته اللامـية إلى أنهـم كانوا يستسقون ببركته عليه الصلاة والسلام وذلك فى قوله(٤):

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ثمال اليتامى عصمةٌ للأرامـل
يلوذ به الهُلافُ من آل هاشـم   فهم عنده فى رحمة وفواضِل

---

(١) البداية والنهاية: لابن كثير، جـ٣/ ص١٥٧.

(٢) للمحبر لابن حبيب: ص٣٢١.

(٣) السيرة الحلبية: علي برهان الدين الحلبى، طبعة الحلبى بمصر سنة ١٣٨٤هـ.

(٤) السيرة النبـوية: لابن هشام، ١/ ٢٧٦. « وثمال اليـتامى أى ملجأهم ومعينهم والقـائم بأمرهم. الهلاف: جمع هلوف، وهو العجوز المسن والمراد «الضعفاء والفقراء».

ومن شعائرهم في الجاهليـة أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة ويغسلون موتاهم. قال الأفوه الأودي:

ألا عـللاني واعـــلــما أنني غَرَر　　فما خلتُ يجديني الشقاق ولا الحذر
وما خلتُ يجديني أساتي إذا بدتْ　　مفاصل أوصالي وقد شخص البـصر
وجـاءوا بـــماء بـارد يغســلونـنــي　　فيـا لــك من غُــسْل سيتبعه غَبَــرَ[1].

وكانوا يكفنون مـوتاهم ويصلون عليـهم، وكـانت صـلاتهم إذا مـات الرجل وحمل على سـريره، يقوم وليُّه فـيذكر مـحاسنه ويثني عليـه، ثم يدفنه، ويقول: عليك رحمة الله»[2].

وتشيـر المصادر إلى أن أبا لـهب لما مات بالعـدسة[3] تركـه ابناه ليلتين أو ثلاثاً لايدفنانه، حتى أنتن في بيته.

وكانت قريش تتقي العدسة كما تتـقي الطاعون، تخشى عدواها، حتى قال لهما رجل من قريش: ويحكـما! ألا تستـحيان أن أباكـما قد أنتن في بيـته لا تغيـبانه: فقالا: نخشى هذه القرحة. قال: فانطلقا وأنا معكما، فما غسلوه إلا قذفاً بالماء عليه من بعيد لا يمسـونه، ثم احتملوه فدفنوه»[4].

ويُضـاف إلى ذلك ما عـرفوه من سنن الفطرة وكـانوا يطبـقونهـا على أنفسـهم كـالختـان والمضمـضة والاسـتنشاق والســواك، وحلق العـانة ونتف الإبط وتقليم الأظافر والاستنجاء[5].

---

(١) بلوغ الأرب: ٢/ ٢٨٧-٢٨٨، والطرائف الأدبية ص١٥.

(٢) المحبر لابن حبيب: ص٣٢١.

(٣) العدسة: بثرة تخرج في مواضع من الجسد، من جنس الطاعون تقتل صاحبها غالباً «النهاية في غريب الحديث لأبي السعادات ابن الأثير، تحقيق طاهر الزواوي ومحمود الطناحي، طبع المكتبة الإسلامية».

(٤) الأغاني: ٤/ ٢٠٥-٢٠٦، واللسان: «مادة عدس».

(٥) انظر تفصيلاً لذلك: الباب الأول «فصل ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام».

٢ - الصلاة ركن من أركان الإسلام

الصلاة في اللغة الدعاء، وفي الشريعة: عبارة عن أركان[١] مخصوصة وأذكار معلومة، بشرائط محصورة في أوقات مقدرة.

قال تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾[٢].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان» «متفق عليه».

قال الشوكاني: والحديث يدل على أن كمال الإسلام وتمامه بهذه الخمسة: فهو كبناء أقيم على خمسة أعمدة، وقطبها الذى يدور عليه الأركان هو الشهادة، وبقية شعب الإيمان كالأوتاد للبناء[٣].

وذكر البيهقي: أنه ليس في العبادات بعد الإيمان عبادة سماها الله إيماناً إلا الصلاة. قال تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾. أى صلاتكم [سورة البقرة/ ١٤٣].

وسمى رسول الله تركها كفراً، «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»[٤].

وللصلاة أهمية كبيرة في الإسلام، وثوابها عظيم، فكل من الجسم والعقل والقلب ممثل في الصلاة، وذلك لأن الصلاة ليست حركات رياضية ونظاماً رتيباً لا روح فيه ولاحياة، ولانظاماً عسكرياً لا إرادة فيه ولا اختيار، وإنما هو عمل يشترك فيه الجسم والعقل والقلب، ولكل منها نصيب غير منقوص، وكل فيها يمثل تمثيلاً حكيماً عادلاً.

---

(١) التعريفات للجرجاني: ص١٥٧.

(٢) سورة النساء/ ١٠٣.

(٣) نيل الأوطار، جـ١/ ٢٨٤.

(٤) رواه مسلم في الإيمان، وانظر مختصر شعب الإيمان/ ص٢٨-٢٩/

فللجسم قيام وركوع وسجود... وللسان تلاوة وتسبيح، وللعقل تفكر وتدبر وتفهم وتفقه. وللقلب خشوع ورقة... وقد أعطى الله تعالى فى كتابه المحكم كلاً نصيبه فقال:

﴿وقوموا لله قانتين﴾ [البقرة/ ٢٣٨].

وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾ [الحج/ ٧٧].

وكل ذلك من أعمال الجسد. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ [النساء/ ٤٣] فنص على أن الصلاة لابدأن تكون عن تعقل وشعور، وذلك من أعمال العقل(١).

وقد حثنا رسول الله ﷺ على التزود من الصلاة فعن جرير البجلي رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، ولا تضامون، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»(٢).

وعن أنس بن مالك قال: «فرضت على النبي الصلوات ليلة أسري به خمسين، ثم نقصت حتى جعلت خمساً، ثم نودي يا محمد! إنه لايبدل القول لدي، وإن لك بهذه الخمس خمسين»(٣).

حكمها وحكم تاركها:

من ترك الصلاة وهو بالغ عاقل، جاحداً لها أو غير جاحد، دعي إليها فى وقت كل صلاة، ثلاثة أيام، فإن صلى وإلا قتل(٤).

قال تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين... فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ [التوبة/ ٥].

---

(١) الأركان الأربعة: أبو الحسن الندوي، ص٣١.

(٢) أخرجه البخارى فى فضل صلاة العصر، ومسلم فى الصلاة وأبو داود «عون البارى : ٢/ ٢٦».

(٣) رواه أحمد والنسائى والترمذى وصححه. «نيل الأوطار جـ١/ ص٢٨٥».

(٤) المغني لابن قدامة: ٢/ ٤٤٢.

فأباح قتلهم، وشرط في تخلية سبيلهم التوبة، وهي الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فمن ترك الصلاة متعمداً لم يأت بشرط تخليته، وبقي على وجوب القتل.

وفي الحديث النبوي: «ومن ترك الصلاة متعمداً فقد برئت منه الذمة» وهذا يدل على إباحة قتله. وقال ﷺ «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة»(1).

والصلاة أول ما يحاسب عليه المرء يو م القيامة، لأنها مظهر الإسلام: **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون﴾** [البقرة/ ١٢٧].

وعن أنس عن رسول الله ﷺ: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح له سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله»(2).

فتارك الصلاة يفسد عمله ويحبط ثوابه.

«وقد اتفق المسلمون على أنه لا يجوز تأخير صلاة النهار إلى الليل ولا تأخير صلاة الليل إلى النهار، ولا لمسافر ولالمريض ولا غيرهما، لكن يجوز عند الحاجة أن يجمع المسلم بين صلاتي النهار، وهي الظهر والعصر في وقت إحداهما، ويجمع بين صلاتي الليل وهي المغرب والعشاء في وقت إحداهما، وذلك لمثل المسافر والمريض، وعند المطر، ونحو ذلك من الأعذار.

وقد أوجب الله على المسلمين أن يصلوا بحسب طاقتهم، كما قال تعالى: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾**(3).

---

(1) المغني: ٢/ ٤٤٣.

(2) رواه الطبراني في الأوسط، وهو صحيح. «ينظر صحيح الجامع الصغير جـ١/ ص٥٠٣».

(3) الفتاوى: جـ٣/ ٢٢٨، لابن تيمية رحمه الله.

أثر الصلاة فى حياة المسلم:

الصلاة صلة بين العبد وربه، يتخلص خلالها من جواذب الدنيا، ويسمو بروحه، ويتفرغ من مشاغل الحياة، ليعظم الله تعالى، ويجدد العبودية له جل وعلا، فتسكن نفسه بعد صلاة خاشعة، جاهد فيها شيطانه وأرغم أنفه، فازداد من الله قرباً، يأنس بذكر الله، ويذهب عنه كيد الشيطان.

«فمن الناحيتين النفسية والعضوية نجد أثر الصلاة فيهما واضحاً. ففيها شفاء من الأمراض، لأنها ليست مجرد ترديد آلي للطقوس، ولكنها ارتفاع لا يدركه العقل، إنها استغراق الشعور فى تأمل بعد أن يخترق عالمنا، ويسمو المصلي عليه ... لقد أهمل علماء الصحة والأطباء والمربون ورجال الاجتماع دراسة أثرالنشاط الروحي إهمالاً يكاد يكون تاماً» (١).

إن أعداءنا عرفوا أثر الصلاة فى تربية أطفالهم، فقال «والف والدو إيمرسون»: «ولم يحدث قط أن صلى إنسان دون أن يتعلم شيئاً ما، والحقيقة أن للصلاة أثرها ولو لم يكن هو الأثر الذى نرجوه ولهذا يجب أن يعود الأطفال منذ نعومة أظفارهم على قضاء لحظات قصيرة في الصمت والتأمل ، وفى الصلاة بوجه خاص»(٢).

وإذا وجد من لا تصلح نفسه بالصلاة، ولا تزكو علانيته رغم إطالته للصلاة، فما ذاك إلا لأنه افتقر إلى العقيدة السليمة، التى تدعوه إلى الاتباع وتنأى به عن الابتداع.

والواقع إن الصلاة رياضة الصالحين وزاد المؤمنين، كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

والصلاة عصمة للسلوك من الفحشاء والمنكر: **﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** [العنكبوت/٤٦].

---

(١) الإنسان ذلك المجهول: الكسيس كارليل، ص١٧١-١٧٣.

(٢) تأملات فى سلوك الإنسان: الكسس كارليل ص١١٩.

وهى مناجاة لله تعالى، تدل على إسلام المرء نفسه لربه فهى تمحو الخطايا وترفع الدرجات: **﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون،أولئك فى جنات مكرمون﴾** [المعارج/ ٣٤-٣٥].

وقال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»(١).

شروطها وكيفية أدائها:

لن نتحدث مفصلاً عن شروط الصلاة وأركانها، وكيفية أدائها صحيحة... لأن ذلك مفصل فى كتب الفقه الإسلامي.

وإنما يعنينا أن نقف وقفات عند بعض هذه الأمور بما يتناسب مع بحثنا.

فالإعلام عن وقت الصلاة يكون بالأذان، وهذه خاصة من خصائص هذه الأمة، يعلن عنها بالتكبير والشهادتين، وينادى إلى الصلاة والفلاح كل يوم خمس مرات.

«وقد ثبت عند البخارى ومسلم والترمذى، وقال: حسن صحيح، والنسائى من حديث عبدالله بن عمر قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون، فيتحينون الصلاة، وليس ينادى بها أحد، فتكلموا يوماً فى ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: اتخذوا قرناً مثل قرن اليهود. قال، فقال عمر: ألا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: يا بلال! قم فناد بالصلاة» .

وهذا أصح ما ورد في تبيين ابتداء وقت الأذان. (٢).

ومن شروطها الوضوء: فلا تصح الصلاة إلا به.

---

(١) متفق على صحته، أخرجه البخارى فى مواقيت الصلاة، ومسلم فى المساجد-شرح السنة: جـ٢/ ١٧٥-.

(٢) نيل الأوطار: جـ١/ ص٣١.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة، فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين،وإن كنتم جنباً فاطهروا، وإن كنتم مرضى أو على سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لامستم النساء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ [المائدة/ الآية٦].

فالوضوء يزداد العبد به من الله قرباً، وينشط للصلاة، . وتنظف الأعضاء من الأدران التى قد تعلق بها، ويتطهر من أدران الخطايا التى قد يكون ارتكبها.

«عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطرة من الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطرة من الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطرة من الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب»(١).

وعند الصلاة يستقبل المسلمون الكعبة المشرفة يولون وجوههم نحوها، استجابة لقوله تعالى: ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ [سورة البقرة/ ١٤٤].

وفى الاتجاه إلى القبلة توحيد لوجهة التلقي، وتوحيد قبلة جميع المسلمين ففي وجهة واحدة، تهفو فيها القلوب إلى الكعبة المشرفة.

ومن خصائص أمتنا المسلمة أن الصلاة تقع فى أي مكان غير نجس بينما نجد أن اليهود والنصارى لا تباح لهم الصلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، وقد جعل الله لنا الأرض مسجداً وطهوراً.

أما عن كيفية الصلاة: فهى كما بينها الرسول ﷺ فى حديثه: «صلوا كما

---

(١) رواه مالك ومسلم والترمذى، عند مالك والترمذى ذكر غسل الرجلين «الترغيب ولترهيب: جـ١/ ١٥١».

رأيتموني أصلي﴾(١). وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخل رجل فصلى ثم جاء فسلم على النبي فقال: ارجع صل فإنك لم تصل، فرجع فصلى كما صلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺفقال: ارجع فصل فإنك لم تصل، فرجع فصلى كما صلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فقال: ارجع فصل فإنك لم تصل/ ثلاثاً فقال: والذى بعثك بالحق، ما أحسن غيره فعلمني. فقال: إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم افعل ذلك فى الصلاة كلها» متفق عليه.

قال الشوكاني: والحديث يدل على وجوب الطمأنينة في جميع الأركان(٢).

صلاة الجماعة: وفيها تتآلف القلوب، وتتوحد كلمة المسلمين فى اجتماع دوري كل يوم خمس مرات، وتزول من قلوبهم الضغائن، وتأنس النفوس ببعضها، حيث تفرغت من هموم الدنيا وأثقالها، فلا غرابة أن يزداد ثوابها عن صلاة الفرد أضعافاً مضاعفة.

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»(٣).

والصلاة جماعة فيها الرابطة الروحية المتمثلة بين المصلي وبين ربه، وبينه وبين إمامه، وبين سائر المؤمنين، هذه الرابطة كثيراً ما تتمثل فى صورة مجسمة فى جماعة حاضرة نراها رأى العين، ونحس فيها تزاحم المناكب وتجاوب الأصوات، وتناسق الحركات والسكنات، حتى إذا غابت هذه الجماعة عن الأبصار، فإنها لن تغيب عن البصائر...

---

(١) رواه أحمد والبخارى فى صحيحه: نيل الأوطار، جـ٢/ ١٧٥.

(٢) نيل الأوطار: جـ٢/ ص٢٦٤-٢٦٦/.

(٣) رواه البخارى ومسلم، ومالك والترمذى والنسائى. انظر«الترغيب والترهيب: جـ١/ ص٢٦٠» ، والفذ: الفرد.

ليس فى المصلين من يقول اهدني، بل كلهم يقول: اهدنا الصراط المستقيم وليس فيهم من يقول: السلام علي بل كلهم يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

كذا ينبغى لكل مصل أن يعد نفسه عضواً في وفد الرحمن، لايناجي ربه بلسانه وحده، بل بلسان إخوانه المؤمنين الحاضرين منهم والغائبين»[1].

وفي صلاة الجماعة يتخفف المسلم من حب المال والشراء، فيترك تجارته سعياً لمرضاة الله، وتلبية لندائه: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ [النور/ ٣٧].

وفيها يجتمع شمل المسلمين، يتشاورون لما فيه صلاحهم، ودفع ما يسوؤهم.

ومن هنا كانت أهمية صلاة الجماعة، وأنه لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد، وأنها واجبة على المسلم إذا سمع النداء، ولا عذر لمقصر أو متقاعس، أما الضرورة فتقدر بقدرها.

كان المسلمون يفتقدون من تأخر عن صلاة الجماعة فيسألون عنه، لأنه لا يتخلف عنها إلاذو عذر من سفر أو مرض، فكانت وحدة الصف قائمة والتلاحم شائعاً، أين من ذلك مجتمعاتنا المعاصرة!

صلاة الجمعة: وهي موسم أسبوعي، فيها يجتمع المسلمون، ويخطب الإمام، ويتعلم المصلون أدب الاستماع فلا يصح أن يلغو المصلي أثناء الخطبة، ويدعو الإمام للمسلمين حاضرهم وغائبهم بالرحمة والمغفرة وخيري الدنيا والآخرة. وحضورها واجب على المسلمين: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ [الجمعة/ ١٠].

وليوم الجمعة فضيلة خاصة، فقد جاء فى الحديث الشريف الذى رواه أبو

---

(١) نظرات فى الإسلام: دراز/ ص٣٢-٣٣.

هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **﴿خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة. فيه خلق الله آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها﴾**[1].

ففى الجمعة يجتمع المسلم مع الصالحين، فتعم البركات، ويشعر الجميع بالألفة وصفاء النفوس.

وكذلك فى **صلاة العيدين**: فهى موسم عبادة سنوي، فيهما يتجمل المسلمون بأبهى الثياب والطيب، وفيها خطبة العيدين، وكل عيد يأتي فى خاتمة موسم عبادة. فعيد الفطر يأتي بعد شهر رمضان المبارك، وعيد الأضحى يأتي بعد وقوف عرفة، وفي تقديم الأضاحى قربى لله وذكرى فداء إسماعيل عليه السلام.

وعند وفاة المسلم، يسارع المسلمون للصلاة على جنازته، والدعاء له، فصلة الأخوة الإيمانية تدوم حتى بعد الموت.

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى. «انظر الترغيب والترهيب: جـ١/ ص٤٩١».

المبحث الثاني

مناسك الحج والعمرة

١ - مناسك الحج عند العرب فى العصر الجاهلي.

٢ - موقف الإسلام من هذه المناسك.

١ - مناسك الحج عند العرب فى الجاهلية:

المقصود بالحج عندهم هو الذهاب إلى الأماكن المقدسة فى أزمنة موقوتة للتقرب إلى الآلهة، وإلى صاحب ذلك المكان المقدس.

والحج بهذا المعنى معروف فى جميع الأديان تقريباً ،وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين[١].

ومناسك الحج عند العرب تعتبر من بقايا شعائر الحج فى ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكان أول ما شرع الحج فى دين إبراهيم عليه السلام، وذلك فى قوله تعالى: **﴿وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾** [سورة الحج:٢٧].

وقد ذكر السيوطى أن سعيد بن المسيب قال: «لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، أوحى الله إليه أن أذن فى الناس بالحج، فخرج فنادى فى الناس. يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه»[٢]. فصاح الناس: لبيك اللهم لبيك عملاً بذلك التنزيل واستجابة لهذا الأمر الجليل، وظل العرب يتوارثون الحج جيلاً بعد جيل.

غير أن القوم لطول الأمد مالت النفوس إلى الانحراف،وأدخلوا فى هذا الحج من البدع ما عكر صفاءه، فجاء الإسلام ليرد الناس إلى الصراط المستقيم ويعيد الحج إلى نقائه القديم[٣].

كان العرب فى الجاهلية يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون، وكانوا يهدون الهدايا، ويرمون الجمار ويحرمون الأشهر الحرم فلا يغزون، ولا يقاتلون فيها إلا طيئ وخثعم وبعض بنى الحارث بن كعب، فإنهم كانوا لا يحجون ولا يعتمرون، ولا يحرمون الأشهر الحرم ولا البلد الحرام»[٤].

---

(١) جواد على: ٦/ ٣٤٧.

(٢) الدر المثور للسيوطى: طبعة بيروت، وانظر تفسير القرطبى١٢/ ٣٨..

(٣) انظر: المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى: ص٧١٣ وما بعدها.

(٤) الملل والنحل: الشهرستانى، ص٥٨٩.

والعجيب أن موسم الحج فى الجاهلية كـان يتم فى شهر ذى الحجة من كل عام فكان لهم فيه يوم لعرفة، وآخر للنحر فى العاشر منه ويوم للتروية فى اليوم السابق لعرفة، وكان لهم إقامة بمنى وذلك قبل أن ينسأوا الشـهور بغرض اكتساب شهر فى كل عـامين أو ثلاثة،وهذا ما أشـارت إليـه الآية الكريمة: ﴿**إنما النسـيء زيادة فى الكفر**﴾ [التوبة: ٣٧][1]

كان الحج يبـدأ (عند أهل الجاهليـة) بإهلالهم عند أصنامهم ، إذ يبـدأون بها ويصلون عندها ويلبون [2] .

فإذا انتهوا من ذلك قدمـوا مكة ، فكان الأنصار يهلون من مناة فى معبده، أي أنهم كانوا يغادرون يثرب إلى معبد الصنم فيـقيمون عنده لمراقبه هلال ذي الحجة، فإذا أهلوا لبوا، ثم يسير من يسيرمنهم إلى مكة لحج البيت [3] .

التلبية : كان لكل قبيلة تلبـية ترتبط بأصنامها ، وباسمها تغـاير تلبية الآخرين ، وكانت مشوبة بالشرك ، إذ يشركون الله جل وعلا مع أصنامهم فيها .

وقد ذكرت بعض المصادر كثيراً من هذا التلبيات[4]:

من ذلك أن قبيلة قريش كانت إذا لبت وهللت قالت :

لبيـــك اللهـم لبيــك   لبيك لا شريك لك

إلا شريــك هـــولك   تملكــه ومــا ملــك

وكانت قبائل نزار تلبي بهذه التلبية كذلك .

وكان نسكها لصنم إساف .

وكانت تلبية مَنْ نسَكَ إلى صنم اللات : « لبيـك اللهم لبيك ، لبيك كفى بيتنا بنيّة ، ليس بمهجور ولا بلية لكنه من تربة زكية،أربابه من صالحي البرية» .

---

(١)انظر: الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة(٧٣-٧٥). د. يحيى شامي

(٢)تاريخ اليعقوبى : ١/ ٢٢٥ / أحمد بن أبى يعقوب اليعقوبى / دار صادر ودار بيروت سنة ١٣٧٩ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام : د. جواد على ، ٦/ ٣٥٤ .

(٤) انظر : المحبر / ٣١٣ - ٣١٥ ، تاريخ اليعقوبى / ١/ ٢٢٥ ، جواد على / ٦/ ٣٧٥ .

أما قبيلة عكّ ، فكانت إذا خرجوا حجاجاً ، قدموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم ، فكانا أمام ركبهم ، فيقولان :

نحن غرابا عكّ فتقول عك من بعدهما :

عكّ إليك عانيه،عبادُك اليمانية ، كيما نحج الثانيةَ

وكانت تلبية همدان :

لبيك ربّ همدان — من شاحط ومن دانْ

جئناك نبغي الإحسان — بكل حرف مذعان

نطوي إليك الغيطان — نأمُل فضل الغفران[1] .

وكانت تلبية بكر بن وائل :

لبيك حقاً حقاً — تعبداً ورقاً

جئناك للنصاحة — لم نأت للرقاحة [2] .

وقد أشار الطفيل الغنوى إلى تلبية الحجيج فى شعره فقال [3] :

وربّ التيِ أشرفْنَ فى كل مذنَبِ
سَواهمَ خوصاً فيِ السّريح المخدّم
يزرنَ إلالاً لا ينَحبّنْ غيره
بكل مُلبّ أشعثَ الرأسى مُحْرم

(١) الشاحط : البعيد ، والداني : القريب ، الحرف : الناقة الضامرة الصلبة ، الغيطان ، الأراضى الواسعة .

(٢) النصاحة : الإخلاص - الرقاحة : الكسب والتجارة .

(٣) ديوانه : ص ٧٣ ، ٧٤ ، تحقيق محمد عبد القادر احمد - دار الكتاب الجديد / بيروت سنة ١٩٦٨ م .

(٤) مذنب : يسيل مابين تلعتين سواهم : ضامرة - خوص : غائرة العيون السريح المخدّم : نعال الإبل التى تشدها السيور .

لا ينحبن غيره : لا يقصدن سواه ، والنحب : السير السريع

وعندما جاء الإسلام جعل التلبية منسجمة مع عقيدة التوحيد : « لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»[1].

وكان الجاهليون يطوفون بالبيت سبعة أشواط :

روى ابن كثير عن مجاهد رضى الله عنه قال : « وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون :

إن تغفر اللهم تغفر جمّاً   وأىُّ عبدٍ لك لا ألمّا[2].

وذكر محمد بن حبيب : أن طواف أهل الجاهلية بالبيت كان أسبوعاً ، وذكر أنهم كانوا يمسحون الحجر الأسود ، ويسعون بين الصفا والمروة [3] .

وكانوا يتمسحون بأركان البيت ، ذكر النابغة ذلك فى شعره [4] :

فلا لعمرُ الذى مسحتُ كعبته   وما هُريق على الأنصاب من جسد

ولا يكون تمسيح البيت إلا مع طوافه .

وأقسم زهير بن أبي سلمي بالبيت الذى يطوف الناس حوله [5] :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله: رجال بنوه من قريش وجرهم

وكان الناس في الطواف على نوعين : **الحمس والحلة** .

وإنما سموا الحمْس : لتشددهم في الدين . قال ابن اسحق :

« كانت قريش لما ابتدعوه في الدين قد سموا الحمس ، وهو الشدة في الدين والصلابة ، وذلك لأنهم عظموا الحرم تعظيماً زائداً ، بحيث التزموا بسببه أن لا يخرجوا منه ليلة عرفة .

(١) صحيح البخارى : كتاب الحج

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٨/١٣٧ والبيت لأمية بن أبى الصلت فى ديوانة ص ٤١٩ .

(٣) المحبر : ص ٣١٣ .

(٤) ديوان النابغة الذبيانى ص ٨٥ تحقيق محمد الطاهر بن عاشور

(٥) ديوان زهير بن أبى سلمى بشرح ثعلب : ص ١٤

وكانوا يقولــون : نحن أبناء الحرم وقطان بيت الله ، فكانوا لا يقفــون بعرفات مع علمهم أنها من مشاعر إبراهيم عليه السلام وكانوا لا يدخرون من اللبَن أقطاً ، ولاسمناً ولا يسلون شحماً وهم حرم . ولا يدخلون بيتا من شعر ، ولا يستظلون إن استظلوا إلا ببيت من أدم ، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم [1] .

وكانوا يمنعــون الحجاج والعمــار من الحلة ، ماداموا مــحرمين أن يأكلوا إلا من طعام قــريش ، ولا يطوفون إلا في ثياب قــريش ، فإن لم يجد أحــدهم ثوب أحد من الحمس، وهم قريش وما ولدوا ، ومن دخل مــعهم من كنانة وخزاعة ، طاف عــرياناً ، ولو كانت امــرأة فإن تكرم أحــد ممن يجــد ثوب أحمس فطاف في ثيــاب نفسه، فعليــه إذا فرغ من الطواف أن يلقيها ، فلا ينتــفع بها بعد ذلك . وليس له ولا لغيره أن يمسها ، وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللَّقى قال الشاعر :

كفى حزناً كري عليه كأنــه لقى بين أيدى الطائفين حريم [2] .

وجاء في طبــقات ابن سعد : أن الحــمس شرعوا لمن قــدم من الحاج أن يطوف بالبيت وعليه ثيابه مالم يذهبوا إلى عرفه ، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيــت إلا عراة أو في ثوبي أحمس ، وإن طاف في ثوبين لم يحل له أن يلبسهما » [3] .

ويقــال : إن العرب كــانت تطرح تلك الثيــاب بموضع الحطيم مــا طافت به من الثياب ، فيبقى حتى يتحطم بطول الزمان ، فسمى الموضع حطيماً » [4] .

ومن شعائر الحج والعمرة عند أهل الجاهلية السعي بين الصفا والمروة:

وكــان عليــهــمــا الصنمــان المــشــهــوران: إســاف ونائلة، وكــان الجــاهليــون يمسحونهما[5] .

---

(١) انظر البداية والنهاية : ٢/٣٠٥ ، والسيرة لابن هشام : ١/١٩٩-٢٠٣ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٢/٣٠٥ .

(٣) الطبقات : ١/٧٢ ، طبعة صادر .

(٤) لسان العرب : ١٢/١٣٩ « حطم » .

(٥) انظر مسند الإمام أحمد : ١/٣٩ .

غير أن السعي كان فيما يبدو ، لمن لم يهل لصنم معين فى حجه [1] .

أو على من لم يهلوا من عـند صنمهم ، كـما فـى حديث الأنصـار في حجـة الوداع، إذ كانوا يتحرجون من السعي بين الصفا والمروة ، لأنهم كانوا يهلون لمناة، حتى سألوا الرسول ﷺ عن تحرجهم ، فأمرهم بالسعي [2] .

وقد أشار أبو طالب إلى السعى فى قصيدته [3] .

وأشـواط بين المروتين إلى الصـفـا

ومـا فـيـهـمـا من صـورة و تماثُل

وكانوا يقفون بعرفة : فى التاسع من ذي الحجة ، إلا قريشاً فإنهم كانوا يقفون بالمزدلفة .

وقد أشار إلى ذلك قائلهم [4] .

أظنكم من أسرة قُمعيّة إذا نسكوا لا يشهدون المَعَّرفا

وكانوا يقـفون بعرفة حـتى تدنو الشمس للغروب ، وقد جـعل الإسلام النزول من عرفات بعد غروب الشمس مخالفاً ما كان عليه المشركون .

وكانوا « لا يـجيزون منهـا إلا إذا أجاز آل صـوفة من مـضر، وكـانت الإجازة للناس من عرفة فيهم ، وكان الناس لا يرمون الجمار حتى يرموا ، ولا ينفرون من منى حتى ينفروا » [5] .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن : القرطبى ، ٢/ ١٨٩ ، طـ دار الكتب - القاهرة .

(٢) انظر صحيح مسلم مع الشرح : (بيـان أن السعى بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به) ٩/ ٢٠ وما بعدها .

(٣) سيرة ابن هشام : ١/ ٢٧٤ .

(٤) شرح أشعار الهذليين : ٢/ ٦٣٨ تحقيق محمود شاكر طبعة المدنى فى القاهرة .

(٥) البداية والنهاية : ٢/ ٢٠٦ .

وفي ذلك يقول أوس بن تيم بن مغراء السعدي مفتخرا [١] .

ولا يريمون في التـعريف مـوقفـهم
حـتى يقـال أفـيضـوا آل صـوفـانا
مـسجـداً بناه لنـا قـد مـا أوائـلنا
وأورثوه طـوال الدهـر أخــرانا

ومن منا سكهم الوقـوف بمزدلفة : فبعد أن يقـفوا ليلتهم فيها ويجـتمع الحجاج من حـمس وحلة (فى جُمَع) أى مـزدلفة ، حـتى إذا طلعت الشمس تحـولوا إلى منى .

وكانت الإجـازة من مزدلفة فى قبـيلة (عدوان) حتى قام الإسـلام على آخرهم وهو أبو سيارة « عميلة بن خالد» .

كان يجـيز بالناس على أتان له عوراء ، مكث يدفع عليـها فى الموقف[٢] أربعين سنة، وكان يقول : (أشرق ثبير كيما نغير)وفيه يقول الشاعر [٣] :

نحن دفعنا عن أبي سيارة حتى أفاض مجرياً حماره

ويشير أبو طالب إلى حرمة مزدلفة ومنى بقوله :

وليـلة جَـمْعٍ والمـنازل من مـنى
وهل فوقـها من حـرمة ومنازل [٤]

وبعد رحيل الحجاج من مزدلفة ، كانوا يقصدون منى :

---

(١) الشعـرو الشعراء : ٢/ ٦٨٧ ، والسيرة لابن هشام : ١/ ١٢١ « والتعـريف : وقوفهم بعـرفة - يريمون: يبرحون» .

(٢) البداية والنهاية : ٢/ ٢٠٦ .

(٣) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنبارى ص ٢٥٧ ، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر طبعة ثانية .

(٤) سيرة ابن هشام ، ١/ ٢٧٤ .

وبها كانوا يؤدون كثيراً من مناسك حجهم ، كرمي الجمار ونحر الهدي، وحلق الرؤوس .

قال طرفة بن العبد (١)

حلفت بربّ الراقصات إلى منى   يبارين أيام المشاعر والنّهْضِ

أما الهدي : فقد كان أهل الجاهلية يعتنون به ، ويقلدونه بعلامة يعرف بها أنه هدي ، كان يُعلق في رقبته قلادة ، أو ما شابهها ، أو يقذعونها بالمياسم في موضع من بدنها .

يقول أبو قيس بن الأسلت: (٢) .

نسوق الهدي ترسف مزعنات   مكشفة المناكب في الجلول

أي أنهم يسوقون هديهم مُعْلمة بالجلول التي يلقونها عليها ، ولكنهم يبقون مناكبها مكشوفة .

وفي منى كانت تنحر الهدايا ، قال شاس بن عبده: (٣) .

حلفت بما ضمّ الحجيج إلى منى   وماشج من نحر الهدي المقلد

ويبدو أنهم كانوا ينحرون الذبائح على الأنصاب ، وعلى مقربة من الأصنام ، فتوزع على الحاضرين ، وقد تترك لكواسر الجو وضواري البر ، فلا يصد عنها إنسان ولا سبع (٤) .

وكان عبَدةُ ذي الخلَصة يذبحون عند صنمهم ، وكذلك كان من يقصد العزى ، يذبح عند شجرة هناك ، ثم يدعون ، كانوا يهدون إليها كما يهدون إلى الكعبة،

---

(١) ديوان طرفة : ص ١٧٠ ، طبعة دمشق ص ١٣٩٥ هـ .

يبارين : يعارض بعضهن ، والنهض فى العودة أو التنقل من محل لآخر خلال المشاعر .

(٢) ديوانه : ص ٨٨ تحقيق د. حسن باجودة .

« ومعنى : ترسف أى تمشى كالمقيدة ، الجلول : ما يجلل به الدابة ليحميها » .

(٣) شعراء النصرانية : ص ٥٠٩ .

(٤) جواد على : ٣٨٨/٦ .

ويطوفون بها وينحرون عندها ، مع اعترافهم بفضل الكعبة عليها لعلمهم أنها بيت أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده [1] .

وكان فيهم من لا يأكل من هديه وذبائحه، حتى رخص الإسلام بعد ذلك للمسلمين بقول تعالى: ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ .

أما حلق الشعر :

فكان الجاهليون لا يتركون ذلك ، وربما رأوا ألا يتم نسكهم إلا به ، والذي تدل عليه الروايات ، أن العرب كانوا لا يحلقون جميعاً في منى ، وإنما يفعله بعضهم (كقريش) ومن وافقها من الحمس ، أما غيرهم فكانوا يحلقون عند أصنامهم «كانت الأوس والخزرج إذا حجوا وقفوا مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم، حتى إذا نفروا أتوا صنمهم مناة فحلقوا رؤوسهم عنده ، وأقاموا عنده ، لا يرون حجهم تماماً إلا بذلك » [2] .

وكانت قبائل قضاعة ولخم وجذام ، تحج لصنم الأقيصر ، وتحلق عنده[3] .

وكان أهل الجاهلية يرمون الجمار في حجهم ، كما نطقت بذلك أخبارهم وأشعارهم .

فهذا شاعرهم يقسم بالأنصاب التي عند الجمار ، مع قسمه بربه فيقول : [4].

فأقسم بالذي قد كان ربي وأنصاب لدى الجمرات مُغْر

وكان الحجاج يذهبون لرمي الجمار ، ويتوافون عندها لرميها . قال شاعرهم : (حذيفة بن أنس الهذلي) [5] .

---

(١) بلوغ الأرب : ١/٣٤٦ .

(٢) الأصنام لابن الكلبي : ص ١٤ ، وانظر أدب الحنيفية : ص ٣٠٢ .

(٣) الأصنام لابن الكلبي : ص ٤٨ .

(٤) السيرة لابن هشام : ٢/٣٥ ، المغر : لون يميل إلى الحمرة .

(٥) لسان العرب : ٤/١٤٦-١٤٧ ، والمجمر : موضع رمي الحجار .

لأدركهم شعث النواصي كأنهم

سوابق حجّاج تُوافي المجمّرا

ويروى أنهم كانوا يحرمون البيع والشراء فى الحج ، وكانوا يرفعون أيديهم بالدعاء سائلين الله. وما كانوا يرتكبون شيئاً مما يحظر عليهم فى الحج ، كنتَف الشعر أو قص الأظافر أو حلق الراس [1] .

وقد أشار إلى ذلك أمية بن أبي الصلت بقوله [2] :

شاحِينَ آباطهم لم ينزعوا تفثاً

ولم يَسُلُّوا لهم قملاً وصئبانا

أخي القارىء :

هذا وصف لمشاعر الحج ، كما كانت تؤدى عند أهل الجاهلية ، وهي تشبه إلى حد كبير ما أقره الإسلام منها لأنها بقية دين إبراهيم عليه السلام .

إلا أن العرب مع طول العهد نسوا الدين الحنيف ، وبقيت مظاهر الحج هذه تختلط بكثير من الشوائب والشركيات ، حتى جاء الإسلام فأعاد مناسك الحج إلى ما كانت عليه صافية على ملة إبراهيم، كما سنلاحظ ذلك في المبحث التالي .

---

(١) أدب الحنيفية : حبيب بن حنش الزهرانى / ص ٣٠٤ .

(٢) ديوان أمية : ص ٥١٨ .

٢ - موقف الإسلام من مناسك الحج في الجاهلية :

الحج في الشرع : قصد لبيت الله تعالى ، بصفة مخصوصة في وقت مخصوص بشرائط مخصوصة [١] .

وهو ركن من أركان الإسلام . قال تعالى : ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ [آل عمران / ٩٦] .

فهو واجب على المستطيع مرة واحدة في العمر ، والاستطاعة هي أن يجد المسلم الزاد والراحلة ، دون أن يضطر إلى الاستدانة، أو يكون عالة على الناس الآخرين.

الحج استجابة لأمره تعالى وتلبية لنداء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ [سورة الحج : ٢٧ - ٢٨] .

فالحج نزهة الصالحين ، ورحلة المتقين ، هجروا مفاتن الدنيا وتوجهوا نحو البيت العتيق ، حيث أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة .

جاء الإسلام ليعيد إلى الحج صفاءه ونقاءه ، وهذه آيات بينات تحدد معالم الحج في الإسلام ، وتجتث رواسب الجاهلية قال تعالى : ﴿الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولي الألباب ، ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ، فإذا أفضتم من عرفات ، فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم ، وإن كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ، فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ، فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وماله في الآخرة من خلاق » «واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في

---

(١) التعريفات : الجرجاني ص ١١١ .

يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ [سورة البقرة : ١٩٧ - ٢٠٣].

« هكذا نجد في هذه الآيات كيف جعل الإسلام الحج فريضة إسلامية، وكيف خلعها من جذورها الجاهلية ، وربطها بعروة الإسلام وشدها إلى محوره ، وظللها بالتصورات الإسلامية ونقاها من الشوائب والرواسب . . . وهذه هى طريقة الإسلام في كل ما رأى أن يستبقيه من عادة أو شعيرة . . . . لم تعد هي التي كانت في الجاهلية ، إنما عادت قطعة جديدة متناسقة في الثوب الجديد . . ولم تعد تقليداً عربياً ، وإنما عادت عبادة إسلامية ، فالإسلام ، والإسلام وحده ، هو الذى يبقى وهو الذى يرعى»[(١)] .

ولقد وقف الإسلام من الشعائر المحرفة موقفاً حاسماً ، ورد الأمور إلى ما كانت عليه من ديانة التوحيد ، وشعائر الإسلام ، لقد حطم الإسلام البدع التى استحدثها الجاهليون فى مناسك الحج ، وسوف نوجز ذلك فيما يأتى :

١ - **الأشهر الحرم** : هي أربعة معروفة فى شرع الله منذ خلق الله السماوات والأرض : **﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم﴾** [التوبة : ٣٦] .

« وهي التى بينها النبى ﷺ بأنها ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، والعرب تقول ثلاثة سرد وواحد فرد »

« وإنما سماها حرماً لمعنين : أحدهما تحريم القتال فيها . . .

والثانى تعظيم انتهاك المحارم فيها بأشد من تعظيمه فى غيرها ، وتعظيم الطاعات فيها أيضاً » [(٢)] .

وقد كان العرب فى الجاهلية يعظمون تلك الأشهر الحرم وراثة عن أبويهم الكريمين عليهما السلام ، ويحرمون القتال فيها ، «حتى لو لقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجهُ» [(٣)] .

---

(١) فى ظلال القرآن : ١/ ٢٠٢ .

(٢) أحكام القرآن : الجصاص ، ٣/ ١١٠-١١١ ، دار الكتاب العربى - بيروت .

(٣) الكشاف للزمخشرى : ٢/ ١٨٨ .

غير أن القوم استكثروا توالي الأشهر الحرم الثلاثة وشق عليهم مكث ثلاثة أشهر متواليات من غير غزوة أو غارة ، فجاءوا القلمّس أحد بنى فقيم وكانوا أهل دين وتمسك بشرع إبراهيم عليه السلام فنسأ الشهور لهم [1] .

فكانوا إذا صارت لهم غارة في أحدها أخر واحرمته إلى الذى يليه، وهكذا اختل توازنها وتغيرت أسماؤها وأحل القوم منها ماحرم الله ، وحرموا ما أحل الله وبذلك افتخر شاعرهم .

ألسنا الناسئين على مَعَدٍ شهور الحِلّ نجعلُها حراما

حتى إذا أهلت السنة العاشرة للهجرة ، كان الزمان قد عاد إلى هيأته الأولى وعادت الأشهر إلى أماكنها الصحيحة ، ووقف النبى فى حجته الكريمة فى تلك السنة يعلن بقوله : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض» .

وأبطل الله النسيء وجعله كفراً **﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاما﴾** [التوبة : ٣٧] .

ومن تلك البدع التي كانت شائعة [2] وألغاها الإسلام ، وأعادلها صفاءها :

٢ - **التلبية فقد أعاد الإسلام إليها صفاءها** : أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : « كان المشركون يقولون لبيك لا شريك لك، فيقول رسول الله: ويلكم قدِ قدِ ،فيقولون: إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك[3] .

٣ - **ومن تلك البدع تحرج القوم** إذا أحرموا بالحج أن يدخلوا البيوت من أبوابها اعتقاداً أن ذلك إثم ، وأنه تفريط فى جنب الله ، فكانوا يتسورون البيوت من ظهورها ماداموا محرمين يظنون أن ذلك هو البر ، فأنزل تعالى : **﴿ وليس**

---

(١) انظر تفسير القرطبى : ٨/١٣٧ .

(٢) انظر : الأركان الأربعة لأبى الحسن الندوى ص ٢٨٧ - ٢٩٣ ، والقيم والمعتقدات فى الشعر الجاهلى محمد الشيخ محمود صيام ص ٧١٣-٧٣٢ .

(٣) صحيح مسلم : كتاب الحج ، باب التلبية . قد قد : أى كفاكم هذا الكلام واقتصرواعليه وكانت التلبية فى الإسلام كما عرفنا .

البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ [البقرة : ١٨٩] .

٤ - **كان أهل الجاهلية يذبحون الهدي** ويلطخون الكعبة بدمائه ظناً أن ذلك يقربهم إلى الله . قال مجاهد : أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح وتشريح اللحم منصوباً حول الكعبة ونضح الكعبة حواليها بالدم ، تقرباً إلى الله ، فنزلت هذه الآية : **﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم﴾** [الحج : ٣٧] .

٥ - **كانت قريش وحلفاؤها** ومن دان دينها -من الحمس - يقفون بالمزدلفة وهي من الحرم ، ولا يقفون مع الناس في عرفة .

فإذا أفاض الناس من عرفة ، أفاضوا هم من مزدلفة .

أخرج البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : «كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتي عرفات ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى : **﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾**»(١) .

وبذلك ألغى الإسلام مفاهيم القوم السقيمة وأمرهم أن يقفوا حيث يقف الناس، ليردهم إلى المساواة وإلى الاندماج الذى يلغى الفوارق المصطنعة بين الناس.

وكان لا يسمح للناس بالإفاضة من عرفة إلا إذا أشار بذلك آل صوفة من مضر، وفى ذلك يقول شاعرهم :

لا يبرح الناس ما حجوا مُعَرَّفهم   حتى يقال أجيزوا آل صوفانا

وكانت تلك الإفاضة تجري قبل غروب الشمس يوم عرفة ، كما كان دفع الناس

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير ، ٦/ ٣٤ من طبعة كتاب الشعب وانظر البغوى فى تفسيره : ١/ ٢٣٠ .

من مزدلفة يجري بعد طلوع الشمس يوم النحر. فلما جاء الإسلام جعل الإفاضة من عرفة بعد غروب الشمس، وجعل الدفع من مزدلفة قبل طلوعها، ولم يجعل ذلك لأحد من الناس دون أحد .

أخرج البخارى فى صحيحه عن عمرو بن ميمون قال «شهدت عمر رضي الله عنه صلى بجمع الصبح ، ثم وقف فقال : إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس . ويقولون : أشرق ثبير ، وأن النبي خالفهم ثم أفاض قبل أن تطلع الشمس » [1] .

٦ - **كان على الصفا والمروة صنمان** : إساف ونائلة ، وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة تعظيماً للصنمين ويتمسحون بهما فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام ، كان المسلمون يتحرجون من السعى بين الصفا والمروة لأجل الصنمين ، فأذن الله فيه وأخبر أنه من شعائر الله **﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾** [البقرة/ ١٥٨][2] .

وقد أخرج الإمام البخاري عن أم المؤمنين عائشة قالت : «إنما كان من أهل بمناة الطاغية التي بالمشلل، لا يطوفون بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى **﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فطاف رسول الله والمسلمون﴾** [3] .

٧ - **كان بعض الجاهليين يطوف بالبيت عرياناً** : يتحرجون من الطواف بثياب قد عصوا الله فيها ، وكانوا يصفرون ويصفقون قال تعالى : **﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾** [الأنفال : ٣٥] .

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الحج ، ٢٢/ ٢٤ من طبعة كتاب الشعب .

« ومعنى : أشرق أى ادخل فى الشروق ، يستعجلون بذلك طلوع الشمس حتى يفيضوا ، وبثير جبل معروف فى منى » .

(٢) انظر تفسير البغوى : ١/ ١٧٣ .

(٣) صحيح البخارى : كتاب التفسير : ٦/ ١٧٦ من طبعة كتاب الشعب .

وقال تعالى : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف / ٣١] وأمر النبي ألا يطوف بالبيت عريان، وأرسل بها إلى أبى بكر في الحجة التى أمّره عليها قبل حجة الوداع ، فبعث أبو بكر أبا هريرة في رهط من الصحابة، فنادوا في الناس يوم النحر « لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان »(١).

وقال ابن كثير فيما نقل عن ابن عباس « كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق، والمكاء الصفير والتصدية التصفيق »(٢) .

٨ - وكان بعضهم لا يرى الإقامة في منى أيام التشريق البتة

قال ابن الكلبي : « وكانت ربيعة إذا حجت فقضت المناسك ، ووقفت في المواقف، نفرت في النفر الأول ولم تقم في التشريق »(٣) .

ولعل في هذه الآية الكريمة : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ الرد الحاسم على هذه الفرية ، وجعل الإسلام الإقامة بمنى أيام التشريق منسكاً من مناسك الحج. وهى إقامة لتسبيح الله وتكبيره وتمجيده في تلك الأيام والليالي (٤)

٩ - كان المشركون لا يسألون الله تعالى في الحج إلا الدنيا يقولون: اللهم أعطنا غنماً وإبلاً وبقراً وعبيداً (٥) .

وصدق الله إذ يقول﴿**فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق**﴾ [البقرة: ٢٠٠].

لقد بكتهم القرآن على ذلك وامتدح القائلين : ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ [البقرة / ٢٠١] الإسلام يريد للإنسان أن يطلق من أسوار هذه الأرض فيعمل فيها وهو أكبر منها ، ويزاول الخلافة وهو متصل بالأفق الأعلى (٦) .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى : ٩/ ١١٥ - ١١٦ / .
(٢) تفسير ابن كثير : ٢/ ٣٠٦ ، دار المعرفة لبنان سنة ١٣٨٨ هـ .
(٣) كتاب الأصنام : ص ٧ .
(٤) المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى / ٧٢٨ .
(٥) تفسير البغوى : ١/ ٢٣١ .
(٦) فى ظلال القرآن / جـ ١ / ص ٢٠٢ .

وكـان المشركـون قد تأثمـوا من التجـارة في مـوسم الحج فأنزل الله تعـالى : ﴿وليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ يعني بالاتجار في مواسم الحج، فبين الإسلام جواز مزاولة التجارة بالنسبـة للحاج، وسماها القرآن ابتغاء من فضل الله، لأن الإنسـان لا يرزق نفـسه وإنما يبتـغي الرزق، وهو في حـالة عبـادة لله لاتتنافى مع عبادة الله فى الحج .

١٠ - **ومن بدع القـوم كـذلك تلك النذور البـاطلة** : التى: كان بعضـهم يثقل كاهله بها فى الحج ، كأن يحج ماشياً أو حافياً أو مصمتاً أو غير ذلك .

ففي حديث أنس رضي الله عنه ، فيما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه:

«أن النبي-ﷺ-رأى رجلاً يهادى بين ابنيه»فقال:

ما بال هذا قالوا : نذر أن يمشي . قال : إن الله عـن تعذيب هذا نفسه لغني. امره أن يركب » [١] .

وفى حديث قيس بن أبي حازم ، فيما أخرج البـخارى أيضاً فى صحيحه قال: «دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب ، فرآها لا تكلم فقال: مالها لا تكلم ؟ قالوا : حجت مصمته» .

قال لهـا : تكلمي فإن هذا لا يحل ، هذا من عـمل الجاهليـة ، فتكلمت» [٢] فأبطل الإسلام النذور الباطلة .

١١ - **وكانت العرب إذا فرغت مـن الحج وقفت عند البيت فذكـرت مفـاخر آبائها**: فأمرهم الله تعالى بذكره : ﴿ **فإذا قضيتم منا سككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً** ﴾ [البقرة / ٢٠٠] .

فأبطل الإسـلام المفاخرة بالآباء والأجداد ، وارتقى باهتـمامات القوم ، لـيذكر الجميع الله الواحد الأحد .

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الحج ، باب العمرة / ٣/ ٢٥/ من طبعة كتاب الشعب .

(٢) صحيح البخارى : باب أيام الجاهلية ، ٥/ ٥٢ / من طبعة كتاب الشعب

وهكذا فقد أعاد الإسلام إلى مناسك الحج صفاءها، وكان تخليداً لخصائص دين إبراهيم ، وتجديداً لدعوته وتعاليمه . «فمناسك الحج وما يحيط به من ذكريات ، وحوادث ، ومايتلبس به الحاج من التجرد عن المظاهر وما يأتي به من عمل ونسك من إحرام ووقوف وإفاضة ورجم وسعي وطواف ، هي تخليد لما اختص به إبراهيم عليه السلام من التوحيد . . . وإيثار لطاعة الله ومرضاته ، وتمرد على العادات والأعراف الزائفة ، وتجديد لذلك الإيمان القوي ، والحب العميق والإيثار الرفيع » (١) .

وعندما بعد العرب بالعبادة عن المقاصد والغايات التي أرادها الله تعالى، وانحرفوا عن الحنيفية السمحة جاء الإسلام فأعادهم إلى جادة الصواب، واستأصل ضلالات الجاهلية .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « الشيطان ترجمون ، وملة أبيكم إبراهيم تتبعون» (٢) .

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي إذ قال : « اعلم أنه ﷺ بعث بالملة الحنيفية لإقامة عوجها وإزالة تحريفها ، وإشاعة نورها، وذلك قوله تعالى : ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ . ولما كان الأمر على ذلك وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة ، وسننها مقررة ، إذ أن النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة ، فلا معنى لتغييرها وتبديلها ، بل الواجب تقريرها ، لأنها أطوع لنفوسهم، وأثبت عند الاحتجاج عليهم » (٣) .

والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، و«من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » (٤) .

---

(١) الأركان الأربعة : الندوى / ص ٢٥٧ - ٢٥٨ . .

(٢) الترغيب والترهيب : جـ ٢ / ص ٢٠٧ .

(٣) حجة الله البالغة : أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى ، جـ ٢ / ص ٥٦ .

(٤) رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجة والترمذى إلا أنه قال : غفر له ما تقدم من ذنبه » ومعنى الرفث: ما روجع به النساء ، ويراد به خطاب الرجل للمرأة » انظر الترغيب والترهيب : جـ٢ /١٦٣/ .

« لقد تحول الحج في الإسلام إلى عبادة عميقة الأثر في حياة المسلم ، إنه عبادة تشمل في طياتها كل العبادات - بتـركيز واضح على التوحيد بالذات - إنه خلوص وتجرد إلى الله ، تجردمن كل ما تتعلق به الـنفس فى الحياة الدنيا من أهل ومسكن وموطن ومـتاع ، تجـرد من ذلك كله إلى الله وحـده . . . تلبيـة وذكراً وتوجـهاً وصلاة ونسكاً وعبادة . . وفى حشر يذكر بيوم الحشر .

« أياماً معدودات » ولكنها فى حساب النفس حـدث هائل عميق . . تغيير كامل شامل يتوغل في النفس ويلقي عنها خبثها كله لتعود ، كأنما هي خلق آخر ».

« وفي أيامنا المعاصـره صار الحج فرصـة هائلة للحصـول على لقب : «الحاج» ولا حرج عليـه بعد ذلك أن يحلف اليـمين الغموس، إذا اقـتضت ذلك مـصلحة التجارة، أو أي نوع من التـعامل يقوم به، فضلاً عـما يقع في الحج ذاته من أمور يذهل لهـا العاقل، فـضلاً عن المسلم المـؤمن ، من تدافع بالمناكب، ومن حجـاج يدوسون فوق إخوان لهم في الإسلام حتى يزهقـوا أرواحهم غير مبالين، من أجل الانتهاء من الرجم بأيه صـورة أو الانتهاء من الطواف ! فضلاً عن جـهالة الجاهلين الذين يتركون أركاناً لايصح الحج إلا بها ، أو يرتكبون مخالفات صريحة دون فدية ولانسك . . لأنهم لا يعلمون » (١) .

لابد أن يربى المسلم منذ الصغر على المفاهيم الصحـيحة للعبادة، ولابد أن يعلم مقتضى العبادات كما جاء بهـا الإسلام . . وإلا فإن هذه الملايين ستبقي غثاء يطمع فيهم أعداؤهـم إلى أن يعودوا ، والله غالب على أمره .

---

(١) مفاهيم ينبغى أن تصحح : الأستاذ محمد قطب ، (ص ١٤٠ - ٢٤١ ، ٢٤٤) .

المبحث الثالث

شعائر أخرى : الصوم والزكاة

إن الأخبار الواردة بشأن الصوم والزكاة عند أهل الجاهلية تكاد تكون معدومة ونادرة « ذلك لأن الكفار لم يعظموا آلهتهم بالصيام ، وإن كانوا يعظمونها بصورة من صور الصلاة والسجود أو الصدقة والذكر وغير ذلك » (١) .

وعندما أشرق الإسلام بنوره ، جعل الصيام والزكاة ركنين أساسيين من أركان الإسلام .

الصوم : نكاد لا نجد للصوم ذكراً فى الكتابات الجاهلية حسب مفهوم الصوم عند المسلمين وأهل الكتاب .

إلا أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء ، وفى هذا اليوم كانوا يحتفلون ويعيّدون ويكسون الكعبة ، وكانوا إذا أصابهم قحط ثم رُفع عنهم ، صاموا شكراً لله وحمداً على إجابة دعوتهم (٢) .

وفي حديث السيدة عائشة رضي الله عنها فيما أخرجه البخارى فى صحيحه «كان عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية وكان النبي ﷺ يصومه ، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه ، فلما نزل رمضان ، كان من شاء صامه ، ومن شاء لا يصومه»(٣) .

وكان الصوم معروفاً لدى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، واختلفت سننهم فى الصوم.

«فكان نوح عليه السلام يصوم الدهر، وكان داوود عليه السلام يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان عيسى عليه السلام يصوم يوماً ويفطر يومين أو أياماً .

---

(١) مما قاله النووي رحمه الله فى شرح حديث : (للصائم فرحتان)

(٢) جواد علي : ٦/٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٣) صحيح البخارى : باب أيام الجاهلية ، ٥/٥١ من كتاب طبعة الشعب .

وكان النبي ﷺ فى خاصة نفسه يصوم حتى يقال لا يفطر ، ويفطر حتى يقال لا يصوم، ولم يكن يستكمل صيام شهر إلا رمضان .

وذلك أن الصيام ترياق والترياق لا يستعمل إلا بقدر المرض .

وكان قوم نوح عليه السلام شديدي الأمزجة، حتى روى عنهم ما روى، وكان داود عليه السلام ذا قوة ورزانة ، وهو قوله ﷺ : « كان لا يفرّ إذا لاقى » .

وكان عيسى عليه السلام ضعيفاً فى بدنه ، لا أهل له ولا مال، فاختار كل واحد ما يناسب الأحوال » (١) .

الصيام في الإسلام : حكمه وأثره فى حياة المسلم

الصوم فى اللغة : مطلق الإمساك .

وفى الشرع : إمساك مخصوص ، وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من الصبح إلى المغرب مع النية (٢) .

وصوم رمضان فرض معلوم من الدين بالضرورة.

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياماً معدودات ، فمن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٤].

«وإذا كانت هنالك أديان ونحل ترى في ألم الجسم مقصداً يطلب، وترى في الارتقاء بالطيبات عدواً يحارب ، فليس الإسلام كذلك . يقول سبحانه وتعالى : ﴿لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ [المائدة : ٨٧] ويقول : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة / ١٨٥] .

---

(١) حجة الله البالغة : جـ ٢ ص ٥٤ ، ولى الله الدهلوى . (الطبعة الأولى - دار التراث فى القاهرة / ١٣٥٥ هـ.

(٢) التعريفات للجرجانى : ص ١٧٨

فليس هدف الصوم هو هذا الألم البدني ، وإن كان ذلك قد يقع في طريقه.

إن الله جل وعلا حين قال : ﴿ **كتب عليكم الصيام** ﴾ لم يقل لعلكم تألمون . كما أنه لم يقل تصحون ، وإنما قال : ﴿**لعلكم تتقون** ﴾ [1] .

والصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما سلبته أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى. قال تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾[2]

فشهر رمضان شهر مبارك ، شهر المغفرة والفرقان .

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن الرسول ﷺ أنه قال : «أتاكم شهر رمضان، شهر مبارك، فرض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغل فيه مردة الشياطين ، وفيه ليلة هى خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم » [3] .

« فإذا جاء شهر رمضان ، أظل المجتمع المسلم جوٌ من الطهارة والنظافة والإيمان، جو من خشية الله وطاعة أحكامه، ومن دمائه الأخلاق وحسن الأعمال، إذ تكسد سوق المنكرات، ويعم انتشار الصدقة والخيرات، ويعتري الخجل من اقتراف المنكرات ، وتنشأ فى الأغنياء عاطفة المساعدة لإخوانهم الفقراء والمساكين » [4] .

شهر الصيام : فرصة للتوبه وردع النفس عن شهواتها ، شهر تدريب على تحمل الشدائد والامتناع عن تناول الطعام والشراب سنوياً خلال شهر الصوم .

شهر يُدرب فيه اللسان على ترك الغيبة والنميمة ، وعن الإساءة ، فالجوارح تحفظ عن المحرمات ، ويصبح هم المسلم ذكر الله وتلاوة كتابه الكريم .

---

(١) نظرات في الإسلام: دراز. ص٤٣-٤٤

(٢)زاد المعاد : ابن القيم ، جـ ١ / ١٥٤ .

(٣) رواه أحمد والنسائى والبيهقى / صحيح الجامع الصغير : ١/ ٧٢ / .

(٤) مبادىء الإسلام للمودودى : (ص ١٠٦ - ١٠٧)

في هذا الموسم « تغل مردة الشياطين » كما جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ :« كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي ، وأنا أجزي به . والصيام جُنَّة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله ، فليقل إني صائم ، إني صائم. والذي نفس محمد بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر ، فرح بفطره ، وإذا لقي ربه فرح بصومه»(١).

قال النووي في شرح الحديث : اختلف العلماء في معناه مع كون جميع الطاعات لله تعالى ، فقيل : سبب إضافته إلى الله تعالى أنه لم يعبد أحد غير الله به، فلم يعظم الكفار في عصر من الأعصار معبوداً لهم بالصيام ، وإن كانوا يعظمونه بصورة الصلاة والسجود والصدقة والذكر وغير ذلك .

وقيل : لأن الصوم بعيد عن الرياء لخفائه ، فإنه لي : أنا أعلم به وأنا الذي أحيط بنيات العبد وأعماله .

الصوم مدرسة أخلاقية كبرى ، ففيه تتهذب النفس وتسمو الأخلاق ، ويزكو القلب، تلحتم رابطة المؤمنين ، وتتوحد وجهتهم .

وفي هذه العبادة المشتركة زمالة في الجهاد ، ورفقه في مكافحة الشدائد .

لذلك كله استحق الصائمون الاختصاص بدخول الجنة من باب لهم هو الريان.
عن سهل بن سعد عن الرسول ﷺ أنه قال : « إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة » (٢) .

إلا أن بعض أدعياء الإسلام ، تساهلوا في هذه الفريضة، وربما هجروا الصوم مقلدين أهل الكفر ، يجاهر أحدهم بالإفطار والمسلمون صيام ، وقد تحميه أنظمة جاهلية باسم الحرية الشخصية .

---

(١) الترغيب والترهيب : جـ ٢ ص ٨٠ ، رواه البخاري واللفظ له ومسلم ومعنى : جنة أي وقاية وحصن من الوقوع في المعاصي ، الرفث : الأثام وكلام مضمحل يستقبح من ذكر الجماع ودواعية ، يصخب : يصيح خلوف فم الصائم : تغير رائحة الفم .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد : صحيح الجامع الصغير ، جـ ١ / ٤٢٩

وبعض الصائمين قد يحيى ليالي رمضان باللهو والسهرات الفارغة «فأصبح الصيام عندهم مجرد امتناع عن الطعام والشراب ساعات النهار ، مع نهم ضخم إلى الطعام بعد الإفطار ويصل إلى حد الإسراف ، كأنما هو شهر الطعام لاشهر الصوم

فضلاً عن (المسليات) في ليل الصيام ، من عكوف على المذياع أو التلفاز أو ما هو أعجب من ذلك وأسوأ . مما تنشره بعض الصحف في البلاد الإسلامية من إعلانات تقول : «إن الراقصة الفلانية تحيى ليالي رمضان !! » في المسرح الفلاني إلى ما بعد منتصف الليل ، ويعج المسرح (بالصائمين) الذين صاموا من قبل الرقص وبعده ، بلا حرج في صدورهم ولا تأثم ، ولا إحساس بالتناقض بين ما يجري في الليل وما يجرى في النهار »[1] .

وقد ينطبق على هؤلاء قوله ﷺ : « رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش »[2] .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فلا حاجة لله بتركه طعامه وشرابه »[3] .

بينما كان الصيام في حس الأجيال الأولى مهرجاناً هائلاً للعبادة والتقرب إلى الله بالطاعات ، كان موسماً يستعدون له نفسياً وروحياً ، كان عبادة شاملة تطهر النفس من أدران كثيرة تترسب في النفس في معتاد حياة الإنسان، فيخرج عنها حين يغير نظام حياته ، ويدخل في نظام جديد للحياة[4] .

الزكـاة :

لم تعرف هذه العبارة عند أهل الجاهلية ولذلك لم ترد الأخبار بذكرها، إلا ما أشار به أمية بن أبي الصلت في قوله :[5] .

---

(١) مفاهيم ينبغى أن تصحح : الأستاذ محمد قطب ص ٢٤٣ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة .

(٣) أخرجه البخارى .

(٤) مفاهيم ينبغى أن تصحح : ص ٢٣٦ .

(٥) ديوان أمية بن أبي الصلت : ص ٣٤٥ ، تحقيق السطلى طبعة دمشق سنة ١٩٧٤ م

المطعـــمـون الطعـام فـى السنة الأز

مـــة والفـــاعلـون للزكَـــوات

والزكوات مـفردها الزكاة ، وهي بلاشك ليـست الزكاة المعروفـة في الإسلام، وإنما هي الصدقة وإطعام الطعام

والزكاة في اللغة : الزيادة .

وفى الشـرع: عـبارة عن إيجـاب طائفـة من المال فى مـال مخـصـوص لمالك مخصوص[1] .

قال تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ ، والزكاة في الإسلام ركن من أركانه الخمسة .

وقد توعد الله مـا نعي الزكاة بقوله : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفـضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فـذوقوا ماكنتم تكنزون**﴾ [التوبة / ٣٤ / ٣٥] .

فالمال مال الله ، استخلف فيه رب المال ، فـإن أدى حقه بأن وضعه حيث أمر الله بعيداً عن السرف أو الشح فقد فاز ونجا وزكت نفسه وزادت بركة ماله .

«فالزكاة : زكاة للنفس والمال معاً ، وطهر للحياة كلها ، حسها ومعنويها سواء، فهي ليست (ضريبة) تؤدى للدولة ولكنها قربة تقدم إلى الله» .

قال تعالى: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم بها وتزكيهم بها** ﴾[التوبة / ١٠٣].

والتطهر الذي تشير إليه الآية الكريمة ، ليس هو التطهر من الشح وحده ، وهو المعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن ، ولكنه تطهير السعي كله فى مناكب الأرض من أن يدخله الحرام، أو يُتوجه فيه بالحرام .

---

(١) التعريفات للجرجانى : ص ١٥٢ .

والإنسان الصالح الذي يهدف الإسلام إلى تنشئته ليقوم بدور الخلافة في الأرض، لابد أن يستعلي على شهوة المال من ناحية، ولابد أن يشعر برابطة الأخوة بينه وبين المؤمنين من ناحية أخرى ، أخوة توجب عليه كفالة العاجزين منهم وإعانتهم على توفير الحياة الكريمة التي يكفلها الإسلام لجميع الناس »(١).

والشحيح الذي لا يرق لحال المساكين ، يحرم من البركة التى تحصل من تطهر المال ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ ، ناهيك عن دعوات أصحاب الحاجة لمن ينفق فى سبيل الله ، وعلى البخيل الشحيح لمحق البركة وزوال النعمة لأنه لم يؤد حق الله فى المال ، فهو فى قلق وجزع دائمين قال تعالى : ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾ [المعارج/ ٢٠-٢٦]. لقد توعد الله تعالى مانعي الزكاة بالعذاب الأليم .

﴿ما سلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين﴾ [المدثر/ ٥] .

فسقر هي الجزاء العادل لتلك النفوس الشحيحة ، التي انعدم فيها الخير، فضنت بزكاة أموالها ، وما الزكاة إلا مال بسيط ، لا يجب في حاجات المرء الضرورية من أثاث المنزل، وما يشبه ذلك من الحاجات الخاصة كالسكن والفرش والسيارة وإنما تجب الزكاة في الفائض المدخر .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ليس على المسلم فى فرسه ولا في مملوكه صدقة » (٢) .

« وهديه ﷺ فى الزكاة أكمل هدي ، من حيث وقتها وقدرها ونصابها، ومن

---

(١) مفاهيم ينبغى أن تصحح : (ص ٢٣٧ - ٢٣٨) .

(٢) متفق على صحته : أخرجه البخارى فى الزكاة ومسلم فى الزكاة وأصحاب السنن وابن حبان وعبد الرزاق/ ينظر شرح السنة : جـ ٦ / ٢٢ .

تجب عليه ،وعلى من تصرف، وقد روعي فيها مصلحة أرباب الأموال، ومصلحة المساكين ، وجعلها الله طهرة للمال ولصاحبه ، وقيد النعمة به على الأغنياء ، فمازالت النعمة بالمال على من أدى الزكاة ، بل يحفظه عليه وينميه له ، ويدفع عنه بها الآفات ، ويجعلها حصناً له وحارساً له .

ثم إنه جعلها في أربعة أصناف من المال : وهى أكثر الأموال تداولاً بين الخلق، وحاجتهم إليها ضرورية .

أحدها : الزروع والثمار ، والثانية : بهيمة الأنعام ، الإبل والبقر والغنم ، والثالث: الجوهران اللذان بهما قوام العالم ، وهما الذهب والفضة . الرابع: أموال التجارة على اختلاف أنواعها .

ثم إنه أوجبها مرة كل عام ، وجعل حَوْل الزروع والثمار عند كمالها واستوائها، وهذا أعدل ما يكون، إذلو وجبت كل شهر أو كل جمعة ، لضر بأرباب الأموال ، ووجوبها فى العمر مرة يضر بالمساكين ، فلم يكن أعدل من وجوبها كل عام مرة » (1) .

والزكاة هى الحد الأدنى في أموال المسلم :

تعتبر الزكاة المشروعة في الإسلام الحد الأدنى للبر والمواساة في أموال المسلمين وثروتهم ، وفريضة لا يقبل الله عنها عدلاً ولا صرفاً ، وهذا الذي تطالب به الشريعة الإسلامية بكل جد وصرامة وتعتبره شرطاً للإسلام ، وشعاراً للمسلم ، وركناً من أركان الدين الأساسية ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين** ﴾ [التوبة / 11] .

والذى ينكرها ويمتنع عن أدائها عمداً وإصراراً ، يعتبر أنه خلع ربقة الإسلام وفارق المسلمين .

---

(1) زاد المعاد : لابن القيم ، جـ 1 / ص 147 .

وقد قاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ووافقه الصحابة فكان إجماعاً منهم[1] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده ، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر : كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه ، إلا بحقه وحسابه على الله .

فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق » [2] .

وقد نقل الإمام النووي كلاماً حسناً للخطابي فى أهل الردة نوجزه هنا لما فيه من فوائد قال :

إن أهل الردة كانوا صنفين : صنف ارتدوا عن الدين ، ونابذوا الملة وعادوا إلى الكفر ، وهم الذين عناهم أبو هريرة بقوله : « وكفر من كفر من العرب» . . فلم يكن يُسجد لله تعالى فى بسيط الأرض إلا فى ثلاثة مساجد : مسجد مكة، ومسجد المدينة ، ومسجد عبد القيس في البحرين ، فى قرية يقال لها (جواثا) وفى ذلك يقول الأعور الشني يفتخر شعراً :

والمسجد الثالث الشرقي كان لنا

والمنبران وفصل القول فى الخطب

---

(١) الأركان الأربعة : الندوي ص ١٥٧ .

(٢) رواه الإمام مسلم .

أيام لا منبـــر للناس تـعــرفـــه

إلا بطيبـة والمحجـوب ذى الحجب

وكان هؤلاء المتمـسكون بدينهم من الأزد محصورين بجـواثا، إلى أن فتح الله سبحانه على المسلمين اليمامة .

والصنف الآخر : هم الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة ، فأقروا بالصلاة وأنكروا فرض الزكاة ، ووجـوب أدائها إلى الإمام . وهؤلاء على الحقـيقة أهل بغي، ولم يدعوا بهذا الإسم آنذاك لدخولهم فى غمار أهل الردة .

وكان رأي أبي بكر رضى الله عنه ، أن الزكاة حق المال » [١] .

ومن المعلوم أن إخراج الزكاة للمستحقين يشيع المودة - في المجتمع الإسلامى، ويؤدى إلى اضمحلال الفقر والحاجـة، وقد شاع الغنى في المجتمع الإسلامي في العصور الزاهرة ، حتى أنه لم يوجد من يقبل أخذ الزكاة فى شمالي أفريقيا كلها، أيام الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله .

---

(١) انظر : شرح صحيح مسلم للنووي / جـ ١ / ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

الباب الرابع

وفيـــه فصلان

الفصـــل الأول : التشريع في الجاهلية والإسلام

الفصل الثاني : تغلغل الخرافات والأساطير فى المجتمع الجاهلى وموقف الإسلام منها

الفصل الأول

المبحث الأول:
التشريع عند أهل الجاهلية

يبدو أن العرب الذين عاشوا في ظل حكومات مستتبة في جنوب الجزيرة العربية، كانوا يخضعون لقوانين هذه الممالك وأحكامها ، مثل ممالك معين وسبأ وحمير .

وكذلك شأن العرب الذين عاشوا تحت حكم المناذرة والغساسنة ، فقد اقتبس هؤلاء بعض أنظمة جيرانهم من الفرس والروم .

أما وسط الجزيرة فقد كانت القبائل لا تخضع لحكومة منظمة ، وكانت الأحكام لديهم مختلطة ، من بقايا ديانة إبراهيم عليه السلام ، وما تواضعوا عليه من العادات والتقاليد وأعراف الآباء والأجداد .

لقد حرم بعض العرب على أنفسهم ألواناً من القبائح والمنكرات ، كالخمر والزنا ، وبعض المحرمات الأخرى ، واستحلها آخرون [1] .

وكانت لهم محارم يحرمونها على أنفسهم كالأمهات والأخوات والبنات وغيرهن، وكانت لهم أحكام في الزواج والطلاق والميراث [2] .

ويظهر أن العرف عند أهل الجاهلية هو الذى استقر في نفوسهم حتى صار في حكم الدين عندهم ، فلا يجوز لأحد أن يخرج عليه ، فهو الذي يعين الحرام والحلال (لديهم) والمباح والمحرم فقد كان أهل الجاهلية فى ربقة التقليد لا يحكمون لهم رأياً ولا يشغلون فكراً ، حكموا الهوى والتقليد ، فتاهوا فى أودية الجهالة قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لوكان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** ﴾[سورة البقرة : ١٧٠][3].

---

(١) انظر أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام .

(٢) انظر كتابنا : المرأة بين الجاهلية والإسلام .

(٣) انظر كتابنا : الحياة السياسية عند العرب « سيطرة العادات وتحكيم الهوى » .

وكانت أحكام رجال القبيلة (من رؤساء وسادة وحكام) هي منبع التشريع والإفتاء في أمر الدين ، وفي الحقوق بين أفراد القبيلة ، فما يلائم طبيعة القبائل ويناسب عقليتها ، وينبع من محيطها يكون ديناً ، فعلى القبائل إطاعته ، لأنه فى صالحها - كما يزعمون - ولأن فى مخالفته ضرراً بالغاً ، فصار من ثم فى درجة أحكام الشرع عندها (١) .

وقد شاع ذكر حكام العرب في جاهليتهم ، إذ « كان للعرب حكام ترجع إليها في أمورها ، وتتحاكم فى مناظراتها ومواريثها ومياهها ودمائها لأنه لم يكن عندهم دين يرجع إلى شرائعه ، فكانوا يحكمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسن والتجربة » (٢) .

التحليل والتحريم عند أهل الجاهلية :

كانت مفاهيم الحلال والحرام عند العرب الجاهليين : لاتسير على نسق واحد، لأنها فى الغالب تخضع للأعراف والتقاليد وآراء الرجال .

ولم يكن تنفيذ الأحكام الدينية إلزاماً . . . ثم إن العرب لم يكونوا على دين واحد يرجع إلى شرائعه ، فكان أمر إطاعة أحكام رجال الدين رهناً لمكانة رجل الدين، وبما له من هيبة ونفوذ بين قومه » (٣) .

وينطبق هذا على العرب الذين كانوا يخضعون لحكومات منظمة كان لرجال الدين فيها سطوة - كعرب الجنوب مثلاً ، وبعض العرب في المدن الكبرى كمكة والمدينة .

وكان يوجد في الجاهليين أناس لا يقيمون وزناً لحلال أو حرام ، كانوا يستحلون المظالم وسموا «المحلّون» ومن هؤلاء : قبائل من أسد وطيء وبني بكر ابن عبد مناة بن كنانة فهؤلاء لا يعرفون الحلال ولا الحرام ، وكانت الشهور والأيام عندهم سواء بسواء » .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على ، ٢٢٣/٦ ، ٢٢٥ .

(٢) المحبر لابن حبيب : ص ١٣٢ وما بعدها ، وبلوغ الأرب : الألوسى ٣٠٨/١ وما بعدها .

(٣) انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على ، ٢١٢/٦ و ٢٢٢/٦ ، و ٢٢٣/٦ / .

وكان من أهل الجاهليـة من ينكر ذلك ، وينصب نفسه لنـصرة المظلوم ، ومنع سفك الدماء ، وارتكاب المنكر ، وكان يسمى هؤلاء الذادة أو « المحرّمون »[1] .

وهم من بني تميم وقوم من هذيل وقوم من بـني شيبان ، كانوا يلبسون السلاح ويدفعون عن الناس .

الحلال والحرام بالنسبة إلى المطعومات :

لم تكن لـلجاهليين أحـكام في تحريم الطعـام أو إباحته ، بل كان مـرجع ذلك عندهم إلى عرف القـبائل ، فقد أباحوا أكل لحم الميتة والدم المسـفوح ، والمنخنقة والموقوذة ، كما أنهم كـانوا يأكلون الشاة المتردية والنطيحـة ، وقد أشار كتاب الله تعالى إلى بعض هذه الأطعمة التي حرمها الإسلام علينا .

قال تعالى : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخـنزير ، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحـة ، وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب، وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق** ﴾ [المائدة / ٣] .

تبين لنا هذه الآيات أن هناك من كان يأكل لحوم الميتة قال تعالى: «**وقالوا ما في بطون هـذه الأنعام خالـصة لذكورنـا ومحرم على أزواجـنا وإن يكن مـيتة فهـم فيه شركاء**» [الأنعام / ١٣٩] .

فحرم الله على المسلمين هـذه الأطعمة ، فقد حرم الميتة : وهي كل ما له نفس «دم سائلة من دواب البر وطيره مما أباح الله أكلها ، أهليها ووحشيها ، إذا فارقتها روحها بغير تزكية «لقد جعل المشركون أمر التحليل والتحريم للرجال ، مع الأدعاء بأن ما يـشرعه الرجال هـو الذي شرعه الله ، اسـتطردوا في الأوهام وقـالوا عن الأجنة التي في بطون الأنعام إنها خالصة للذكور منهم ، حين تنتج، ومحرمة على الإناث، إلا أن تكون ميتة فيـشارك فيها الذكور والإناث، هكذا بلا سبب ولا دليل ولا تعلـيل ، إلا أهواء الرجال الـذين يصوغـون منها دينـاً غامضاً ملـتبساً عـلى الأفهـام .

(١) انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على ، ٦/ ٢١٢ و ٦/ ٢٢٢ ، و ٦/ ٢٢٣ / .

ويهدد القرآن هؤلاء المغيرين لشرع الله ﴿سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم﴾[1] .

وكانوا يأكلون الدم المسفوح: وما أهل لغير الله به أي ما ذبح للآلهة والأوثان، ولا يسمى عليه اسم الله .

ومن المناسب أن نشير هنا إلى ما كان يفعله العرب من فصد الحيوان وشرب دمه، وذلك بأن يشق عرق البعير أو غيره فيسيل منه الدم ، فيأخذوه لضيفهم ، وأحياناً يضعون الدم في معي فيشوونه ويأكلونه، وكان فعلهم هذا في الأزمنة الشديدة ، وربما فعلوه ضرورة ويسمى ذلك «الفصيد»[2] .

وكان الأشراف وأجواد العرب يأنفون من ذلك ويذمونه فيروى عن حاتم الطائي، أن امرأة طلبت منه أن يفصد ناقتة فنحرها وقال : هكذا فصدي ، وقال في ذلك[3] .

كذلك فصدي إنْ سألتِ مطيتي
دمُ الجوفِ إذ كلٌّ الفصاد وخيمُ

كما أنهم أباحوا المنخنقة : فحرمها الإسلام ، عن قتادة قال : كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتت أكلوها .

والموقوذة : عن الضحاك : كانت الشاة أو غيرها من الأنعام تضرب بالخشب لآلهتهم حتى يقتلوها فيأكلوها .

وحرمت المتردية : وهي الميتة تردياً من جبل أو في بئر وغير ذلك ، وترديها رميها بنفسها من مكان عال مشرف .

---

(١) في ظلال القرآن : ٣/ ١٢٢١ .

(٢) انظر لسان العرب : «فصد» . هذا الفصيد الوخيم يعتبر قمة ، الرقي في أوربا حيث أنه أكلتهم المفضلة ، كما يسمونه « النقانق » .

(٣) ديوانه : ص ٢٢٨ .

وأكلوا النطيحة: وهي الشاة التي تنطحها أخرى فتموت من النطاح بغير تذكية.

وحرم الله على المؤمنين ما ذبح على الأوثان من الحجارة التي كان المشركون يقربونها إليها.

عن مجاهد قال: كان حول الكعبة حجارة، كان يذبح عليها أهل الجاهلية ويبدلونها إذا شاءوا بحجر هو أحب إليهم منها(١).

وكان أهل الجاهلية يحلون ويحرمون من الأنعام والثمرات حسب أهوائهم. قال تعالى في سورة الأنعام منددا بشركهم: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله،وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم، ساء ما يحكمون﴾ [الأنعام: ١٣٦].

لقد جعل المشركون للأوثان والأصنام مماخلق الله نصيباً من الحرث والأنعام وجعلوا لله نصيباً آخر.

كانوا إذا أدخلوا الطعام جعلوا منه سهماً لله،وسهماً لآلهتهم فإذا هبت الريح من نحو الذين جعلوه لآلهتهم إلى الذي جعلوه لله،ردوه إلى الذي جعلوه لآلهتهم،وإذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لله جل شأنه،إلى الذي جعلوه لآلهتهم أقروه ولم يردوه «رواه عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما».(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال: «وجعلوا لله من ثمراتهم ومالهم نصيباً، وللشيطان والأوثان نصيباً، فإن سقط من ثمر ما جعلوا لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن سقط مما جعلوه للشيطان في نصيب الله التقطوه وحفظوه وردوه إلى نصيب الشيطان.

فهذا ما جعلوا للحرث وسقي الماء، وأما ما جعلوا للشيطان من الأنعام فهو قول الله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾.

---

(١) انظر تفسير الطبرى فى هذه المحرمات: ٦/ ٦٨-٧٥ طبعة ثالثة. مطبعة البابي الحلبي.

(٢) انظر تفسير الطبرى: ٨/ ٤٠

فهم يحرمون هذه الأنعام، ويجعلونها للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونها لله، فقال تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾(١).

ويظهر أن العرب لم يكونوا على صورة واحدة في جوانب حياتهم ومعاشهم، ومن هنا حصل هذا التباين بينهم فى الأحكام والعادات.

فبعض العرب لم يكن يأكل الميتة، ولعل من عافوا أكل لحم الميتة أخذوا ذلك من حنيفية إبراهيم التي هي أصل دينهم، ثم بقيت عند بعضهم، ولعل الذي دفع بعضهم إلى أكلها الفقر والفاقة.(٢).

وقد ورد فى شعرهم ما يؤيد ذلك. قال حارثة بن أوس الكلبي:

لا آكل الميتة ما عمّرتْ نفسي وإن أبرح إملاقي(٣).

الجنايات عند العرب فى الجاهلية:

كانت الجنايات كثيرة عندهم، ابتداء من السرقة وقطع الطريق والنهب، وانتهاء بالقتل وإزهاق أرواح الآخرين ذلك أن الاعتداءات كانت كثيرة، ناهيك عن الغزو والسلب، وما يتبع ذلك من ثأر واستمرار العداوات.

أما السرقة: فقد دلت الأخبار على قطع يد مقترفها عند قريش خاصة، ولعل بعض العرب أخذ عن قريش ذلك، إلاأن عملهم هذا كان لا يخلو من المحاباة، فإذا كان الجاني شريفاً ذا جاه ومكانة تركوه، وإن كان ضعيفاً أقاموا عليه الحد.

ذكر ابن حبيب: «أن قبيلة قريش قطعت رجالاً في الجاهلية في السرقة. منهم وابصة بن خالد بن مخزوم، سرق فى الجاهلية فقطعت يده، وعوف بن عبيد بن مخزوم، قطع مراراً ثم سرق فرجم حتى مات، وكان يلقب درواساً.

ومنهم الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وعبيد الله بن عثمان... من تيم، قطع فى سرقة إبل... ومنهم مُليح بن شريح بن الحارث بن أسد.

---

(١) تفسير الطبرى: ٨/ ٤٠-٤١/ . طبعة البابى الحلبى.

(٢) أدب الحنيفية: حبيب بن حنش الزهرانى ص٣١٥.

(٣) المحبر لابن حبيب: ص٣٢٩. والبراح: الظهور والانكشاف «اللسان: برح».

وفي ذلك قال مالك بن عميلة بن السباق بن عبدالدار وهو يخاطب حُميدْ بن زهير بن عم مليح الأنف الذكر:

تمنى حُميْدٌ أنه كان حيضةً	ليالي بانتْ من مُليح أصابعه
ليالي بانت كفه وذراعه	فأصبح لا يدنو لِقرْنٍ ينازعه
ودرواس مخزوم تركنا مجدلاً	بما قدمت أظفاره وأشاجعه
فأمسى تليلاً للسباع تنوبه	تسيل دماً آرابه وكراسعه

وكان درواس قد قتل بسبب كثرة جناياته، وقطعت يد مليح بن شريح ويد مدرك بن عوف حين اشتركا في سرقة كنز الكعبة وحليها(١).

أما القتل: فقد كان كثيراً كثرة الغارات، ولم يكن هنالك من يقتص من المعتدي إلا قرابة المقتول متى تمكنوا من ذلك.

غير أن العرب مع ذلك كانت تحاول إرضاء قرابة الميت بدفع الدية، حتى يتركوا ثأرهم، وكان الأشراف يتوسطون في الصلح، إذ يحسبون القتلى من الطرفين، وتدفع ديات من زادت قتلاهم، وللصريح ديته، وللحليف ديته، وهي نصف دية الصريح(٢).

وكانت الدية تختلف باختلاف درجات القبائل ومنازل الناس، فكانت دية الملوك في الجاهلية ألفاً من الإبل، تليها ديات الأشراف وسادات القوم، كانت مائة للصريح، وخمسين للحليف، وقد تصل ديات المغمورين إلى عشر أو خمس من الإبل.

---

(١) المحبر لابن حبيب: ص٣٢٨ وما بعدها.

(٢) المحبر لابن حبيب: ص٣٢٨ وما بعدها.

معنى الكلمات الغريبة: الجدل: الصرع وهو مجدول ومجدّل (انظر اللسان: جدل). الأشاجع: عظام الأصابع أو عروقها. (انظر اللسان: شجع). تليلاً فهو متلول وتليل أى صُرع (اللسان: اتل)، الآراب: الأعضاء (ارب: اللسان) والكراسع: مفاصل الأطراف واحد كرسوع (اللسان: كرسع).

(٣) انظر الكامل لابن الأثير: ١/ ٤٠٢.

وكثيراً ما كان الأشراف والأجواد يتحملون دفع الديات عندما يسعون بالصلح بين المتخاصمين[1].

القسامة: وهي من القسم ويراد بها أن يقتل رجل ولا توجد بينة كاملة على ذلك، فيأتي أولياء المقتول فيدعون على رجل أنه قتله، ويدلون بلوث[2] من البينة غير كاملة، كأن يوجد القتيل في دار القاتل، وقد كان بينهما عداوة ظاهرة قبل ذلك، وعندها يستحلف أولياء القتيل خمسين يميناً أن فلاناً الذي ادعوا قتله انفرد بقتل صاحبهم، ما شركه في دمه أحد، فإذا حلفوا خمسين يميناً استحقوا دم قتيلهم، فإن أبوا أن يحلفوا مع اللوث الذى أدلوا حلف المدعى عليه وبرئ، وإن نكل المدعى عليه عن اليمين، خير ورثة القتيل بين قتله أو أخذ الدية من مال المدعى عليه[3].

وقد دلت المصادر على أخذ بعض الجاهليين بالقسامة، وأن رسول الله ﷺ أقر القسامة على ما كانت عليه فى الجاهلية[4].

وقد ورد فى الصحيح أنه كان قد حُكم بها فى الجاهلية، ذلك أن رجلاً من قريش استأجر أحد بني هاشم فى أحد أسفاره، فحذفه بعصا كان فيها أجله، فمر بالهاشمي رجل أوصاه بإبلاغ بنى هاشم خبره، فلما عاد القرشي زعم أن صاحبه مات فى سفرهم، فلما علم بنو هاشم بغدره أتوه لثأرهم وخيروه بين دفع مائة من الإبل، أو يحلف خمسون رجلاً من قومه أنه لم يقتله أو يقتلوه به، فحلف ثمانية وأربعون رجلاً، واستفدى الباقيان من الخمسين بإبل فقبلوا حلفهم، ثم كانت عاقبة الذين أقسموا أنه لم يحل عليهم الحول وفيهم عين تطرف[5].

---

(١) انظر: جواد على، ٤/ ٥٤٢، والحياة السياسية عند العرب. (الدعوة إلى نبذ الحرب والثأر) ص٥٩-ص٦٥).

(٢) اللوث: شبه الدلالة ولا يكون بينة تامة، مأخوذ من التلوث وهو التلطخ.

(٣) انظر لسان العرب: (قسم).

(٤) جامع الأصول من أحاديث الرسول: لابن الأثير، دار إحياء التراث العربي ببيروت ط٢ سنة ١٤٠٠هـ.

(٥) انظر: فتح البارى شرح صحيح البخارى (٧/ ١٥٥) لابن حجر العسقلانى، طبعة المكتبة السلفية القاهرة.

وقد سجل أبو طالب هذه الحادثة في شعره إذ يقول[1] :

أفي فضل حبل لا أباك ضربته بمنسأة قد جاء حبلٌ وأحبـلُ
هلمّ إلى حكم ابن صخـرة إنه سيحكـم فيما بيـننا ثم يعدل
كما كان يقضي في أمور تنوبنا فيعمد للأمر الجميل فيفـصل

الحكم في المنازعات:كان المتنازعون فـي الجاهلية عندما يتحـدى بينهم الخلاف، وتخشى الفتنـة، ويقع النـزاع يبحثون عـمن يحسـم ذلك الخلاف، ويحـكم بين المتنـازعين، وربما ذهبـوا إلى أحد الحكمـاء ليحكـم بينهم، وقـد يحكمـون شيوخ القبائل ورؤساء العشائر، وأصحاب الرأي، والحنكة في هذه الخلافات[2].

وربما أخذ بعض الـعرب بما بقي من أحكام الحنيفية، من ذلك حكـم: «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر»[3].

وقد حـكم الإسـلام بذلـك وأقره، وقـضى بـه الرسـول ﷺ في بـعض مـن تخاصموا إليه[4].

وقد أشار زهير بن أبى سلمى إلى ذلك بقوله:

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

فالحق عند الشاعـر يظهر بإحدى ثلاث خصال، أولها اليمـين التي إن حلف بها رضي الخصمان بها، والمنـافرة إلى رجل ليحكم بينهم، ويعلـم حجج كل منهم، أو بإظهار بينة، تجلو الأمر وتبين وجه الحق فيه[5].

---

(١) المحبر: ابن حبيب، ص٣٣٧، لسان العرب: ١/ ١٦٩ «نسأ» وابن صخرة: هو الوليد بن المغيرة، وصخرة أم المغيرة.

(٢) انظر بلوغ الأرب: جـ١/ ٣٠٨-٣٣٨

(٣) مجمع الأمثال: الميداني، ١/ ١١١، مطبعة السنة المحمدية القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ.

(٤) جامع الأصول ١٢/ ٢٩٦-٢٩٧، طبعة ٢/بيروت.

(٥) انظر أدب الحنيفي: حبيب بن حنش الزهراني، ص٣٢٥-٣٢٦.

وقد كانوا يؤدون هذه الأيمان في الأماكن المقدسة عندهم كأن يحلفوا عند أصنامهم أو عند الحطيم، وربما أوقدوا ناراً وحلفوا عندها، وقد يسمونها (نار المهوّل) (١).

وقد ذكر لنا أوس بن حجر هذه النار في شعره يذكر عَيْراً قائماً فوق نشز من الأرض(٢):

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه   كما صدّ عن نار المهوّل حالفٌ

هذا ما تجمع لدينا عن التشريع عند أهل الجاهلية وعندما أشرق نور الإسلام، كان للتشريع أهمية خاصة، إذ أصبحت الأحكام تستمد من كتاب الله وسنة رسوله، وما عاد لأهواء الرجال تدخل بذلك وما بقي للعادات سطوة المشرع-وسوف نفصل ذلك في الفصل القادم إن شاء الله.

---

(١) بلوغ الأرب: الآلوسي، ٢/ ١٦٢.

(٢) ديوانه: ص٦٩، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت.

المبحث الثانى
التشريع فى الإسلام

كان التحليل والتحريم في الجاهلية خاضعين لأهواء الرجال، وعادات القبائل وتقاليدها.

وكان رؤساء القبائل، أو حكماء العرب، هم الذين يفصلون فى المنازعات، ويلجأ إليهم في الملمات.

فجاء الإسلام وندد بأحكام أهل الجاهلية تنديداً شديداً، وجعل حق التشريع لله وحده، لأن التشريع مرتبط بالعقيدة ارتباطاً وثيقاً.

ارتباط التشريع بالعقيدة:

«إن قضية التشريع فى الإسلام، قضية ذات صلة مباشرة بقضية الألوهية، ذلك أن التشريع حق خالص للخالق سبحانه وتعالى، بمقتضى أنه هو الخالق: **﴿ألا له الخلقُ والأمر﴾** فهو صاحب الأمر، أي الذى يحق له أن يقرر، أن يقول: هذا حلال وهذا حرام»[١].

وجاءت الآيات منددة لمن يبتعد عن شرع الله، ويقلد طرائق الجاهليين. قال تعالى: **﴿أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾** [المائدة/ ٥٠].

فطاعة الله جل وعلا واجبة، وهى من أنواع العبادة بل هي العبادة، ولا يطاع أحد من الخلق إلا إذا اندرجت طاعته تحت طاعة الله... والطاعة الخاصة هنا تتمثل فى التحريم والتحليل، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك غير رسول الله ﷺ فهو شرك، ذلك أن الرسول لا ينطق عن الهوى[٢].

---

(١) لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة: محمد قطب . .

(٢) تيسير العزيز الحميد: ص٥٤٣، الشيخ سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب.

قال تعالى منددا بمشركي أهل الكتاب: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، والمسيح بن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون**﴾ [التوبة/ ٣١].

إن جميع المفسرين فسروا هذه لآية بما ورد مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وبما ورد عن جمع من السلف رحمهم الله.

قال الطبرى: ﴿**أرباباً من دون الله**﴾ **يعني سادة لهم من دون الله يطيعونهم في معاصي الله، فيحلون مما أحلوه ما قد حرمه الله عليهم، ويحرمون ما يحرمونه عليهم مما قد أحله الله لهم**(١).

وحديث عدي بن حاتم رضى الله عنه يوضح ما نحن في صدده قال: «أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي، اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ فى سورة براءة». فقرأ هذه الآية ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾.

قال: «قلت يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله، فتحلونه؟ قال: قلت بلى، قال: فتلك عبادتهم»(٢).

«وفي رواية: قلت يا رسول الله أما إنهم لم يكونوا يصلون لهم. قال: صدقت كانوا يحلون ما حرم الله، فيستحلونه، ويحرمون ما أحل الله لهم فيحرمونه»(٣).

فالتحليل والتحريم، وحق التشريع لله سبحانه وتعالى متمثلاً في كتابه، وبما أنزل على رسوله ﷺ، وإلا فهو الشرك: شرك التشريع، كشرك الاعتقاد، وشرك العبادة.

---

(١) تفسير الطبرى: ١٤/ ٢٠٩ تحقيق شاكر.

(٢-٣) رواه الترمذى فى كتاب التفسير، وحسنه ابن تيمية فى الإيمان، مجموع الفتاوى: ٧/ ٦٧، وقال فى منهاج السنة: ١/ ٤٨، ثبت فى الترمذى وغيره من حديث عدى. كما حسنه الشيخ الألبانى فى غاية المرام: (حديث رقم ٦).

وقد أمرنـا سبحانه وتعـالى أن يُرد ما شجر بين المسلمين إلى كـتاب الله، وإلى رسول الله ﷺ وهو حي، وإلى سنته بعد وفاته.

«وقد نفى الله سبحانه وتعالى الإيمان عن من لم يحكمـوا النبي ﷺ، فيما شجر بينهم نفياً مؤكداً، في قوله ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ فلم يكتف سبحانه بالقسم وتكرار أداة النفي، ولم يكتف منهم بمجـرد عدم وجود شيء من الحرج في نفوسـهم «وهو الضيق» بل لابد من اتساع صـدورهم لذلك وسلامتـها من القلق والاضطراب ولابد من التـسليم أيضـاً وهو كـمال الانقـياد لحـكمه ﷺ. بحـيث يتخلون هاهنا عن أي قلق للنفس بهذا الشيء ولابد من التسليم المطلق...»[1].

ويقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه الآية:

«قـال مجـاهد وغـيـر واحد من السـلف: أي يرد الأمر إلى كـتـاب الله وسنة رسـوله، وهذا أمـر من الله عز وجل، بأن كل شـيء تنازع الناس فـيه من أصـول الدين وفروعـه، أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، فمـا حكم به الكتاب والسنة، وشهد له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال...»؟.

ودلت الآيات على أن من لم يتـحـاكم إلى كـتاب الله وسنة رسـوله في مـحل النزاع، ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر»[2].

وما كان يصد عن حكم الله ورسوله إلا المنافقون والمشركون. قال تعالى ﴿وإذا قـيـل لهم تعـالـوا إلى مـا أنزل الله وإلى الـرسـول رأيت المنـافـقين يصـدون عنك صدوداً﴾.

قال ابن القيم رحمه الله: «فجعل الإعراض عما جاء به الرسول والالتفات إلى غيره هو حقيقة النفاق»[3].

---

(١) رسالة تحكيم القوانين: الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله/ ص٥-٦.

(٢) تفسيرا بن كثير رحمه الله: ١/٥١٨، طبعة الاستقامة.

(٣) مختصر الصواعق: لابن القيم رحمه الله، ٢/٣٥٣.

وقضية التحاكم إلى شريعة الله مرتبطة بالتوحيد وهو مقتضى الشهادتين «وإن الواجب على جميع العباد من جن وإنس، أن يخصوا الله بالعبادة، ويؤدوا حق هذا التوحيد بتحكيم شريعة الله، فإن الله سبحانه وتعالى هو الحاكم. فهو الحاكم في الدنيا بشريعته، وفي الآخرة بنفسه سبحانه وتعالى قال جل وعلا: ﴿إن الحكم إلا لله﴾ وقال تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله﴾ [1].

«فالمسلم لا يخرج عن الشريعة في شيء من أموره، بل كل ما يصلح له فهو في الشرع، من أصوله وفروعه وأحواله وأعماله، وسياسته ومعاملته وغير ذلك...»[2].

وهذا هو الذي يفرق المسلمين عن عرب الجاهلية، لقد كان العرب في جاهليتهم يقرون أن الله هو الرازق، وهو المدبر، وأن الله هو المسيطر وبيده ملكوت كل شئ ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان: ٢٥].

فما الذى منعهم-وهم يقرون بهذا كله-أن يكونوا مؤمنين؟ وأي شئ جعلهم فى حكم الله مشركين؟.

أمران رئيسيان: عبادة غير الله، والتحليل والتحريم «أى التشريع» بغير ما أنزل الله[3].

هذا وإن آيات سورة المائدة، أكدت موضوع الحاكمية لله، وكفر من لم يحكم بما أنزل الله جحوداً واستكباراً، أو اعتقاداً بأن الأحكام الوضعية خير من شريعة الله، أو ظناً بأن ما يخالف حكم الله ورسوله جائز.

قال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [سورة المائدة: ٤٤-٤٥].

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ [المائدة/ ٤٧].

---

(١) مجموع فتاوى ابن باز: ٢/ ٢٠، جمع محمد بن سعد الشويعر.

(٢) الفتاوى لابن تيمية: ٣٠٩/١٩.

(٣) حول تطبيق الشريعة: الأستاذ محمد قطب ص ٢٢، مكتبة السنة القاهرة سنة ١٤١١هـ.

هكذا كان وضع هذه الأمة، سارت مسيرتها وهي لا تفكر خلال ثلاثة عشر قرناً كاملة أن تحكم بغير ما أنزل الله.

«ولم يدر في خلدها قط أن المسلم يمكن أن يتحاكم إلى شريعة غير شريعة الله،أو أنه يظل مسلماً إذا تحاكم عالماً راضياً إلى شريعة غير شريعة الله»[1].

وفي الباب القادم سوف نفصل القول إن شاء الله، فيما آلت إليه حال المسلمين من انحرافات عن منهج الله وشرعه، فى العقيدة والعبادة والتشريع، وأقوال العلماء سابقاً ولاحقاً فى الكفر المخرج من الملة، أو الكفر الأصغر، فيمن يحيد عن التشريع السماوي.

ولقد كان أول الانحراف في الحكم وآخره ترك الصلاة. قال ﷺ: « ولتنقضن عرى هذا الدين عروة عروة كلما نقضت عروة تمسك الناس بالتي بعدها، فأولهن نقضاً الحكم، وآخرهن نقضاً الصلاة»[2].

(١) لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة: ص٦٨.

(٢) رواه الإمام أحمد، والحاكم، وابن حبان، وهو صحيح. «انظر صحيح الجامع الصغير: ٢/ ٩٠٥».

مصادر التشريع في الإسلام:

إن الأدلة الشرعيـة التي تستفاد منها الأحـكام العملية ترجع إلـى أربعة: القرآن والسنة والإجماع والقياس وقد اتفق جمهور المسلمين على الاستدلال بها على هذا الترتيب.

أي أنه إذا عرضت واقعة، نظر أولاً فى القرآن، فـإن وجد فيه حكمها أمضي، وإن لم يوجد نظر فى السنة، فإن وجد فيـها حكمها أمضي، وإن لم يوجد الحكم نظر هل أجمع المجـتهدون فـى عصر من الـعصور عـلى حكـم فيها، فـإن وجد أمضي، وإن لم يوجد اجتـهد فى الوصول إلى حكمها بقياسـها على ماورد النص بحكمه(١).

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله. وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ [سورة النساء/ ٥٩].

فطاعة الله وطاعة الرسول، أمر باتباع القرآن والسنة. والأمر بإطاعة أولى الأمر من المسـلـمين أمر باتباع ما اتـفقت عليه كلمـة المجتهدين من الأحكـام لأنهم أولو الأمر التشريعي من المسلمين، وقد فسـر ابن عباس وبعض المفسرين أولي الأمر فى هذه الآية بـالعلماء، وفـسرها آخرون بالأمـراء والولاة والظاهـر أنها عامة تـشمل الجميع وبما يوجب طـاعة كل فريق فيما هو من شأنه، مـا دام الحكم شرعياً. وإن لم يوجد أمر باتباع القياس لأنه إلحاق واقعة لـم يرد نص بحكمها بواقعة ورد فيها نص(٢).

والدليل على ترتيب هذه الأدلة ما رواه البغوي:

عن معاذ بن جـبل رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلـى اليمن قال: كيف تقضي إذا عـرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله. قـال: فإن لم تجد فى كتاب الله؟قال: فبسنة رسول الله قال: فإن لم تجد فى سنة رسول الله؟قال: أجتهد

(١-٢) انظر أصول الفقه: عبدالوهاب خلاف ص٢١.

رأيي ولا آلو «أي لا أقصر في اجتهادي». قال: فضرب رسول الله على صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»[1].

جملة ما في القرآن من أحكام:

اشتمل القرآن الكريم على أنواع من الأعمال كلف بها العباد:

الأول: تنظيم ما بين الله والعبد، وهي العبادات التى لا تصح إلا بالنية، ومنها عبادات محضة كالصلاة والصوم، وعبادة مالية واجتماعية وهي الزكاة، وعبادة بدنية اجتماعية وهي كالحج. وهذه العبادات الأربع تعتبر بعد الإيمان أساس الإسلام.

الثاني: معاملة بين العباد وبعضهم ببعض وهي أقسام:

أ - مشروعات لتأمين الدعوة والجهاد، وفيها بيان الأسرى في الحرب، وغنائم الحرب وكيف توزع.

ب - تنظيم البيوت، وبيان مما يتعلق بالزواج والطلاق والأنساب والمواريث[2].

جـ- أحكام تنظيم العلاقة بين الناس من بيع وإجارة وأمر العهود والمواثيق وكراهة الإخلال بها، وقد تعرض القرآن لها بطريقة إجمالية وقواعد كلية تاركاً تفصيل ذلك للمجتهدين من الأمة فمن تلك القواعد الكلية:

١ - الأمر بالوفاء بالعقود.

٢ - النهي عن أكل أموال الناس بالباطل.

٣- أحل الله البيع وحرم الربا.

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي، محمد الخضري/ ص٣٣-٣٤. (ص٧٤-٩٢) المكتبة التجارية الكبرى بمصر، طبعة سابعة.

وقد بينت السنة النبوية بعد ذلك كثيراً من المعاملات فى الأقضية النبوية، وكلها تطبيق على أوامر القرآن العامة أو تفصيل لمجملها، أو تقييد لمطلقها(1).

د - الأحكام الجنائية وهي التى تتعلق بما يصدر عن المكلف من جرائم، وما يستحقه عليها من عقوبة، ويقصد بها حفظ حياة الناس وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم، ومن العقوبات التي توعد الله بها المجرمين عقوبات أخروية، أما العقوبات الدنيوية فإن الله فرض في كتابه منها خمساً:

١ - **القصاص**: كان يعتمد عند العرب على العادات والتقاليد، وقلما يكتفي ولي المقتول بالقصاص من الجاني، بل ربما توسعوا بالثأر، فجاء القرآن يحدد المسؤولية في القصاص حيث قصرها على الجاني وحده. قال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر، والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى**﴾. ثم بين ضرورة نظام القصاص بأبلغ عبارة وأدقها. قال تعالى: ﴿**ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون**﴾.

وحددت السنة وأوضحت نظام الديات وجعلت بعضها على العاقلة:

٢ - **حد الزانى**

٣ - **حد القذف.**

٤ - **حد السارق: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله﴾** [المائدة: ٣٨].

٥ - **حد قطاع الطرق**: قال تعالى: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض، ذلك لهم خزي فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم**﴾ [المائدة: ٣٣].

---

(١) السابق: (ص٩٣-٩٧).

فالإسلام يكافح دواعي الجريمة[1] ويدعو إلى الإحاطة بمنعها قبل أن تقع، فكانت الحدود وقاية من الجريمة، وقصد من الشدة تخويف من تحدثه نفسه بارتكابها، ثم إن الإسلام حين يوقع الحد على مرتكب الجريمة لا ينبذه من أجل جريمته إنما جعل الحد كفارة للتطهير.

وقبل أن يوقع الإسلام حد السرقة مثلاً، فإنه يسعى إلى مكافحة الجوع والفقر بتشريعاته وتوجيهاته حتى لا يوجد جائع يضطر إلى السرقة، وحين يوقع حد الزنا يكون قد منع دواعيه من منع التبرج والإثارة والخلاعة، ويدعو بنفس الوقت إلى التعجيل بالزواج ويدعو إلى تيسيره وكذلك بقية الحدود.

وأيهما خير؟ مجتمع نظيف لا تحدث فيه الجريمة إلا شذوذاً أم مجتمع يعج بالجريمة، وتعمل الأجهزة كلها على منعها أو حصرها فتتزايد كل يوم.

وأيهما هو المجتمع المتحضر؟ المجتمع الذى ينادي فيه رئيس الدولة شعبه فيقول: لا يخرج أحدكم وحده بعد الغروب ولايحملن فى جيبه أكثر من ثلاثين دولاراً كي لا يتعرض للمجرمين وقطاع الطريق؟[2].

أم ذلك المجتمع الذى وصفه رسول الله ﷺ [3]:

«والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه»[4].

هـ - الأحكام الدولية، والأحكام الاقتصادية والمالية ومن استقرأ آيات الأحكام في القرآن الكريم يتبين أن أحكامه تفصيلية في العبادات وما يلحق بها من الأحوال الشخصية والمواريث لأن هذه الأحكام تعبدية لا مجال للعقل فيها.

---

(١) انظر تاريخ التشريع الإسلامى: محمد الخضرى ص٩٧-١٠٠ وأصول الفقه: عبدالوهاب خلاف: ص٣٣.

(٢) نداء من ريجان وجهه لشعبه وقت توليته، ونشرته الصحف فى حينه.

(٣) رواه البخاري.

(٤) مقتبس بتصرف من: حول تطبيق الشريعة: محمد قطب ص ٩٧.

أما فيما عدا ذلك من الأحكام المدنية والجنائيـة والدولية والاقتصادية، فأحكامه فيـها قواعد عـامة ومبـادئ أساسيـة ولم يتعرض فـيها لتفـصيلات جـزئية إلا فى النادر. لأن هذه الأحكام تتطور بتطور البيئـات والمصالح، فاقتصر القـرآن فيها على القواعـد العامة ليكون ولاة الأمر في كل عـصر في سعـة من أن يفصلوا الأحكام حسب مصالحهم في حدود أسس القرآن[1].

(1) أصول الفقه: عبدالوهاب خلاف، (ص٣٣-٣٤).

السنة النبوية:

هى المصدر الثاني من مصادر التشريع. وهي ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.

وقد أجمع المسلمون على أن ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وكان مقصوداً به التشريع والاقتداء ونقل إلينا بسند صحيح، يكون حجة على المسلمين، ومصدراً تشريعياً يستنبط منه المجتهدون الأحكام الشرعية لأفعال المكلفين[1].

قال تعالى: **﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾**. وقال سبحانه: **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾**. وقال تعالى: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾**.

وكان إجماع الصحابة على وجوب اتباع سنته صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، ويمضون أحكامه ويمتثلون لأوامره ونواهيه وتحليله وتحريمه في حياته صلى الله عليه وسلم.

فأبو بكر رضي الله عنه، كان إذا لم يحفظ في الواقعة سنة خرج فسأل المسلمين: هل فيكم من يحفظ في هذا الأمر سنة عن نبينا؟ وكذلك كان يفعل عمر رضى الله عنه وغيره ممن تصدى للفتيا والقضاء من الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين ومن جاء بعدهم[2].

ولا ينكر حجية السنة مسلم، وإن الإدعاء بأن الإسلام هو القرآن وحده لا يقول به مسلم يعرف دين الله، وأحكام شريعته تمام المعرفة، وهو يصادم الواقع، لأن أحكام الشريعة إنما ثبت أكثرها بالسنة، وما فى القرآن من أحكام إنما هي مجملة وقواعد كلية في الغالب. وإلا فأين نجد فى القرآن أن الصلوات خمس وأين نجد ركعات الصلاة وتقادير الزكاة، وتفاصيل شعائر الحج وسائر أحكام المعاملات والعبادات.

(١-٢) أصول الفقه: عبدالوهاب خلاف، (ص٣٦-٣٨).

قال ابن حزم رحمه الله ونسأل قـائل هذا القول الفاسد، في أي قرآن وجد أن الظهر أربع ركعات، وأن المغرب ثلاث ركـعات... ولو أن أحداً قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة[١].

وعن المقدام بن معد يكرب رضـي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يقعد الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول: «بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجـدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فـيه من حرام حرمناه ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله»[٢].

وعن العـرباض بن سـارية قال: «وعظـنا رسول الله ﷺ مـوعظة ذرفت منهـا العيـون، ووجلت منها القلوب، فـقلنا: يا رسول الله ﷺ إن هذه لـموعظة مودع فماذا تعهـد إلينا؟ قال: تركتكم على البيضاء ليلها كـنهارها، لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك، ومن يعش منكم فسيـرى اختلافاً كثيراً، فـعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء المهتدين الراشدين ...»[٣].

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: د. مصطفى السباعي ص١٦٥.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم وهو صحيح. «ينظر صحيح الجامع الصغير وزيادته: م٢/ ١٣٦٠».

(٣) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديـث حسن صحيح، وأخرجه الإمام أحمد وابن مـاجة، وقال الحافظ أبو نعيم هو حديث جيد في صحيح حديث الشاميين. «انظر: جامع بيان العلم وفضله جـ٢/ ١٨١».

المصدر الثالث: الإجماع:

وهو اتفـاق جميع المجـتهـدين من المسلمين في عـصر من العـصور بعـد وفاة الرسول على حكم شرعي في واقعة.

فإذا وقعت حادثة، وعـرضت على جميع المجتهدين من الأمـة الإسلامية وقت حدوثها، واتفقـوا على حكم فيها سمي اتفاقـهم إجماعاً، واعتبـر إجماعهم على حكم واحد فـيها دليـلاً على أن هذا الحكم هو الحكم الشرعي في الواقـعة. وإنما قيل في التـعريف بعد وفاة الرسـول: لأنه في حياة الرسول هو المرجع التـشريعي وحده، فلا يتصور اختـلاف في حكم شرعي، ولا اتفاق إذ الاتفاق لا يتحقق إلا من عدد[1].

وقد أخـذ بهذا المصدر أصـحاب رسول الله ﷺ. قـال أمير المؤمنين عـمر بن الخطاب رضي الله عنه لشريح:

«اقض بما في كتـاب الله، فإن لم يكن فـبما في سنة رسـول الله ﷺ، فإن لم يكن فبما اجتمع عليه الناس، وفي رواية فبما قضى به الصالحون».

وكذلـك قال: ابن مـسعود رضـى الله عنه: «من سئل عن شئ فليـفت بما فى كتاب الله، فـإن لم يكن فبما في سنة رسـول الله ﷺ، فإن لم يكن فبمـا اجتمع عليـه الناس»، وكذلك روى نحـوه عن ابن عبـاس وغيـره ولذلك قال العلـماء: الكتاب والسنة والإجماع»[2].

---

(١) علم أصول الفقه: الشيخ عبدالوهاب خلاف ص٤٥.

(٢) الفتاوى: لابن تيمية، جـ٢٠/ ص٤٩٨.

المصدر الرابع: القياس

القياس في اصطلاح الأصوليين: هو إلحاق واقعة لانص على حكمها بواقعة ورد نص بحكمها في الحكم الذى ورد به النص، لتساوى الواقعتين في علة هذا الحكم.

ومذهب جمهور علماء المسلمين، أن القياس حجة شرعية على الأحكام العملية، وأنه فى المرتبة الرابعة من الحجج الشرعية، بحيث إذا لم يوجد في الواقعة حكم بنص أو إجماع، وثبت أنها تساوى واقعة نص على حكمها في علة هذا الحكم، فإنها تقاس بها ويحكم فيها بحكمها، ويكون هذا حكمها شرعاً، ويسع المكلف اتباعه والعمل به، وهؤلاء يطلق عليهم مثبتو القياس.

ومذهب النظامية والظاهرية أن القياس ليس حجة شرعية على الأحكام، وهؤلاء يطلق عليهم: نفاة القياس(١).

ولكل من الفريقين أدلته، وليس هنا مجال التفصيل فيها. والقياس الصحيح لا يخالف النصوص الصحيحة من كتاب أو سنة.

قال ابن تيمية رحمه الله: «وقد تدبرت ماأمكنني من آية الشرع فما رأيت قياساً صحيحاً يخالف حديثاً صحيحاً، كما أن المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح، بل متى رأيت قياساً يخالف أثراً فلابد من ضعف أحدهما»(٢).

وهكذا فالتشريع فى الإسلام حق لرب العالمين، والواجب أن نستمد الأحكام من أصولها فما صح ثبوته يجب الانقياد التام له، والضابط هو الشرع والشرع وحده ولا مجال للهوى(٣).

والقياس هو القضاء فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة وقد كان الصحابة يلجأون إليه، كذلك كان يفعل أبو بكر رضى الله عنه- إذا لم يجد فى الكتاب

---

(١) أصول الفقه: خلاف، ص٥٢، ٥٤.

(٢) الفتاوى: جـ ٢٠/ ٥٦٧.

(٣) جامع العلوم والحكم: ص٥٩.

نصاً، ولا عند الناس سنــة، فإنه يجمع الناس ويستشيرهم فـإذا اجتمع رأيهم على شئ قضى به وكذلك كان يفعل عمر رضي الله عنه[1].

والاجتهاد في الشريعة الإسلامية تبدو الحاجة إلـيه ملحـة عندمـا تغير الصورة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية حـيث الحاجة إلى أحكام جديدة مستمدة من الشريعة، والـوسيلة الشرعية لذلك هـي الاجتهاد فيما ليس فيـه نص، وهي المزية الكبـرى لهذه الشريعـة، التى تجعلهـا صالحة لاستيعـاب ما يجد فى حيـاة الناس، وربطه بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، إلى أن تقوم الساعة، لا يند عنها شئ[2].

ولذلك قال معاذ رضي الله عنه، عندما ولاه رسول الله ﷺ اليمن إنه سيجتهد رأيه، فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة، ووافقه رسول الله ﷺ على ذلك.

وللاجتـهاد شروطه المعـروفة من علم بـالفقه والأصول، وعـلم باللغـة وبصر بأحوال الـناس، وقدرة على الاستـنباط واستقامـة في الخلق وأمانة فـى الدين... وهو أداة زود الله بها هـذه الأمة، لتظل تحت مظـلة الشريعة، لا تخـرج عنها ولا تستبدل بها حكم الجاهلية[3].

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى: محمد الخضرى ص١١٦.

(٢-٣) حول تطبيق الشريعة: محمد قطب، (ص٧٤، ٧٥).

الفصل الثاني

تغلغل الخرافات والأساطير في المجتمع الجاهلي وموقف الإسلام من هذه الخرافات

المبحث الأول:الخرافات والأساطير في المجتمع الجاهلي

أولاً : ماله صلة بالعقائد والتصورات.

ثانياً: ماله صلة فى الحياة الاجتماعية.

المبحث الثاني: موقف الإسلام من الخرافات والأساطير

وفيه عدة موضوعات

المبحث الأول

الخرافات والأساطير في المجتمع الجاهلي

أولاً: الأساطير ذات الصلة بالعقائد والتصورات

١ - الكهانة والعرافة.

٢ - التطير أو «الزجر والعيافة».

٣ - التمائم عند أهل الجاهلية.

٤ - عالم الجن في التصور الجاهلي.

الخرافات والأساطير في المجتمع الجاهلي:

تمهيد:

لقد غزت الأساطير المجتمعات الجاهلية، وملأت على الناس حياتهم، فصدقوها واقتنعوا بها.

وذلك طبيعي في مجتمعات تنتشر فيها الأمية؛ وينتشر فيها الجهل، وتضمحل عندها العقيدة الدينية.

وقد تنوعت هذه الأساطير حتى غطت عليهم حياتهم كلها، فمنها ما كان له صلة بالأصنام، واستطلاع الغيب بين يديها عن طريق الكهان، ومنها محاولة استطلاع الغيب عن طريق العرافين والمنجمين.

وقد اهتموا بالتمائم وأنواع الخرز واستعاذوا بالجن حتى عبدها بعضهم.

وهنالك خرافات تناقلها أهل الجاهلية، وآمنوا بحقيقتها في علاقة الرجال بالنساء، وخلال حربهم وسلمهم، ...وأشياء كثيرة مما يكاد لا يحصى.

وكانت هذه الأوابد ناتجة عن إيمانهم بمعتقدات دينية باطلة، والتزامهم بعادات اجتماعية فاسدة، لا تعدو أن تكون من الأباطيل والأكاذيب المتوارثة.

وسوف نتحدث في هذا المبحث عن أبرز هذه الأساطير بادئين بالأوابد العقدية، ثم الاجتماعية، وإن كان التداخل بينها قوياً والفصل سيبقى صورياً لترتيب البحث ليس إلا.

١ - الكهانة والعرافة:

كلمتـان تعنيان «تعاطي الخـبر عن الكائنات في مـستقبل الزمـان وادعاء معـرفة الأسرار»[(١)].

والكهانة هي ادعاء علم الغيب كالإخبـار عما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سـبب، والأصل فيـها استـراق الجني السمع من كـلام الملائكة فـيلقيـه في أذن الكاهن...

وقال الخطابـي: الكهنة قوم لهم أذهان حـادة أو نفوس شريرة، وطـباع نارية، فألفتـهم الشياطين لما بينهم من التناسب في هذه الأمور، وسـاعدتهم بكل ما تصل قـدرتهم إليـه، فـالكاهن هو الذي يدعى مطالعـة علم الغـيب ويخـبـر الناس عن الكوائن[(٢)].

وبقي الكهـان على ذلك حـتى نزل الوحي، فـانقطعت الكهـانة. قال تعـالى: (موضحاً رجم الشياطين التي كانت تسترق السمع):

﴿وأنا لمسنا السمـاء فوجدناها ملئت حرسـاً شديداً وشهبـاً وأنا كنا نقعد مـقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ [سورة الجن/ الآية الثامنة].

وكان في العرب كـهنة يدعون أنهم يعرفون كثيـراً من الأمور، فمنهم من يزعم أن له رفقاء من الجن وتابعة تلقي إليه بالأخـبار، وكان منهم من يسمى عرافاً وهو الذى يزعم أنه يعـرف الأمور بمقدمـات أسبـاب يستدل بهـا على مواقـعهـا كالشئ يسرق، فـيعـرف المظنون به السرقة، وتتـهم المرأة بالريبة فـيعـرف العراف من هو صاحـبها ونحـو ذلك من الأمور. ومنهم من كـان يسمى المنجم كـاهناً، وحديث النهي عـن إتيـان الكاهن يشـتـمل على النـهي عن هؤلاء كلهم وعن الـنهى عن تصديقهم والرجوع إلى قولهم[(٣)].

---

(١) اللسـان: (كهن-عرف).

(٢) عالم الغيب والشهادة: الأستاذ عثمان جمعة ضميرية/ ص١٢٣.

(٣)شرح صحيح مسلم: جـ ١٠/ ص٢٣٢.

إذن هناك بعض الفروق بين الكاهن والعراف، فالكاهن هو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الأسرار، والعراف هو الذي يدعي معرفة الـشئ المسروق ومكان الضالـة ونحوها، وهو الذي يزعم أنـه يعرف الأمور بمقدماتها...[1].

ومن العلماء من يجعل العراف مرادفاً لـلكاهن، إلا أنه لم يكن للعرافين اتصال ببيوت الـعبادة والأصنام، ولم يـكن لهم رئى أو تابع... وكـثيراً ما يعتـمد العراف على الخطّ إذ يخط خطوطاً ثم ينظر إليها ليستنبط شيئاً منها يتنبأ به للناس[2].

ومن وسائل العرافين فى ادعاء علم الغـيب أيضاً: الطّرْق وهو الضرب بالحصى والخط بالرمل، وهو ضرب من التكهن[3].

وقد كان للكهان أثر كبير فى حياة الـعرب قبل الإسلام، إذ كانوا يستشيرونهم فى إبرام مهـمات الأمور، كإعلان حرب أو كـشف عن جريمة، أو بحـث عن شئ مفقود، وكان منهـم من يفصل في الخصومات بين الناس، فالكـاهن حاكم يفصل فى الخصومات، وقـد اشتهر منهم شق وسـطيح، ومن الكهان المعـروفين الكاهن الخزاعي، وقـد تحاكم إليه «أميـة بن عبد شمس، وهـاشم بن عبدمنـاف» فى أمر مفاخرتهما. واشتهر من الكاهنات: زبراء وسجاح وغيرهن[4].

واتخذ الجاهلـيون الكهان وسطاء بيـنهم وبين الآلهة، وكان الكـهان هم الذين يضربون بالقداح ويستـقسمون للناس بالأزلام عند الأصنام.

وكثيراً ما كان أولئك الكهنة يمارسون السحر إلى جانب الكهانة مثل كهنة فرعون الذين قابلوا موسى عليه الـسلام بحبـالهم وعصيهم... وكان هؤلاء الكهان يجيدون التمثيل فـيتظاهرون بالجد الصارم في أداء طقـوس العبادة ليستديموا سلـطانهم على الناس، وليـتفشـوا على حساب غفلة الناس[5].

---

(١) اللسان «كهن»

(٢) جواد على: ٦/ ٢٧٢-٢٧٣.

(٣) اللسان: طرق..

(٤) انظر: بلوغ الأرب: ١/ ٣٠٨ وما بعدها، ١/ ٢٧٥-٢٩٦/ وجواد على: ٦/ ٧٦٣-٧٧٠

(٥) كتاب لا إله إلاالله: محمد قطب، / ص٥٩/ .

٢ - التطير: الزجر والعيافة[١].

التطير يعني التشاؤم، وهو مأخوذ من زجر الطير أصلاً «والزجر والعيافة أن تعتبر بأسماء الطير ومساقطها وأنوائها فتسعد أو تتشاءم ، والعائف هو المتكهن بالطير أو غيرها » [٢] .

« وإنما سمي الكاهن زاجراً لأنه إذا رأى مايظن أنه يتشاءم به ، زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة»[٣] .

وقد شاع في العرب زجر الطير والوحش وإثارتها ، فما تيا من منها سموه سانحاً، وما تياسر سموه بارحاً . . واختلفوا في تفاؤلهم وتشاؤهم ، فمنهم من يتشاءم بالبارح ، ومنهم من يرى عكس ذلك . . . وإنما اختلفوا فى الاصطلاح ، لأن الزجر وهم وخرافة ، تابع للمصادفة البحتة ، فمن زجر طيراً وقضى لبانته تفاءل باتجاهها ، ومن لم يقض حاجته تشاءم بهذا الاتجاه نفسه [٤] .

قال الجاحظ : « وأصل التطير إنما كان من الطير ومن جهة الطير إذا مر بارحاً أو سانحاً أو رآه يتفلى وينتف، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم، أو الأعضب أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا ، كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال . فكان الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير ثم استعملوا ذلك في كل شيء » [٥] .

وكان الغراب عندهم محل شؤم دائم ، فقد تشاءم العرب باسمه وبحركاته وبأصواته ، ومن أمثالهم الدارجة « أشأم من غراب البين » .

---

(١) انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلى : الحوفى / ٤٨٢-٤٩٢ ، والمعتقدات والقيم ص ١٧٤ .

(٢) القاموس المحيط : مادة عاف ، وجواد على ٦/ ٧٧٥-٨٠٠/ وما بعدها .

(٣) تاج العروس : (مادة زجر) .

(٤) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : د. أحمد محمد الحوفى ص ٤٨٢ - ٤٨٣ .

(٥) كتاب الحيوان : الجاحظ ، ١/ ٤٣٨ ، تحقيق عبد السلام هارون .

قال الميداني في مجمع الأمثال : « إنما لزمه هذا الإسم لأن الغراب إذا بان أهل الدار للنجعة ، وقع في موضع بيوتهم يتلمس ويتقحم ، فتشاء موابه ، وتطيروا منه . . وسموه لذلك غراب البين » .

ثم قال : ومن أجل تشاؤمهم بالغراب ، اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب » (١) .

وقد تشاءم الشعراء بنعيبه ، فزعم عنترة : أن الغراب الأبقع قد أنذره ببين (بفراق) أحبابه، وإنه غراب كريه المنظر، منسول الريش، مولع بتفريق الأحبة، وكأن فكيه مقص يقطع الأواصر بين الأحبة ، فقال : (٢)

ظعن الذين فراقهم أتوقـــعُ ... وجرى ببينهم الغـرابُ الأبقـــعُ
حرقُ الجناح كأن لحيي رأسه ... جلمان بالأخبـار هـشٌ مُولــعُ
فزجرتـه ألا يفـــرخ عشـــهُ ... أبداً ويصبـح واحـــداً يتفجـعُ
إن الذين نَعبتَ لي بفراقهـم ... هم أسهروا ليلي التمام فأوجعوا

وتوجس زهير بن أبي سلمى من رحيل أحبابه عنه عندما سمع نعيب وصوت) الغراب فقال :

القى فراقهم في المقلتين قذى ... أمسى بذاك غراب البين قد نعقا

ومن الطيور التي كان يتشاءم منها بعض الناس في الجاهلية أيضاً البومة والخفاش والصدى (٣) .

والبوم مما كانوا يتشاءمون بها ، ولعل ذلك يعود إلى منظرها الكئيب ، وصوتها الحزين ، وبسبب ظهورها في الليل ، والليل رمز الشر عند أهل الجاهلية (٤) .

---

(١) مجمع الأمثال للميداني : ١/ ٣٨٣ ، المثل رقم ٢٠٤٢ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر : ١٩٧٢م.

(٢) ديوان عنترة : ص ١٧٦ ، تحقيق محمد عبد المنعم الخفاجي

« حرق الجناح : منسول الريش منقطعه- اللحيان: جانبا الوجه - الجلم : المقص الكبير » .

(٣) الحيوان للجاحظ : ٢/ ٢٩٨ .

(٤) جواد علي : ٦/ ٧٩٧ .

وقد ابتدع الجاهليون طرقاً لإبعاد الطيرة عن تفكيرهم ، من ذلك أنهم تجاهلوا قدر الإمكان المسميات التى تبعث على التشاؤم عادة بأن يسموها بضدها من الكلمات التي لا يتشاءم منها ، فسموا اللديغ بالسليم، والبرية بالمفازة وهكذا [1].

لقد كان القوم في جاهليتهم يستنطقون الغيب سواء بالتكهن والعرافة ، أو بالزجر والعيافة ، وكان هذا رأي الغالبية منهم ، وإن اشتهر بها قوم دون آخرين.

فكما اختص بنو مدلج بالقيافة اشتهر بنولهب بالعيافة . قال الشاعر [2] .

خبيرُ بني لهب فلاتكُ مُلغياً   مقالةَ لهبي إذا الطيرُ مرتِ

ذلك أن بنى لهب كانوا أزجر القوم للطير .

إلا أن الزجر لم يكن عاماً يدين به جميع الناس، لأنه وهمٌ لا يستند إلى منطق، ومن هنا ندد به كثير من العقلاء ، وسفهوا المتشائمين . يقول شاعرهم [3].

وإني امرؤ لا تقشعرُ ذؤابتي من   الذئب يعوى والغراب المحجل

فهو لا يخاف الذئب والذئب فى صحرائهم مخيف ، كما أنه لا يتطير بالغراب رغم كثرة المتطيرين به .

أما لبيد بن ربيعة ، فقد كان « يصيح فى الناس ويهب بهم أن يتخلصوا من تلك الخرافة التي استشرت فيهم ، إذ لا يعلم الغيب إلا الله . فمن شعره فى ذلك[4] .

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى

ولا زاجراتُ الطير ما الله صانعُ

---

(١) الحيوان : ٣/ ٣٣٩ ، تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى : ص ١٨٢ ، والبيت من شواهد شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ١/ ١٩٥ شاهد رقم (٤١) .

(٣) الحيوان : ١/ ٣٧٧ .

(٤) ديوان لبيد : ص ١٧٢ .

سلوهـنّ إن كذبتمـونى متى الـفتى
يذوقُ المـنايـا أو متى الـغيـبُ واقعُ

وهذا عوف بن عطية بـن الخرع التيمي يقول : إنه لا يعبأ بـالطير، وإنه وقومه يقصـدون البلاد للغزو ، ولـيغنموا ، غيـر متوجسين من طـير شراً حيثمـا اتجهت وكيفما طارت ، سيان عندهم السانح منها والبارح ، يقول شعراً : [1]

نؤمُّ البلاد لحـبّ اللقـــاء ولا نتقي طائراً حيث طارا
سنيحاً ولا بارحاً إن جرى ونرجـو هناك بهنّ اليســارا

ومن ألـطف ما قيـل فى ذلك أبيـات لشاعر إسـلامى يبرىء فـيها الغـراب من الطيرة، ويقول ، إذا كان الـناس يتطيرون منه لأن اسمه قريب مـن الغربة، فأولى بهم أن يتطيروا بالإبل لأنها مطايا الغربة والفرقة ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، علام الغيوب. قال أبو الشيعى [2] .

النـــاس يلحَـــوْن غـــرا ب البين لمـــا جهلـــوا
ومـا علـى ظـهر غــــرا ب الـبين تُـطـوى الرَّحَـلُ
ولا إذا صـــاح غـــــرا بٌ في الديار احتـملـوا
ومـافـرّق الأحـبـاب بَـعـْـدَ الـلـــه إلا الإبـــلُ
وما غـــــراب البــين إلا نـــاقـةٌ أوْ جمـــــلٌ

٣ - التمائم عند أهل الجاهلية :

التمـائم : مفردها «الـتميمة» ، وهـي عوذة على هـيأة قلادة من سيـور تضم خرزاً، وقد تـكون من خرزة واحدة تـستعمل للـصبيان والنـساء في الغالـب اتقاء النفس والعين [3] .

---

(١) معجم الشعراء : المرزبانى ، ص ٢٧٦ ، تحقيق المستشرق سالم الكرنكوى .
(٢) العمدة لابن رشيق ، ٢/ ٢٠١ ، مطبعة أمين هندية ،نقلاً عن الحياة العربية من الشعر الجاهلى / للحوفى.
« والرَّحل : جمع رحلة » .
(٣) اللسان : ١٢/ ٦٩ .

وللخرز عند الجاهليين أهمية كبيرة في دفع الضرر كأذى العين أو الحسد ، أو في جلب النفع والحب، وما يزال الاعتقاد بذلك عند الأعراب حتى اليوم .

والتمائم تنتشر في الشعوب البدائية الجاهلة ، لأنها تربط المسببات بغير أسبابها الطبيعية ، فيتنشر السحر ، ويعتمد الناس على التمائم في جلب النفع ودفع الضر، وقد اعتقد الجاهليون بها وعرفوا منها أنواعاً كثيرة .

وللخرز عند أهل الجاهلية أنواع وفصائل ، وقد جعلوا لكل صنف أثراً يمتاز به عن بقية الأصناف .

فالتولة : مثلاً خرزة تحبب المرأة إلى زوجها .

والعقرة : خرزة تشدها المرأة على حقويها لئلاتلد .

والخصمة : خرزة تنفع عند الدخول على السلطان ، وعند الخصومة وجعل عادة تحت الخاتم ، أو في زر القميص أو في حمائل السيف .

والدردبيس : خرزة مؤثرة يتحبب بها النساء إلى أزواجهن تؤخذ من القبور الجاهلية القديمة [1] .

ومن مزاعمهم أن خرزة شفافة تسمى السُّلْوانه كانوا يعتقدون أن من شرب عليها ماء، أو سحقها وخلطها بالماء ثم شرب ، فإنه يسلو عن هوى من يحبه ويشفى من عشق من يهوى قال الشاعر : [2]

ياليت أن لقلبي مَنْ يُعلِّلُهُ   أو ساقياً فسقاني عنكِ سُلْوانا

وأكثر ما كانت تعلق التمائم على الصغار حرصاً عليهم وحماية لهم مما لا يقدرون على دفعه من مجريات الأقدار .

تقول امرأة من العرب [3] .

---

(١) انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، ٦/ ٧٥٠-٧٥١ .

(٢) اللسان : (مادة سلا) .

(٣) حلية المحاضرة لابن المظفر الحاتمي : ١/ ١٣٨٩ ، ط بغداد سنة ١٩٧٩ م .

بلادٌ بها حلّ الشبابُ تمائي   وأول أرضٍ مسّني جلدي ترابُها

وقد كـان القوم إذا خافوا على الصبى الصغير من نظرة إنسي أو خطفة جني علقوا عليه سنّ ثعلب أوسنّ هرة أو حيض السَّمُرةَ ، واعتقدوا أن الجن إذا رأته لم تقدر عليه . قالت امرأة تصف ولداً : (١)

كانت عليه سنةٌ من هـرّة   وثعلب، والحيضُ حيضُ السّمرة

ومن تمائهم المشهورة أيضاً :

تعليق كعب الأرنب إذ كانوا يعلقون على أجسامهم كعب الأرنب ، ويعتقدون أنه وقاية من السحر، وأن الجن تَنْفِرُ من الأرنب لأنها تحيض (٢) .

ومن تخيلات العرب أنهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنون نجّسوه بتعليق الأقذار النجسة عليه ، كخرقة الحيض وعظام الموتى ، إذ اعتقدوا أن هذا يقيه من العين والجن ، وأنشدوا للممزّق العبدى قوله : (٣)

فلو أن عندى جاريتين وراقيـاً

وعلق الأنجاسا عليّ المعلقُ

وزعموا أن التنجيس يشفى إلا من العشق :

يقولون علقّ - يالك الخير - رُمّة

وهل ينفع التنجيس من كان عاشقاً

ولكن القضاء لابد واقع ، ولابد أن يخلف بعض الظنون ، فقد علقت امرأة على ولدها نجساً فلم يقه من الموت فقالت :

---

(١) بلوغ الأرب : الآلوسي ، ٢/ ٣٢٥، والسمرة من شجر الطلح، وحيضها شيء يسيل من السمر كدم الغزال وانظر الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ص ٥٠٧ .

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلىّ ، ص ٥٠٦ .

(٣) بلوغ الأرب : ٢/ ٣١٩ .

لجسـتُه لا يَنْفعُ التنجـيس والموت لا تفوته الـنفوس [1]

ومن خرافاتهم وأوهامهم في التمائم ، أنهم كانوا يحصنون الإبل من الحسد إذا بلغت ألفاً بفقء عين الفحل لو زادت عن الألف فـقأوا الأخرى ، فكان الرجل إذا ملك ألف بعير فقأ عين فحلها ، قال الشاعر [2]

فكان شكر القوم عند المِنَن كيّ الصحيحات وفقء الأعين

وكانوا يزعمون أيضاً أن فقء أعين الإبل يطرد عنها المرض والعين والغارة ، قال شاعرهم :[3]

وهبتهـا وأنـت ذو امتـنان تفقـأ عينهـا أعـين البُـعْران

ومن تمائمهم كذلك ما كانوا يعلقونه على اللديغ من حلي النساء فقد زعموا أن الملدوغ إذا علق عليه الحلي أفاق قال النابغة :

فبت كأني ساورتني ضئـيلة من الرقش في أنيابها السمُّ ناقـع

يُسهّدُ من نوم العشاء سليمها لحلـي النساء في يـديه قعاقـع

فقـد كانوا يعلـقون الحلي على اللديغ ثم يتـركونه أيامـاً لا ينام إذ يجلسُ مـعه فيهن، ويُسَهْد حتى ينزع نومه [4] .

وقد اعترض بعض العقلاء على هذه التمـائم وغيرها من خرافات قومهم ، قال صخر الهذلي : [5] .

---

(١) بلوغ الأرب : ٢/٣١٩ .

(٢) البيان والتبيين : ٣/٦٦ .

(٣) المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي : ص ٢٥٩ .

(٤) المعتقدات والقيم : ص ١٨٩ .

(٥) ديوان الهذليين : ٢/٦٢ ، طـ ، دار الكتب المصرية عام - ١٩٤٥ م .

لعمرك والمنايا غالبات ... وما تغني التميمات الحِماما

وقال أيضاً :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفَعُ

تلك هي بعض أساطير القوم وخرافاتهم في ادعاء علم الغيب ، وتلك بعض أساطيرهم فى تعليق التمائم ، واعتقادهم في جلبها الحظوظ للناس، ودفعها عنهم الأذى والشرور .

وقد عبر الشعراء الجاهليون عن هذه الأمور اعتقاداً فيها حيناً ، ورفضاً لها حيناً آخر، إذ كان فى المجتمع الجاهلى كلا النوعين من الناس ، مؤمن بها وهم الغالبية وساخر منها ، وهم القلة القليلة (١) .

٤ - عالم الجن فى التصور الجاهلى :

لقد تعرض شعراء الجاهلية لذكر الجن أكثر بكثير من تعرضهم للرسل أو الملائكة، وكان ذلك نتيجة اعتقادهم بهم من جهة، وأنهم يشاطرونهم الحياة في صحرائهم، ويزاحمونهم عليها من جهة ثانية .

وكنا قد عرفنا أن بعض العرب قد عبدوا الجن أيضاً (٢) .

لقد تحدث الشعراء عن وجود مكثف للجن فى أودية الصحراء المخيفة، ويلاقعها الحزبة ، وطرقها الوعرة .

قال زهير بن أبي سلمى (٣)

وبلدةٍ لا تُرامُ خائفةٍ ... زوراءَ مغبّرةٍ جوانبُها

---

(١) انظر المعتقدات والقيم : ص ١٩٢ .

(٢) انظر الباب الأول من هذا الكتاب : الأديان عند العرب قبل البعثة .

(٣) ديوان زهير : ص ٢٦٥ .

تسمع للجن عازفين بهــــا تضج من رهبةٍ ثعالبُهـــــا

يصور زهيــر أن الجن يعيــشون بحرية تــامة في تلك البلدة المهــجورة المنزوية ، حتى أن الثعالب فيها لتضج من شدة الخوف .

وفي هذا المعنى يقول الأعشى :

إن الثعالب بالضـــــحى يلعـــبن فى أبوابهـــــــا

والجن تعزف حولـــــها كالحبـــش فى محرابهـــــا

وكــان الشــعراء يريــدون أن يبرهنــوا بذكر الطــرق المخوفــة على مــهــارتهم فى اختراقها، وأن يدللوا على شجاعتهم في اجتيازها [1] .

ولقد تجــاوز العرب ذلك فجـعلوا لكل شاعر شــيطانا يلقى إليه الشعــر ، وكانوا يزعمون أن اسم شيطان الأعشى «مسحل» واسم شيطان المخبل « عمرو» ، واسم شيطان عبيد بن الأبرص «هبير» وصاحب النابغة الذبيانى « هادر » وهكذا [2] .

ومن الواضح أن شــعراء الجاهليــة كانوا قــد خلطوا الحقــائق بالأساطيــر خلال حديثهم عن الجن .

من ذلك ما رواه الجاحظ لسمير بن الحارث الضبي فى شعره :

أتوا ناري فقلت منون قالــوا سراة الجن : قلتُ عموا ظلاما

فقلت إلى الطعام فقال منهــم زعيم : نحسد الإنــس الطعامـا

لقد فضلتــم بالأكـــل فينــا ولكن ذاك يعقبكـــم سقـامــا

فالشاعر هنا يزعم أن الجن يبادر دون الناس بالزيارات ، وحاول أن يكرمهم، ولكنهم اعتذروا بحـسرة عن أكل الطعام ، وهذا مخالف لما أثبـته الشرع الحنيف، ولما جاء فى أحاديث المصطفى ﷺ كما سيأتى بيانه :

---

(١) انظر : المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى : ص ٢٨ - ٣٤ .

(٢) بلوغ الأرب : ٢/ ٣٦٥ والمعتقدات والقيم : ص ٣١ .

(٣) بلوغ الأرب ٢/ ٣٥٠ - ٣٥١ .

ووجود الجن أقره الإسلام ، فمنهم المسلمون ومنهم الكفرة ومنهم العصاة . قال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ .

إلا أن الناس قديماً وحديثاً تجاوزوا هذا الحد من المعتقد ونسجوا أساطير وخرافات ليس لها من الحقيقة نصيب .

ذلك أن أهل الجاهلية عاشوا على الفطرة في صحراء رحيبة جدبة يقل سكانها والجائلون فيها ، ويغمر الظلام والسكون والوحشة كل شيء فتتسلط الأوهام، وتتجسم المخاوف والأحلام فيدعى كثير من العرب أنهم رأوا الجن وخالطوها، وصادقوها وخاصموها ونسلوا منها (١) .

وكثر شعرهم في ذلك ، وقد علل الجاحظ لذيوع الشعر المتصل بالجن تعليلاً حسناً بقوله : « ومما زادهم في هذا الباب وأغراهم به . . أنهم لا يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابياً مثلهم . . . وإما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر، والراوية عندهم كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أظرف عندهم ، وصارت روايته أغلب، فلذلك صار يدعى بعضهم رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزوجها » (٢) .

وقد كانت قصصهم عن الجن كثيرة ومن أشهرها ما يتعلق بالغول وشراستها، وزعم بعضهم أنه تزوج منها ، وذكر أن الشاعر تابط شراً تعرض بغيلة ولما راودها عن نفسها وامتنعت عليه جللها بالسيف وقتلها وقال : (٣) .

فأصبحتُ والغول لى جارةٌ   فيا جارتا أنتِ ما أهولا
طالبتُها بُضعها فالتــوتْ   بوجهٍ تَهوّل فاستغـولا
فجللتها مرهفاً صارمـاً   أبان المرافق والمفصلا

وكان هذا الحيوان أنثى في زعمهم وهى مخلوقة عجيبة خطيرة لها أسنان حادة

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ص ٤٦٠ .

(٢) كتاب الحيوان للجاحظ : ٦/ ٧٩ .

(٣) بلوغ الأرب : ٢/ ٣٤٤ ، والشعر والشعراء : ١/ ٣١٤ .

مخيفة يشبهون بها سهامهم القاتلة قال امرؤ القيس : (١)

أيقتلنـي والمشـرفيّ مضاجـعي   ومسنونةٌ زرقٌ كأنياب أغــوال

ومن خرافاتهم فيها أنها كـانت تموت بضربة واحدة ، فإن ثنيتَ عليها عاشت ، إلى غير ذلك من الخرافات المتصلة بها .

ومن مذاهبهم في الجن أنهم كانوا إذا قتلوا الثـعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره، فكانوا يأخذون روثة ويفتونها على رأسها ويقولون (روثة راث ثائرك).

وقال بعضهم :

طرحنا عليـه الروث والزجر صـادق

نراث علينـا ثــاره والطـوائــل (٢)

ومن أساطير القـوم فى الجن زعمهم أن أخبثـها وأقواها تلك التي تسكن وادي عبقر(٣) ، يقول زهير : (٤) .

تحيل عليـــها جنــةٌ عبقريــة   جديرون يوماً أن ينالوا ويستعلوا

وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصد الـثيران عن الماء حتى تمسك عن الشرب فتهلك ، وفي ذلك يقول الشاعر : (٥)

كـذاك الثـور يضـربُ بالـــهـراوَى

إذا مـا عانتِ البــقر الظـــماء

والأساطير المتعلقة بالجن كثيرة (٦) .

---

(١) ديوانه : ص ٣٣ .

(٢) بلوغ الأرب : ٢/٣٥٨ .

(٣) عبقر اسم لأكثر من مكان فى جزيرة العرب ، زعم القـوم أن الجن كانت تـسكن بعضها . «معجم البلدان: عبقر» .

(٤) ديوانه : ص ١٠٣ .

(٥) نهاية الأرب للنويرى : ٣/١٢٣ .

(٦) انظر تفصيلاً لذلك : بلوغ الأرب / ٣٤٠ - ٣٥٨ .

- الحياة العربية / ٤٥٩ - ٤٧٥ .

- والمعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى / ٢٦٢-٢٧٠

ثانياً : الخرافات والأساطير الاجتماعية

الخرافات التي كانت تسيطر على حياة الجاهليين ومجتمعاتهم كثيرة، تكاد لا تحصى ولا تحصر ، وسنذكر نماذج منها لطرافتها ودلالتها على العقلية التي كانت تسود تلك المجتمعات ، وخضوعها للأوهام ، بعد أن غابت عنها العقيدة السليمة وابتعدت عن الدين المستقيم .

وسوف نختار الموضوعات التالية :

١ - خرافاتهم حول العلل والأمراض .

٢ - أساطيرهم حول الحب وعلاقه الرجال بالنساء .

٣ - خرافات لها صلة بالموتى .

٤ - أساطيرهم حول السفر والمسافرين .

٥ - خرافاتهم حول السلم والحرب .

١ - خرافاتهم حول العلل والأمراض

زعم أهل الجاهلية أن التعشير يحفظ من الحمى : إذ أن الرجل إذا ورد باب قرية وخاف وباءها ، وقف ببابها ونهق عشر مرات كما يفعل الحمار ، فإن وباءها لا يضره، وسموا ذلك التعشير .

وفى ذلك يقول عروة بن الورد : (١)

لعمرى لئن عشرتُ من خشية الردى   نهاق الحمير إنني لجزوعُ

وقالوا : ألا انهق لا تضرك خيبر   وذلك من فعل اليهود ولُوع

وكان من حديث عروة : أنه خرج فى أصحابه ليمتاروا من خيبر، وكانت مشهورة بالحمى والوباء، فلما اقتربوا منها خافوا وباءها، فنهقوا، أما عروة فأبى أن ينهق، وأنف من ذلك ، ويقال : إن رفقته مرضوا، ومات بعضهم ، ونجا عروة من الموت والمرض (٢) .

دواء الكلب:(٣) وزعموا أنه إذا عض أحدهم الكلب الكليب، طلبوا له دم شريف من أشرافهم، أو ملك من ملوكهم زاعمين أن دماء الأشراف والملوك تشفي من الكلب، قال الشاعر :

بناةُ مكارم وأساةُ كلم   دماؤهم من الكلَب الشفاءُ

وقد مرمعنا فى موضع التمائم أن التنجيس كان يحمي من الأخطار ، وأن اللديغ كان يعالج بحلي النساء ، كما أن العرب كانوا يكوون الجمل السليم ليصح الأجرب(٤) قال النابغة الذبيانى :

وكلفتنى ذنب امرىء وتركته   كذى العُرّ يكوى غيره وهو راتع

---

(١) ديوان عروة : ص ٩٥ (ولوع: الكذب) .

(٢) انظر بلوغ الأرب : ٢/ ٣١٥ .

(٣) بلوغ الأرب : ٢/ ٣١٩ ، والبيت فى كتاب الحيوان للجاحظ ، ٢/ ٥ .

(٤) انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي : الحوفي .

٢ - أساطيرهم حول الحب وعلاقة الرجال بالنساء :[١]

من ذلك اختلاج العين : وهو أن الرجل منهم كان إذا اختلجت عينه ، فإنه سيرى من يحب فإن كان غائباً توقع قدومه ، وإن كان بعيداً توقع قربه .

قال بشر بن أبى خازم : [٢]

إذا اختلجت عيني أقول لعلها　　　فتاة بني عمرو بها العين تلمع

وقال آخر :

إذا اختلجت عيني تيقنت أنني　　　أراك وإن كان المزار بعيداً

وهذا الوهم باق في الناس حتى اليوم ، وربما كان لدى البعض منهم كالقاعدة المطردة .

ومن ذلك أن الرجل منهم كان إذا خدرت رجله ذكر من يحب أو دعاه فيذهب خدرها .

ومن مذاهبهم أن الرجل منهم كان إذا عشق ولم يسلُ ، وأفرط عليه العشق ، حمله رجل على ظهره كما يحمل الصبي، وقام آخر فأحمى حديدة أو ميلاً، وكوى به بين إليتيه فيذهب عشقه فيما يزعمون. قال أعرابى :

كويتم بين رانفتي مهلاً　　　ونار القلب يضرمها الغرام [٣]

ومن ذلك أن شق الرداء كان يقوي الحب : كانوا يزعمون أن الرجل إذا أحب امرأة وأحبته ، فشق برقعها ، وشقت رداءه صلح حبهما ودام، فإن لم يفعلا ذلك فسد حبهما [٤] . وبقي هذا الوهم إلى ما بعد العصر الجاهلى .

ومن مذاهبهم أن صاحب الفرس المهقوع إذا ركبه فعرق تحته، اغتلمت امرأته

---

(١) انظر بلوغ الأرب : ٢/ ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٢) ديوان بشر بن أبى خازم : ص ١١٨ ، تحقيق عزة حسن .

(٣) الرانفة أسفل الإلية إذا كان الرجل قائماً .

(٤) بلوغ الأرب : ٢/ ٣٢٢ ، والحياة العربية من الشعر الجاهلى : ص ٤٩٧ .

وطمحت إلى غيره ، والهقعة دائرة تكون بالفرس وربما كانت على الكتف فى الأكثر ، وهى مستقبحة عندهم [1] .

ومن مذاهب العرب الرتم :

ذلك أن الرجل كان إذا عزم على سفر، عمد إلى شجرة فيعقد غصنين منها، ويعقد خيطاً فى غصن شجرة أوساقها، فإذا عاد ووجد الخيط على حاله علم أن زوجته حفظت غيبته ، وإن لم يجده ، أو وجده محولا قال : إنها خانته، وهذا العقد يسمى الرتم والرتيمة [2] .

وتظرف شاعر فى قوله : إن فلاناً يعلم أن ظبيه مستحل ، ولكنه يخدع نفسه ويعللها بالرتائم وأنشد :

يعلل عمرو بالرتائم قلبه وفى الحي ظبي قد أحلت محارمه

فما نفعت تلك الوصايا ولاجنت عليه سوى مالا يحبُّ رتائمه

وذكر ابن الأعرابى : أن رجلاً من العرب أراد سفراً فأخذ يوصى امرأته ويقول: إياك أن تفعلي ، وإياك فإنى عاقد لك رتمة بشجرة ، فإن أحدثت حدثاً انحلت ، فقال له الراجز [3] :

هل ينفعنك اليوم أن همَّت بهمْ كثرة ما توصي وتعقاد الرتم ؟

٣ - خرافات لها صلة بالموتى : [4]

من ذلك الهامة والصدى : أما الهامة فهى خرافة مبعثها ولوعهم بالثأر ، وأي تحريض على الثأر أقوى من زعمهم أن القتيل الذى لم يؤخذ بثأره يخرج من

(١) بلوغ الأرب : ٢/ ٢٢٣ .

(٢) أساس البلاغة والقاموس المحيط : مادة (رتم) .

(٣) بلوغ الأرب : ٢/٣١٦ .

(٤) انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ص ٤٩٤ - ٤٩٧ ، وبلوغ الأدب ٢/ ٣١١ .

هامته طائر يسمى الهامة، فلا يزال يقول : اسقوني ، اسقوني ، حتى يقتل قاتله فيسكن [1] .

يقول المسعودى : «إن من العرب من يزعم أن النفس طائر ينبسط في الجسم، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً يصدح على قبره ، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبداً مستوحش ويسكن فى الديار المعطلة ، ومصارع القتلى والقبور، وأنها لم تزل عند ولد الميت لتعلم ما يكون بعده ، فتخبره به » [2] .

وقد نهى الإسلام عن هذا المعتقد ، جاء فى الحديث الشريف : «لاهامة ولاصفر».

وقال شداد بن الأسود بن عبد شمس فى رثاء كفار قريش يوم بدر : [3]

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهامُ ؟

وقال أبو دؤاد الإيادي : [4]

سلط الموت والمنون عليهم فلهم في صدى المقابر هام

وقال ذو الإصبع العدوانى مهدداً ابن عمه المبغض له : [5]

يا عمرو إنْ لا تدع شتمى ومنقصتي

أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

أما الصدى : فمن معانيه أنه طائر يخرج من رأس القتيل إذا بلي ، كما يزعم

---

(١) الأمالي : ابو علي القالي ، ١/١٢٩ ، طبعة دار الكتب .

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي ، مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .

(٣) السيرة النبوية : ابن هشام ، ٢/٢٩١ .

(٤) مروج الذهب : المسعودى ، ١/٢٥١ .

(٥) المفضليات : ١/ ١٦٠ .

العرب ويظهـر أنهم أطلقوه على غير القـيتل فيمـا بعد . [1] وذكر الجـاحظ أن الصدى طائر يخرج من قبر الميت فينعي إليـه عجزه وهذا ما كانت العرب تقوله فى الجاهلية [2] قال النمر بن تولب :

أعاذل إن يصبح صداي بقـفرة بعيداً نآني صاحبـي وقريبـي
ترى أن ما أبقيتُ لم أك ربـه وأن الذى أنفقت كان نصيبي

وقد ظل هذا من تخيلات العرب بعد الإسلام ، مما يدل على أصالته في نفوس العرب. قال توبة :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت علي ودوني جندل وصفائـــح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا إليها صدى من جانب القبر صائح

ومن خرافاتهم فى هذا الشأن ،**وطء المقاليت للقتلى الكرام** [3]

ذلك أن المرأة المقلاة إذا وطئت قـتيلاً شـريفاً عدة مرات عـاش ولدها. قال أبو عبيدة: تتخطاه المقلاة سبع مرات ، فذلك وطؤها له .

قال بشر بن أبى خازم : [4]

تظل مقاليت النساء يطأنـــه يقلن ألا يلقى على المـــرء مئزر

٤ - أساطيرهم حول السفر والمسافرين :

من خرافات القوم في ذلك : أن النساء كن إذا غاب عنهن من يحببن أخذن تراباً من موضع قدمه ، وموضع رجله .

وكانت العرب تزعم أن ذلك أسرع لرجوعه !

---

(١) القاموس المحيط : (مادة صدى).

(٢) البيان والتبيين : الجاحظ ، ١/ ٢٨٤ .

(٣) بلوغ الأرب : ٢/ ٣١٧ ، المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى ، ص ٢٥٨ .

(٤) ديوانه : ص ٨٨ ، طبعة دمشق .

قالت امرأة من العرب : [1]

أخذت تراباً من مواطىء رجله غداة غد كيما يؤوب مسلّما

* ومن مذاهبهم : أن الرجل إذا خرج من بلده إلى آخر ، فلا ينبغي له أن يلتفت ، فإنه إذا التفت عاد فلذلك لا يلتفت إلا العاشق الذى يريد العودة مباشرة.

قال بعضهم : [2]

دع التلفت يا مسعود وارم بها وجه الهواجر تأمن رجعة البلد

وقال آخر : تلفتُّ أرجو رجعة بعدنية فكان التفاتي زائداً فى بلائيا

وأرجو رجوعاً بعدما حال بيننا وبينكم حَزْنُ الفلا والفيافيا

* ومن هذه الخرافات كسر الآنية خلف المسافر أو الضيف

كانوا إذا رحل الضيف أو غيره عنهم ، وأحبوا أن لا يعود ، كسروا شيئاً من الأواني ، وهذا مما يعمله بعض الناس اليوم [3] .

قال بعضهم : كسرنا القدر بعد أبي سواح فعاد وقدرنا ذهبت ضياعا

وقال آخر : ولا نكسر الكيزان فى إثر ضيفنا : ولكننا نكفيه زاداً ليرجعا .

* ومن خرافاتهم العجيبة مناداة المسافر من البئر. فإذا غم عليهم أمره ولم يعرفوا له خبراً ، جاءوا إلى بئر عادية[4] ونادوا :

يا فلان ثلاث مرات ، ويزعمون أنه إذا كان ميتاً لم يسمعوا صوتاً ، وإن كان حياً سمعوا صوتاً ربما توهموه وهماً أو سمعوه من الصدى ، فبنوا عليه عقيدتهم.

(١-٢-٣) انظر بلوغ الأرب : ٢/ ٣٤٠ ، ٣٢٦-٣٢٨ ، ١٣٣١ .

(٤) أى بئر مظلمة بعيدة القعر ، منسوبة إلى قوم عاد كناية عن قدمها

قال شاعرهم :

وكم ناديته والليل ساج ... بعاديٍّ البثار فما أجابا [1]

وقال آخر :

دعوتُ أبا المغوار فى الحفر دعوةً ... فما آضَ صوتي بالذى كنت داعيا

أظنُّ أبا المغوار فى قعر مظلم ... تجر عليه الذاريات السوافيا [2]

٥ - خرافاتهم حول السلم والحرب :

ومن أعجب خرافاتهم : أن بول النساء يطفىء نار الحرب ، ذلك أنهم كانوا فى الحرب ربما أخرجو ا النساء فبلن بين الصفين ، يرون أن ذلك يطفىء نار الحرب، ويقود إلى السلم . قال بعضهم [3] .

لقونا بأبوال النساء جهالة ... ونحن نلاقيهم ببيض قواضب

ومن أغرب خرافاتهم التعقية : ذلك أنهم كانوا يجتمعون للصلح فى الدماء ، فيأخذ حكامهم سهماً ، ويقذفون به إلى السماء ، فإن رجع السهم ملطخاً بالدم أبى، أهل القتيل إلا القود ، وإن رجع نقياً مسح القوم لحاهم وصالحوا على الدية.

قال الشاعر :

عقوا بسهم ثم قالوا : صالحوا ... يا ليتنى فى القوم إذ مسحوا اللحى

قال ابن الأعرابى : ما رجع ذلك السهم قط إلا نقيا ، ولكنهم يعتذرون به عند الجهال [4] .

---

(١) المصباح : ساج : ساكن ، سجا الليل : ستر ظلمته .

(٢) بلوغ الأرب : ٣/ ٣ والذاريات : الرياح الهائجة ، والسوافي: سافية أى (التراب).

(٣) بلوغ الأرب : ٣/ ٤ ، والبيض السيوف ، القواضب : القاطعات .

(٤) بلوغ الأرب : ٣/ ١٨-١٩ ، المعتقدات والقيم : ص ٢٧١ .

المبحث الثاني

موقف الإسلام من الخرافات والأساطير

١ - حكم الإسلام فى الكهانة والعرافة والتنجيم .

٢ - حكم الإســـــلام فى التمائـــم والرقـــى .

٣ - الطيرة : الزجر والعيافة فى ميزان الـــشرع .

٤ - الإســــــلام يحرم الســــــحر .

٥ - عالم الجن فى التصور الإســــــلامى .

المبحث الثاني : موقف الإسلام من الخرافات والأساطير

ونخص بالذكر هنا ثلاثة أمور من المعتقدات الباطلة ، وأبرزها تصديق أدعياء علم الغيب، ثم الزجر والطيرة ، ثم تعليق التمائم والتداوي بالخبائث .

« وسبب ذلك هو الدينونة لغير الله فى الاعتقاد والتصور ، مما يؤدي إلى الوقوع فى براثن الأوهام والأساطير والخرافات التى لا تنتهي، والتى تمثل الجاهليات المختلفة صوراً منها ، وتمثل أوهام العوام المختلفة صوراً منها ، . . ويعيش الناس مع أربابهم فى رعب مستمر ، ومع السدنة والكهنة المتصلين بهذه الأرباب الوهمية ، ومن السحرة المتصلين بالجن والعفاريت ، ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار »[1] .

وقد يبدو لنا أن التصورات الوثنية ، والأساطير الجاهلية قد انتهت اليوم . . . ، ولم تعد ذات موضوع يعالجه هذا التصور الإسلامى الصحيح ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فما يزال مئات الملايين من البشر فى الهند واليابان والتيبت وسيلان ومساحات شاسعة في أفريقيا وقبائل متفرقة في استراليا وأمريكا ماتزال هذه المئات من الملايين البشرية غارقة فى أساطير الوثنيه وتصوراتها عن حقيقة الألوهية وعن حقيقة الكون تبعاً لذلك ، وما يزال أمام التصور الإسلامي الصحيح لهذه الحقائق الأساسية مجال عمل مفتوح .

وفى بلاد حضارة القرن العشرين ، يوجد أكبر سوق تجاري للتمائم[2] فى عصرنا فى الولايات المتحدة الأمريكية . وما الحديث عن العرّافة التى كانت تلعب بعقول البيت الأبيض/ عنا ببعيد ، وما ذلك إلا بسبب الخواء الروحي ، وإلا فأين تفكيرهم العلمي ، وأين العقول السليمة ؟

---

(١) فى ظلال القرآن : ٤/ ١٩٤١

(٢) مقومات التصور الإسلامي : سيد قطب ، ص ٣٥٢ . .

وفى كثير من أنحاء العالم العربي والإسلامى ، ما يزال كثير من الخرافات والأساطير يغزو العامة وبعض الخاصة . . .

وقد ذكر صاحب (كتاب الإبداع فى مضار الابتداع) كثيراً منها ، وها نحن نذكر نماذج قليلة منها [1] .

يقول رحمه الله : ومن الخرافات ترك بعض العامة تنظيف البيت وكنسه عقب سفر من سافر من أهله ، ويتشاءمون بفعل ذلك بعد خروجه ، يتوهمون أن ذلك لو فعل لا يرجع المسافر .

وكذلك تركهم كنس المنزل بالليل ، يزعمون أنه يورث الفقر ، أو يؤذي الجن لانتشارهم بالليل .

وكذلك غرز السكين ليلة عيد الفطر على أبواب المنازل والغرف، يرون أن الشياطين التى كانت مسجونة فى شهر رمضان تخرج من سجنها ليلة العيد، فيتقون دخولها المساكن بهذه السكين .

ومن أوهامهم : أن البكر عند عقد الزواج تضع فى فمها قطعة من السكر، وبيدها اليمنى شمعة موقدة ، وباليسرى مرآة تنظر فيها ، ورجلاها في إناء مملوء بالماء البارد، وعلى رأسها امرأة تقرأ فى المصحف سورة: تبارك (الملك)، يتوهمون أنها بذلك تكون محببة إلى بعلها . . .

ومن أوهام العامة اعتقادهم فى كثير من أضرحة الأولياء اختصاصات كاختصاصات الأطباء . فمنهم من يذهب بالأطفال المرضى إلى بعض الأضرحة ، ويلقونهم فيها يوم الجمعة من الزوال إلى الفراغ من صلاتها، ويحبسونهم فى الأضرحة ويتركونهم فيها يبكون ويصيحون ويبولون ويتغوطون عند قبرالولي ، هكذا يفعلون ثلاث جمع فشفى .

ومنها أن السلحفاة ، أصلها امرأة أنكرت الرحى من جارتها فمسخها الله إلى هذه الصورة ، والمعقول أنها حيوان خلق ابتداء هكذا كباقي أنواع الحيوان.

---

(١) مقتطفات من كتاب : الإبداع فى مضار الإبتداع : الشيخ علي محفوظ (الصفحات : ٤٣٥ - ٤٣٨) .

ومن خرافاتهم عندما يصاب إنسان أو حيوان بنظرة العين ، ثم يرقونه بالشب على النار ، اعتقادهم أن الشب يتمثل بصورة العائن فيقلعون عين هذا التمثال ،زاعمين أن ذلك يصرف السوء عن المعيون ، وإذا عرف العائن عندهم ، احتالوا للحصول على قطعة من ثيابه وحرقوها ، زاعمين أن ذلك أيضاً يبطل أثر العين.

ومن خرافاتهم أن بعضهم يضع شيئاً من الخبز والملح والماء مع الميت فى القبر عند دفنه، زاعمين أنه يتناول منه مع الملائكة فتكرمه عند السؤال .

ومنها غرز المسامير فى نحو شجرة السدر ، تكون بجانب الولي زاعمين أن ذلك يشفى من مرض الصداع . . .

ومن خرافاتهم : الطواف بالولد حول القرية يوم العيد راكباً على أتان ، وظهره جهة الأمام ، ووجهه جهة خلف الدابة ، وحوالي رأسة الريش، وحوله جمع من الأولاد يصيحون قائلين :(يابو الريش إن شا الله تعيش).

ومنها تحريم الخياطة يوم الجمعة ، أو يوم الوقوف بعرفات ، وكذا منع الإبرة والمنخل ليلاً تشاؤماً بذلك [1] .

وعلى العموم فالأوهام والأساطير مرض عام ، لايخص الجاهلية وأهلها ، وإنما يقوى مع الجهل والضلالات ، مع البعد عن السنة ، واتباع البدع بأنواعها . .

« ومن البدع الاعتقادية المنتشرة ، أنك ترى بعض العامة يتاجرون بالكشف عن المغيبات ، ويوهمون البسطاء من الرجال والنساء أنهم أولياء الله ، وربما أخبروا ببعض ضمائر من يحضرون عندهم ، فيقع ،الاعتقاد بأنهم من عباد الله المقربين، مع العلم بأنهم يقترفون المنكر بسبب اختلائهم بالأجنبيات ، وأكل أموال الناس بالباطل .

ووجه الخطأ فى ذلك ، أن الولاية لا تكون إلا لعباد الله المتقين وأين هم من ذلك ؟!

---

(١) الإبداع فى مضار الابتداع : (ص ٤٣٩ - ٤٤٠) .

وأما إخبارهم عما فى الضمائر كما يزعمون - فسببه أن بعض النفوس قد يوجد بها استعداد خاص ، تتمكن به من استطلاع ما تكنه نفس أخرى .

أو أن الشياطين يوحون إليهم، ويأخذونه من شياطين من يحضرون عندهم .

وصفوة القول : إن ما عند المنجم والرمّـال الذى يضرب بالحصى ، ليس علماً حقيقياً ، وإنما هو ظن وتخمين ، يبنى على أمارت عادية ، كثيراً ما تتخلف ويظهر كذبهم فيها » [1] .

وقد حرم الإسلام كل هذه البدع ، ونهى عنها .

وفى هذا المبحث سوف نتحدث عن حكم الإسلام فى هذه الخرافات والأساطير ، لأن علم الغيب بيد الله ،لم يعطه أحداً من خلقه .

١ - حكم الإسلام فى الكهانة والعرافة والتنجيم

إن تصديق الكهان والعرافين من الخرافات الشركية ، لأن هؤلاء يزعمون أنهم يعلمون الغيب ، وقد اختص سبحانه وتعالى بخزائن الغيب ، واحتفظ بمفاتيحها لنفسه، فلم يطلع أحداً عليها من خلقه إلا إذا شاء وكيفما شاء .

قال تعالى : ﴿ **عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول** ﴾ [الجن : ٢٦ - ٢٧] .

ومفاتيح الغيب كما بين رسول الله ﷺ خمس ، فقد أخرج الإمام البخاري ، عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « مفاتح الغيب خمس، إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ،وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير » [2] .

إن علم الغيب من شأن الله عز وجل ، لم يجعل مفاتحه لأحد من الخلق، فإذا كان تعالى قد أخفى غيبه حتى عن أكرم خلقه عليه الصلاة والسلام ، أفكان

---

(١) الإبداع فى مضار الابتداع : الشيخ على محفوظ ، ص ٣٤٣ ، ص ٣٤٧ .

(٢) صحيح البخاري : كتاب التفسير .

يمنحه لأحد من أولئك الكهان والعرافين والمنجمين ؟ وإذا كان الله جل شأنه قد أخفى علم الغيب عن الإنس والجن أجمعين ، أفكان يمنحه للطير أو للحيوان أو غيرهما من الخلائق ؟ [(١)] .

فالكهان أولياء الشياطين الذين يوحون إليهم كما قال تعالى : ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾ [الأنعام / ١٢١].

ويتنزلون عليهم ويلقون إليهم الكلمة من السمع فيكذبون معها مائة كذبة . كما قال تعالى : ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾ [الشعراء : ٢٢١] .

وقال ﷺ في حديث الوحي : « فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ؟ فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيلقي معها مائة كذبة » [(٢)] .

« ومن ذلك الخط بالأرض الذى يسمونه ضرب الرمل وكذا الطرق بالحصى ونحوه» [(٣)] .

« وعن عائشة رضى الله عنها قالت . قلت يا رسول الله : إن الكهان قد كانوا يحدثوننا بالشيء فيكون حقا . قال : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه ، فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة » [(٤)] .

لقد كانت الكهانة فاشية في العرب الجاهليين ، لانقطاع النبوة منهم ، وقد كانت أصنافاً :

---

(١) القيم والمعتقدات فى الشعر الجاهلى : ص ٧٣٧

(٢) جزء من حديث طويل رواه البخارى فى التفسير والترمذى فى تفسير سورة سبأ وابن ماجة فى المقدمة . .

(٣) أعلام السنة المنشورة / ص ١٥٨ .

(٤) متفق على صحته : البخارى فى الطب ومسلم فى السلام . ويخطفها الجني : يأخذها ويسلبها بسرعة «انظر شرح السنة / جـ ١٢ /ص ١٨٠ .

١ - ما يتلقونــه من الجن . . . فلما جاء الإسلام ونزل القــرآن حرست السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشهب .

٢ - ما يخبر به الجنــي من يواليه بما غاب عن غيره، مما لا يطــلع عليه الإنسان غالباً.

٣ - ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس .

٤ - ما يستند إلى التجربة والعادة [١] .

وقد شدد الإســلام فى عقوبــه الساحر والكــاهن ، وجعل حكـمهما الـقتل أو الحبس حتى يتوبا، لحديث عمر رضى اللــه عنه «اقتلوا كل ساحر وكاهن ، وليس هو من أمر الإسلام» وهذا يــدل أن كل واحد منهما فيه روايتان إحــداهما أن يقتل إذا لم يتب، والثانية لا يقتل لأن حكمــه أخف من حكم الساحر ، واختلف فيه فهذا يدرء القتل عنه أولى [٢] .

وعن أبي مــسعود الأنصــارى أن رسول الله ﷺ نــهى عن ثمــن الكلب ومــهر البغي وحلوان الكاهن [٣] .

وعن حفــصة رضي الله عــنها قالت ، قــال رسول الله ﷺ: « من أتــى عرافاً فسأله عن شيء ، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » [٤] .

وعن أبي هريــرة عن النبى ﷺ قال : « من أتى كــاهناً فصدقه بما يــقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » [٥] .

---

(١) عالم الغيب والشهادة : عثمان جمعة ضميرية / ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) ينظر المغني : جـ ٨ / ص ١٥٥ .

(٣) شرح صحيح مسلم : جـ ١٠ / ص ٢٣١ .

(٤) رواه مسلم :مشكاة المصابيح ، جـ ٢ / ١٢٩٣ .

(٥) رواه أبو داود « الجامع الفريد ص ١٢٣ - ١٢٤ » .

فعقيدة أهل السنة : « ولا نصدق كاهناً ولا عرافاً ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة » (١) .

والمنجمون : هم القائلون بدلالات النجوم ، ومقتضى أوضاعها فى الفلك وآثارها فى العناصر ، وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر . . وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب فى شىء ، إنما هى ظنون حدسية وتخمينات مبنية على تأثير النجوم فى العالم وذلك كله باطل (٢) .

وقد حذر منهم النبى ﷺ فقال : « من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد مازاد » (٣) .

واعتقاد المعتقد أن نجماً من النجوم السبعة هو المتولي لسعده ونحسه اعتقاد فاسد، وإن اعتقد أنه هو المدبر له : فهو كافر . وكذلك إن انضم إلى ذلك دعاؤه والاستعانة به كان كفراً وشركاً محضاً (٤) .

ولما أراد علي بن أبى طالب رضى الله عنه أن يسافر لقتال الخوارج عرض له منجم فقال : يا أمير المؤمنين : لا تسافر فإن القمر فى العقرب ، فإنك إن سافرت والقمر فى العقرب هزم أصحابك فقال علي : بل أسافر ثقة بالله وتوكلاً على الله وتكذيباً لك، فسافر فبورك له فى ذلك السفر حتى قتل عامة الخوارج وكان ذلك من أعظم ما سر به ، حيث كان قتاله لهم بأمر النبي ﷺ (٥) .

وكان من شركيات الصابئين وأتباعهم أنهم كانوا إذا ولد لهم المولود ، أخذوا طالع المولود ، وسموا المولود باسم يدل على ذلك ، فإذا كبر سئل عن اسمه ، وأخذ السائل حال الطالع . فجاء هؤلاء الطرقيه يسألون الرجل عن اسمه واسم

(١) شرح الطحاوية : ص ٧٥٩ .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون : ١/ ١٩٥ ، ورد ابن تيمية عليهم فى الفتاوى : ٣٥/ ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الطب ، وابن ماجة فى الأدب ، عالم الغيب والشهادة / ١٢٩ .

(٤) الفتاوى لابن تيمية : (جـ ٣٥ / ص ١٧٧) .

(٥) الفتاوى لابن تيمية : جـ ٣٥ / ص ١٧٨ - ١٧٩ .

أمه ، ويزعمون أنهم يأخذون من ذلـك دلالة على أحواله . وهذه ظلمات بعضها فوق بعض منافية للعقل والدين [١] .

وقد أخبر سبحانه في كتابه عن منافع النـجوم : فإنها يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، وأخبر أنها زينة للسماء الدنيا ، وأخبر أن الشياطين ترجم بالنجوم ، وإن كانت النجوم الـتي ترجم بها الشياطين مـن نوع آخر غير النجوم الثابـتة في السماء والتي يهتدى بها ، فإن هذه لا تزول عن مكانها بخلاف تلك [٢] .

فالاستفادة من مطـالع النجوم وفوائدها شيء ، والاستدلال بمطالـعها على علم الغيب شيء آخر حرمه الإسلام ، فمن اعتقد صدق المنجمين والكهان فقد كفر .

ولعل من ذلك النـوع ما تنشره بعض الصحف والمجـلات عن طالع القاريء أو القارئة، ويتلقفها الكثيرون ليروا حظهم وطالعهم!!في هذه الأيام.

٢ - حكم الإسلام في التمائم والرقى :

اتقاء الأخـطار بالتمـائم والرقى الشيـطانية ، والأدوية الخـبيثة من أعـمال أهل الجاهلية .

فقد علق القوم على ذلك آمالهم ، وأفـسدوا به أعمالهم يعلقون التمائم والودع والخرز على الصـغار والكبار لتحميـهم - فيما يزعمون - مـن الأخطار ، ويرقون مرضاهم برقى ، وتعـاويذ ما أنزل الله بها من سلطان ، ويداوونهـم بأدوية خبيثة كالمحرم مـن المأكولات والمشروبـات ، أو تعليق الـقاذورات على المريـض ، وغير ذلك من السفه ودنيات الأمور وغبش التصورات .

ولما كان الإسلام هو دين الطـبع النظيف والتصور السليم فـقد أعلن على ذلك العبث الحرب الضروس وأنقذ منه الأفهام والعقول والقلوب [٣] .

فتعليق الرقى على المرضى والأطفال لا يجـوز ، وتسمى الرقى المعلقة التمائم، وتسمى الحروز والجوامع ، والصواب أنها محرمة ، ومن أنواع الشرك [٤] لحديث

---

(١) الفتاوى لابن تيمية: جـ ٣٥ / ص ١٧٨ .
(٢) الفتاوى لابن تيمية ، جـ ٣٥ / ص ١٦٨ .
(٣) القيم والمعتقدات في الشعر الجاهلي : ص ٧٤٦ .
(٤) فتاوى ابن باز : جـ ٤ / ص ٢٠ .

عقبة بن عامر فيما أخرجه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك قال «سمعت رسول الله ﷺ يقول : من تعلق تميمة فلا أتم الله له » [1] فتعليق التمائم يدل على خلل فى الاعتقاد ، وضعف فى التفكير وقد يكون شركاً أكبر أو أصغر بحسب حال المتعلق وحال المتعلق به ، مع العلم أن الشرك الأصغر أكبر من كبائر الذنوب ، كما أفتى بذلك صحابة رسول الله ﷺ ، وأن تعليق التمائم ليس من الأسباب المشروعة ولا من الأسباب الاعتباريه لجلب خير أو دفع ضر [2] .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك »[3] .

ولا يعنى ذلك أن الإسلام قد منع الرقى كلها ، ولكنه منع الرقى المحرمة ، ولا يعني أن الإسلام قد منع التداوي ، ولكنه منع التداوى بالخبائث . قال عليه الصلاة والسلام : « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » [4] .

أما التداوي بالرقى الباطلة أو السحر أو النّشرة أو تعليق الخبائث فهذا هو المحرم شرعاً .

فالرقية بالقرآن والدعاء الصالح من سنة رسول الله ﷺ .روى مسلم فى صحيحه أن جبريل أتى النبى ﷺ فقال : ﴿ **يا محمد ! اشتكيت ؟ فقال : نعم . قال: بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك ، باسم الله أرقيك** ﴾ [5] .

---

(١) المسند : ٤/ ١٥٤ ، المستدرك : كتاب الرقى والتمائم ، ٤/ ٤١٧

(٢) التمائم فى ميزان العقيدة : د . على العليانى ، .ص ٥٠٨

(٣) صحيح سنن ابن ماجة : جـ ٢/ ٢٦٩ ، صححه الالباني .

« التولة : ضرب من الخرز ، أو معاذة تعلق على الانسان لتحبيب المرأة لزوجها - انظر اللسان : تول » .

(٤) صحيح البخاري : كتاب الطب ، انظر فتح البارى : ١٠/ ١٣٤ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي : ١٤/ ١٧٠ .

وعن أبي سعيد قال : « كان رسول الله ﷺ ، يتعوذ من عين الجان ثم أعين الإنس. فلما نزل المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك » . «حديث صحيح : ابن ماجة ، جـ ٢/٢٦٦» والعين حق ، والتعوذ من شرها ورد فى سنه رسول الله ﷺ . وفى حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه أن النبى ﷺ قال : «العين حق» (١) .

إلا أنه ينبغي عدم المبالغة فى الخوف من العين ، لأن التوكل على الله ، وذكره دائماً ، وذكر الأدعية الشرعية ، يحصن المسلم من الضرر بإذنه تعالى .

« أما تعليق القرآن أو شيء منه ، فقد اختلف العلماء فى جواز تعليق التمائم من القرآن وأسماء الله وصفاته » .

فقالت طائفة يجوز ذلك . . والأرجح عدم جوازه لوجوه ثلاثة : الأول عموم النهى ولا مخصص للعموم الثانى : سد الذريعة ، فإنه يفضي إلى تعليق ما ليس كذلك . الثالث : إنه إذا علق فلابد أن يمتهن المعلق بحمله معه فى حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك (٢) .

وقبل أن نختم حديثنا عن التمائم ، نذكر هذا الحديث الشريف ، لنوضح أن الاعتقاد بالشفاء عند غير الله لا يصح ، وهو خلل فى التصور «عن عمران بن حصين رضى الله عنه أن النبى ﷺ رأى رجلاً فى يده حلقة من صفر فقال : ما هذه ؟ قال : من الواهنة فقال : انزعها فإنها لاتزيدك إلا وهنا ، فإنك لومت وهي عليك ما أفلحت أبداً » (٣) .

والواهنة : عرق يأخذ فى المنكب ، وفى اليد كلها ، فيرقى منها ، وقيل هو مرض يأخذ فى العضد ، وهى تأخذ الرجال دون النساء وإنما نهاه عليه الصلاة والسلام لكونها يظن أنها تمنع عنه هذا الداء أو ترفعه (٤) .

---

(١) سنن ابن ماجة : والحديث صحيح متواتر ، جـ ٢ / ٢٦٤ .

(٢) فتح المجيد / ص ٩٦ .

(٣) رواه أحمد بسند لا بأس به .

(٤) قرة عيون الموحدين / ص ٥٠ .

وفى العصر الحاضر عاد الاعتقاد بالتمائم قوياً فإذا كان أهل الجاهلية يعلقون وترا على الفرس حتى لا تصيبها العين ، فإن الناس اليوم يعلقون حذاء على السيارة لدفع العين . فما الفرق؟! ونرى بعضهم يعلقون حذاء أو كعب فرس أو شكل هلال على المنزل الجديد . . . فبم يفسر هذا ؟! .

كما عادت بعض أعمال العرافين كقراءة الكف ، والضرب بالرمل والحصى، وقراءة فنجان القهوة ، والنظر فى الأبراج وهذه من أعمال الجاهلية ، تظهر كلما ضعف تأثير العقيدة الصحيحة .

ومجمل نتائج بحث الرقى نوجزه بما يأتي :

١ - الرقى تنقسم إلى شركيه وبدعية وجائزة .

٢ - إن خير الرقى ما كان من كلام رب العالمين أو كلام سيد المرسلين .

٣ - الرقى المشروعة لا تنافي التوكل على الله فهي من الأسباب .

٤ - الرقى تكون لدفع البلاء قبل وقوعه ، ورفعه بعد وقوعه .

٥ - إن التفرغ لأجل الرقية على الناس ، واتخاذ هذا الأمر حرفة يتكسب العبد من ورائها ، لم يكن معروفا لدى السلف الصالح ، وقد تجر الى مفسدةللقارىء وللمقروء عليه .

٦ - إن أخذ الأجرة على الرقية جائز من غير تفرغ لهذا الأمر . وانقطاع إليه ، واتخاذه حرفة كما تقدم [١] .

---

(١) الرقى على ضوء عقيدة أهل السنة اوالجماعة ، ص ٩٠ / العلياني .

٣ - الطيرة : الزجر والعيافة فى ميزان الشرع :

التطير هو التشاؤم بالطيور بعد زجرها ، وهى أمور تدور كلها على حركات الطيور والحيوانات وأشكالها وألوانها وأصواتها .

فكان أهل الجاهلية يتشاءمون بذلك أو يتفاءلون ، ويمضون لأعمالهم أو يتراجعون ، وكان التشاؤم هو الأغلب على أمرهم ، فكانوا يعزون للطير والحيوان ما كان يصيبهم من الضراء ، أو ينزل بهم من البلاء (١) .

وكان الرجل إذا خرج لأمر ورأى ما يحب مضى ، وان رأى ما يكره انصرف، أما ما يقع فى قلبه من محبوب ذلك ومكروهه فليس بطيرة إذا مضى لحاجته وتوكل على ربه. قال ابن عباس رضى الله عنهما : «إن مضيت فتوكل وإنْ نكصت فتطير » (٢) .

ولقد حذر الإسلام من ذلك الأمر وجعل العيافة والزجر والطيرة شركاً .

عن عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنهما قال : « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك ، قالوا فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك » (٣) .

وأخرج أبو داود فى سننه ، من حديث قطن بن قبيصة عن أبيه قال : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : «العيافة والطيرة والطرق من الجبت » (٤) .

وفى صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمى أنه قال : يا رسول الله، ومنا أناس يتطيرون ؟ فقال : ذلك شىء يجده أحدكم فى نفسه فلا يصدنه».

---

(١) المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى : ص ٧٣٩ .

(٢) شرح السنة : جـ ١٢ / ص ١٧٠ .

(٣) رواه الإمام أحمد : ٢٨/٣ .

(٤) سنن أبى داود : كتاب الطب ، والجبت : هو السحر والسحر من الشرك .

فأخبر ﷺ أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته ، لافي التطير به. فخوفه ووهمه وإشراكه هو الذى يصده ويطيره ، لا ما رآه وسمعه ، فأوضح عليه الصلاة والسلام لأمته الأمر ، وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ، ولا فيها دلالة ، ولا نصبها سبباً لما يخافونه لتطمئن قلوبهم ولتسكن نفوسهم إلى وحدانية الله تعالى . . . » (1) .

لقد حرر الإسلام العقول من الأوهام المترسبة منذ أيام الجاهلية فى كثير من النصوص من كتاب الله وسنة رسوله قال ﷺ : « لا عدوى ولا طيرة ولاهامة ولا صفر » (2) .

وهذا أمر صريح لكل مسلم صحيح الاعتقاد ، لا يرد سبب المرض للعدوى كما كان يعتقد أهل الجاهلية ، إذ أن المريض لا يضر غيره بذاته وإنما يضره إذا شاء الله ، كما يجب على المسلم أن يحسن الظن بالله يتوكل عليه وألا يتشاءم أو يتطير، فتتعطل أعماله بسبب من ذلك التطير .

وعلى المسلم أن يتأكد من أن الهامة خرافة ، وأن تحريم شهر صفر بدلاً من المحرم كما كان يصنع أهل الجاهلية ، أمر محرم (3) ، وأبطل الإسلام ذلك كله، وأبطل كل انحراف أو خرافة أو تشاؤم .

وإذا كان الإسلام قد رفض التشاؤم بالمعنى الذى كان يفهمه الناس قبل الإسلام، فقد قبل الفأل الحسن .

عن أنس عن النبى ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبنى الفأل، الكلمة الطيبة ، الكلمة الحسنة » (4) .

الفأل قد يكون فيما يحسن ويسوء ، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وإنما أحب النبى ﷺ الفأل لأن فيه رجاء الخير، ورجاء الخير أحسن بالإنسان من اليأس وقطع الرجاء من الخير(5) . وقد علمنا رسول الله آداب التوكل على الله والفأل

(1) مفتاح دار السعادة : لابن القيم ، جـ 2 / ص 667 .

(2) صحيح البخاري : كتاب الطب ، انظر فتح البارى ، 10 / 215 .

(3) لسان العرب مادة: صفر .

(4) متفق على صحته ، البخارى فى الطب ، ومسلم فى السلام .

(5) شرح السنة : جـ 12 / 175

الحسن، ذلك أن الطيرة ذكرت عند رسول الله فقال : **﴿أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً، فإذا رأيت من الطيرة ما تكره فقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك﴾** .

وكان كعب يقول : اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ، ولا رب غيرك ولا حول ولا قوة إلا بك ، والذي نفسي بيده ، إنها رأس التوكل وكنز العبد في الجنة ، ولا يقولن عبد ذلك ثم يمضي ، إلا لم يضره شيء (١) .

ومما كان أهل الجاهلية يتطيرون به ، ويتشاءمون منه ، العطاس وقال رؤبة بن العجاج يصف فلاة .

قطعتها ولا أهاب العطاسا .

وقال امرؤ القيس :

وقد أغتدي قبل العطاس بهيكل　　　شديد مشيد الجنب فعم المنطق

أراد أنه كان ينتبه للصيد قبل أن ينتبه الناس من نومهم لئلا يسمع عطاساً ، فيتشاءم بعطاسه .

فلما جاء الإسلام ، وأبطل الرسول ﷺ ، ما كان عليه أهل الجاهلية من الضلالة ، نهى أمته عن التشاؤم والتطير ، وشرع لهم أن يجعلوا مكان الدعاء على العاطس بالمكروه ، الدعاء له بالرحمة (٢) .

والتطير ما يزال موجوداً حتى الآن عند بعض الناس ، إذ يتشاءم بعضهم من البوم، من شكله أو من ذكره ، وكذلك من القطة السوداء وما شابه ذلك .

• والمتطير متعب القلب منكد الصدر ، كاسف البال ، سيء الخلق يتخيل من كل ما يراه أو يسمعه ، أشد الناس خوفاً ، وأنكرهم عيشاً ، وأضيق الناس

(١) زاد المعاد : جـ ٢ / ص ٣٤ .
(٢) مفتاح دار السعادة : جـ ٢ / ٧٠١ - ٧٠٢ .

صدراً، وأحزنهم قلباً ، كثير الاحتراز والمراعاة لما لا يضره ولا ينفعه ، وكم قد حرم نفسه بذلك من حظ ومنعها من رزق وقطع عليها من فائدة »[1] .

فالإسلام دين العقل والتروي حارب الخرافة «والتشاؤم لأنه سوء ظن بالله تعالى والتفاؤل حسن ظن به والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال»[2] .

لقد علمنا رسول الله ﷺ دعاء الاستخارة إذ عوض به رسول الله ﷺ أمته بهذا الدعاء عما كان عليه أهل الجاهلية من زجر الطير والاستقسام بالأزلام.

وقد صح عنه ﷺ أنه قال:

«إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب».

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي، وعاجل أمري وآجله، فاقدره لي ويسره لي، وبارك لي فيه. وإن كنت تعلمه شراً لي في ديني ومعاشي، وعاجل أمري وآجله، فاصرفه عني، واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان، ثم ارضني به» (ويسمي حاجته)[3].

لقد عوض الرسول ﷺ أمته بهذا الدعاء، الذي هو توحيد وافتقار وعبودية وتوكل، وسؤال لمن بيده الخير كله، الذي لا يأتي بالحسنات، إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، الذي إذا فتح لعبده رحمة، لم يستطع أحد حبسها عنه، وإذا أمسكها لم يستطع أحد إرسالها إليه من التطير والتنجيم واختيار الطالع.

فهذا الدعاء هو الطالع الميمون السعيد، طالع أهل السعادة والتوفيق الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، لا طالع أهل الشرك والشقاء والخذلان، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون»[4].

---

(١) مفتاح دار السعادة : جـ ٢ ص ٦٦٣ .

(٢) انظر فتح الباري : ١٠/ ٢١٥ .

(٣) رواه البخاري.

(٤) زاد المعاد لابن القيم: جـ٢/ ص٣١-٣٢.

٤ - الإسلام يحرم السحر:

من البلاء الذي كان يتعاطاه أهل الجاهلية السحر، فقد كان للسحرة سوق رائجة وكـان يقـوم به رجـال الدين الوثنى، والـكهـان وعلمـاء الصـابئـة من المنجـمين وغيرهم.... .

وقد نزل الـقرآن بتحـريمه: ﴿ومن شـر النفـاثات في العـقـد﴾ وهومن السـبع الموبقات، قال عليـه الصلاة والسلام: «اجتنبوا السـبع الموبقات (المهلكات)، قالوا: يارسول الله وماهن؟ قال: أحدهما الشرك بالله، والثانى السحر...[(١)]».

«والسحر محرم بالكتاب والسنة والإجماع»[(٢)].

والسحر شرك بالله تعالى، لقوله ﷺ: «من عقد عـقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه»[(٣)].

فالساحر كافر، والسحر كائن موجود فى الدنيا[(٤)]. وهو من عمل أهل الجاهلية، ومن خصائـصهم الاستعاضـة عن كتاب الله تعالى بكـتب السحر كما قـال تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم﴾ [سورة البقرة: ١٠١-١٠٢].

وهذه الخصلة الجاهلية موجودة حتى اليوم فى كـثير من الناس، ولاسيما فيمن انتسب إلى الصـالحين وهو عنهم بمراحل، فيـتعاطى الأعمـال السحرية من إمـساك الحيـات وضرب السـلاح، والدخول فى النـيران، وغيـر ذلك مما وردت الشريـعة بإبطاله، فـأعرضـوا ونبـذوا كتـاب الله وراء ظهـورهم، وابتغـوا مـا ألقاه إليـهم شياطينهم، وادعوا أن ذلك من الكرامـات، مع أن الكرامة لا تصدر عن فاسق، ومن يتعاطى تلك الأعمـال ففسقهم ظاهر للعيان، ولذا اتخـذوا دينهم لعباً ولهواً،

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان، وأبو داود فى الوصايا والبخارى والنسائى.

(٢) الفتاوى: لابن تيمية جـ٣٥/ص١٧١.

(٣) رواه النسائى من حديث أبى هريرة: «انظر الجامع الفريد ص١٢١».

(٤) مقالات الإسلاميين: ص٢٩٦.

وفى مثلهم قال تعالى: ﴿الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ [الكهف/ ١٠٤].

وقد كان يتعاطاه بعض من ينتسب إلى التدين بكتاب فإنه[1] الخليق بأن يأخذ بنصيب من قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدقاً لما معهم، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة، فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ... ﴾ [سورة البقرة/ ١٠٢].

وقد اعترف رؤساء المنجمين من الأولين والآخرين أن أهل الإيمان وأهل العبادات والدعوات يرفع الله عنهم ببركة عباداتهم ودعائهم وتوكلهم على الله ما يزعم المنجمون أن الأفلاك توحيه، وأن هؤلاء المتوكلين يعطون فى الدنيا والآخرة ما ليس فى قوى الأفلاك أن تجلبه[2].

وهل كانت بعثة الخليل صلاة الله وسلامه عليه، إمام الحنفاء إلا إلى سلف هؤلاء، فإن (نمرود بن كنعان) كان ملك هؤلاء. وعلماء الصابئة هم المنجمون ونحوهم، وهل عبدت الأوثان فى غالب الأمر إلاعن رأي هذا الصنف الخبيث الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله؛[3].

وكنا قد عرفنا أن حكم الساحر والكاهن القتل، أوالحبس حتى يتوبا إلى الله فى أحد القولين وولاة الأمور هم المسئولون عن ذلك

وعلاج السحر: يكون في الأذكار والآيات والدعوات ،لأن القلب إذا كان ممتلئاً من الله مغموراً بذكره، وله من التوجهات والدعوات والأذكار والتعوذات

---

(١) مسائل الجاهلية: ص٢٣.

(٢) الفتاوى لابن تيمية: جـ٣٥/ ص١٩٦.

(٣) الفتاوى لابن تيمية: جـ٣٥/ ١٩٥.

ورد لا يخل به، يطابق فيه قلبه لسانه، كان هذا، من أعظم الأسباب التى تمنع إصابة السحر له، ومن أعظم العلاجات له بعدما يصيبه، وعند السحرة أن سحرهم إنما يتم تأثيره فى القلوب الضعيفة والنفوس الشهوانية، ولهذا فغالب ما يتأثر به النساء، والصبيان ،والجهال وأهل البوادي، ومن ضعف حظه من الدين والتوكل والتوحيد، ومن لا نصيب له من الأوراد الإلهية والدعوات والتعوذات النبوية.

قالوا: والمسحور هو الذى يعين على نفسه، فإنا نجد قلبه متعلقاً بشئ، كثير الالتفات إليه، فيتسلط على قلبه بما فيه من الميل والالتفات. والأرواح الخبيثة إنما تتسلط على أرواح تلقاها مستعدة لتسلطها عليها بميلها إلى ما يناسب تلك الأرواح الخبيثة، فتميل إلى ما يناسبها فتتسلط عليها، ويتمكن تأثيرها فيها بالسحر وغيره»[(١)].

أما النشرة: فهي كما قال ابن الجوزى :حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا مَنْ يعرف السحر.

«عن جابر رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ، سئل عن النشرة فقال: هي من عمل الشيطان»[(٢)].

وقال: سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله. هذافى النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها وهى من عمل الشيطان[(٣)].

أما النشرة الجائزة: فما جاء فى صفتها، ما رواه ابن أبى حاتم، وأبو الشيخ عن ليث بن أبى سليم قال: «بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى. تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور: الآية التى فى سورة يونس: ﴿ما جئتم به السحر إن الله سيبطله، إن الله لا يصلح عمل المفسدين .ويحق الله الحق

(١) زاد المعاد لابن القيم: جـ٣/ ١٠٥..

(٢) رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود.

(٣) قرة عيون الموحدين: ص١٧٣-١٧٥.

بكلماته ولو كره المجرمون﴾ [يونس/ ٨١-٨٢]. وقوله تعالى: **﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾** [الأعراف/ ١١٨] إلى آخر الآيات الأربع... **﴿فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين. وألقى السحرة ساجدين. قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون﴾** [الأعراف/ ١١٩-١٢٢].

وقوله تعالى: **﴿إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾** [سورة طه/ ٩٦](١).

وعلى العموم فالسحر مما عمت به البلوى فى هذا العصر، فقد انتشر السحر، وكثر السحرة، واستغلت هذه الأعمال وأدت إلى منكرات وفضائح أخلاقية وانحرافات شركية، كل ذلك بعد أن ضعفت العقيدة فى النفوس، واضمحل أثر التوكل على الله عند الناس، فتعلقوا بالأسباب الواهية وراء كل ناعق.

٥ - عالم الجن فى التصور الإسلامى

خلط أهل الجاهلية الحقائق بالأساطير فى موضوع الجن، والواقع أن عالم الجن موجود «ويشير العلماء إلى أن الجن من العالم الناطق المميز يأكلون ويتناكحون ويتناسلون ويموتون. وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار، وإن تميزوا بأفعال وآثار إلا أن يخص الله تعالى برؤيتهم من يشاء، وإنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية»(٢).

والجن على مراتب. قال ابن عبدالبر: إذا ذكروا الجن خالصاً قالوا: جني، فإن خبث ولؤم قالوا: شيطان، فإن زاد على ذلك فهو مارد، فإن أرادوا أنه ممن يسكن مع الناس قالوا: عامر والجمع عمّار».

وقال ابن عقيل: «الشياطين هم العصاة من الجن، وهم من ولد إبليس والمردة أغواهم وأعتاهم، وهم أعوان إبليس»(٣).

---

(١) قرة عيون الموحدين: ص١٧٣-١٧٥.
(٢) اعلام النبوة: أبو الحسن الماوردي، تحقيق عبدالرؤوف سعد، القاهرة ١٣٩١ هـ.
(٣) بلوغ الأرب الألوسي: ٢/ ٣٥١.

والجن مكلفون مخاطبون. قال ابن عبدالبر: «الجن عند الجماعة مكلفون مخاطبون لقوله تعالى: «يا معشر الجن والإنس».

ولقوله تعالى: «فبأي آلاء ربكما تكذبان».

وقال الفخر الرازي: «أطلق الكل على أن الجن كلهم مكلفون»، وقال القاضي عبدالجبار المعتزلي: «لا نعلم خلافاً. بين أهل النظر أن الجن مكلفون...»[1].

ويرى ابن تيمية: «أن الجن ليسوا كالإنس في الحد والحقيقة فلا يكون ما أمروا به، وما نهوا عنه مساوياً لما على الإنس في الحد والحقيقية، لكنهم شاركوهم في جنس التكليف بالأمر والنهي بلا نزاع بين العلماء»[2].

«وبين الجن والشيطان فرق كبير، ولكي تتجلى هذه الحقيقة واضحة نذكر أن في الخلق الراقي أربعة أنواع، وهي: الملائكة والإنس والجن والشياطين».

فالملائكة عالم روحاني مستقل له خصائصه وصفاته وأحواله. والجن نوعان: شياطين لا خير منهم البتة، وجن منهم الصالح ومنهم الفاسد، فحالهم كحال الناس، منهم البار ومنهم الفاجر، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر.

بيد أن الشياطين أصلهم من الجن، وذلك لأن إبليس كان من الجن لإخبار القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى: ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ [الكهف/ ٥٠] [3].

وقد كثر المنكرون للجن في زمننا وأغلب هؤلاء مستندون في إنكارهم إلى أن طريق معرفة وجود الجن هو النظر ، أو السمع، وأنهم لم يروا جناً ولم يسمعوهم.

ولكن عدم النظر وعدم السمع أو عدم وصول أمر الحواس الإنسانية إلى وجود الجن لا يقوم دليلاً على عدم الوجود، لا نقلاً ولا عقلاً. أما العقل فإنه يجوز وجود كائن حي غير مرئي بالعين بدون واسطة، أما النقل فكثير، ومن الأدلة على

---

(١) لوامع الأنوار البهية: جـ٢/ ص٢٢٣.
(٢) اللوامع: جـ٢/ ص٢٢٤.
(٣) عقيدة المسلم : الجزائري/ ص١٦٧.

وجـودهم قوله تعـالى: ﴿ومـا خلقـت الجن والإنس إلا ليـعـبـدون﴾ [سورة الذاريات/ ٥٦]. وقوله تـعالى: ﴿وإذ صرفنا إليـك نفراً من الجن يستـمعـون القرآن فلما حضروه، قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين﴾ [الأحقاف/ ٢٩][١].

وفي السنة النبوية والأحاديث الشريفة تفصيلات نذكر منها «أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسـول الله ﷺ، خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[٢].

وروى مسلم أيـضاً: «أن الجن سألوا الرسـول ﷺ الزاد فقـال: لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم» ومما أوصاه ﷺ للمسلمين قوله: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»[٣].

قال بعض العلماء: هذا لمؤمنيهم، أما غيـرهم فجاء في حديث آخر أن طعامهم ما لم يذكر اسم الله عليه[٣].

وأرشـدنا رسول الله ﷺ إلى مـا نقوله إذا نزل أحـدنا منزلاً. عن خـولة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ قال: «من نزل منزلاً فليقل: أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق، فإنه لايضره شئ حتى يرتحل إن شاء الله»[٤].

وواقع المسلمين اليـوم ينقسـم إلى مصـدق بعالم الجن كـما ورد في النصـوص الشرعية، وإلى مبالغ في تأثيـر الجن وتلبسه ببعض الناس. وخوف هؤلاء من أثره، حتى وصل الأمر إلى الشعوذة، وإلى انقطاع بعض المتمرسين بذلك، حتى صارت لهم مهنة، وقـد يخلطون كثـيراً من الأمراض النفـسية والجـسمية بملابسات الجن وأثره، وهذا انحراف شديد أدى إلى فضائح أخلاقية كثيرة.

---

(١) الكواشف الجلية: ص١٦٦.

(٢) رواه الإمام مسلم: شرح صحيح مسلم، جـ١٨/ ص١٢٣ والمارج: اللهب المختلط بسواد النار.

(٣) شرح صحيح مسلم: جـ٤/ ص - ١٧.

(٤) رواه مالك والحديث صحيح، أخرجه مسلم من طريق آخر، ينظر شرح السنة جـ٥/ ١٤٥.

وفريق ثالث يحـاول إنكار الجن، جملة وتفصيـلاً، ضارباً بالنصوص الشـرعية عرض الحائط، وهذا انحراف خطير أيضاً.

والنجاة فى كل مـا تقدم من الخرافات والأسـاطير، أن يتمـسك المسلم بالكتاب والسنة، وقد ذكـرنا من هذه النصوص ما يناسب حجم البـحث، والله هو الهادى إلى سواء السبيل، فبيده النجاة والسلامة.

الباب الخامس

مظاهر الانحراف في المجتمعات المعاصرة

الفصل الأول: ظهور الإلحاد في المجتمعات الحديثة.

الفصل الثاني: ألوان من الشرك في حياة المسلمين المعاصرة.

الفصل الثالث: تحكيم القوانين الوضعية.

الفصل الرابع: شيوع البدع في المجتمعات المعاصرة.

تمهيد:

عرفنا في الأبواب السابقة من هذا الكتاب كيف أنقذ الله سبحانه وتعالى هذه الأمة من ظلمات الوثنية، ودياجير الجاهلية، وجعل منها حملة رسالة الإسلام، عقيدة صافية وتوحيداً خالصاً لله وحده، وعبادة صحيحة خاشعة، وتشريعاً سماوياً، وسلوكاً مستقيماً.

«إلا أن أكثر هذه المفاهيم قد انحرفت في حس الأجيال المتأخرة، بدءا بمفهوم لا إله إلا الله التي أصبحت مجرد كلمة تقال باللسان والقلب عنها غافل، والسلوك عنها بعيد، إلى مفهوم العبادة الذي انحصر في الشعائر التعبدية، إلى مفهوم القضاء والقدر، الذى تحول إلى قوة مثبطة مخذلة، إلى مفهوم الدنيا والآخرة التي تحولت إلى معسكرين متقابلين متعاديين، العمل في إحداهما يؤدي إلى إهمال العمل في الأخرى»[1].

لقد آلت الأمة إلى انحرافات خطيرة عند معظم شعوبها وشمل ذلك العقيدة والعبادة والتشريع والسلوك، تحولت أمة العقيدة وحملة الرسالة إلى واقعها الحاضر في القرنين الأخيرين، تحولت أحوالها إلى محنة تسوء الصديق وتسر العدو ولعل هذا ما يصوره ابن القيم رحمه الله في قصيدته عندما يقول[2]:

يا محنة الإسلام والقرآن من ... جهل الصديق وبغي ذي طغيان

والله لولا الله ناصر دينه ... وكتابه بالحق والبرهان

لتنطفت أعداؤنا أرواحنا ... ولقُطعت منا عرى الإيمان

وفي الباب الخامس سوف نتحدث عن أبرز مظاهر الانحراف وبيان أسبابها، ومحاولة إلقاء الضوء على معالجتها إن شاء الله.

---

(١) واقعنا المعاصر: محمدقطب ص١٦٣.

(٢) القصيدة النونية: الكافية الشافية لابن القيم، شرح القصيدة ١/ ١٩٠.

الفصل الأول

ظهور الإلحاد في المجتمعات الحديثة

تمهيد:

الصراع بين الكنيسة والعلماء في العصور الوسطى ودور اليهود في نشر الإلحاد.

١ - دور المذهب التجريبي في نشر الإلحاد.

٢ - المذهب الماركسي وعقيدة الإلحاد.

٣ - تسرب الإلحاد إلى ديار المسلمين في العصر الحديث.

٤ - تهافت شبهات الملاحدة من أصحاب المذاهب المادية.

٥ - النزعة الدينية أصيلة في النفس البشرية.

تمهيد :

كان أهل الجاهلية من العرب يؤمنون بالإله الخالق المدبر إلا أنهم كانوا يشركون معه أرباباً أخرى من الأصنام والأوثان والكواكب... وما شابه ذلك.

أما الإلحاد بمعنى إنكار وجود الله، فهو بدعة جديدة في الضلالة، لم توجد في جاهليات التاريخ السابقة.

ومن المؤكد على أي حال، أنها لم توجد بهذه الصورة وبهذا الاتساع الذي تمارسه الجاهلية المعاصرة فى أي فترة سابقة من فترات التاريخ.

وإذا كان بعض الناس يشيرون إلى الدهريين المشار اليهم فى الآية الكريمة **﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾** [الجاثية/ ٢٤].

ويستدلون منها على أنه وجد فى الجاهلية العربية من ينكر وجود الله، وأن هؤلاء الدهريين صنو القائلين بالطبيعة المنكرين لوجود الله.

«فإن الآية لا تعطي دلالة قاطعة على ذلك، وإنما كان الدهريون ينكرون البعث والنشور، وينسبون إلى الدهر أنه هو الذي يهلكهم، ولم يقولوا أبداً إن الدهر هو الذي خلقهم، أو هو الذى منحهم الحياة، أي أنهم لم يتخذوه إلهاً بدلاً من الله»(١).

«فلوثة إنكار وجود الله أصلاً، ونبذ الاعتقاد بالتدين إطلاقاً، لوثة حديثة عارضة وشاذة، ليس لها في ضمير البشرية جذور، وليس لها في الفطرة البشرية روافد، وليس لها في الكينونة البشرية، ولا فى الحياة البشرية عوامل بقاء، ولا امتداد »(٢).

وهاهم ملاحدة الجاهلية المعاصرة يتخبطون فى ظلمات الحيرة، ويتيهون فى دياجير الفتنة بعدما عميت بصيرتهم وانحرفت فطرتهم، وخانوا عهد الله الذى أخذهم عليه، فهم فى ضلالات شتى.

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة: الأستاذ محمد قطب، ص٦٠٦ طبعة دار الشروق، الأولى سنة ١٤٠٣هـ.

(٢) مقومات التصور الإسلامي :سيد قطب رحمه الله ص١٠١.

فـمنهم من يرى أن الإنســان إله نفســه، ومنهم مـن ينسب إيجـاد الكون إلى الطبيعة ذاتها... «تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

الصراع بين الكنيسة والعلماء في العصور الوسطى في أوربا:

إن الإلحاد لم ينشأ أصلاً، إلا في العصور الوسطى على أثر الصراع بين الكنيسة التي جمدت على عقليـة تخالف الفطرة، وتخالف تعاليم السماء الصـحيحة. وبين العلماء الذين فكروا وأظهروا للناس نتائج أبحاثهم العلمية.

فقـال بعضهم بكروية الأرض مـثلاً، وقال آخـرون بقانون الجـاذبية، أو نظرية سقوط الأجـسام المائلة... إلخ[1] فـمن أجل ذلك وأمـثاله عـذبت البـابوية هؤلاء العلماء وأحرقت بعضهم، وقتلت آخرين، حماقة منها وجهلاً مما ألجأ علماءهم في أوربا إلى اتخـاذ العلم بديلاً عن الدين بعـد أن طردتهم الكنيسـة، فكان هذا بداية لإلحاد العلماء والفلاسفة والمفكرين في أوربا.

أما اليهود:

فقـد نشروا الإلحاد عن طريق الثـورة الصناعية، وعن طريق النظريات العلمـية التي ركزت اهتمامهـا على مهاجمة الدين والأخلاق والتقاليد... فنشـأت مجتمعات بلا دين ولا أخلاق، وكان الإلحـاد هدفاً أساسيـاً من أهداف هذا المخطط الشرير، ومن ثم سعى أصـحاب هذا المخطط إلى إزالة كل دين في الأرض، ليبقى الـيهود وحدهم أصحاب الدين[2].

لقد ركب اليهود الموجة، ونشروا الإلحاد حقـيقة بين شعوب أوروبا النصرانية، وقد جـاء ذلك موافقـاً لمخططاتهم في البروتوكـولات، إذ قالوا: إنهم سـينشرون الإلحاد في الأرض، وقد نشروه فـعلاً عن طريق الثورة الفرنسية بشعـاراتها البراقة، وعن طريق نظرية دارون التي تقول: «إن الطبيعة تخلق كل شئ، ولا حد لقدرتها على الخلق». وقال: «إن الطبيعة تخبط خبط عشواء».

(١) موقف العلم والعالم والدين من رب العالمين: الشيخ مصطفى صبري رحمه الله جـ٢/ ص٣٨٤.

(٢) انظر مذاهب فكرية معاصرة: الأستاذ محمد قطب/ ص٦٢٧-٦٣٠/ .

ومن الغريب أن نظرية هذا اليهودي الملحد دّرست في كثير من ديار المسلمين، وما تزال تدرس باسم العلم وتجاربه.

لقد ألّه الغربيون العقل وآمنوا بما يقع تحت الحواس فقط، وقامت الثورة البلشفية الحمراء، واتخذت الإلحاد لها منهجاً، ومن ثم نشرت الفساد والكفر في نصف المعمورة.

١ - دور المذهب العقلي والتجريبي فى نشر الإلحاد[١]

كان التقدم العلمي الذي حدث منذ بدء النهضة أحد العوامل الهامة التي ساعدت على اتجاه الفكر الأوربى، ذلك الاتجاه الملحد من خلال المذهب العقلي والتجريبي.

يقول برينتون عن المذهب العقلي:

«فالمذهب العقلي يتجه إلى إزالة الله، وما فوق الطبيعة من الكون، ومن الوجهة التاريخية فإن نمو المعرفة العلمية وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية، يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلي نحو الكون»[٢].

ويقول أيضاً: «ولكن ثمة أناس ذهبوا إلى أبعد من ذلك، واعتبروا فكرة الإله فكرة شريرة، وخاصة إذا ما كان إله الكنيسة الكاثوليكية».

وأطلقوا على أنفسهم بكل فخر اسم الملحدين... ويقولون: «إن الكون ليس إلا مجموعة متحركة ذات نظام معين، يمكن فهمه باللجوء إلى السببية المعتمدة على أسس العلوم التطبيقية»[٣].

لقد جحدت أوربا خالقها، وأحلت محله تأليه العلم والتجربة ومظاهر الطبيعة المحسوسة، وكان لكل ذلك أثره على ديار المسلمين، إذ بدأ انحرافها باسم اقتباس العلوم الغربية، وباسم التقدم الحضارى المزعوم.

لقد ألهت أوربا التجربة الحسية، وكفرت بكل عوالم الغيب وما وراء المحسوس.

يقول الدكتور محمد البهي متحدثاً عن المذهب التجريبي:

«إن تحصيل الإنسان للحقائق الكونية، ومعرفته بها، لا يكون إلا بالتجربة الحسية وحدها، ومعنى ذلك أن الحس المشاهد لا غيره هو مصدر المعرفة الحقيقية

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة: ص٢٦٢-٢٦٣.

(٢-٣) نشأة الفكر الحديث: ترجمة عبدالرحمن مراد، ص٢٧، ص١٥٢. نقلاً عن مذاهب فكرية معاصرة.

اليقـينية. فـفي العالـم الحسي تكـمن حقائـق الأشياء، أما انـتزاع المعرفـة مما وراء الظواهـر الطبيـعية الحسـية، والبحث عـن العلة فـي هذا المجال، فأمـر يجب أن يرفض»[1].

وهكذا يـتفق المذهب الـعقلي مع المذهـب التجريبـي في البعد عـن الله وتجنب البحث عن الغاية من الخلق، والنظر في الطبيعة بدلاً من النظر فيما وراء الطبيعة، أي في عالم الحس بدلاً من عالم الغيب[2].

لقد تفنن الناس في زحمة الهروب من حماقات الكنيسة وجبروتها في ألوان من الكفر والجحود، فيما لا عهد للبشرية وجاهلياتها بذلك.

«فإضافـة إلى إنكار وجود الله تـبارك وتعالـى، نجد من يقتـرح أن يكون الأثير العام هو الإله الذى يمكن أن يوفق بين العلم وبـين عقائد رجال الدين، ومن يرى أن الله تعالـى: هو المركز الذي تـنبع منه العـوامل، كما تنـبع الصواريخ مـن باقة عظيمـة، وزعم بعضهم أن الإنسـان هو الإله على الحقـيقة، بينما اكـتفى آخرون بترديد لفظ «الطـبيعة». وغلا بعضهم في الشك حتـى زعم أن الكون كله وهـم لا حقيقـة له، ولا وجود لشيء خارج الـذهن، وليس هناك حـقيقة موضوعـية على الإطلاق، ووصل الجـنون ببعـضهم إلى حد أن ادعـى أنه هو الله-تعـالى الله عن ذلك علواً كبيراً- أما الحيارى التائهون فمجموع لا يحصى»[3].

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ص٢٩٧.

(٢) مذاهب فكرية معاصرة: ص٢٦٣.

(٣) العلمانية: د. سفر الحوالي ص٣٥٥، دار مكة للطباعة والنشر سنة ١٤٠٢ هـ.

٢ - المذهب الماركسي وعقيدة الإلحاد[1]:

قامت الثورة البلشفية في روسيا، ثورة حمراء حاقدة حقد «اليهودي ماركس» مؤسسها، ولوحت للطبقات الكادحة بمساواتها مع رجال الإقطاع، وأهل الثروات بل وعدت العمال والكادحين أن يساهموا هم في حكم البلاد... وما علم المنكوبون أن أبناءهم سيتضورون جوعاً، وتنهار الشيوعية بعد سبعين عاماً من عمرها.

واعتمدت الشيوعية على نشر الإلحاد وحرب الأديان وخاصة الإسلام في بلادها، وعن طريق الأحزاب الشيوعية في العالم كله.

اعتبرت الشيوعية (أن الدين أفيون الشعوب)، واعتبر جوليان هكسيلي: «أن الجهل والعجز هما السبب في وجود الدين قديماً، وقد تعلم الإنسان اليوم، وسيطر على البيئة، وآن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله»[2].

فالشيوعية تعتمد في تصورها للألوهية والكون والحياة والإنسان على المذهب المادي البحت، ومن أقوالهم: «لا إله والكون مادة»، «وحدة العالم تنحصر في ماديته»، «المادة سابقة في الوجود على الفكر».

لا إله والكون مادة، أي لا يوجد خالق، وقد يكون الإله عندهم هو المادة، أو هو الدولة، وقد يكون هو الحزب والنظام، وهو الزعيم الأوحد... ولكنه على أي حال ليس الله جل وعلا.

فالمادة أزلية أبدية، وهي الخالق فيما يزعمون، فهي التي خلقت الإنسان والحياة... والإنسان عندهم ما هو إلا نتاج المادة.

لقد حاربت الشيوعية الأديان والقيم الأخلاقية العليا، وسحقت كل المعارضين،

---

(١) انظر مذاهب فكرية معاصرة: الأستاذ محمد قطب، فصل الشيوعية (من ص ٢٥٨-٤٤٠).

(٢) من كتابه: الإنسان في العالم الحديث (نقلاً عن المرجع السابق).

وعاشت ملايين المسلمين مضطهدة، يحتفظ المسنون ببعض نسخ من القرآن في الأبنية والدهاليز لينقلوها إلى أبنائهم بعيداً عن أعين السلطات الكافرة.

كان القتل بالشنق والسحق والتعذيب من أبجديات الكتلة الشيوعية في شرقي أوربا كله، ومن خلال الأحزاب الشيوعية التي انتشرت في أنحاء العالم وإن خالفت الفطرة السليمة، والعقل الحصيف.

لقد حولت الشيوعية عبودية الإنسان لله إلى عبودية المادة، التي حلم بتحقيق الرخاء فيها الماركسيون طويلاً لكنهم أوصلوا البلاد التي حكموها إلى مجاعات، ما تزال شعوبهم تئن منها حتى اليوم.

فلاهم تركوا الناس يعبدون ربهم الذى خلقهم، ولا حققوا لهم شيئاً مما وعدوهم به، وذلك هو الخسران المبين.

٣ - تسرب الإلحاد إلى ديار المسلمين في العصر الحديث:

هذا الواقع المعاصر تبجح كثير من الناس فيه بالإلحاد من غير رادع، معتمداً على جاهلية شرسة، تتسلح بنظريات العلم المزعومة، ولا تؤمن إلا بعالم المحسوس في نصف العالم باسم الشيوعية، ونصفه الآخر يفلسف الكفر باسم المذاهب الفكرية، ونظريات العلوم المختلفة في أوربا وأمريكا، ناهيك عن ملايين الهندوس والبوذيين وغيرهم من الأمم الوثنية في أفريقيا وآسيا.

وعندما تعلم كثير من أبناء المسلمين في أوربا في الكتلة الشيوعية عادوا منسلخين عن دينهم وتراث أمتهم، إلا من رحم ربك، ويتيهون على بني جلدتهم باسم العلم والحضارة، وينادون بفصل الدين عن الحياة العامة، وأسست الأحزاب العلمانية من يسارية وغيرها وقد أذاقت المسلمين الويلات عندما تحكمت برقاب العباد، ومن ثم هدمت المساجد على رؤوس المصلين.

وتبجح كثير من منسوبي الإسلام، وأعلنوا آراءهم الشاذة، وأفكارهم الملحدة باسم الحرية الشخصية، معتمدين على المناصب الرسمية التي تسلموها، ودساتير بلدانهم الوضعية التي آمنوا بها ودعوا إليها.

وقد تجرأ بعض الملاحدة على القرآن فمُزِّقَ في عدد من ديار المسلمين، واعتُبر الإسلام رجعية، وكان مرحلة من مراحل تاريخ العرب كما يزعمون.

وقد يشتم الإله علناً ولا نصير، ولا مادة في القانون تعاقب الجاني، ويغمز الحاكم والزعيم الأوحد سراً فتفتح أقبية السجون، ومراكز التعذيب والقتل، حيث يؤخذ الناس بالظن والتخمين.

وانتشرت صور المعبودات الفرعونية أو الآشورية ،والفينيقية، ونبشت آثارها الوثنية، تمجيداً لهذه الوثنيات الدارسة، وبعثاً لها من مرقدها. وظهر في الأدب الحديث[١] .اتجاه نحو العبث بالمفاهيم الدينية العليا، والاستخفاف بمقام الألوهية،

---

(١) انظر كتاب: مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي ص٥٩ . د. عبدالباسط بدر، دار المنارة للنشر السعودية-جدة الطبعة الأولى/ ١٤٠٥هـ.

ونشر الصور والعبارات التى تهون من شأنها، بل وتتطاول في وقاحة كبيرة عليها.

انظروا إلى سوء الأدب فى تصوير الألوهية فى قول فاجرهم:

لو مرة عرفت يا إلهي الكسيح كيــــف الزنـــا يصـــير ...

«بلند الحيدري: انطلاق»

وقول أدونيس في كفره:

غنـــــيت للأفـــــــول... رقصت فوق جثة الإلــــــه

«أدونيس: انتصار»

ويتمادى السياب في الكفر والإلحاد من خلال قصيدته:

فنحــــن جميـــعاً أمـــوات أنـــــا ومـــحمــــــد والله

هذا قبرنا أنقاض مئذنة معفرة عليها يكتب اسم محمد والله

من الآجـــــر والفخـــار

«بدر شاكر السياب: في المغرب العربي»

ويقول الشاعر القروي(١):

بلادك قدمها على كـل ملـــة ومن أجلها أفطر ومن أجلها صُم

هبوني عيداً يجعل العرب أمة وسيروا بجثماني على دين برهـم

سـلام على كـفر يوحـد بيننا وأهــلاً وســـهلاً بعـده بـجـهنم

وقد رفض بعض الشعراء مفاهيم أساسية في الشريعة الإسلامية(٢):

فـخر بعـضهم بتعدد الزوجات، ومن الإيمان باليوم الآخـر. يقول نزار القبانى فى قصيدته «خبز وحشيش وقمر»:

(١) ينظر قصة الأدب المهجرى: د. محمد عبدالمنعم خفاجى.

(٢) مقتطفات عن كتاب: مقدمة لنظرية الأدب الإسلامى ص٦٣ وما بعدها.

في بلادي في بلاد الشرق لما يبلغ البدر تمامه
يتعرى من كل كرامة ... ونضال
والملايين التي تركض من غير نعال
التي تسكن في الليل بيوتاً من سعال
والتي تؤمن في أربع زوجات وفي يوم القيامة

ويقول فاجر آخر منكراً يوم القيامة:

هيهات وزرك لا أنوء لحمله ... إنْ صح أمر قيامة وحساب

(بدوي الجبل)

وإذا كان الهجوم شرساً ومركزاً على القيم الإسلامية فهنالك إشاعة للرموز النصرانية وإشادة بها:

أقسمت يا جزائري الجديدة ... أن أحمل الصليب
أن أطأ اللهيب

«عبدالوهاب البياتي-تحية إلى الجزائر»

أنا الذي أحيا بلا ظل بلا صليب ... الظل لص يسرق السعادة
ومن يعش بظله ليمشي إلى الصليب في نهاية الطريق

«صلاح عبدالصبور- الظل والصليب»

هذه مقتطفات من قصائد موجودة في دواوين أصحابها ومنتشرة في عالمنا العربي، وتظهر ما بلغه تطاول هؤلاء على العقيدة الإسلامية[١].

ولولا الضرورة ما نقلت بعض هذه الكفريات، لكننا أردنا أن نوضح الفرق الهائل بين الوثنية العربية وما وصلت إليه الجاهلية المعاصرة من إلحاد وقح، وتطاول ليس له في التاريخ نظير.

(١) المرجع السابق: ص٥٩.

ومن المعلوم أنه من سب الله تعالى كفر سواءً كـان مازحاً أو جاداً، وكذلك من استهزأ بالله تعالى أو بآياته، أو برسله، أو كتبه.

قال تعـالى: ﴿ولئن سـألتـهم ليـقـولن إنا كنا نخـوض ونلـعب، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾.

وينبغي ألا يكتفى من الهازئ من هؤلاء بمجرد الإسلام، حتى يؤدب ويزجر عن ذلك»[1].

(١) المغني لابن قدامة: جـ٨/ ص-١٥٠.

٤ - تهافت شبهات الملاحدة من أصحاب المذاهب المادية:

الحسيون لا يؤمنون إلا بما يقع تحت التجربة، وما لا يدخل في دائرة الحواس فغير مصدق ولا موجود حسب زعمهم.

يقول الشيخ مصطفى صبري رحمه الله فى الرد على هؤلاء:

«وهل يعرف أصحاب تلك العقول أن عدم كون الدين مؤيداً بالتجربة، ليس لعيب في الدين، بل لعيب فى التجربة نفسها، لكونها ميزاناً قاصراً على الماديات».

والدين أرفع شأناً من أن يدخل في متناولها هذا الميزان، وإذا لزمت التجربة للدين، فلا يجربها إلا العقل الذي هو أيضاً منحة للإنسان من العالم العلوي والذى يسمونه العلم ويقوم على التجربة، فإنما يكون نفعه في الماديات، لا فى المعنويات[١].

«كما أن الثابت بالدليل التجريبي، لا يكون أقوى مما ثبت بالدليل العقلي بل إن الثابت بالدليل العقلي أقوى كما لا يخفى على من طالع مبحث المعرفة من خلال مباحث الفلسفة بدقة».

وحسبك أن الثابت بالدليل العقلي يكون خلافه مستحيلاً، ولا يستحيل خلاف الثابت بالدليل التجريبي، كما يشهد بذلك علماء المذهب التجريبي أنفسهم[٢].

إن الأثر يدل على المؤثر. وطريقة التيقن أو «العلم» فى الإسلام تتلخص فى أحد ثلاثة أمور[٣]:

١ - إما عن طريق الخبر الصادق الذي يتيقن السامع من صدق مخبره، كأخبار الله في كتبه، وأخبار الأنبياء.

٢ - وإما عن طريق التجربة والمشاهدة بعد التأكد من سلامة التجربة، فيما يقع تحت التجربة والاختبار.

(١) موقف العلم والعالم والدين من رب العالمين: جـ١/ ٦١ شيخ الإسلام مصطفى صبرى.

(٢) المرجع السابق ص٤٢٢.

(٣) السنة ومكانتها: السباعي ص٣٥.

٣ - وإما عن طريق العقل فيما ليس فيه خبر صحيح ولا تجربة مشاهدة.

ومن إعجاز القرآن أنه وضع هذه القواعد الثلاث لتحقق العلم أو اليقين في هذه الآية الكريمة: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾** [الإسراء/٣٦].

ومن تمام الإعجاز في هذه الآية أنها جاءت مرتبة هكذا:

الخبر الصادق «السمع»، ثم التجربة «البصر»، ثم المحاكمة العقلية «الفؤاد»، على أنها العناصر الثالثة التي ينشأ عنها كل علم، ولن تجد في الحياة علماً لا ينشأ من عنصر من هذه العناصر.

أما أن تعطى الحواس من السلطان ما يجعل المرء لا يصدق إلا بما تقع عليه حواسه، فهذا أمر مرفوض، ذلك أنها لا تستطيع أن تصل إلى كل شيء، فهي محدودة، محدودة من حيث عددها، ومحدودة من حيث قوتها.

وإذا أخذنا بالنظرية الحسية فإننا سنجعل الصغير والراشد في إدراكهما للأشياء مثل بعضهما لأن كليهما يملك الحواس. وهذا باطل إذ يبطل التعليم والتفوق العقلي والذهني.

فالحواس قليلة، ومحدودة كماً وكيفاً. وإذا كانت هذه طبيعتها في الماديات فالأولى أن لا تُعتمد في إدراك المغيبات[1].

أما أنه لا يدخل العقل شيئاً إلا من المختبر، فهذا قول لا يقوله عاقل فضلاً عن عالم، والقائلون به يناقضون أنفسهم بأنفسهم، فكم من معلومات آمنوا بها لحقائق مسلمة ولم تلمسها حواسهم، ولم تدخل مختبراتهم؟؛ فللعقل حدوده التي لا يتعداها، ومحاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها، محاولة فاشلة وعابثة ولا شك.

وينبغي أن نفرق بين الإسلام والنصرانية المحرفة، فقد كانت الأخيرة حجر عثرة

(١) الإيمان بالغيب: بسام سلامة/١٠٩.

أمام العـلم والتقـدم باسم تعاليم الكنيـسة،تلك التي سـاقت العلماء إلى المـقاصل ومحاكم التفتيش.

أما المسلمون فقد كانوا قادة نهضة علمية تحت مظلة دينهم، وبتوجيهاته الكثيرة التي تدعو إلى التفكير السليم في الأنفس والآفاق...

وبقي علينا أن نشير إلى أن الإلحاد يعتبر إنحرافاً عن الفطرة السليمة التى أودعها الله في خلقه، وهي تعرف في أعماقها وجود الله وإن كابرت أحياناً وهذا ما سوف نتحدث عنه فى الفقرة القادمة.

النزعة الدينية أصيلة فى النفس البشرية:

لقد فطر الناس على عبادة الله وحده، لأن الفطرة بذاتها تعرف وجود الله، وتتجه إليه إتجاهاً فطرياً بالعبادة على نحو من الأنحاء .... ولو ضلت الطريق.. والضلال الغالب كان هو الشرك وليس إنكار وجود الله .

فقد يتصورون أنه الشمس أو القمر أو النجم، أو ما إلى ذلك من المخلوقات ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾ [النجم / ٩] .

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر/ ٣] .

لذلك فإن الفطرة دائماً تعرف وجود الله وتؤمن به فى داخل أعماقها، وإن ضلت عن الهدى، فتصورت الله على غير حقيقته ، أو أشركت به آلهة مزعومة ليس لها وجود ، أما أن تنكر الفطرة وجود الله أصلاً وتقول : إنّ الخلق وجد بلا خالق ، فبدعة في الضلال غير مسبوقة فى التاريخ[١] .

قال تعالى : ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم. قالوا : بلى شهدنا﴾ [٢] .

هذه الفطرة هي التي تستيقظ حتى عند الملاحدة المكذبين ، فتدعوهم إلى الالتجاء إلى الله وحده حين الشدة كما قال جل شأنه ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضُرٍّ مَسَّه كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ [سورة يونس / ١٢] .

إنها الفطرة التي لو ترك الإنسان وشأنه، سيعرف الله حتماً كما عرفه المستكبرون ساعة الشدة ، ولكن حجباً من الهوى أو التقاليد تحول بين المرء وفطرته [٣] وقد

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة : محمد قطب ، ص ٦٠٧ - ٦٠٨ ، ص ٦١٨ .

(٢) سورة الأعراف : آية (١٧٢) .

(٣) الدين : ص ٩٧ الدكتور محمد عبد الله دراز .

قال رسولنا الكريم ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » [1] .

والشياطين تأمر أتباعها بالشرك ، وتحلل لهم ما حرم الله جل وعلا روى عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته في الحديث القدسي : « ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ماجهلتم مما علمني يومي هذا . . وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً [2]» .

« ومن هنا لم يكن التركيز في المنهج القرآني منصباً على إثبات الوجود الإلهي، ولكنه منصب على وصف هذا الوجود بصفته الحقيقية وتعريفه بحقيقته للناس، وتصحيح ما عليه تصوراتهم من انحرافات وتشويهات وأوهام وأضاليل، باعتبار أن فطرتهم ببديهتها تعترف ابتداء بوجود إله ، ولكن تصوراتهم تخطىء في معرفة هذا الوجود وصفاته وعلاقته بهم وبالكون كله من حولهم [3]» .

هذا هو الحق ، وإن الذين يغالطون أنفسهم ، ويمسخون فطرتهم ، فإنهم رغم طغيان المادة على حياتهم ، يتجهون إلى العيادات النفسية ذات الصبغة الدينية، والتى يطلق عليها فى الغرب « عيادة رجل الدين » ، لأن أكثر من ٥٠٪ من الحالات سببها (بعد عن الدين ، وتعذر التوفيق بين النصرانية المحرفة وأمور الحياة الواقعية ، ويبقى للفطرة إلحاحها المستمر ، ويبقى هؤلاء التائهون يبحثون عن الاستقرار النفسى فلا يجدونه ، ويستمرون في حيرتهم تائهين .

قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ [سورة طه / ١٢٤ - ١٢٦] .

(١) متفق عليه .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى : جـ ١٨ / ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٣) مقومات التصور الإسلامى : ص ٢٣٨ ، لسيد قطب رحمه الله .

الفصل الثاني

ألوان من الشرك
في حياة المسلمين المعاصرة

١ - عودة الشرك من علامات الساعة .

٢ - ألوان من الشرك الأكبر .

٣ - نماذج من الشرك الأصغر .

٤ - أخطار الشرك على الأمة .

١ - عودة الشرك من علامات الساعة :

من الأمور الخطيرة ، والانـحرافات الشديدة التي طرأت علـى هذه الأمة تسلل الشرك بأنـواعه إلى قطاعات كـبيرة منها ، بـعد أن أكرمها اللـه سبحانه بالـتوحيد الصافي وينبغي أن لا نجد غضاضة مـن الحديث عن الشرك بدعوى أنه قد انقرض وذهب إلى غير رجعة .

فقد ثبت بالأحاديث الصحيحة أن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لا يذهب الليل والنهار ، حتى تعـبد اللات والعزى ، فقلت يا رسول الله : إنْ كنت لأظن حـين أنزل الله سبحانـه وتعالى ﴿ **هو الذى أرسـل رسوله بالـهدى ودين الحق : ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ [التوبة / ٢٣] .

أن ذلك تام قـال : إنه سيكون ذلك مـا شاء الله ؛ ثم يـبعث الله ريحاً طـيبة فتوفي كل من كان فـى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، فيبـقى من لاخير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم» (١) .

وعن أبي هريـرة رضي الله عنه قـال : قال رسول الله ﷺ « لا تقـوم الساعة حتى تضطرب ألـيّات نساء دوس حول ذي الخلصة ، وكانت صنـماً تعبدها دروس فى الجاهلية بتبالة » (٢) .

ولعلنا إذا اسـتعدنا في الذاكرة مقتـضيات الشهادة ، شهاده لا إلـه إلا الله كما وعاها الجـيل الأول على يد رسـول الله ﷺ، عرفنـا مقدار الانحراف فـى الحياة المعاصرة .

---

(١) اخرجه مسلم : انظر شرح السنة للبغوى / جـ ١٥ / ٩٢

(٢) الحديث متفق على صحته : انظر شرح السنه ، جـ ١٥ / ص ٩٠ .

ومعنى الخبر : حتى ترجع دوس عن الإسلام ، فتطوف نسـاؤهم بذى الخلصة ، وتضطرب أليـاتها، كذلك كان فعلهم فى الجاهلية .

والخلصة : بيت فيـه صنم يقال له الخلصة ، وقيل الخلصـة بيت الكعبة اليمانية ، أنفـذ إليها رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله فخرّبها شرح السـنة جـ ١٥ / ص ٩٠ .

فمن مقتضيات لا إله إلا الله :

١ - توحيد الربوبية والألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات « توحيد الاعتقاد» .

٢ - توجيه العبادة لله وحده بلا شريك أي « توحيد العبادة » .

٣ - القيام بالتكاليف التي فرضها الله على المؤمنين ، ومن بينها طلب العلم وعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني ، وإعداد العدة لنشر الدعوة في الأرض للجهاد في سبيل الله .

٤ - التخلق بأخلاقيات لا إله إلا الله الواردة تفصيلاً في الكتاب والسنة [١] .

أين المسلمون من هذا المفهوم للركن الأول في هذه الأيام ؟! وأين تطبيق مقتضيات هذا الركن العظيم في حياة المسلمين المعاصرة ؟! .

لقد ضمر مفهوم التوحيد - مع الأسف - حتى أصبح لفظاً مجرداً عند كثير من المسلمين ، ومن هنا فلا غرابة أن يختل ميزان العقيدة عندهم ، وأن يعود الشرك بشكل أو بآخر مع الأسف الشديد إلى أمة التوحيد .

وأن يعود الشرك آخر الزمان، كما ذكر رسول الله ﷺ، وعلى أولئك تقوم الساعة فيما بعد .

إلا أن أملنا كبير في الله ، وأن رحمته ستشمل عباده المؤمنين وإن قلّوا ، حيث لا تزال طائفة من أمة محمد ظاهرة على الحق ،لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك .

٢ - ألوان من الشرك الأكبر :

هنالك طائفة من الكبائر ما تزال منتشرة بين أوساط بعض المسلمين منها : الاستغاثة بغير الله ، ودعاء الأموات لتفريج الكربات ، أو النذر لهؤلاء الأموات والذبح لهم .

---

(١) مفاهيم ينبغي أن تصحح : الأستاذ محمد قطب ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

فهذه الكبائر وأمثالها تعتبر كفـراً صريحاً ، كفراً أكبر ، يجب بيانها لمن ارتكبها، وإقامة الحجة عليه ، فإن تاب بعـد البيان قبلت توبته ، وإلا قتله ولي أمر المسلمين لردته : (١)

قال تعـالى : ﴿ **إن الله لا يغـفر أن يـشرك به ويغـفـر مادون ذلك لمن يشـاء** ﴾ [النساء/ ٤٨] .

ومن أكبر الكبائر أن يجـعل الإنسان لله نداً ، إما فى أسمائه وصفاته، فـيسميه بأسماء الله أو بصفة من صفاته ، وإمـا أن يجعل له نداً فى العبادة كأن يضرع إلى غـيره (تعـالى) كـالشمس والقـمـر ، أو نبي أو ملك ، أو وليٍّ مـثلاً بقـربة من القـربات، بصـلاة أو اسـتغـاثة في شـدة أو مكروه ، أو اسـتـعـانة به في جلب مصلـحة، أو دعاء مـيت أو غائب لتـفريج كـربة أو تحقـيق مطلوب ، مما هو من اختصاص الله سبحانه وتعالى .

وإما أن يجعل لله نداً فى التشريع ، بأن يتخذ مشرعاً له سوى الله ، أو شريكا لله في التشـريع يرتضى حكمه ويدين به فى التحـليل والتحريم عبـادة وتقرباً، أو قضاء وفصلاً فى الخصومات ، أو يستحله وإن لم يره دينا . . .

فهذه الأنواع الثلاثة من الشرك ، «هي شرك أكبـر يرتدّ به فاعله أو معتقده عن ملة الإسـلام ، فلا يصلى عليـه إذا مـات ، ولا يدفن فى مقـابر المسلمين ، ولا يورث عنه ماله » (٢) .

قال عبد الله بن مسـعود رضى الله عنه ، قال رجل : يا رسول الله أي الذنب أكبر عند الله ؟ قال : أن تدعو لله نداً وهو خلقك قال : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قـال ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك: فأنزل

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء : ١ / ص ٩٠ .

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة : جـ ٥١٦/١ - ٥١٧ .

الله عز وجل تصديقها ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ (١) .

والشرك الأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، وذلك أن يحب الرجل الله ويحب معه آلهة أخرى ، وهذا الشرك الذى تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين . ولهذا قالوا لآلهتهم فى النار : ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾ [سورة الشعراء / ٩٧ - ٩٨] .

مع إقرارهم أن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه .

وإنما هذه التسوية كانت في المحبة والتعظيم والعبادة » (٢) .

ومما عمت به البلوى فى هذه الأيام ، مما يندرج تحت هذا الشرك :

١ - المبالغة في التذلل والخضوع للمتبوعين من شيوخ أو رؤساء وزعماء، وخاصة إذا وصل بهم الأمر إلى السجود أو الانحناء لهم ، وفى هذا مشابهة للخضوع لله تعالى ، فهو الذي يستحق ذلك وحده .

« إنما العزة لله ولرسوله والمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

٢ - الاعتقاد أن الخير أو الشر من عند غير الله ، يتجهون إليهم يبتغون عندهم العزة. قال تعالى : ﴿ اتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ [سورة مريم / ٨١ - ٨٢] .

فطلب النصر مثلاً من الشرق أو الغرب، والاعتقاد أن الفرج لا يكون إلا عن طريقهم شرك جديد ابتلي به كثير من بلاد المسلمين ، بعد أن تخلوا عن دينهم، وتحولوا إلى أمم أشبه بغثاء السيل . . .

---

(١) رواه مسلم : شرح صحيح مسلم ، جـ ٢ / ص ٨٠ .

(٢) مدارج السالكين : جـ ١ / ص ٣٣٩ .

٣ - النذر لقبور الموتى ، والذبح لأرواح من يظنون أنهم أولياء ، كالسيد البدوى ، أو السيدة زينب أو الشيخ محيى الدين بن العربى ، أو الجيلانى . . .

فهذه النذور لفلان الميت إن شفي هذا الولد من المرض ، أو نجح ذاك الطالب في دراسته ، وكل ذلك شرك ولا يحل الأكل من هذه الذبائح .

وهى شبيهة بقرابين أهل الجاهلية، التي تقدم عند الأوثان أو الأضرحة وقبور الموتى. قال تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه** ﴾ .

إن صرف أى نوع من العبادة لغير الله شرك ، سواء كان ذلك دعاء أو استعانة، أو استغاثة ، أو نذراً وذبحاً .

ناهيك عن أكل الذبائح التي تذبح فى ديار الكفر بحجة أنها من ذبح أهل الكتاب- النصارى - فى حين أن الطريقة التى تذبح بها غير شرعية ، ولا يذكر اسم الله عليها ، وإنما تقطع منها الرؤوس بالآلات خلال المصانع . . .

قال تعالى: ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق** ﴾ [الأنعام/ ١٢١].

فلا يصح أكل ذبائح هؤلاء ، ولا نطمئن إليها ، ولاسيما أننا نعلم أنهم لا يعتقدون أن للتسمية دخلاً فى حلّ الذبيحة أو حرمتها .

وهذا أمر قد عمت به البلوى فى عدم الاحتراز من أكل اللحوم المستوردة من دول أوربا، ناهيك عن دول الكتلة الشيوعية التي كانت تعلن الإلحاد لها ديناً، بلا مواربة .

٤ - ومن الشرك الأكبر دعاء الأموات وطلب التوسط عندهم والشفاعة منهم.

قال تعالى : ﴿ **والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم، ولا ينبئك مثل خبير** ﴾ [سورة فاطر : ١٣ - ١٤] .

هذه آيات كريمة تقرع أسماع الذين يدعون أشياخهم من أصحاب القبور طالبين منهم الغوث ، أو الشفاء ، أو الولد . وقضاء الحاجات .

قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [التوبة / ١٠٦].

و«كان من إيمان أهل الجاهلية إذا سئلوا من خلق السماوات والأرض ؟ قالوا : الله. وإذا قيل لهم من ينزل القطر قالوا : الله ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون بالله » .

﴿ فهؤلاء الذين يهرعون إلى القبور لسؤال حاجتهم من الميت ، لا فرق بينهم وبين عباد الأصنام في شركهم ﴾ .

قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم، ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾[الإسراء/ ٥٦-٥٧].

ومن ذلك مما عمت به البلوى ، مما يقوم به بعضهم من المغالاة في حب الموتى وطلب الحاجات منهم ، وشكوى مصائبهم قديماً وحديثاً .

من هذا ما يدعون به عبد القادر الجيلاني بكل حب وإذلال :

ياقطب أهل السماء والأرض غوثهما

يافيض عيني وجوديهم وغيثهما

ياغوث الأعظم كل الدهر والحين

أعلى ولي بتحكيم وتمكين (١)

فدعاء الأموات من أهل القبور على هذه الشاكلة يدل على إعراض عن الله تعالى ، وفيه يجأر المرء بالدعاء إلى الميت طالباً منه العون ، جاحداً حق الله تعالى في الدعاء الخالص له .

وهذا شرك يخرج من الملة . قال تعالى : ﴿ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث : جـ ١ / ص ٧١ / .

إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده﴾ [يونس/١٠٦ - ١٠٧] .

وقد يصل الحال بهم إلى الطواف حول القبر ، وهذا ما يشاهد حول قبر السيدة زينب بنت الحسين ، أو الحسين مثلاً (رضى الله عنهما) سبع مرات تشبهاً بالطواف حول الكعبة ، وهذا ما يحصل حول ضريح سيدهم البدوي أو حول قبر الإمام الشافعي رحمه الله ، ولكل هؤلاء سدنة وطقوس ، وأوقاف وأموال تبذل، ناهيك عن الاختلاط والضجيج هنالك وصرف العبادة إلى غير الله جل وعلا، وأكثرهم يسأل الميت المقبور بقوله : ياسيدى فلان اغفر لى وارحمني «وقد يصل الجهل عند بعض المتشددين هؤلاء المنحرفين أن يقول أحدهم : مَدَدٌ يا سيدنا الحسين، مدد يا سيدة زينب ، مدد يا بدوي يا شيخ العرب ، مدد يا رسول الله ، مدد يا أولياء الله . إلى أمثال ذلك مما هو أشد نكراً وأفحش وزراً، فإنه شرك أكبر يخرج قائله من ملة الإسلام والعياذ بالله ، لأنه نداء للأموات ليعطوهم خيراً وليغيثوهم ، ويدفعوا أو يكشفوا عنهم » (١) .

بم يختلف هؤلاء عمن كان يقف أمام سدنة الأصنام هبل أو العزى ، أو اللات ليطلبوا منهم حاجات الدنيا ، وليطلبوا منها أن يُرزقوا غنماً وإبلاً ، وشفاءً من مرض ما الفرق بين فعل هؤلاء وبين أفعال أهل الجاهلية ؟!

« وقد زين الشيطان لكثير من الناس أن يشدوا الرحال إلى قبور الصالحين ، أو من يظنون أنه نبي أو صحابي ؟ أو شيخ من مشايخهم ،فيناجون صاحب القبر وكأنه حي يسمع : يا سيدي فلان اغفر لى وارحمني وتب علي ، ويقول : اقض عني ديني وانصرني على عدوي - وأنا فى حسبك وجوارك . . . ومنهم من يعلق على القبر الكذوب أو غير المكذوب من الستور والثياب ، ويضع عنده من مصوغ الذهب والفضة الشيء الكثير .

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة : جـ ٢ / ص ١٩٣ .

وقد يـزدحمون لـلصلاة في مـواضع الشرك المبـتدعـة التي نهى النبي ﷺ عن اتخاذها مـساجد، ويـهجرون المسـاجد بيوت الله . . . ومن أكـابر شيـوخهم من يقول: الكعبة في الصلاة قبلة العامة والصـلاة إلى قبر الشيخ فلان قبلة الخاصة ، فهذا وأمثاله من الكفر الصريح باتفاق علماء المسلمين(١) .

وقـد حـذرنا الرسـول ﷺ من تعظيم القـبـور أو اتخـاذها مسـاجـد . فـفي الصحـيحين عن أبي هريرة رضي اللـه عنه أن رسول الله ﷺ قال : « قـاتل الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبـور أنبيائهم مساجد » . وفي لفظ لمسلم : «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وعن عـائشة أم المؤمنين رضي الله عنهـا قالت : « لما كـان مرض رسـول الله ﷺ، ذكر بعض نسائه كنيسـة رأينها بأرض الحبشة، وكانت أم سلمة ، وأم حـبيبة قدأتتا أرض الحـبشة فذكرن كنيسـة رأينها بأرض الحبشة يقال لهـا : مارية . وذكرن من حسنهـا وتصاوير فيـها ، فرفـع النبي ﷺ رأسه فقـال : « إن أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، ثم صوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » (٢) .

٦ - ومن الشرك الأكـبر : إقامة النصب ، وتشـييد التمـاثيل، من أجل تخليد أسمـاء ينعتونهـا بأنها : شهـداء الوطن والعروبة أو شهـداء الواجب ، وقد يكون بعض هؤلاء من النـصـارى أو من العلمـانيين اللادينيـين الذين عـاثوا في الأرض فساداً.

وقد ينصبون التماثيل تخليـداً لبعض الزعماء ، وقد يكون منهم من كان يرفض تحكيم شـريعـة الله ، ويجاهر بموالاة اليهـود والنصـارى وكل أعداء الإسـلام ، ويتقربون إلى الأعداء بقتل علماء المسلمين ودعاتهم .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم : ص ٤٥٦ وما بعدها .

(٢) هذا حديث متـفق على صحته : أخرجـه البخاري في الجنائز ، ومسلم في المسـاجد / انظر شرح السنة : جـ٢ / ص ٤١٦ .

إن ظاهرة النصب التذكارية والتماثيل تملأ معظم مدن العالم الإسلامى ، وذلك ما حذر منه الرسول ﷺ فى الأحاديث السابقة ، وقد كانت أصنام قوم نوح: ودوسواع ويغوث ونسر ، أسماء رجال صالحين صوروهم وصنعوا لهم التماثيل حتى يتذكروهم ثم عبدوهم مع مرور الزمن .

إن الوثنية تعود إلى ديار الإسلام بأشكال جديدة ، والشفاعة بقبور الصالحين أو الطالحين شرك من أعمال أهل الجاهلية . . .

ذلك أن المشركين من قريش كانوا مقرين بأنّ آلهتهم مخلوقة ، ولكنهم يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم إليه كما قال تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات والأرض، سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ [يونس ١٨-٢٠][1] .

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم ، وفي مغيبهم ، وخطاب تماثيلهم ، هو أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب ، وفى مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات مالم يأذن به الله تعالى : ﴿**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله** ﴾ [الشورى / ٢١] [2] .

اللهم ألهمنا الصواب وأبعد عن المسلمين كل مكروه وجنبهم نزغات الشياطين ، وشرك المشركين .

٣ - نماذج من الشرك الأصغر :

الشرك الأصغر هو كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك، ووسيلة للوقوع فيه ، وجاء فى النصوص تسميته شركاً . كالحلف بغير الله ، ويسير الرياء، والتصنع للخلق .

---

(١) قاعدة جليلة : ابن تيمية / ص ١٥ - ١٦ / .

(٢) قاعدة جليلة : ابن تيمية ص ١٩ .

ومن صور هذا الشرك الشائعة :

الحلف بغير الله : كالحلف باسم الوطن ، وباسم العروبة، وغير ذلك ، وكمن يحلف بشرفه، أو بحياة والده المتوفى ، أو بروح جده ، أو بحياة الرسول . . .

جاء في الحديث الشريف : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» (1).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً ، ذلك أن الحلف بالله كاذباً - من الكبائر ، ولكن الشرك أكبر من الكبائر وإن كان شركاً أصغر » (2) .

التصنع للخلق ويسير الرياء :

ذلك أن الإخلاص شرط في صحة العمل ، وهو أمر يصعب التخلص من نزغات الشيطان فيه ، لأن حب النفس وحب أن يقال : فلان يشار إليه بالبنان ، مما تميل إليه النفوس ، ولا يتجرد للإخلاص إلا المتقون . . .

قال تعالى محذراً المرائين : ﴿ **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾ .

وفى الحديث الشريف : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ، الشرك الخفي ، أن يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل» (3) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «من سمّع سمّع الله به ، ومن راءى راءى الله فيه » (4) .

---

(1) رواه الترمذى وحسنه ، وصححه الحاكم .

(2) قرة عيون الموحدين : ص ٢٤٧ ، وينظر كتاب التوحيد : باب قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون» .

(3) رواه ابن ماجة وهو حديث حسن .

(4) روى الحديث الإمام مسلم فى صحيحه (انظر شرح صحيح مسلم : جـ ١٨ / ص ١١٦ / .

وعن ابن جرير قال ، قال رسـول الله ﷺ ، قال الله تبارك وتعال : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه»[1].

ومما يندرج تحت هذا النوع: المجاهرة بالصدقات من أجل السمعة، أو أن يقوم المرء بالأعمال الطيبة وأفعال الخير ، والنية غير خالصة لله وحده .

ومن ذلك قول الرجل : لولا الله وفلان ما حصل كذا [2] . . .

اللهم جنبنا نزغـات الشيطان ، وألهمنـا الإخلاص والصواب في الأعـمال إنك سميع الدعاء .

وخير العلاج للتخلص من هذا الداء :

أ - اللجوء إلى الله جل وعـلا ، فشرعه هو المنقذ مـن الضلال والهادي إلى سواء السـبيل ، والمطهر من أدران الشرك ، والمبين لحـقيقة الألوهيـة ، وإخلاص العبودية لله وحده .

ب - أن ندعو بالمأثور ، كما علمنا رسول الله ﷺ فقد خاطب رسول الله ﷺ أصـحابه : أيهـا الناس ! اتقـوا الشرك ، فـإنه أخف من دبيب النمل ، قـالوا : وكيف نتقيه يا رسول الله ؟ قال ، قـولوا : اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه [3] .

جـ - ينبغي أن يحاسب المرء نفسه قبل أن يحاسب ، وإذا عظمت حقوق الله عند المسلم، صغرت الدنيا في عينيه ، وما عاد يهتم بها ولا بأصحابها إنْ أرادوا به انحرافاً أو إغراءً .

كمـا أن المواظبة على العبـادات المشروعة ، والسـنن المأثورة بإخلاص ويقين ، يقرب المسلم من ربه فـلا يرائي ولا يداجي إنْ وافق سلوكه عـبادته، ولا ننسى أن

---

(١) روى الحديث الإمام مسلم في صحيحه (انظر شرح صحيح مسلم : جـ ١٨ / ص ١١٦ / .

(٢) وقول : توكلت على الله وعليك ، أو ما شاء الله وشئت .

(٣) رواه الإمام احمد في مسنده ، والطبراني عن أبي موسى : انظر كنز العمال : جـ ٣ / ص ٢٧٥ / .

حسن التأسي بسيرة سلفنا الصالح يعتبر من أفضل الوسائل لمتابعة النهج السديد؛ بإذن الله ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

والله نسأل أن يقيل عثراتنا ، ويغفر زلاتنا ، وأن يثبتنا على صراطه المستقيم، وأن يجنبنا سبيل أهل الجحيم ، إنه على ما يشاء قدير .

٤ - أخطار الشرك على المشرك وعقيدته :

جاء في النصوص الشرعية ما يبين مآل المشركين ، وعواقبهم من ذلك :

١ - أنه يمنع مغفرة الذنوب : قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [سورة النساء / ٤٨] .

٢ - الشرك محبط للعمل : قال تعالى ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين. بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ [الزمر / ٦٥-٦٦].

٣ - يُحرم المشرك من الجنة ، ومأواه النار :

قال تعالى : **﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار﴾** [المائدة/ ٧٢].

٤ - يعيش المشرك في تخبط وقلق بعيداً عن الأمن والطمأنينة .

قال تعالى : **﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾** .

وقال جل شأنه : **﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾** [الأنعام/ ٨٢]. جاء في تفسير الإمام الطبري قوله : « وهؤلاء الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك ، لهم الأمن يوم القيامة والبعد عن عذاب الله ، وهم مهتدون . يقول: وهم المصيبون الرشاد والسالكون طريق النجاة »[1] .

---

(١) تفسير الطبري : جـ ٧ / ص ٢٥٩ / .

والشـرك والكذب والرياء شجـرة في القلب ، ثمـرها في الدنيا الخـوف والهم والغم ، وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها فى الآخرة الزقوم » [1] .

من نطق بالشهادتين مصدقاً بما دلتا عليه ، وعـمل بمقتضاهما فهو مسلم مؤمن، **ومن أتى بما يناقضهما من الأقوال أو الأعمال الشركية فهو كافر** ، وإن نطق بهما، وصلى وصام مثل أن يستغيث بالأموات ، أو يذبح لهم توقيراً وتعظيماً، ولا يجوز الأكل من ذبيحته [2] .

قال ابن تيـميـة رحمه اللـه محذراً من مـغبـة التوكل على غيـر الله ، وخطر الاعتماد على المخلوقين : [3]

« إعـراض القلب عن الطلب من الله والرجـاء له ، يوجب انصراف قلبـه عن العبودية لله، ولاسـيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخـالق بحيث يكون قلبه معتمـداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه ، وإمـا على أهله وأصدقائه وإما على أمـواله وذخـائره ، وإمـا على سـاداته وكبـرائه لمـاليكه وملـكه وشيـخـه ومخدومه، وغيـرهم ممن هو قد مات أو يموت . قال تعالى : **﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾** .

ذلك أنه لا يكفي لاعتبـار الفرد مؤمنا لمجرد التسليم والاعتـقاد بوجود إله، بل لابد من إثبات معنى الألوهية لله وحده ونفيها عن كل ما سواه .

وأخيراً ليـس لنا وقد صرفت كثـير من القلوب لغير الله ، إلا أن نلتـجىء إليه جل شأنه، أن يرد المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً ، ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً .

---

(١) الفوائد : لابن قيم الجوزية ص ١٦٢ .

(٢) انظر فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء : جـ ١ / ص ١٣٥ .

(٣) الكواشف الجلية : ص ٨٠ .

الفصل الثالث

تحكيم القوانين الوضعية

١ - كيف تسربت القوانين الوضعية إلى ديار المسلمين؟!.

٢ - تحكيم القوانين في ميزان الإسلام.

٣ - آثار تحكيم القوانين : وهل يجنى من الشوك العنب ؟!.

١ - تحكيم القوانين الوضعية :

كنا قد عرفنا أن التحليل والتحريم في الجاهلية كانا خاضعين لأهواء الرجال وعادات القبائل ، وفصل حكماء العرب في المنازعات عند الملمات ، إضافة إلى بقية من تشريع الحنيفية عند بعضهم أحيانا .

ولما جاء الإسلام ندد بأحكام أهل الجاهلية تنديداً شديداً ، وجعل حق التشريع لله وحده ، فهو جل شأنه صاحب الأمر ليقول : هذا حلال وهذا حرام ، وقد نفى الله سبحانه الإيمان عمن لم يحكموا بما أنزل الله فى كتابه وسنة رسوله ﷺ، وقضية التحاكم إلى شريعة الله ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتوحيد ، وهو مقتضى الشهادتين .

وكان المسلمون خلال ثلاثة عشر قرناً يرجعون إلى مصادر التشريع عندهم : من كتاب وسنة وإجماع وقياس [1] .

« وخلال هذه القرون لم يدر فى خلد هذه الأمة قط أن المسلم يمكن أن يتحاكم إلى شريعة غير شريعة الله ، أو أنه يظل مسلماً إذا تحاكم عالماً راضياً إلى شريعة غير شريعة الله » [2] .

« ومن أكبر البلايا والمحن التي ابتليت بها الأمة الإسلامية في هذا العصر تحاكمها أو بالأحرى حكمها - لأنها مغلوبة على أمرها - بالأنظمة الوضعية ، التي تناقض الإسلام ، وتعمل على إبعاده وإقصائه عن كل جوانب الحياة المؤثرة، وهذه الظاهرة ، هي ثمرة خبيثة للاستعمار الصليبي وللغزو الفكري الذي كان مصاحباً للاستعمار ، ومن الغريب حقاً أن يستمر المسلمون يتحاكمون بتلك القوانين الكافرة حتى بعد الاستقلال » [3] .

---

(١) انظر الباب الرابع من هذا الكتاب : الفصل الأول .

(٢) لا إله إلا الله منهج حياة : محمد قطب ، ص ٦٨ .

(٣) ظاهر التكفير : الأمين الحاج محمد أحمد ص ١٢٤

.لكنه تقليد الضعفاء للأقوياء بعد أن تخلوا عن عقيدتهم .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. قلنا يارسول الله ! اليهود والنصارى ، قال النبى ﷺ فمن ؟ » (١) .

استفهام إنكاري ، أي ليس المراد غيرهم ، وفى الفتح : وخص جحر الضب بذلك لشدة ضيقه ورداءته ، ومع ذلك فإنهم لا قتفائهم آثارهم واتباعهم طرائقهم، لو دخلوا مثل هذا الضيق الرديء لو افقوهم (٢) .

٢ - كيف تسربت القوانين الوضعية إلى ديار المسلمين؟ : (٣)

ولنا أن نتساءل : كيف تسربت هذه القوانين الكافرة إلى بلاد التوحيد ؟! وكيف رضي المسلمون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ثانية ؟ وقد أعزهم الله بالإسلام ؟!.

لقد أغلق باب الاجتهاد فى أواخر العصر العباسي ، وذلك لظروف لا مجال لذكرها الآن ، فاستورد الخلفاء العثمانيون المتأخرون منذ السلطان عبد المجيد، وسليمان القانونى بعض اللوائح لتنظيم الجيش العثماني ، ولإصلاح الجهاز الإداري فى الولايات ، وإصلاح الجهاز التعليمي ، باسم الإصلاحات، ثم كونت المجالس النيابيه على الطريقة الغربية ، ووضع دستور مكتوب على النمط الأوربي، مع وجود مجلة الأحكام العدلية المستمدة من التشريع الإسلامي .

وعندما أغلق باب الاجتهاد ، وجدت مبررات شكلية .

« فقد نتج عن ضيق الدائرة الفقهية عن استيعاب الحياة أن ظلت القوانين المستوردة تحتل رويداً رويداً مواقع جديدة من الحياة الإسلامية ، دون أن تلفت النظر إلى خطورتها ، إلى أن جاء الوقت الذى أصبح اقتباس هذه القوانين أمراً

(١-٢) أخرجه البخارى فى باب ماتزل فى بنى إسرائيل ، وعون البارى : م ٤ / ص ٦٦١ .

(٣) انظر العلمانية : د. سفر الحوالى ص ٥٠٧ - ٥٧٠ . وتاريخ الدولة العلية العثمانية : محمد فريد ، بيروت سنة ١٣٩٧ هـ .

مقرراً ومنهجاً لا غبار عليه ، وقد كان انحراف المسلمين لجهلهم بحقيقة دينهم، وسنة الله في الحياة ، وعجزهم عن مسايرة الأحداث .

كان كل ذلك المنفذ الرئيسي لتسرب العلمانيه إلى الشرق المسلم »[1] .

كان الإسلام طيلة القرون السابقة أعمق في النفوس من أن يستبدل به أى منهج آخر، وكانت الجاهلية أحقر من أن تطاوله أو تطمع في أبنائه .

غير أن الحال في العصر الحديث انعكس تماماً ، فلم يبق من الإسلام إلا تلك التصورات الخاطئة في هذا المجال، وكانت الجاهلية الأوربية قد تولت قيادة الفكر البشرى ، وتوجيه الحضارة الإنسانية ، ونتيجة لذلك تخاذل المسلمون أمام التغيرات الجديدة، ظناً منهم أن سبب تخلفهم هو عجزهم التنظيمي والإدارى، وأن أساليب الحياة الغربية جديرة بالقضاء على ذلك التخلف ، وعلى هذا الأساس قامت الحركة المسماة « حركة الإصلاح » فى ديار المسلمين وخاصة فى تركيا ومصر[2] ومن هنا بدأت اللوائح والقوانين الغربية تتسرب إلى هذين القطرين حتى محيت الشريعة ليحل محلها قوانين وضعية كافرة ثم ألغيت الخلافة رسمياً ، وقطعت صلة تركيا بالإسلام ، واستبدل الدستور العثمانى القائم على الإسلام بدستور مدني بحت ، وسار محمد علي باشا وأفراد أسرته على نفس الطريق[3] .

٣ - تحكيم القوانين في ميزان الإسلام :

كنا قد تحدثنا عمن أطاع مخلوقاً في التشريع (غير رسول الله ﷺ) فقد أشرك، ذلك أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، وأن قضية التشريع مرتبطة بالعقيدة والتوحيد ، وذكرنا بعض النصوص الشرعية آنذاك .

ولخطورة هذه القضية في العصر الحديث فإننا نود أن نزيدها إيضاحاً وتفصيلاً

---

(١) العلمانية : ص ٥١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٦١ - ٥٦٣ . .

(٣) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام : ص ١٧٤ / محمد محمود الصواف رحمه الله / ١٣٨٩ هـ .

لقـد امتـثل المسلمـون طوال تاريخـهم لتـحكيم شـرع الله ، ولم يحـاولوا أن يخرجـوا على أحكام الشرع عـموما إلا مـا كان زمن التتـار ، وكانوا قـد أسلموا حديثـاً، وكانت الشوكـة لهم ، فاتخذوا «اليـاسق» ، وهو مجمـوعة من الأحكام مسـتمدة من الإسـلام واليهـودية والنصرانية ، ومن عـادات جنكيز خـان جدهم وتراث آبائهم ، يتـحـدث ابن كثير وهو من المتـأخرين الذين عـاصروا التـتار في تفسيـره إذ يقول تعليقاً على قوله تعـالى « أفحكم الجاهلية يبـغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » : ينكر تـعالى على من خرج عن حكم الله المحكم . . وعَدَل إلى سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الـله ، كما كان أهل الجاهليـة يحكمون به من الضلالات مما يضـعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة من ملكهم جنكز خان الذي وضع لهم «الياسق» وهو عبارة عن كـتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها مـن شرائع شتى من اليهودية والنصراينة والملة الإسلامية . . . وفـيها كثير من الأحكام أخذها من مجـرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعـاً متبعاً يقـدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسـوله ﷺ ، فمن فعل ذلك فهو كافـر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله (١) .

ويقول ابن تيمية رحمه الله في كفر من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله : «لا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر ، فمن اسـتحل أن يحكم بين الناس بما يـراه هو عدلاً ، من غـير اتبـاع لما أنزل الله فهـو كافر . . بل كثير من المنتسـبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله ، كسواليف البادية ، وكانوا الأمراء المطاعين ، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به ، دون الكتاب والسنة، وهذا هو الكفر . . . » (٢) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : تفسير « أفحكم الجاهلية يبغون » .

(٢) مجموعة التوحيد : الرسالة الثانية عشرة ، ص ٤١٣ .

ويقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله : « من الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ولا يكون كافراً ، بل هو كافر مطلقاً ، إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد » [1] .

ثم فصل في كفر الاعتقاد [2] فقال رحمه الله :

أحدهما : أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله .

الثاني : أن لا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقاً، لكن اعتقد أن حكم غير رسول الله أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع، وهذا لا ريب أنه كفر، لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محض زبالة الأذهان على حكم الحكيم الحميد .

الثالث : أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله لكن اعتقد أنه مثله ، فهذا كالنوعين اللذين قبله في كونه كافراً الكفر الناقل عن الملة ، لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق .

الرابع : أن لا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلا لحكم الله ورسوله فضلاً عن أن يعتقد كونه أحسن منه ، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهذا كالذي قبله .

الخامس : وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع ومشاقة لله ولرسوله ، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية . .

فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع ومستندات ، مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله فلهذه المحاكم مراجع هي : القانون الملفق من شرائع شتى، وقوانين كثيرة كالقانون الفرنسي والقانون الأمريكي ، والبريطاني وغيرها من القوانين . . .

فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مفتوحة الأبواب ، والناس

---

(١) تحكيم القوانين : ص ٤

(٢) وهو القسم الأول الذي يخرج من الملة . .

إليها أسراب إثر أسراب ، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب . . فأي كفر فوق هذا الكفر ، وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة ؟ » (١) .

أما القسم الثاني : وهو الذي لا يخرج من الملة ، فقد ذكر أن ابن عباس رضي الله عنهما قال في تفسيره « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (كفر دون كفر) وقوله : « ليس بالكفر الذي تذهبون إليه » وذلك أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية ، بغير ما أنزل الله ، مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق ، واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى، هذا وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنهُ معصية عظمي أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقة وغيرها (٢) .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما يرد بقوله (كفر دون كفر) على الخوارج الذين احتجوا بآية ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله ... ﴾ على تكفير فضلاء الصحابة، علي ومن معه رضى الله عنهم ، إذ كانوا يكفرون على المعاصي فقال:

« كفر دون كفر ، وليس الكفر الذى يذهبون إليه» ؟.

وإذن لم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا من القضاء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام ، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه؛ فهذا الفعل إعراض عن حكم الله وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله ، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم فى تكفير القائل به والداعي إليه (٣).

وجاء في مجموعة فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز قوله (٤) .

---

(١) تحكيم القوانين : ص ٦٥ .

(٢) تحكيم القوانين : ص ٧ .

(٣) تفسير الطبرى : ١/ ٣٤٨ ، تحقيق محمود شاكر « حاشية المحقق » .

(٤) مجموع فتاوى ابن باز : ١/ ١٣٧ ، جمعها الشويعر .

- من اعتقد أن نظام الإسلام لا يصلح تطبيقه فى القرن العشرين .

- أو اعتقد أن الإسلام ينحصر في علاقة المرء بربه دون أن يتدخل في شؤون الحياة الأخرى .

- أو يرى أن إنفاذ حكم الله بقطع يد السارق أو رجم الزانى المحصن لا يناسب العصر الحاضر .

فذلك كله كفر اعتقاد يخرج عن الملة .

يقول أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على تفسير ابن كثير لقوله تعالى :

« أفحكم الجاهلية يبغون » ما موجزه : « أيتجوز في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس من تشريعات أوربا الغربية الملحدة ؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة ، يغيرونه ويبدلونه كما يشاءون ، لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها .

ولا يشبه وضعنا الآن إلا ذلك القانون الوضعي الذى وضعه عدو الإسلام جنكزخان . . ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالاً وأشد ظلماً منهم ، لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج فى هذه القوانين الوضعية المخالفة للشريعة ، والتي هي أشبه بذلك الياسق الذي اصطنعه رجل كافر ، هذه القوانين يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام ، ثم يتعلمها أبناء المسلمين ، ويفخرون بذلك آباء وأبناء ثم يسمون من يدعوهم إلى التمسك بدينهم وشريعتهم رجعياً وجامداً ، إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة . . إلى أن يقول :

«إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح، لاخفاء فيه ولا مداورة » (١) .

قد سئل ابن تيمية رحمه الله عن حكم قتال التتار هؤلاء .

---

(١) عمدة التفسير : ٤/ ١٧٣-١٧٤ ، وانظر تعليقه على شرح الطحاوية ص ٣٦٤ طـ المكتب الإسلامي .

فأجاب : « كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وإن تكلمت بالشهادتين ، وكذلك إن امتنعوا عن تحريم الفواحش أو الزنا أو الميسر أو الخمر ، أو غير ذلك من محرمات الشريعة، وكذلك إن امتنعوا عن الحكم فى الدماء والأموال والأعراض ونحوها لحكم الكتاب والسنة . . قال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله»[1].

وهل يجنى من الشوك العنب ؟ الآثار والنتائج: منذ مطلع القرن العشرين ، أقصيت الشريعة عن الحكم في أكثر ديار المسلمين ، وتنكر كثير من أبناء هذه الأمة إلى شريعتهم ، وأسست كليات للحقوق والقوانين الوضعية في الجامعات ، وفتحت المحاكم لتقضي بين المسلمين حسب هذه القوانين الكافرة ، إلا بعض المحاكم التي تقضي فى الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ، وقد يكون القاضي فى بعض هذه المحاكم نصرانياً .

فما الذي جناه المسلمون من هذه الردّة المركزة ؟ ذلك ما سوف نوجزه فى النقاط التالية :

١ - إن التشريع الوضعي عرضة لاضطراب القيم ، فما هو صالح اليوم ، فاسد لا يصلح غداً ، وما هو مناسب لهذه الطبقة لا يعم الأخرى .

وما النظم الرأسمالية والاشتراكية عنا ببعيدة ، وها هي نتائج حكمها فى العالم يبدو عوارها واضحاً جلياً . . .

وإن القوانين الوضعية تبدي تعاطفاً مع المجرمين من القتلة واللصوص وسفاكي الدماء .

وهي تستنكر إقامة الحدود ، لذا كثرت الجرائم في حين لا نجد في المجتمعات الإسلامية ، التي تحكم الشريعة إلا النادر من الجرائم ، «ولكم في القصاص حياة» ولكن الأقزام والأتباع لا يعلمون .

---

(١) الفتاوى الكبرى : ٤/ ٢٨٠ - ٢٩٣ .

إن التشريع الربـاني صالح لكل زمان ومكان ، وقيمـه ثابتة لا تتغيـر ، صالحة للفرد والجماعة على السواء .

٢ - في غيبة التشريع الإلهي كثـرت الانحرافات الخلقية وطغى الجشع المادى ، وتسود السلوكيات المشينة عادة المجتمعات ، حيث تطلق الشهوات من إسارها فيعم الفساد وتندحر الفضيلة .

وما الانحلال والفساد إلاحصيلة إقـصاء الشريعة، فلا يوجد ضابط في السلوك ولاشئ يقصي الانحراف كالوازع الدينى وتحكيم شـرع الله. قال ﷺ « حد يعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحاً » [١] .

إن ما تشكو منه المجـتمعـات كلها الآن ، من تسيب الأجـيال الناشئة، وكـثرة الجرائم ومشاكل الأحداث ، ما هو إلا نتيجة طبيعية لبعد الناس عن القيم الدينية، وصفاء العقيدة الربانية [٢].

٣ - فى اتباع القوانين الوضعية، إقصـاءٌ فعلي للدين عن الحياة ، وبالتالي إبعاد للمسلمين عن دينهم الحق .

وهذا ما أراده الأعداء ، حين زينـوا تلك القوانين لتحل محل قـانون السماء ، فوهنت العـقيدة ، وعطلت الأحكام وجـهلت الأجيال الناشـئة كثيـراً من بدهيات دينها. . وأحكامه، وصار العـمل به يقتصر على أمور شخصيـة محدودة «إن حياة المؤمن الهادفة إلى الله تـضبطها شريعة ثابتـة متسقة تـسَع الحياة جميـعاً ، وتوحد شعابها،فتجعلها نظاماً محكماً لا ثغرة فيه ولا نقيصة [٣] .

---

(١) أخرجـه ابن ماجة والنسـائى وأحمد ، والحديث حسن لغيره كما قال الألبانى « انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة : ١/٩٠٤ »

(٢) انظر كتابنا : أخلاق العـرب بين الجاهلية والإسلام ، فصل السمـات الأخلاقية فى المجتمعـات الإسلامية والجاهلية ص ٢٨٣ إلى ص ٣٥٠ .

(٣) المصطلحات الأربعة : المودودى ، ص ٥٨ .

إن فصل الدين عن الدولة علمانية غزت ديار المسلمين، وكفر لا تقره الشرائع السماوية ، ويعني إلحادية الدولة .

« فقوم شعيب ، كانوا قوماً يؤمنون بالله وينزلونه منزلة الرب والمعبود، ولكنهم تورطوا فى نوعين من الضلال :

أحدهما : أنهم كانوا يعتقدون الألوهية والربوبية فى آلهة أخرى مع الله تعالى، فلم تعد عبادتهم خالصة لوجه الله .

والآخر : أنهم كانوا يعتقدون أن ربوبية الله لا دخل لها فى شئون الحياة الإنسانية من الأخلاق والاجتماع ، والاقتصاد والمدنية والسياسة ، وعلي ذلك كانوا يزعمون أنهم مطلقو العنان في حياتهم المدنية ، ولهم أن يتصرفوا فى شئونهم كيف يشاءون . ويصدق ذلك ما يأتي من الآيات :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلك خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [الأعراف / ٨٥][١] .

ومن ردهم يظهر ضلالهم عندما قال لهم شعيب عليه السلام : « ويا قوم أوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين. . . » «قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد » [٢] .

هذا ما كان من ضلال قوم شعيب عليه السلام » ذلك أنه لا يوجد دين هو عقيدة فقط ، أو عقيدة وشعائر تعبدية بلا شريعة ، ولكن عندما جاء المفهوم الغربي العلماني للدين ، على أنه علاقة خاصة بين العبد وربه، محلها القلب، ولا

---

(١) المصطلحات الاربعة : المودودى ، ص ٥٨ .

(٢) سورة هود : الأيات / ٨٥ - ٨٧ / .

علاقة لها بواقع الحياة . . . جاء من مفهوم كنسي محرف شعاره : « أدّ ما لقيصر لقيصر ، ومالله لله » . . . وعندما جاءت العلمانية في العصر الحديث وجدت الطريق ممهداً، ولم تجد كبير عناء في فصل الدين عن الدولة ، وتثبيت الدين على صورته الهزيلة التى آل إليها الغرب ، والذي قال الله فيمن يمارسه على هذا النحو:

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »

والظالمون ، والفاسقون ، وهى صفات ثلاث تلحق بكل من ينحي شريعة الله عن الحاكم ، ويحكم بشرائع الجاهلية .

أما الذين ينفذون بعض الشريعة ، ويعرضون عن سائرها فقد قال الله فيهم : **﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون ﴾** [سورة البقرة / ٨٥] [(١)] .

٤ - ومن نتائج تحكيم القوانين الوضعية ، أن حق الإلحاد صار مكفولاً للناس في دساتير تلك الأمم تحت عنوان «حرية العبادة » .

أما قضية « من هو المشرع » فالواضح في الديمقراطيات أن حق التحليل والتحريم تحول إلى الأمة التي هي مصدر السلطات ، أي إلى (البرلمان) الذى يمثلها ولو نظرياً .

هذا البرلمان أو « مجلس الشعب » هو الهيئة التشريعية العليا ، ولا معقب لحكمه، ولو أباح الفاحشة وقد أباحها فى البرلمانات الغربية ، ومن سار على طريقتها.

« فحين لا يلتزم الناس بشرع الله ، فالبشر هم الذين يشرعون ، سواء كان

---

(١) حول تطبيق الشريعة : الأستاذ محمد قطب ص ١١٢ .

المشرع فرداً أو جماعة من الناس أو مجموع الناس كلهم، فكلهم بشر، وحكمهم كله حكم جاهلية، مادام لا يلتزم بما أنزل الله »[1].

قال تعالى: ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ [المائدة / ٥٠].

ويتناسى الناس أن الحكم بغير ما أنزل الله « ناقض» للا إله إلا الله، ومن ضمنه اعتناق « مذهب» من المذاهب التي تبعد الدين عن الحياة، أو تحصره في زاوية ضيقة منها كالشيوعية والاشتراكية، والعلمانية، والقومية والديمقراطية»[2].

٥ - قلب المعايير: لقد اختلطت القيم، واضطربت الموازين فصار دعاة تطبيق الشريعة يسمون متطرفين، أصوليين، وأصبح دعاة تطبيق القانون الوضعي يعتبرون متنورين متطورين ...

وبذلك مسخت الحقائق، وشوهت صورة تطبيق الشريعة في وسائل الإعلام العالمية والعربية ...

فتارة يزينون دعوتهم هذه بدعوى عدم إثارة الفتن الطائفية، والقلاقل بين المواطنين، وتلك دعوى يكذبها الواقع والتاريخ، فقد عاشت الأقليات بين الشعوب المسلمة قروناً هادئة هانئة ... ولكنهم الآن لا يطيب لهم عيش إلا ببعدنا عن تعاليم ديننا، ومن ثم يحاولون الإجهاز علينا بعد كل ذلك، كما هو واقع المسلمين مع أعدائهم هذه السنوات.

وتارة يبالغون بالغلو والتطرف عند المسلمين، حتى صوروا دعاة الإسلام كأنهم مجرمون وعصابات من قطاع الطرق، بأساليب خبيثة مسمومة.

ومن ثم تغض وسائل الإعلام، والنظام العالمي الحاقد، تغض الطرف عن

---

(١) كتاب لا إله إلا الله: محمد قطب / ص ١٦١، ص ٧٤ وص ١٥٨ /.

(٢) كتاب لا إله إلا الله: محمد قطب / ص ١٦١، ص ٧٤ وص ١٥٨ /.

تيارات الغلو عند الهندوس والسيخ والنصارى واليهود ، تغض الطرف عن جرائم الصرب والأرمن والهندوس واليهود في ديار المسلمين ، ونظرة إلى إحصائيات الضحايا ، ضحايا التطرف والغلو والإرهاب في العالم تؤكد التضخيم والتهويل بشأن ظاهرة الغلو عند المسلمين في العصر الحديث ، وذلك لتضليل الرأي العام العالمي كي لا يتعاطف مع المسلمين ، ولتأليب حكوماتهم ضد ما تبقى من إسلام(١) .

ومن الغريب أن كل الناس يحكمون بما يريدون إلا المسلمين، وكل الناس يقادون بواسطة الفئات والأشخاص والأحزاب التي يختارونها حاشا المسلمين ، فإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك وصفوا بالأصوليين ، وسموا بالمتطرفين !! واتهموا بالأمراض النفسية ، وبأن هذه العلل هي التى تقودهم إلى القرآن الكريم !! ثم رموا بما رمى الله سبحانه وتعالى به قوماً فقال : ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم** ﴾ [سورة الكهف / آية ٥] (٢) .

ومن التبجح العجيب أن يزعم « العلمانيون» أن الدعوة إلى إقامة الدولة الإسلامية تمثل ردة حضارية !! وأن قوانين البشر أقدر على إصلاح المجتمعات من الشريعة الإسلامية ! وأن تطبيقها سيؤدى إلى الفتن الطائفية ، وإلغاء الديمقراطية وغير ذلك من مغالطات فاحشة !! ونحن لا نعجب من أن ينتصب لعداوة شريعتنا وديننا اليهود والذين أشركوا ، ولكن العجب أن ينتصب لعداوته نفر من بني جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا ، وينذرون لحربه حياتهم وأقلامهم في تظاهر لا تخطئه العين » !! (٣) .

---

(١) انظر الغلو فى الدين : اللويحق ص ١٣٥ ، ١٤٩ ، وفيه إحصائيات دقيقة .

(٢) تهافت العالمانية : د. محمد سليم العوا ، فى مناظرة نقابة المهندسين بالاسكندرية إعداد : د. صلاح الصاوى/ ص ١٦٧ ، طبعة الآفاق الدولية للإعلام ص ١٤١٣ هـ .

(٣) من كتاب المواجهة بين الإسلام والعلمانية : إعداد محمد صلاح الصاوى ، طبعة سنة ١٤١٣ هـ الآفاق الدولية للإعلام . « وندوة علماء الأزهر » .

الفصل الرابع

شيوع البدع في المجتمعات المعاصرة

* مقدمة

* البدعة : تعريفها - أقسامها - حكمها - منهج أصحابها .

* صور من بدع الاعتقاد :

١ - فكر الإرجاء : وأخطاره على المجتمعات الحديثة .

٢ - التصوف وآثاره السلبية على الأمة .

٣ - ظاهرة الغلو في الدين : بين الحقيقة والتهويل .

٤ - المدرسة العصرية الحديثة : معتزلة اليوم

مقدمة في البدعة : أنواعها - حكمها - منهج أصحابها

البدعة في الدين : مالم يشرعه الله ورسوله ، وهو مالم يأمر به الدين أمر إيجاب أو استحباب ، فأما ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب ، وعلم الأمر به بالأدلة الشرعية فهو من الدين الذي شرعه الله ، وإن تنازع أولو الأمر في بعض ذلك [1] .

والابتداع على قسمين :

١ - ابتداع في العادات : كالمخترعات الحديثة ، وهذا أمر مباح إذ «من المعلوم أنه لا حرج فى أخذ العلوم الدنيوية مثلاً عن غير رسول الله ﷺ ، مثل الطب والحساب والفلاحة ، أما الأمور الإلهية والمعارف الدينية ، فهذا العلم يؤخذ عن الرسول ﷺ لا غير » [2] .

٢ - ابتداع في الدين : وهو نوعان :

أ - بدعة قولية اعتقادية : كمقالات الجهمية والمعتزلة والرافضة ، وسائر الفرق الضالة واعتقاداتهم .

ب - بدعة في العبادات : كالتعبد لله بعبادة لم يشرعها وهي أنواع :

- ما يكون في أصل العبادة : كأعياد المولد ونحوها ، أو إحداث صلاة غير مشروعة ، أو صيام غير مشروع .

- ومنها ما يكون في الزيادة على العبادة المشروعة : كما لو زاد المرء ركعة خامسة فى صلاة الظهر والعصر مثلاً .

- ومنها ما يكون في صفة أداء العبادة . كالأذكار بأصوات جماعية مطربة .

- ومنها ما يكون في تخصيص وقت للعبادة المشروعة : مثل ليلة النصف من

---

(١) الفتاوى لابن تيمية : جـ ٤ / ص ١٠٨ .

(٢) شرح الطحاوية : جـ ١ / ص ٢٣٠.

شعبان للصلاة فيها والقيام، أو صيام يومها. فأصل الصلاة والصيام مشروع، ولكن تخصيصه بوقت يحتاج إلى دليل [1].

هذه البدع محرمة شرعاً لأن الأصل في العبادة التوقيف، وكل بدعة فى الدين محرمة وضلالة لقوله ﷺ :

« وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة »[2].

وقوله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » [3] .

دلت الأحاديث على أن كل محدث في الدين بدعة ، وكل بدعة ضلالة مردودة ، ومعنى ذلك أن البدع في العبادات والاعتقاد محرمة ، ولكن التحريم يتفاوت حسب نوعية البدعة :

- فمنها ما هو كفر صراح، كالطواف بالقبور تقرباً لأصحابها ، وتقديم الذبائح والنذور لها ، ودعاء أصحابها والاستغاثة بهم ، ومثل مقالات غلاة الجهمية . . .

- ومنها ما هو من وسائل الشرك ، كالبناء على القبور والصلاة والدعاء عندها.

- ومنها ما هو فسق اعتقادي ، كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة فيما خالفوا فيه الشرع .

- ومنها ماهو معصية ، كبدعة الصيام قائماً فى الشمس وبدعة التبتل [4].

وقد غزت هذه البدع بأنواعها المجتمعات الإسلامية ، وخاصة في القرون الأخيرة، وشاعت في المجتمعات المعاصرة، حتى كادت أن تطغى مفاهيمها على كثير من طوائف المسلمين .

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد : الفوزان ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٢) رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

(٤) الاعتصام : للإمام الشاطبى ، ٢/ ٣٧ .

وحوربت السنة لتحل محلها البدعة ، وأصل البدع كما يقول عبد الله بن المبارك رحمه الله :

« أصل اثنين وسبعين هوى : أربعة أهواء ، فمن هذه الأربعة أهواء تشعبت الاثنتان وسبعون هوى : القدرية والمرجئة والشيعة والخوارج [(١)] .

لقد شنت الحرب على السنة في هذا العصر من قبل أعداء الإسلام، كالزنادقة والمستشرقين والعصرانيين ، وكانت البدع مما يساعدهم على تحقيق مآربهم .

وعموماً سوف نقتصر في كتابنا هذا على نماذج من بدع الاعتقاد ، ذات الأخطار الشديدة على أمتنا، وذلك لأنها مظهر من مظاهر الانحراف .

منهج أهل البدع :

هذا وإن منهج أهل البدع يعتمد على مناقضة منهج أهل السنة والجماعة خلال القرون الثلاثة المفضلة . . .

يعتمدون على تأليه العقل وتأويل السنة أو رفضها ، ورد مقاصد الشارع ، وقد جعلوا للأهواء على أنفسهم سلطاناً .

فمن شأنهم تضخيم دور العقل ، والجدل ورفض الاحتكام للكتاب والسنة «وإذا رأيت الرجل يخاصم في دين الله ، ويجادل في كتاب الله ، فإذا قيل له قال رسول الله . قال : حسبنا كتاب الله ، فاعلم أنه صاحب بدعة . وإذا رأيت الرجل إذا قيل له : لم لا تكتب الحديث ؟ يقول : العقل أولى ، فاعلم أنه صاحب بدعة. قال علماء السنة : ليس فى الدنيا مبتدع إلا وقد نزع حلاوة الحديث من قلبه » [(٢)] .

« وقد سهل على أهل البدع أن يردوا الأحاديث التي جرت غير موافقة لمذاهبهم

---

(١) انظر كتاب شرح السنة : البربهارى ص ٥٧ .

(٢) الحجة فى بيان المحجة : جـ ٢ / ص٤٣٣ .

وأغراضهم ، ويدعـون أنها مخالفة للمعـقول ، وغير جارية على مـقتضى الدليل فيجب ردها » (١) .

وقـد وقف علمـاء الأمـة يردون على أصـحـاب الأهواء من الفـرق المنحـرفـة ضلالاتهم ، ويبينون لهم الطريق الأقوم .

قال الإمام أحمد رحمه الله فيما صنعه من الرد على الزنادقة والجهمية .

« الحمـد لله الذي جعل في كل زمـان فترة بين الرسل ، بقـايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهـدى ، ويصبرون فـيهم على الأذى ، يحيـون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس أحيوه، وكم من تائه ضال قـد هدوه ، فما أحـسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الـناس عليهم ، ينفون عن كـتاب الله تحريف الضـالين وانتحال المبطلـين ، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة » (٢) .

صور من البدع العقدية فى العصر الحاضر

لقد تكالب الأعداء على المسلمين في القـرنين الأخيرين ، وشنوا حرباً لا هوادة فيـها عليهم ، في مـجالات الفكر وغـيره ، وقد وجـدوا أرضاً خصـبة من أفكار مريضة ورثناها عن الفرق الغـالية أو المبتدعة ، مع تنحيـة لشرع الله جانباً فى هذا القرن ، ناهيك عن تناحر المسلمين وتمزقـهم ، وانبهار كثير منهم بما قدمـته حضارة الغرب من ازدهار علمي صاحبته قيم مضطربة ومبادىء ملوثة .

وكانت البدع المتـفشية فى الأمة قـد ساعدت على ضعف المقاومـة في العصور المتأخرة .

وفي هذا الفصل سـوف نتحدث عن أبرز الفـرق التي أضعفت الأمـة وما تزال تفتك في عقيدة أبنائها وسلوكهم . وهي :

---

(١) الاعتصام : ص ٢٣١ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل : جـ ١ / ص ١٨ .

١ - فكر الإرجاء .

٢ - التصوف وآثاره السلبية .

٣ - الغلو في الدين : بين الحقيقة والتهويل .

٤ - المدرسة العصرية الحديثة * .

نستعرضها بإيجار يتناسب مع البحث ، على أن نتوسع بها فى بحث قادم مستقل إن شاء الله** .

١ - فكر المرجئة وأخطاره على المجتمعات المعاصرة :

بدعة المرجئة بدعة قديمة ، حذر منها علماء المسلمين وما تزال آثارها السلبية تنخر في مجتمعاتنا حتى اليوم .

ويكفي أن المرجئة يبررون للظلم ولاحتلال البلاد ، لأنهم يكتفون من المرء بإسلامه اللفظي ، ولو لم يعمل بعمل أهل الإسلام .

فتبرر انحرافات الفاسق وذنوبه ، على أساس فكرة أننا نرجىء أمره إلى الله ، فراراً من تكفير الخوارج على الكبيرة .

هم يقولون : « لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، فهؤلاء في طرف والخوارج في طرف . يقول الخوارج : نكفر المسلم بكل ذنب ، أو بكل ذنب كبير » [١] .

ويرى المرجئة : « أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه ، ويكون الإيمان والكفر في القلب دون الجوارح» .

---

* وقد أنجز البحث ولله الحمد تحت عنوان: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب -وهو تحت الطبع-.

** صدر كتاب: بدع الاعتقاد وأخطارها على المجتمعات المعاصرة «الإرجاء- التطرف- التصوف».

(١) شرح الطحاوية : ٤/ ٤٣٤ .

«وإذا أتى المسلم بالمعرفة ، ثم جحد بلسانه لا يكفر بجحوده »[١].

«لقد كان هذا الفكر على امتداد الزمن أشد خطراً على العقيدة الإسلامية، والحياة الإسلامية، من كل معاظلات الفلسفة التي دخلت في دراسة العقيدة.

فالقول بأن الإيمان هو التصديق، أو هو التصديق والإقرار على أحسن الفروض، وإخراج العمل من مسمى الإيمان، كان من أخطر المزالق التي أدخلتها الفرق على تلك العقيدة الصافية ومفهومها الصحيح عند المسلمين...»[٢].

إن إخراج العمل من مسمى الإيمان في هذا الدين، الذي نزل لينشئ واقعاً معيناً تحكمه شريعة الله ومنهجه للحياة، أمر مذهل في مجرد تصوره، فضلاً عن أن يصدر عن (علماء) معتبرين في تاريخ هذه الأمة!.

كيف يتصور أمر هذا الدين، حين يكون تصديقاً بالقلب، وإقراراً باللسان، دون عمل بمقتضى هذا التصديق والإقرار في واقع الحياة؟!»[٣].

الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية:

في الرد على مقولة المرجئة إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص نورد بعض النصوص الشرعية التي تنقض رأيهم.

إن المعصية لا تخرج من الإيمان ولكنها بالتأكيد تؤثر فيه... قال ﷺ:[٤] «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، هو الران الذين ذكره الله تعالى **﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. كلا إنهم عند ربهم يومئذ لمحجوبون، ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾**.

---

(١) مقالات الإسلاميين: ص١٣٨.

(٢) واقعنا المعاصر: ص٢٨.

(٣) واقعنا المعاصر: الأستاذ محمد قطب./ص١٢٩.

(٤) أخرجه الإمام مسلم، ومالك في الموطأ.

قال الإمام البخارى: «لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص»[1].

وفي السخرية من مقولة المرجئة أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص قال وكيع: «أترى إيمان الحجاج بن يوسف مثل إيمان أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؟»[2].

بل ينتفي الإيمان تماماً إذا خالطه الشرك الأكبر.

هذا «وإن ذل المعصية لابد أن يقوم بالقلب، فيورثه خوفاً من غير الله، وذلك شرك، ويورثه محبة لغير الله، واستعانة بغيره فى الأسباب التى توصله إلى غرضه، فيكون عمله لا بالله، ولا لله وهذا حقيقة الشرك».

نعم قد يكون معه توحيد أبى جهل وعباد الأصنام، وهو توحيد الربوبية، وهو الاعتراف بأنه لا خالق إلا الله، ولو أنجى هذه التوحيد وحده، لأنجى عباد الأصنام، والشأن في توحيد الألوهية هو الفارق بين المشركين والموحدين»[3].

والإيمان يتغير في نفس صاحبه خلال تلاوة القرآن والذكر واتصال القلب بالله خلال العبادة، خلافاً لغيرها من الأوقات، وعن حنظلة قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فوعظنا فذكر النار، قال: ثم جئت إلى البيت فضاحكت الصبيان، ولاعبت المرأة. قال: فخرجت فلقيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال: وأنا قد فعلت مثل ما تذكر. فلقينا رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله: نافق حنظلة، فقال: مه؟فحدثته بالحديث، فقال أبو بكر: وأنا قد فعلت مثل ما فعل. فقال: يا حنظلة، ساعة وساعة، ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر، لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم فى الطرق[4].

والواقع أن المعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين، هو إتيانه بهذه الأمور: التصديق بالقلب والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح. قال تعالى:

---

(١) لوامع الأنوار البهية: جـ١/ ص٤٣١.

(٢) كتاب السنة: أحمد بن حنبل رحمه الله، جـ١/ ٣١٠.

(٣) مدارج السالكين: جـ١/ ص٣٢٧.

(٤) رواه مسلم/ انظر شرح صحيح مسلم، ٩/ ص٦٧.

«إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً» فأخبر سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته»[1].

والأدلة على أن الإيمان قول وعمل ونية، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ،أكثر من أن تحصى، وذلك ما كان عليه سلف الأمة وأئمتها. فمن ذلك قول الله تعالى: «وما كان الله ليضيع إيمانكم». أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويله القبلة.

وقول النبي ﷺ لوفد عبد القيس: «آمركم بالإيمان وحده. أتدورن ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله» الحديث وهو في الصحيحين والسنن.

ومن الأدلة على أن الإيمان يزيد قوله تعالى: «ويزداد الذين آمنوا إيماناً»، «وأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً».

وهذا يخالف قول المرجئة الذين يقولون: الإيمان هو القول، ويخالف قول الأشاعرة القائلين بأن الإيمان هو التصديق.

ومن المعلوم عقلاً وشرعاً: أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق، وقول الحق تصديق»[2].

«ومن المعلوم أن المرجئة ثلاثة أصناف:

١ - الذين يقولون: الإيمان هو مجرد ما في القلب... ومن هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة.

٢ - الصنف الثاني: يرى أن الإيمان هو مجرد قول اللسان وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية.

---

(١) شرح صحيح مسلم: جـ١/١٤٦-١٤٧.

(٢) انظر فتح المجيد: ص٣٣٢-ص٣٣٣.

٣ - الصنف الثالث: يقولون: الإيمان تصديق القلب، وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم»[١].

فالقول الثالث: هو إرجاء الفقهاء، والخلاف بينهم وبين بقية أهل السنة خلاف لفظي. ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله: «دخل في إرجاء الفقهاء جماعة هم عند الأمة أهل علم ودين، ولهذا لم يكفر أحد من السلف أحداً من مرجئة الفقهاء، بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال، لا من بدع العقائد، فإن كثيراً من النزاع فيها لفظي، ولكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب»[٢].

---

(١) كتاب الإيمان: ابن تيمية رحمه الله ص١٨٤.

(٢) كتاب الإيمان لابن تيمية: ص٣٧٧.

٥ - المرجئة المعاصرون وأخطارهم على عقيدة الأمة:

لقد اضطرب مفهوم لا إله إلا الله على يد المرجئة، وصار عند كثير من المسلمين لا يعني أكثر من لفظ مجرد باللسان.

بينما كان العربي في جاهليته يفهم معنى هذا الركن فهماً واضحاً، ويفهم تبعاته، وأن الشهادة «لا إله إلا الله» ليست كلمة تقال، وإنما هي مفتاح هذا الدين، ولها مقتضياتها «إن الشهادة تعني أنه لا معبود إلا الله، ولا طاعة إلا له، وإلا فهي عبادة الشيطان».

فلا تعبد إلا الله في عقيدة القلب، ولا تعبد إلا الله في شعائر التعبد، ولا تعبد إلا الله في التشريعات والتنظيمات التي تنظم علاقات البشر بعضهم ببعض...

فهذا هو المعنى الحقيقي للشهادة، والذي كان القرآن في العهد المكي كله يتنزل لتثبيته في القلب وترسيخه وتوثيقه.

واستمر الجهد في العهد المدني ليعلم الناس أن هنالك إلهاً يجب أن يعبد كما أمر سبحانه، فالعبادة هي الطاعة، والطاعة تتمثل في اتباع ما أنزل الله(١).

إلا أن الفكر الإرجائي جاء في العصر الأخير ليربت على لحظة الغفلة، ويطمئن الغافلين على أنهم مؤمنون، ما دامت قلوبهم قد استقر فيها الإيمان؛ .

جاء في هذا العصر من يدعي أن «من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن، ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام. وهذا أمر مستحيل بالنسبة لأهداف هذا الدين، وبالنسبة إلى واقع المجتمع الذي يحكم بشريعة الله...

فالمرجئة القدامى كانوا على حال تختلف عن المرجئة المحدثين، فأولئك لم يتطرقوا مثلاً إلى إسقاط الصلاة أو التحاكم إلى شريعة الله، كما أسقطها المرجئة المحدثون...

---

(١) دراسات قرآنية: الأستاذ محمد قطب/ ص٦١-٦٢ بتصرف.

ومع ذلك فإن المرجئة القدامي هم الذين وضعوا البذور السامة التى التقطها المرجئة المحدثون، واستبقوا منها إسلاماً جديداً لم يتنزل به كتاب، ولم يرسل به رسول... إسلاماً بلا تكاليف، أو قل: إسلام بلا إسلام[1].

ثم ازداد انحراف المرجئة المعاصرين، فلم يقفوا عند حد. لقد ولدوا في مجتمع لا يحكم بشريعة الله... وفى مجتمع لا تؤدى فيه الصلاة ولا غيرها من العبادات، ثم تناولوا الجرعة المسمومة من الفكر الإرجائى، ومدوا فكرهم حتى شملوا به كل شئ من مقتضيات لا إله إلا الله، فقالوا: من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن، ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام... فتجاوزوا الحاجزين الأخيرين اللذين كان المرجئة القدامى قد وقفوا عندهما: حاجز الصلاة، وحاجز الشريعة، فوصفوا المجتمعات التى لا تحكم بما أنزل الله، بأنها مجتمعات إسلامية، وصنفوا الناس (كل الناس) بأنهم مسلمون ما داموا يقولون بأفواههم لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ معتمدين على الحديث «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» متناسين أن هذا الحديث قد خصص بأحاديث أخرى قد اشترط الرسول ﷺ فيها البراءة من الشرك. قال عليه الصلاة والسلام: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» أخرجه مسلم.

فالتوجه بشئ من ألوان العبادة لغير الله شرك، والاستغاثة والنذور والذبح لغير الله شرك، والتشريع بغير ما أنزل الله شرك والرضى بذلك التشريع شرك لا شك فيه»[2].

وعندما سئل ابن تيمية رحمه الله عن رجل قال: «أنا لو فعلت كل ما لا يليق وقلت لا إله إلا الله، دخلت الجنة ولم أدخل النار؟» أجاب رحمه الله «الحمد لله رب العالمين من اعتقد أنه بمجرد تلفظ الإنسان بهذه الكلمة يدخل الجنة، ولا يدخل النار بحال، فهو ضال مخالف للكتاب والسنة وإجماع المؤمنين.

---

(١) مفاهيم ينبغى أن تصحح: محمد قطب/ ص٨٢.

(٢) مفاهيم ينبغى أن تصحح: ص١٠٧-١٠٨ و وانظر الفصل الثالث من هذا الكتاب «أنواع الشرك».

فإنه قد تلفظ بها المنافقون الذين هم في الدرك الأسفل من النار وهم كثيرون.

بل إن المنافقين قد يصومون ويصلون ويتصدقون ولكن لا تقبل منهم. قال تعالى: **﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾**.

ثم قال رحمه الله: «ولكن إن قال لا إله إلا الله خالصاً صادقاً من قلبه، ومات على ذلك لا يخلد في النار... إذ لا يخلد في النار من في قبله مثقال حبة من خردل من إيمان، كما صحت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ.

ولكن من دخلها من فساق أهل القبلة من أهل السرقة والزنا وشرب الخمر وأكل الربا وغير هؤلاء... فإنهم إذا عذبوا فيها عذبهم الله على قدر ذنوبهم كما جاء في الأحاديث الصحيحة»[1].

إن خطورة الفرق الزائغة قد اشتدت في هذا العصر لأن حجمها بالنسبة إلى أعداد المسلمين قد ازداد، وكان حجمها قديماً يعتبر ضئيلاً، وكانت أفكارها تعيش في أبراج عاجية، أو في دهاليز مظلمة على الأصح، وما كان لها تأثير ملموس في واقع حياة المسلمين.

حتى أن أصحاب الفكر الارجائي، كثير منهم كان من العاملين الفقهاء، والعابدين الزهاد، ولم يتأثروا بفكرهم الخاص ليتركوا العمل أو ينادوا بتركه، شأن مرجئة اليوم[2].

---

(١) الفتاوى لابن تيمية: جـ٣٥/ ص٢٠٢-٢٠٣/.

(٢) انظر واقعنا المعاصر: محمد قطب ص١٦٥-ص١٦٦.

٢ - التصوف وآثاره السلبية على الأمة:

التصوف فكر سلبي: نشأ كردة فعل على الترف والتحلل في أواخر العصر العباسي.

«وعرف التصوف فى بداياته، على أنه رياضات نفسية ومجاهدات للطباع، وكسر لشهوات النفوس، وتعذيب للجسد كي تصفو الروح، وإذا كان هذا الصفاء يأتي بدون تكلف عند السلف نتيجة للتربية الروحية المتكاملة، فنحن هنا بصدد تشدد وتكلف لحضور هذا الصفاء، وبصدد تنقيب وتفتيش عن الإخلاص يصل إلى حد الوساوس»[(١)].

كان أصحاب رسول الله ﷺ يعيشون بتربية متوازنة لنفوسهم، زهد فى الدنيا ومتاعها، وعمل جاد فى عمارة الأرض بشريعة الله توجههم، وجهاد فى سبيل الله، مع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر... وكذلك كانت الأجيال التى اتبعتهم بإحسان.

«كان زهد الصحابة فى متاع الدنيا ذلك الزهد الإيجابى المقدام والبناء، ذلك الزهد الذى يدفع أصحابه إلى الجهاد والمجالدة والمواجهة، لا إلى انحسار فى داخل النفس وهو الزهد الذى يحصن النفس ضد الفتنة، لا الذى يقتل النفس للوقاية منها.

أما الصوفية فقد انصرفوا إلى الصلاة والصيام ،والذكر، وقالوا: هذه هى الأعمال المطلوبة للآخرة، أما أمور الدنيا فلا حاجة لنا إلى الخوض فيها، لأنها فتنة توقع في حبائل الشيطان.

وكانت النتيجة بسبب هذا الفكر السلبي إضافة إلى الفكر الإرجائي الذى يشجع على التفلت من التكاليف، أن وصل العالم الإسلامى إلى حالته الراهنة من الفقر والجهل والمرض»[(٢)].

---

(١) الصوفية: محمد العبدة وطارق عبدالحليم/ ص٢٢.

(٢) انظر مفاهيم ينبغى أن تصحح: ص٣٢٣، ص٣٢٨.

«وإذا لم تكن توجيهات القرآن وتوجيهات السنة النبوية كافية لتهذيب النفس والسمو بها إلى الدرجات التي يحبها الله ورسوله، فلا خير فيما خالف هذه التوجيهات سواء في الصوفية أو غيرها.

«وإذا كان قدماء الصوفية قد تكلموا بكلمات مقبولة عن خبايا النفس الإنسانية وتعرجاتها، ومعالجة أمراض القلوب فهذا شئ طيب، وهو من أمر الله ورسوله، ولا نسميه صوفية لأنها أصبحت علماً على كثير من البدع»[1].

وحتى لا يدخل الغلو في عبادة المسلمين حذر رسول الله ﷺ من ابتعد عن سنته بزيادة العبادة، لأنه أعبد هذه الأمة لله وأخشاهم لربه جل وعلا.

روى الشيخان: أنه ذهب ثلاثة رهط إلى بيت من بيوت رسول الله ﷺ، فسألوا عن عبادته، فلما أُخبروا كأنهم تقالوها. فقالوا: أين نحن من رسول الله. وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟؛ فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم الليل ولا أنام، وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء. فلما سمع رسول الله ﷺ قال: «أما والله إني لأخشاكم لله، وأعبدكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

والمتصوفة ليسوا سواء في معتقداتهم وأفكارهم، فمنهم المعتدل، ومنهم من جاهد بسيفه لنشر الدعوة، ومن قاد الجيوش لقتال الأعداء، ومن وقف للسلطان الجائر يرده عن ظلم الناس...

وكان منهم زهاد فقهاء يقفون عند النص ، ولا يتجاوزون الدليل الشرعي، وهؤلاء فى الحقيقة زهاد وإن ألحقوا بالصوفية.

ومنهم أصحاب غلو قالوا بوحدة الوجود، وانحرفوا انحرافاً خطيراً عن جادة الصواب.

---

(١) الصوفية محمد العبدة ص١٠٥.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية ص٤٥٦ ما بعدها .

وسوف نتحدث عن الغلاة من أهل التصوف لبيان خطرهم، ثم نتحدث بإيجاز عن مخاطر الفكر الصوفي عامة راجين من العلي القدير أن يلهمنا الإخلاص والصواب في القول والعمل إنه على كل شئ قدير.

غلاة المتصوفة: عقيدتهم وطرائقهم:

غلا بعض المتصوفة في العقيدة والسلوك وتوصلوا إلى انحرافات خطيرة نوجزها بما يأتي:

١ - إن طائفة منهم ظنوا أن توحيد الربوبية هو الغاية، والفناء فيه هو النهاية، وأنه إذا شهد أحدهم ذلك سقط عنه استحسان الحسن، واستقباح القبيح، فآل بهم الأمر إلى تعطيل الأمر والنهي والوعد والوعيد.

وقد اعتقد بعضهم بحلول الله في شئ من مخلوقاته، فاعتقدوا بوحدة الوجود وهي من الكفر الصريح، وهو مبسوط فى كتب مشايخهم.

٢ - ومن معتقداتهم المنحرفة: صرف المسلمين عن العلوم الشرعية، وتزهيدهم فيها، وشغلهم فيما يسمونه: «بالعلوم الباطنية».

ومن خيالاتهم المريضة وفيها الكفر الصريح.

«تقول ميمونة فيما نسب إليها النيسابورى فى كتابه: «عقلاء المجانين-ترجمة ميمونة»[(١)].

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونا
وألسنة بسرٍ قد تناجي تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمينا

٣ - وقد أوغلوا في البدع والخرافات، حتى ظن بعضهم أن الصلاة والعبادات تسقط عن خواص العارفين. كما أنهم دعوا إلى وحدة الأديان.

---

(١) دراسات فى الفرق: د. جابر طعيمة/ ١١٩.

«فمن خـرافاتهم وشطحاتهم التي لا تخرج إلا من خـيال مريض، بدعـة أشبه بأفكار الماسونية التى تدعو إلى وحدة الإنسانية، وترك الاختلاف بسبب الأديان...

وهذه دعوة خبيثة، ملمسها ناعم ولكنها تحمل السم الزعاف في أحشائها»[1].

ويترجم ابن عربي هذه العقيدة شعراً فيقول:

لقد صار قلبي قابلاً كل صـورة	فمرعى لغزلان ودير لرهـبان
وبيـت لأوثـان وكعـبة طـائـف	وألواح توراة ومصحف قرآن
أديـن بـدين الحب أنىّ توجهت	ركائبه فالحب ديـني وإيمـاني

٤ - ومن معتـقداتهم: المغالاة في حب الموتى، وطلب الحـاجات منهم، وشكوى مصائبهم، وتقديس أصحاب القبور، والارتحال إليها، والطواف حولها[2].

٥ - ومن طريقتهم في الذكر والعبادة: الاستـهتار والاستخفاف والرقص الجماعي مع سماع الذكر على الدفوف...

ومن أناشيدهم ما يقوله يحيى بن معاذ المتوفى سنة ٢٥٨هـ. :

دققـــنا الأرض بالرقــــص	على غيب معانيكا (جمع معنى)

ولا عيب على رقص لعبد هائم فيكا

وهــذا دقــنا لــــــلأرض	إذا طفنــا بوديكــــــــا[3].

ويكون هذا الرقص في الغـالب بعد الشـبع والبطنة، فالـصوفيـون الذين بدأوا بالزهد والتقشف بالغـوا بعد ذلك فى النهم (وخاصة الأجيال المتـأخرة) في كل ما يقدم لهم من طعام أو لباس وهدايا وثياب.

وقد صور ذلك أبو بكر العنبري في قصيدة له إذ يقول:

---

(١) الصوفية: المبدأ/ ص٥٩-٦٢.

(٢) انظر الفصل الثالث من هذا الباب: ألوان من الشرك فى حياة المسلمين المعاصرة.

(٣) دراسات فى الفرق: د.جابر طعيمة، عن اللمع/ أبو نصر سراج الدين ص٤٥٢.

وذو كلف باستماع السمـــاع بين البسيط وبين النشـــيد
يئـــن إذا أومضت رنـــة ويزأر فيها زئير الأســـود
يخـرّق خلقـانه عـامـــداً ليعتاض منها بثوب جديـــد

إلى أن يقول:

وأقسم ما عـرفـوا ذا الجـلال وما عـرفوه بغير الجـحود[1].

وهل يحتاج الذكـر إلى دفوف ومـزاميـر لينـال القـبول؟!.

أين هذا من إخبات الخاشعين، وقنوت المتقين الزاهدين؟!.

وهل الذكر بعبارات:آه، آه، يا هو يا هو... ونحـو ذلك من الكلمات المبهمة مما لا يقول به عاقل فضلاً عن عابد لله؟!.

«والمشركـون كان سماعـهم كما ذكـره تعالى في كتـابه العزيز بقوله: «ومـا كان صلاتهم عند البيت إلا مكـاء وتصدية» قال السلف: المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق باليد، فكان المشركون يجتمـعون في المسجد الحرام، ويصفقون ويصوتون يتخذون ذلك عبادة وصـلاة، فذمهم الله على ذلك وجعل ذلك من الباطل الذي نهى عنه»[2].

أمـا سمـاع الغناء على وجـه اللعب، فـهـذا من خصـوصـية الأفـراح للنسـاء والصبيان، كما دلت على ذلك الآثار.

---

(١) تلبـيس إبليس: لابن الجوزي ص٤١٩.

(٢) الفتاوى لابن تيمية :جـ٣/٤٢٧.

الآثار السلبية للتصوف

لقد أشاع الفكر الصوفي آثار سلبـية وخطيرة فى المجتمعات الإسلامـية، ويعتبر من أبرزها:

أ - **التواكل**: وما ينجم عنه من كسل ونظرة سلبية إلى الحـياة. «وما الصوفية في حقيقتـها إلا عملية هروب من مواجهة الواقع ومـجالدته، هروب إلى عالم خاص من صنع الوجدان، ينعم فيه الإنسان بمشاعر القـرب من الله-وهماً أو حقاً- فيقعد عن العمل اكتفاء بتلك المشاعر التي تختصر له الطريق؛ .

الصوفية انعـزال سلبى، والإسلام مواجهة إيجابية. في الإسـلام دعوة صريحة إلى الترفع عن متاع الأرض، وفي الصوفية كذلك، إلا أنها تدعو إلى الاكتفاء بأقل القليل.

ينشأ مع الصـوفية **التواكل** بدلاً مـن **التوكل**، إن التواكل صورة سلبـية معطلة تتقاعس عن اتخاذ الأسباب متذرعة بالتوكل على الله... ومع الصوفية ينشأ القعود عن تعمير الأرض، بحجة أن الدنيا ملعونة، والمعول عليه هو الآخرة[1].

ب - **والصوفـية تهيء العـامة لتحـمل الظلم**: والصبر غـير المشروع دون السعي إلى تنحية الظلم ونصرة المظلوم، ذلك أن الصوفية جبرية مرجئة تربت على أكتـاف النائمين، فيـستـولي اليأس والقنوط عـلى الحياة، ويُفـقد نظام السـعى فى الأرض فيقل الإنتاج، وتصبح الأمة عالة على غيرها من الأمم،إن شاءوا أعطوها، وإن شاءوا منعوها.

هذه النظرة السلبية كـانت خير عون للمسـتعمر... الذى غذى الصـوفية وأنفق على مشاهدها وزواياها لقـتل الحيوية ونفسية الجهـاد عند المسلمين، فحقق هدفين فى وقت واحـد. الحفـاظ على التـقاليـد الدينيـة الموروثة فى نظر الناس وصـرف الأنظار عن الاستعمار واستغلاله لديار المسلمين[2].

---

(١) انظر واقعنا المعاصر: محمد قطب / الصفحات: ١٣٩، ١٤١، ١٤٤-١٤٦.

(٢) أثر الفكر الغربى فى انحراف المجتمع المسلم فى شبه القارة الهندية بتصرف وإيجاز ص٢٣٥.

وها نحن نجد التكريم واضحاً عند الأنظـمة التي تعادى الإسلام لهؤلاء الصوفية سواء فى اتـخاذهم بطانة سـوء تفتي وتبيـح المحرمات، وتحرم المباحـات، أو تميت روح الجهاد، أو تبرر تحيكم القوانين الوضعية بشكل أو بآخر.

جـ - ومن مخاطر الصـوفية أنها فصلـت بين الدين والـدنيا: بين الآخـرة وبين الحياة الدنيا، وجعلوا الأخرة الأساس.

«لقد اتكأ الصوفية كثيراً علـى الآيات التى وردت فى ذم الدنيا والأحاديث التي وردت في ذمهـا، واتكأوا على الـزهاد وأخبارهم واعـتبروا أنه لا سبـيل إلى درء المعاصـى إلا باحتقار الدنـيا وازدرائها، والبـعد عنها قـدر المستطاع لكـن هذا شئ واعتبـار الدنيا والآخرة معـسكرين متقـابلين متضاديـن شئ آخر[1]. قال تعـالى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ [القصص/٧٧].

د - ثم ضخم الصوفيون دور مشايخهم وقدسوهم أحياء وأمواتـاً، واعتمدوا كذلك على الرؤى والمنامات، واستدلوا بأحاديث ضعيفة ،وأخرى موضوعة...

وتجاوزوا معنى أن الله قريب يجيب دعوة الـداعي، وأنه ليس بحاجة إلى اتخاذ الوسطاء بينه وبين عباده.

قال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾ [سورة البقرة/ ١٨٦].

«وإبليـس دعا ربه مباشرة فـأجيب. «قال رب فأنظـرني إلى يوم يبعـثون. قال: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم»[2].

فهل يحرم عصاة المسلمين من حق أخذه إبليس وجنوده»[3].

ليس فـى الإسلام رهبانـية، فالله قريب مـن المؤمنين رحيـم بعباده وهـو غفور رحيم.

---

(١) مفاهيم ينبغي ان تصحح: محمد قطب/ ص٣٠٦.

(٢) سورة الحجر/ ٣٦-٣٨/ .

(٣) عقيدة المسلم: الشيخ محمد الغزالى/ ٨٧.

٣ - ظاهرة الغلو في الدين: بين الحقيقة والتهويل

الغلو هو المبالغة فى الشئ والتشديد فيه بتجاوز الحد[١]. والحد هو النص الشرعي من كلام الله سبحانه وتعالى، وكلام رسوله ﷺ.

والغلو نوعان:

١ - **غلو اعتقادي**: كغلو النصارى فى عيسى عليه السلام، أو غلو الرافضة في الإمام علي والأئمة الأثنى عشر، أو غلو الخوارج في تكفير أهل الإسلام بالمعاصى والذنوب كبيرها وصغيرها.

٢ - **وغلو عملي**: وهو المتعلق بالأمور العملية التفصيلية، من قول اللسان أو عمل الجوارح، مما لا يكون فرعاً عن عقيدة فاسدة، مثل رمي الجمار بالحصى الكبار، فإن النبي ﷺ عده غلواً، كما فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما لما جمع للنبى ﷺ جمرات، أمره أن يلقط حصى صغاراً وقال: «مثل هؤلاء فارموه، وإياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[٢].

ومثل ذلك المبالغة فى العبادة كوصال الصوم، وقيام الليل كله. والغلو الاعتقادي هو الأخطر ولا شك.

وقد دعا الإسلام إلى الوسطية **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾** [البقرة/ ١٤٣]. ويحذر الإسلام من المصير إلى الانحرافين: الغلو أو التقصير.

ولهذ المنهج الوسط قال تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»، وقال ﷺ:

---

(١) فتح البارى: ١٣/ ٢٧٨.

(٢) صحيح الجامع الصغير رقم «٢٦٨٠»، وانظر مجلة البيان، مقال حقيقة التطرف: سلمان العودة، العدد (٦٧) ربيع الأول.

«هلك المتنطعون. قالها ثلاثاً»[1]. وعن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبيﷺ أنه قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد هذا الدين من أحد إلا غلبه». أى غلبه الدين وعجز وانقطع عن عمله كله أو بعضه[2].

وقد خرجت بعض الفرق على هذا المنهج الوسط، منذ القديم، كالشيعة والخوارج والمعتزلة.

وسوف نخص الخوارج بالحديث في هذا الفصل، لأنهم يعتبرون من جذور الغلو المعاصر لدى بعض الفئات.

ثم نتحدث عن أسباب الغلو في العصر الحديث، وعن مظاهره، ونختم البحث بلمحة عن الغلو عند الأمم الأخرى، وخاصة هؤلاء الذين أوصلهم تطرفهم إلى اضطهاد المسلمين بل إلى محاولة إبادتهم.

غلو الخوارج وموقف أهل السنة منهم:

غلا أهل الأهواء منذ صدر الإسلام، فكفروا على الذنوب والمعاصي، وقالوا: بتخليد مرتكب الكبيرة فى النار.

ومن أجل ذلك كفر الخوارج علياً رضى الله عنه وكل من كان يخالفهم الرأي من أهل الإسلام، وكفر الرافضة معظم أصحاب رسول الله ﷺ ممن كان خارج صف أمير المؤمنين رضى الله عنه رغم أن علياً والصحابة لم يرتكبوا ذنباً إلا مخالفة ما فى عقول أهل البدع والأهواء آنذاك.

والقول بتخليد أهل الكبائر فى النار، لم يوافق أهل السنة قائليه من الخوارج والمعتزلة، لأن هذا القول من بدعهم المشهورة، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد فى النار أحد ممن في قلبه مثقال

---

(١) رواه مسلم: أنظر مشكاة المصابيح، جـ٣/ ٣٥٠ رقم: ٧٨٥ والمتنطعون المبالغون فى الأمور.

(٢) عون البارى: م١/ ص١٨٠، والحديث رواه البخارى.

ذرة من إيمان، واتفقوا أيضاً على أن نبينا محمداً ﷺ يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته»[1].

فالخوارج هم أول من كفر المسلمين بالذنوب، ويكفرون من خالفهم في بدعتهم ويستحلون دمه وماله، وهذه حال أهل البدع، يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها.

وأهل السنة يتبعون الكتاب والسنة، ويطيعون الله ورسوله فيتبعون الحق ويرحمون الخلق»[2].

«فأهل السنة والجماعة يقررون ما دل عليه الكتاب والسنة، أي أنهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب ولا يخرجون من الإسلام بعمل «إذا كان فعلاً منهياً عنه»، مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر ما لم يتضمن ترك الإيمان، وأما إذا تضمن ترك ما أمر الله بالإيمان به مثل: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، فإنه يكفر به، وكذلك يكفر بعدم اعتقاد وجوب الواجبات الظاهرة المتواترة وعدم تحريم المحرمات الظاهرة المتواترة»[3]. مع العلم أن المعاصي بريد الكفر ويخشى على صاحبها سوء الخاتمة قال ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»[4].

---

(١) الإيمان لابن تيمية: ص٢٠٩.

(٢) الفتاوى لابن تيمية: جـ٣/ ص٢٧٩.

(٣) الفتاوى لابن تيمية: جـ٢٠/ ص٩٠.

(٤) صحيح الجامع الصغير: حديث رقم٢٦٨٧.

الغلو المعاصر في ديار المسلمين

ظهرت مقولات غالية في بعض ديار المسلمين، أعادت إلى الأذهان بدعة الخوارج في تكفير المسلمين، أو التوقف في الحكم عليهم، وقاطع هؤلاء الصلاة في المساجد، ودعوا إلى الهجرة عن المجتمعات، إلى آخر مقولاتهم وآرائهم... وقد تختلف أسباب ظهور جماعة الغلو المعاصر عن أسباب ظهور الخوارج كما سنوضح ذلك فى هذه الصفحات...

وقد يسأل سائل: لماذ نبحث فى شأن أهل الغلو المعاصر ،وهم شرذمة قليلة، وربما اندثرت فى مهدها؟؛ .

الحقيقة أن أفكار الغلو ما تزال موجودة بشكل أو بآخر وستبقى كردة فعل على أو ضاع كثير من أنحاء العالم الإسلامي حيث أنها لم تعالج بشكل طبيعي يجتث جذورها.

أسباب الغلو في العصر الحديث:

الأسباب كثيرة والملابسات متشابكة وسنوجزها بما يأتي:

١ - التحاكم إلى الأنظمة الكافرة والقوانين الوضعية:

ولعل هذا هو الجذر الفكري الرئيسي للغلو المعاصر، وما تزال هذه هي الشكوى الكبرى للتيارات الإسلامية المعتدل منها والمتطرف، وقد تنبه لذلك كثير من الباحثين فنبهوا وحذروا فالتحاكم إلى القوانين الوضعية من أكبر البلايا التي نزلت بالمسلمين، وهي مما يناقض الإسلام صراحة، بل هي ثمرة خبيثة للاستعمار الغربي الصليبي، وللغزو الفكري المصاحب له[1].

---

(١) انظر: ظاهرة التكفير، إعداد الأمين الحاج/ محمد أحمد ص١٢٤-١٤٢ مكتبة دار المطبوعات الحديثة، جدة/ ١٤١٢هـ/ .

٢ - الاضطهاد السياسي:

إن الكبت أو التسلط والقهر لا يمكن إلا أن يؤدي إلى قتل إنسانية الشعوب والقضاء على كرامتها، «لقد أذل الظلمة الأمة أكبر إذلال، ولاسيما المسلم الملتزم بدينه» «إذ كان التعذيب في بعض البلاد العربية يمزق الأجساد، ويهدر الكرامة، ويهتك الأعراض، وقد هددوا بعض المعتقلين بزوجاتهم أمامهم وقتلوا بعضهم أمام مرأى أولادهم وزوجاتهم...»، «ثم راح الشباب بسبب ذلك يناقشون: «هل هؤلاء كفار أم مسلمون؟ وقد توصلوا إلى كفرهم، ورتبوا ذلك على مقدمات عقلية إن صحت عقلاً فهي غير صحيحة شرعاً»[1].

إن استخدام القوة والعنف داخل السجون وخارجها، كان أول جذور الغلو، حيث نشأت فكرة محاربة الأنظمة ورد الاعتداء بالقوة.

أضف إلى ذلك مشاركة وسائل الإعلام كالصحافة وغيرها في الهزء والسخرية، وتعمد التهويل والاتهام بلا دليل إذا كان الحديث عن التيار الإسلامي، بل يتعمد هؤلاء الاستهزاء بأمور أصيلة من الدين[2].

٣ - الجهل بالعلوم الشرعية:

إن جهل المسلم وعدم معرفة حكم الله تعالى ورسوله ﷺ، رغم غيرته على الدين وتعظيمه للحرمات، قد يوقعه في الغلو.

والجهل يزول بالعلم، ولهذا كان كثير من الخوارج الأوائل يرجعون عن بدعتهم بالمناظرة، بل رجع منهم على يد ابن عباس رضي الله عنهما (لما ناقشهم في مجلس واحد)أكثر من أربعة آلاف رجل،وفي عهد عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، لما نوقشوا رجع منهم ما يزيد على ألف إنسان في مجلس واحد.

فالجهل من أسهل الأسباب علاجاً لأنه سرعان ما يزول بالعلم والتعليم وبيان الدليل...[3].

---

(١) انظر التكفير، جذوره-أسبابه مبرراته: د. نعمان عبدالرزاق السامرائي-المنارة للطباعة والنشر والتوزيع/ بيروت ١٤٠٦هـ ص٤٣-٤٨.

(٢) الغلو في الدين/ عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص١١٩-١٢٠ مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٤١٢هـ

(٣) انظر مجلة البيان: حقيقة التطرف ص١٦-١٧.

٤ - الفساد العقدي:

عندما أفرغ كثير من المسلمين ركن الشهادة من محتواها الحقيقي، ساد فساد التصور، وساعد فكر الإرجاء والتصوف على هذا الفساد.

وحينما تفسد العقيدة أو تفرغ كلمة لا إله إلا الله من محتواها الكامل، ويحصر الإسلام في التلفظ بالشهادتين فقط، وينحى الدين كله جانباً، يعيش المسلمون حينذاك في وهن وذل وهزيمة نفسية أمام الطغيان المادى وبهرج الحياة الزائف.

وعندما تقوى العقيدة، ويصفو التصور الإسلامى، ويحكم شرع الله فى كل أمر، يعلو المسلمون على كل شئ، وتلك هي حالة المؤمنين في الأجيال الأولى[1].

٥ - الفساد الخلقي:

إن انتشار مظاهر الرذيلة في المدرسة والجامعة والشارع والشاطئ والمتجر والإذاعة... وغير ذلك إذا أقرها المجتمع وسكت عنها، فيجب عليه أن يتوقع أنماطاً كثيرة من الغلو والتطرف. فما بالك إذا كان المجتمع يشجع مظاهر الانحراف ويحرسها ويتبناها؟ وقل مثل ذلك فى وسائل الإعلام الذى صار حكراً لاتجاه معين وطائفة محدودة، لقد صودرت الآراء النزيهة المعتدلة، فضلاً عن الآراء المتطرفة الغالية ومثل هذا الوضع لابد أن يولد آلاف الأمراض في المجتمعات.

يضاف إلى ذلك، هجمة التيار التغريبي على ديار المسلمين مما جعل التحلل يزداد والفواحش تنتشر، ولا يملك الصالحون القدرة على تغيير ذلك، مما دفع إلى اليأس من صلاح هذه المجتمعات والاندفاع بقوة وعنف لإصلاحها[2].

٦ - غياب دور العلماء الثقات:

لابد من قيام العلماء الصادقين بواجبهم من بيان العلم الشرعي وأن نفتح السبل لكلامهم إعلامياً، ولا يجوز أن تكون المنابر الدينية حكراً على فئة من المفتين الرسميين فقط كما هي الحال في بعض البلدان.

---

(١) انظر واقعنا المعاصر: الأستاذ محمد قطب ص١٦٥-١٦٧. وظاهرة التكفير: الأمين الحاج محمد أحمد ص١٤٦-١٤٧.

(٢) انظر: كتابنا أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام: الفصل الثالث ومجلة البيان: مقال حقيقة التطرف ص١٨-١٩.

لقد تخلى العلماء عن مهامهم في توجيه الناس وانشغلوا بمهام تستهلك الوقت والجهد مما فتح المجال لفئات من الجهلة أن يستلموا أماكن التوجيه مما أهمل أمر التصدي للقضايا التي طرحها المتهمون بالغلو، فلم تبين البيان الذى تبرأ به الذمة، إذ اشتبهت هذه الأمور على كثير من الناس.

وفي كثير من البلدان كان يؤتى ببعض المشايخ أو برجال أمن على هيئة مشايخ ليقول أحدهم بعد حفل التعذيب «لقد راجعت مكتبتي كلها فلم أجد شيئاً اسمه الحكم بالقرآن فأنتم مضللون والأنبياء لا يحكمون بالقرآن بل يوصون به. قال تعالى: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً»[1]. فإذا كان النبي لا يحكم بالدين فأنتم فَجَرْتُم عن الأنبياء بطلبكم الحكم بالقرآن» ثم توالت على الشباب في المعتقلات، المحاضرات من أمثال هؤلاء مع حفلات التعذيب، لذا فلا عجب إن فقد الشباب ثقتهم بكثير من العلماء خصوصاً من أعوان السلطان الظالم[2].

هذا وإن أخذ العلم الشرعي من الكتب مباشرة، ودون التلقي على عالم متبصر يعتبر من المخاطر الشديدة، حيث صار الشباب يعلمون أنفسهم بأنفسهم، فلا يجدون مدققاً يصوب الخطأ والانحراف، وخاصة في قضايا العقيدة، ومن هذه الانحرافات بدعة التكفير.[3].

كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى ظاهرة خطيرة يتعصب لها بعض الشباب وينادون بالعنف ثم بالحكم على المخالفين، بالتكفير على المعصية، ومقاطعة الجمعة والجماعات، ومقاطعة مؤسسات التعليم وهذه بعض الظروف والملابسات أوجزناها حتى يطلع القارئ على النتائج الخطيرة التى توصل إليها بعض الناس فى هذا العصر.

مما سنتحدث عنه في الفقرة القادمة إن شاء الله.

---

(١) انظر: التكفير وقضية الحكم للدكتور السامرائى ص٥٣ والصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف الدكتور القرضاوى طبعة قطر/ رئاسة المحاكم الشرعية/ ١٤٠٢/ ص٩٠.

(٢) السامرائى: التكفير ص٥٥.

(٣): انظر ظاهرة التكفير: الأمين الحاج محمد أحمد ص١٦٩-١٧٢.

مظاهر الغلو في العصر الحديث

هنالك طائفة كانت تميل في آرائهـا إلى الغلو نتيجة لأسباب كثـيرة تحدثنا عنها ، وكان يمكن معالجة هذه المظاهر لو كان الإخلاص رائد الجميع .

إلا أنها ازدادت اشتعالاً حينما قمعت بقوة ، وعندما سلطت عليها الأضواء تريد الوصول إلى الصحوة الإسلامـية لتشويهها ، وتنفير الناس مـن أصحابها، بل كان الهدف البعيد لأعداء الإسلام هـو إبعاد المسلمين عن دينهم القويم ، وإلا فما معنى أن يتهم المصلون المحافظون على صـلاتهم فى المساجد فى بعض الأقطار بالتطرف؟ وما معنى أن تحارب المرأة المسلمـة إذا أصرت على حجابها الشرعي وتعتـبر متطرفة متشددة ؟! .

ولماذا يترك المستهـترون يعبثون فى المجتـمعات فساداً باسم الحرية الشـخصية ، ولايتـاح ذلك للمؤمنين في ديار المسـلمين؟ ولماذا يغض الطرف عن إقامـة اليهـود والنصـارى شعـائرهم بحرية فى بلادهـم وخارج بلادهم ، دون اتهـام لهم بالغلو والتطرف ، وينادي كثير منهم بإقامـة الحكم على أسس دينيه، بينما يحرم من هذا المسلمون ، ويطاردون إذا نادوا بتحكيم شرع الله ؟!

بل استغلت كثير من وسائل الإعلام المحلية والعالمية بعض مظاهر الغلو عند قلة من أتباع الجـماعات المتطرفـة ، وصورتهم كأنـهم مجمـوعة من قطاع الطرق، أو عصابات الإرهاب .

والعدل يقتضي أن ينظر فى شأن هذه الظاهرة وهي ظاهرة انحراف - ومعالجتها حسب المنطلقات الشرعية ، عسى أن يعود القائلون بها إلى الصواب .

ومن أبرز مظاهر الغلو عند الجماعات المتطرفه :

١ - التكفير بالمعصية :

ولا يصح ذلك شرعاً إلا إذا كان مـرتكب المعصية قد استـحلها . وقد جاء فى شرح الطـحاوية قول الإمـام الطحاوي : « ولا نكفـر أحداً من أهل القـبلة بذنب مالم يستحله ولا نقول : لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله »[١] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٣٥٥ .

وقال الإمام البخاري في : (باب المعاصي من أمر الجـاهلية) لا يكفر صاحبها بارتكابهـا إلا الشرك . لقول النبى ﷺ « إنك امـرؤ فيك جـاهلية » [1] ، وقوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» [2] .

وعند النظر في الواقع المعاصر تبين أن هنالك من يكفر المسلم بسبب وقوعه في المعاصي ، ويرى أن كل عاص كافر، يقول أحـد زعمائهم : « إن كلمة عاص هى اسم من أسـماء الكافر ، وتسـاوى كلمة كـافر تمامـاً ، وإنه ليس من دين الله أن يسمى المرء في آن واحد مسلماً وكافراً » [3] .

« ويقول هؤلاء : إن مرتكبي الكبائر كفـار وإن صاموا وصلوا ، وزعموا أنهم مسلمون» .

ويبدو أن جماعـات الغلو تنكر أنها أخذت التكفير عن الخـوارج يقول أحدهم: «مـسـتحيل أن يكـون لهؤلاء صـلة بفكر الخـوارج ، وهذه الأحكام هي وليـدة الزنزانات والفقه البعيد عن أي كتـاب ، إذ لم يكن مع الجميع كتاب واحد ، حتى المصـاحـف كـانـت تصادر منا ،ومـا توصـل إليـه الشباب هو اجتـهاد يقوم على ما يحفظونه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ » [4] .

وهذا يدل على أن أثر الفرق القـديمة على الغلاة المعاصرين جاء تاليـاً ولاحقاً ، وقد انحصر فى إثراء تيارات الغلو وتأييد حجمها لا فى إيجادها [5] .

٢ - تكفير الحكام الذين لا يحكمون الشريعة بإطلاق :

يعتبر الحكم بـغير ما أنزل الله من أشد الأسباب التي أدت إلـى ردة فعل عنيفة

(١) رواه البخارى : ١/ ١٤ كتاب الإيمان ، ومسلم ٣/ ٢٨٢ كتاب الإيمان .

(٢) انظر فتح البارى : كتاب الإيمان ، جـ ١/ ٨٤ .

(٣) كتاب الهـجرة : ماهر بكري وهو ابن أخت شكري مصطفى ص ٧٢ وانظر الحكم بغـير ما أنزل الله وأهل الغلو محمد سرور زين العابدين ص ١٥٧ - ٢٠٠ .

(٤) التكفير جذوره وأسبابه : د. نعمان السـامرائي ص ٨ .

(٥) الغلو فى الدين : اللو يحق ص ١٠٠ .

أدانت كل من يخرج عن حكم الشريعة ، وحكمت بكفره ، ثم جاءت تبعاً لهذه الظاهرة مجالات غلو أخرى .

« وقد وقع الخلل فى تكفير الغلاة المعاصرين للحكام في موضعين :

الأول : إطلاق العقول فى تكفير الحكام دون نظر للتفصيل الذى أورده العلماء[1] .

الثاني : تكفير المعين منهم دون نظر لما قد يكون عليه من جهل أو إكراه أو إيمان بحكم الله عز وجل مع وجود بعض الأعذار التى تنقل حكم هذا الفعل من الكفر المخرج عن الملة إلى الكفر غير المخرج عن الملة[2] .

ويظهر الفرق واضحاً بين شعار الحاكمية المطروح اليوم وبين شعار لاحكم إلا لله الذى طرحه الخوارج ، فالداعون إلى الحاكمية اليوم يصرون على ضرورة سيادة الحكم لشرع الله ، بينما كان الخوارج لا يرون تحكيم **الرجال فى دين الله، حتى لو كانوا من أصحاب** رسول الله ﷺ .

٣ - تكفير الأتباع المحكومين بغير ما أنزل الله :

من الغلو التكفير ، دون دليل واضح . . .

والأتباع الذين يحكمون من قبل رؤسائهم بغير ما أنزل الله يختلفون حسب مواقفهم ونياتهم من ذلك الحكم .

وقد قسمهم العلماء إلى قسمين :

القسم الأول : وهم المطيعون لحكامهم وهم نوعان :

النوع الأول : العالمون بأن متبوعيهم قد بدلوا دين الله ، فيتابعونهم على

---

(١) ينظر فى تحكيم القوانين الوضعية وما نقلناه من آراء العلماء حول هذه المسألة (الفصل الثالث من هذا الباب).

(٢) الغلو فى الدين : اللويحق / ص ٢٩٢ .

التبديل ، ويعتقدون تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لهؤلاء المتبوعين ، مع علمهم بمخالفتهم للإسلام، فهذا كفر بالله عز وجل ، وقد جعله الله شركاً [1] .

قال تعالى : « **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً** » [التوبة / ٣١] .

والنوع الثاني : المطيعون مع إيمانهم واعتقادهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال، ولكنهم أطاعوهم في معصية الله ، كما يفعل المسلم عند قيامه بالمعاصي، مع اعتقاده بأنها معاصٍ ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب . فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إنما الطاعة في المعروف** » [2] .

إلا أن مجرد الطاعة في العمل لا يكون بها التكفير ، إنما يكون التكفير فى الطاعة مع الاعتقاد .

القسم الثاني : هم المنكرون والكارهون غير الراضين ، فهؤلاء غير آثمين بنص حديث رسول الله ﷺ ، فضلاً عن أن يكونوا كافرين قال ﷺ : « يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن أنكر فقد برىء ومن كره فقد سلم ، ولكن من رضي وتابع » [3] .

٤ - تكفير الخارج عن الجماعة المسلمة :

يبني الغلاة على مفهومهم للجماعة، كفر الخارج عن جماعتهم، حيث يعتبرون أنه لا يجوز تعدد الجماعات المسلمة ، بل يجب أن تكون جماعة واحدة ، هي جماعة المسلمين، ويعتبر الخروج عليها كفراً فقد كفروا كل خارج عن جماعتهم إذ

---

(١) انظر الفتاوى لابن تيمية : جـ ٧ / ص ٧٠ .

(٢) رواه البخاري : ٩٠/٧٩ كتاب الأحكام ، ومسلم ٣/ ١٤٦٥ كتاب الإمارة .

(٣) رواه مسلم : ٣/ ١٤٨١ كتاب الإمارة .

جعلوا جماعتهم هى جماعة المسلمين، والحقيقة إن الجماعة التى وردت فيها الأحاديث والتى استدلوا بها ليست جماعتهم الخاصة، وإنما هى جماعة المسلمين.

وحتى الخروج على جماعة المسلمين على الشكل الذى أوردوه لا يعد كفراً[1].

٥ - تكفير المعيّن دون مراعاة للضوابط الشرعية :

من المعلوم شرعاً أن للمسلم حرمة، ويعتبر « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» كما جاء فى الحديث الشريف [2] .

وجاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قال الرجل لأخيه ياكافر ! فقد باء به أحدهما » [3] .

وإن الحكم على الناس بالإسلام أو الكفر ليس هو الذى سيحل القضيةولا هو الذي سيجعل الناس يغيرون موقفهم [4] .

وقد نقول عن مجتمع بأنه جاهلى لأن المظلة التى يقف تحتها جاهلية تجاهر بذلك لكن هل ينطبق ذلك على كل أفرادها ، يجب عندها الاحتياط وعدم الانزلاق فى متاهات التكفير .

٦ - إيقاف صلاة الجمعة وتحريم الصلاة في المساجد :

وهذا من الانحرافات الخطيرة التى نفرت المسلمين من القائلين بها، إذ يقول هؤلاء : إن فريضة الجمعة لها شروط إذا توافرت أقيمت الفريضة ، وشرطوا فى إقامتها التمكين ، فلا جمعة في الاستضعاف .

---

(١) ينظر كتاب : ذكرياتى مع جماعة المسلمين : عبد الرحمن أبو الخير ص ٩٣/ ٩٥ ط : دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع / الكويت ١٤٠٠ هـ/ وكتاب الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو : ط دار الأرقم ١٤٠٧ هـ الجزء الأول والغلو فى الدين : اللويحق ص ٣٠٥ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه : جـ ٢ / ص ٥٤ من شرح النووى على صحيح مسلم .

(٣) صحيح البخارى : ٨/ ٣٢ كتاب الأدب ، ومسلم ١/ ٧٩ كتاب الإيمان .

(٤) واقعنا المعاصر : الأستاذ محمد قطب ص ٤٤١ .

وقد زعموا أن كل المساجد القائمة الآن في الأرض مساجد ضرار باستثناء أربعة مساجد فقط هي : المسجد الحرام ، والمسجد النبوي والمسجد الأقصى ، ومسجد قباء ، وعليه فلا تجوز الصلاة في غير هذه المساجد الأربعة [١] .

هذا وإن تعطيل هذه الشعيرة فيها خطورة عظيمة ، والجمعة من الشعائر القليلة التى بقيت للمسلمين ، وفيها مجال واسع للدعاة إلى الله ليبلغوا الإسلام إلى الناس.

ولعل القائلين بتعطيل الجمعة اعتمدوا على قضية خلافية بين الفقهاء.

« فذهب أبو حنيفة وأهل العراق إلى أن صلاة الجمعة من الولايات الواجبات، وأنها لا تصح إلا بحضور السلطان أومن يستنيبه فيها » بينما ذهب الشافعي وفقهاء الحجاز إلى « أن حضور السلطان ليس بشرط فيها ، فإن أقامها المصلون على شرائطها انعقدت وصحت » [٢] .

فإذا لم يكن هناك سلطان مسلم في مصر من الأمصار ينفذ حكم الله ، فهنالك نوابه من وزراء الأوقاف والمفتين ، وهنالك رأي من يوجبها دون حضور السلطان كالإمام الشافعي رضى الله عنه ، فلا ضرورة للتشدد .

أما الصلاة : صلاة الجماعة في المساجد فهى جائزة وراء البر والفاجر ، والنصوص الشرعية تؤكد ذلك ، وحياة السلف كانت كذلك .

يقول ابن تيمية رحمه الله : « والحقيقة إن الصلاة خلف المستور جائزة باتفاق علماء المسلمين ، ومن قال : إن الصلاة محرمة أو باطلة خلف من لا يعرف حاله فقد خالف إجماع أهل السنة والجماعة ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يصلون خلف من يعرفون فجوره ، كما صلى ابن مسعود وغيره من الصحابة خلف الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وكان قد شرب الخمر وصلى صلاة الصبح

---

(١) التكفير والهجرة وجهاً لوجه : رجب مدكور / ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٢) الأحكام السلطانية : أبو الحسن الماوردى / دار الكتب العلمية بيروت / لبنان / .

أربعاً ، وحدّه عثمان بن عفان (رضى الله عنه) على ذلك »[1] .

ولم يقل بالتوقف فى الصلاة وراء مستور الحال إلا بعض فرق الخوارج ، وفى ذلك تضييع لركن مهم من أركان الدين ، هو الصلاة في المساجد وهو ما يثلج صدور أعداء هذا الدين عندما يرون المساجد مغلقة ، وأهل البغي والضلالة يجتمعون ويتكاتفون .

٧ - الدعوة إلى الأمية وتحريم التعليم :

وهى دعوة غريبة شاذة، جاء فى رسالة « التوسمات » أن الدعوة إلى محو الأمية فكرة : يهودية لشغل الناس بعلوم الكفر عن تعلم الإسلام . . وإن الجماعة الأولى لم تتعلم الدين للدنيا ، . . . حتى أن رسول الله ﷺ كان يجهل أثر تأبير النخل ويقول: نحن أمة أمية لانكتب ولا نحسب ، فلابد أن نكون مثلهم أميين نوجه كل جهودنا لنتعلم الكتاب والحكمة وما دون ذلك فهو ضلال مبين »[2] .

وجاء فى كتابهم الخلافة : « من كان ظن أن تكاليف المدنية الحديثة لا تتعارض مع تكاليف العبادة . . . وأنه كان يمكن لعلماء الغرب أن يكونوا عباداً لله فى نفس الوقت . . من كان يظن ذلك فليشهد على نفسه أولاً بقلة الحياء ثم يفعل بعد ذلك ما شاء »[3] .

ويسرف فى الخطأ من يعتقد أن رسول الله دعا إلى الأمية فى الحديث السابق ولا شيء يرتاح له أعداء الإسلام أكثر من هذه الدعوة الضالة من التجهيل والتخريب .

هذه أبرز مظاهر دعوات أهل الغلو ، وهى أفكار غالية انحرفت عن جادة الصواب، وأنكرها المسلمون ، والدعاة الواعون ، ولابد من تفادي هذه الظاهرة وذلك :

بالاعتصام بالكتاب والسنة وما أجمع عليه السلف ، ثم توجيه الشباب للانشغال

---

(١) الفتاوى لابن تيمية : جـ ٣ / ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٢-٣) التوسمات والخلافة من كتب جماعة شكرى مصطفى ، نقلاً : عن كتاب الحكم بغز ما أنزل الله وأهل الغلو الجزء الأول (انظر : من ص ٢٣٨ - ٢٥٠)

بالعلوم الشرعية ، والعمل على تزكيـة النفوس والرجوع إلى تحكيم شرع الله ونبذ القوانين الوضعية ، وإباحة الحـوار الشرعي الذى يعتمد على الدليل الشرعي والله هو الهادي إلى سواء السبيل .

التطرف عند غير المسلمين :

قام دعـاة الغلو بالدعوة إلى تحكيم الشـريعة ، رداً على دعـاة العلمانيـة بفصل الدين عن الدولة ، وضـخـمت مشكلة الغـلو هذه عند المسلمين بينمـا الأصل هو (وصل الدين بالسياسـة) ، وإذا كانت الثورات من الشعب عادة ضـد حكوماتها ، فإن الثورات فى هذا الـعصر صارت مع الحكومة ضـد الشعب ودينه ، وهو بداية طريق الانحراف ثم القول بالغلو .

وإذا ضخمت مشكلة الغلو عند المسلمين - وهى انحراف ولاريب - فإن الغرب لم يشـر من قريب أو بعـيد إلى تلـك الظاهرة من الجانب الآخـر ، فقـد أسفـرت الدراسات التى قامـت بها بعض الصحف والمجلات الأمريـكية عن وجود « ٣٧٠» منظمـة إرهابية فى العـالم ، وقـد وقع ٤٣٪ من عمليـات الإرهاب فى دول أوربا الغربيـة ، و٢٢٪ منها فى أمـريكا اللاتينيـة ، والولايات المتحدة ٦٪ وفـى الشرق الأوسط ١٥٪ « وبالرغم من أن تيار الغلو كان عند الأقباط متقدماً فى وجوده على تيـار الغلو عند المسـلمين فى أواخـر (١٩٤٠م) وبدأ يوزع بعض المنشـورات التى تحمل دعاوى مثيرة لطلب الحكم الذاتى للأقباط فى مصر وفى سنة ١٩٥٤ ، أقدم أربعة شـبان من الأقبـاط بهجوم مـسلح على مقـر البابا واحتـجزوا البابا نفـسه ، وأجبروه على إعلان تنازله ، ومع ذلك مرت الحادثة دون أن تدق نواقيس الخطر»[١]

وإذا عابت وسائل إعلام الغربيين ، والتيار العلماني ، إدخال السياسة فى الدين فلماذا لم يعيبوا ذلك على النصارى الأقباط الذين تقضي تعاليم دينهم المحرف بهذا الفصل؟ ومع ذلك لم يـوصموا بالغلو ، مما يدل على أن تيـار الغلو عند المسلمين ضخم وهول »[٢] .

(١) انظر الغلو فى الدين : اللويحق / ص ١٣٦ - ١٤٠ .

(٢) خريف الغضب : محمد حسنين هيكل جـ ٢ / ٤٠٥ - ٤٠٦ ، دار طلاس فى القاهرة .

وفى إسرائيل تقام دولة اليهود على أساس تعاليم التوراة، ورغم ذلك لا يتهم الصهاينة بالتطرف ، ناهيك عن تشريد أربعة ملايين من المسلمين فى أنحاء العالم المتمدن ؟! .

وفى الهند يقتل المسلمون بالآلاف على يد الهندوس والسيخ ، وفى شعارات الهندوس وملصقاتهم على الجدران « اتركوا القرآن واتركوا الهند » ومع ضخامة الاضطرابات وتدمير المساجد الإسلامية لانجد اهتماماً بذلك الغلو ، ولا تنديداً بذلك التطرف »[1] .

وفي البوسنة والهرسك تدك المنازل وتدمر المدن وتهتك الأعراض ويباد شعب بأكمله فى أوربا، على يد عصابات التطرف من نصارى العرب والكروات، مع مباركة الدول الغربيه، لأن الضحايا من المسلمين[2].

ولا يشار إلى هذا الغلو ، ولا إلى ذلك التطرف ذلك أن (حمزة لا بواكي له).

وإذا ضخمت هذه الظاهرة - ونحن لا نبرر لوجودها أصلاً - عند جماعات التطرف من المسلمين ، فلنا أن نتساءل : لماذا كل هذا التضخيم والتهويل ؟!

يبدو أن ذلك يرجع فى الأصل إلى الإعلام الغربي وترجع أسباب ذلك إلى :

١ - إرضاء نزعة الحقد الموجود لدى النصارى واليهود على الإسلام وأهله .

٢ - تضليل الرأى العام العالمي حتى لا يتعاطف مع قضايا المسلمين ومشكلاتهم المستعصية .

٤ - المدرسة العصرية الحديثة :

مذهب جديد بدأ فى مطلع هذا القرن - قرن الهزيمة والضياع - وهو فى جوهره إحياء لآراء الخوارج والمعتزلة ، يزعم أصحابه أنهم مجددون، يريدون تطوير هذه الأمة فى مجالات الأصول والفروع كلها .

---

(١) ينظر : الغلو فى الدين ، اللويحق / ص ١٤٢ - ١٤٥ .

(٢) ينظر في كتاب «على من تعرض الصور» إعداد أحمد بن راشد السعيد، ود. عمر عبدالله سلطان، الإصدار الثامن للمنتدى الإسلامي.

كانت هذه الآراء تظهر وتخفى فـي حرص وحذر منذ أوائل هذا القرن ، إلا أن أصحابها بدأوا يتشجعون بعد أن كسبوا أنصاراً وحققوا سلطاناً [1] .

واتخذ هـؤلاء لأنفسهم شـعارات براقة مختـلفة فهم « أصـحاب الفكر الـديني المستـنير» : اتفـقوا عـلى ضـرورة تجديد الإسـلام ذاته بمـعنى تـعديـل أحكـامه وتشريعاته، أو نسفها واقتلاعها من الجذور [2] .

وهم تارة أصحاب العقلانية الإسلامية ونحو ذلك من شعارات قصدوا بها دفع الريبة عن نشاطاتهم وخداع الأجيال الإسلامية حتى يـستطيعوا تمرير ما يريدون نشره ونحن نؤكد أننا نريد الحديث عن الأفكار بغض النظر عن حاملها ، تحذيراً من هذا الخداع وقياماً بواجب التبليغ .

لقد تحـولت هذه الأفكار إلـى ظلمات العـلمانيـة ، تحولت إلى (فخ) يـنصب لبعض الدعاة والمفكرين ابتغاء سحبهـم إلى بذل مزيد من التنازلات الفكرية لصالح ثقافة الاغتراب وبضاعتها الكاسدة [3] .

لقد ضخـم هؤلاء العقلانيـون دور العقل وأحلوه مـكان النصوص الشـرعية ، ورفضوا لأجله كثيراً مـن الأحاديث النبوية الصحيحة ، فكانوا مـعتزلة اليوم بثوب جديد . . واتبعوا في ذلك طريق المدرسة الإصلاحية بزعامة الشيخ محمد عبده ، وفتنوا بحضارة الغرب ، إذ كان أكثرهم قد درسوا في ديارهم ورضعوا منهم سموم التشكيك والعداوة لتراثنا وتقاليدنا ومبادىء ديننا الحنيف .

لقد أحـيا أصحاب هـذه المدرسة شذوذ المعـتزلة في العـقائد ورفض الـسنة إذا تصادمت مع عقولـهم ، وساروا على منهج تلامذة الاستشـراق وعملائه أمثال : أحمد لـطفي السـيد ، وطه حسـين ، وعلي عبـد الرازق وقاسم أمـين ، ورفاعة الطهطاوي .

---

(١) انظر : العصريون معتزلة اليوم : يوسف كمال ص ٧ .

(٢) انظر : غزو من الداخل جمال سلطان ص ٣٤/ دار الوطن ١٤١٢ هـ .

(٣) انظر : ثقافة الضرار : جمال سلطان /ص ٣٠ نشر دار الوطن للنشر / ١٤١٣ هـ الاولى .

«ومنذ القديم شرح ابن خلدون موقف المغلوب من الغالب بقوله : «والمغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه وبخلقه وسائر أحواله وعوائده» .

لقد نشطت الفكرة لإيجاد فكر إسلامى متطور يبرر الأنماط الغربية لمحو الطابع المميز للشخصية الإسلامية بغية إيجاد علائق مستقرة بين الغرب والعالم الإسلامى خدمة لصالح الغرب وثقافته .

إن التغريب هجمة نصرانية ، صهيونية ، استعمارية ، فى آن واحد، التقت على هدف مشترك بينها ألا وهو طبع العالم الإسلامى بالطابع الغربى التماساً لمحو الطابع المميز للشخصية الإسلامية » (1) .

لقد بدأ هذا التيار يقوى عندما تجمعت القوى العلمانية في جبهة واحدة ، فاجتمعت الاتجاهات الإسلامية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وهي ترفع شعار «التجديد» أو «الاستنارة» ، في محاولة جديدة واضحة لسحب البساط من تحت أقدام الصحوة الإسلامية وحركة التجديد الإسلامى .

وإن رموز هذه الجبهة يتحكمون في العديد من المنافذ الإعلامية الرسمية في أكثر المجتمعات العربية .

وقد دعا هؤلاء إلى عقد المؤتمرات والندوات ؛ ومن أبرزها : المؤتمر التأسيسي لجبهة العلمانية الذى انعقد فى الكويت / ١٩٧٤ م ، وقد نجحوا فى أن يجعلوا تنظيمه تحت رعاية جامعة الكويت تحت عنوان « أزمة التطور الحضاري فى الوطن العربي» .

وقد اعتمد هذا المؤتمر خطة الهدم من الداخل مع تجديد الشعار حيث سقطت لافتة «اليسار الإسلامي» وظهر شعار « الفكر الديني المستنير » .

---

(١) انظر : الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة : إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامى الرياض/ ١٤٠٩ هـ ص ١٤٥-١٥٤ وانظر أيضاً : الإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين / دار الرسالة/ مكة المكرمة / ١٤١٣ هـ .

وطرح فى هذا المؤتمر العديد من الدراسات والأبحاث التى تعمد إلى إحياء الاتجاهات الفكرية المنحرفة وعرضها فى إطار عقلاني جذاب ، تحت مظلة الانتماء إلى التراث الإسلامى [1] .

وعلى كل سوف نستعرض فى الصفحات القادمة كثيراً من دعاوى التجديد عند أصحاب هذه المدرسة ، علماً بأنهم ليسوا سواء ، إذ منهم من كان من أصحاب الاتجاه القومى ، أو من أصحاب الاتجاه اليساري ، أو من العلمانيين ويعتبر بعضهم من أصحاب الاتجاه الإسلامى الذين خدعوا بالتجديد والعقلانية (وإنما الأعمال بالنيات على كل حال) .

دعاوى التجديد عند العصرانيين [2]:

عندما حاول العصرانيون الملاءمة بين حضارة الغرب وتعاليم الشريعة الإسلامية، اصطدموا بثوابت هذا الدين ، من نصوص الكتاب والسنة ، وتراث العلوم الشرعية وأصولها فى الحديث والفقه والتفسير . . .

ومن ثم بدأوا حملتهم المسعورة ضد هذه الثوابت تشكيكاً وتزويراً ، أو تعطيلاً وكفراناً ، كل ذلك حتى يطوعوا - بزعمهم - تعاليم الإسلام لتنسجم مع حضارة براقة خدعتهم ، ومبادىء كافرة رضعوا لبانها فى الدراسة أو المعايشة وحب الاتباع.

وزعموا أنهم يريدون التجديد والتطوير ، وأن تأخر المسلمين لابد أن يعالج على طريقة الغربيين تحت مظلة باهتة من مفاهيمهم عن الإسلام .

وسوف نتحدث عن أبرز مجالات الهدم (باسم التجديد) عندهم فى النقاط التالية:

---

(١) انظر: تجديد الفكر الإسلامى : جمال سلطان (ص ٣٠ - ٣٦) بتصرف، نشر دار الوطن / الطبعة الأولى / ١٤١٢ هـ . .

(٢) وهذه موضوعات طويلة وشائكة بسبب طريقة تناول العصرانيين لها، وسوف نفصل القول فيها فى بحث لاحق إن شاء الله تحت عنوان: العصرانيون: بين مزاعم التجديد وميادين التغريب وقد صدر عن مكتبة الكوثر - الرياض.

١ - موقفهم من السنة النبوية والحديث الشريف .

٢ - تجديد الفقة وأصوله .

٣ - موقفهم من التشريع الإسلامى .

٤ - تزويرهم للتاريخ .

٥ - موقفهم من مشكلة المرأة .

٦ - موقفهم من الجهاد .

٧ - وحدة الأديان .

١ - موقفهم من السنة النبوية والحديث الشريف :

من أكبر ضلالات هذه المدرسة محاولة إنكارهم السنة وعدم الأخذ بها ، وخاصة فى المعاملات .

« وقد قسموها إلي سنة تشريعية ، وسنة غير تشريعية ومن حججهم : أن السنة جاءت بتفصيل أكثر من القرآن إلا أن مجال العقل البشري فيها واسع وذلك :

لأن علم الحديث يحتاج إلى تمحيص ، وأن علم الرجال والأسانيد كثيراً ما يختلف فيها وتحتاج إلى تحقيق . . .

وأن السنة النبوية ، كان منها ما هو حكم شرعي عام واجب الاتباع ، ومنها ما يفعله الرسول ﷺ بوصفه بشراً .

وهذا عندهم يغاير السنة التشريعية ، وهنالك سنة كان يفعلها الرسول ﷺ بوصفه حاكماً خصوصاً بعد الهجرة.

والتفريق بين هذه الأقسام الثلاثة يحتاج إلى ضبط .

والسنة ترد بين الاستقلال بالأحكام والتبعية للقرآن، وهذا يحتاج إلى اجتهاد»(١) .

---

(١) الاتجاه الإسلامي بجامعة الخرطوم : رسالة فى أصول التشريع ص ٧ وانظر : العصريون / د. يوسف كمال ص ٥٤ - ٧٦ .

وتأكيداً لهذا التعطيل في الأحكام يقول أحدهم :

« يغلب الظن على أن أغلب المروي عنه ﷺ في شئون الدنيا خارج نطاق العبادات والمحرمات ، ليس من الشرع »[1] .

وقد رتب بعضهم على ذلك أن العصمة فقط في أمور التبليغ، وأن ما اندرج من السنة النبوية تحت أمور السياسة جميعاً ، وشئون الدنيا كلها فهو ليس ديناً، ومن ثم فإنه موضوع للاجتهاد والشورى والقبول والرفض والإضافة والتعديل»[2] .

فهؤلاء لا يلتزمون بالسنة في الحكم والقضاء، ولا في أمور الشريعة الأخرى، وضوابطهم هي اللغة والعقل وملاءمة العصر .. فهم لا يلتزمون إلا بالقواعد الكلية من القرآن والسنة إضافة إلى رفضهم أحاديث الآحاد ، ويحاول بعضهم أن يأخذ بالقرآن فقط ، لأنه حمالٌ ذو وجوه ، وفيه مجال للتأويل .

ولذلك قال علي رضي الله عنه لعبد الله بن عباس حين بعثه إلى الخوارج : «ولا تخاصموهم بالقرآن فإنه حمال ذو وجوه ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً » .

وعندما سأل رجل عمران بن حصين فحدثه فقال الرجل :

حدثونا عن كتاب الله عز وجل ولا تحدثونا عن غيره فقال : إنك امرؤ أحمق، أتجد في كتاب الله صلاة الظهر أربعاً ، لا تجهر فيها؟ ، ثم قال : أتجد هذا مفسراً في كتاب الله ؟ كتاب الله قد أحكم ذلك ، والسنة تفسره [3] .

---

(١) مجلة المسلم المعاصر : العدد الافتتاحي / السنة التشريعية وغير التشريعية : د. أحمد سليم العوّا / .

(٢) الإسلام والسلطة الدينية : محمد عمارة ص ١٠٤ .

(٣) راجع أصول التشريع الإسلامي : علي حسب الله صـ ٣٨ ، ٣٩ ، نقلاً عن العصريون / يوسف كمال ص ٧٩ . طبعة دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع / مصر / ١٤٠٦ هـ .

ولم يكتف أصحاب هذه المدرسة بما سبق ، بل اتهموا من يتمسك بالسنة وأصحاب الاتجاه السلفي ، بأنهم « نصوصيون » أو « حرفيون» وهذا من أساليب الإرهاب الفكري الذى يستخدمه أصحاب الاتجاه العلمانى ، القومي والماركسي.

يقول فهمي هويدي فى مقال بعنوان « وثنيون هم عبدة النصوص» واصفاً محاولة تعطيل العقول أمام النصوص على حد تعبيره أنها « وثنية جديدة » ذلك أن الوثنية ليست فقط عبادة الأصنام .. ولكن وثنية هذا الزمان صارت تتمثل فى عبادة القوالب والرموز، فى عبادة النصوص والطقوس » (١).

فتقديسهم للعقول أمر مباح فى نظرهم، أما اتباع نصوص القرآن والحديث فهو وثنية هذا الزمان، وإنه لضلال مبين، وأكثر ضلالاً مَنْ زعم أن رسالة السماء قد انتهى دورها، وأن الإنسان قد آن له أن يتحرر من نظام النبوة.

يقول الدكتور محمد أحمد خلف الله : « إن البشرية لم تعد فى حاجة إلى من يتولى قيادتها فى الأرض باسم السماء ، فلقد بلغت سن الرشد ، وآن لها أن تباشر شئونها بنفسها (٢) .

« ويؤكد الدكتور: على أن النبوة والوحى كان قيداً وحجراً على العقل البشرى، ولذلك فقد كان إنهاء «نظام النبوة» إيذاناً بتحرير العقل البشرى من «قيود السماء» إذ يقول : « فلقد حرر الإسلام العقل البشرى من سلطان النبوة ، من حيث إعلانه إنهاءها كلية ، وتخليص البشرية منها » (٣) .

هذا رفض مطلق للإسلام ، ومحاولة من الكاتب لجعل الإسلام ديناً كهنوتياً لا علاقة له بالحياة .

وإذا اصطدمت الأحاديث الصحيحة بمبادئهم كذبوها وإن علت درجتها فى الصحة ، ويؤولونها تأويلاً باطلاً .

---

(١) مجلة العربي : العدد (٢٣٥) ، كانون الثانى / ١٩٧٨ م .

(٢) العدل الإسلامى وهل يمكن أن يتحقق ./ الطليعة القاهرية / ١٩٧٥ م / نقلاً : عن غزو من الداخل : جمال سلطان / ص ٥١ .

(٣) الأسس القرآنية للتقدم : محمد أحمد خلف الله ص ٤٤ طبعة كتاب الأهالي - القاهرة / ١٩٨٤ م .

وقد يجرحون راويها بما في ذلك الصحابي الذى رواه عن الرسول ﷺ ، بينما يستشهدون بالأحاديث الضعيفة ، بل الموضوعة لنصرة مذهبهم الاعتزالى .

ولقد أنكروا كثيراً من الأحاديث أو تأولوها كأحاديث رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، وقد رواها نحو ثلاثين صحابياً ، وغيرها من الأحاديث، اتباعاً لمذهب المعتزلة فى الصفات .

قال النظام المعتزلي فى حق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، « وزعم أن القمر انشق وأنه رآه ، وهذا من الكذب الذى لا خفاء به » (١) .

« إن الحديث الشريف - ثاني مصادر الشريعة الإسلامية - هو المفسر الأول والمبين لكتاب الله تعالى ، ولذلك عني به علماء المسلمين عناية تفوق الوصف، فظل الحديث الشريف مصفى من الشوائب ، وكان لابد للمبتدعة أن يحاولوا اختراق هذا الجدار المنيع الذى يحمي أسس العقيدة أو الشريعة ، ليتمكنوا من الزيادة فى الدين أو النقص منه حسب ما يشاؤون ، فذهبت المعتزلة إلى أن خبر الأحاد لا يفيد اليقين ، بينما حكم العقل يقيني (عندهم) وكان من جراء ذلك أن ردوا الكثير من العقائد الثابتة عن رسول الله ﷺ كعذاب القبر والإيمان بالحوض والصراط والميزان والشفاعة، كما ردوا الكثير من الأحكام الشرعية الصحيحة الثابتة إما بدعوى مناقضتها للعقل أو تعارضها مع الكتاب » (٢) .

ونحن نعلم أن الإسلام يحترم العقل السليم إلا أنه جعل له حدوداً لا يتعداها «إذ أن الله سبحانه وتعالى ، جعل للعقول فى إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك فى كل مطلوب » (٣) .

« والعقل الصريح دائماً موافق للرسول ﷺ لايخالفه قط ، فإن الميزان مع الكتاب، والله أنزل الكتاب بالحق والميزان ، لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ماجاءت به، فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه ، لا بما يعلمون بطلانه » (٤) .

---

(١) تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبة ص ٢١ .

(٢) المعتزلة بين القديم والحديث : محمد العبدة - طارق عبد الحليم (ص ٨١ - ٨٣) طبعة دار الأرقم / ١٤٠٨هـ .

(٣) الاعتصام : للشاطبي ص ٣١٨ / الجزء الثاني .

(٤) الفتاوى لابن تيمية / ١٧ / ٤٤٤ .

وقال ابن القيم رحمه الله : « إن هذه المعارضة بين العقل والنقل هي أصل كل فساد في العالم ، وهي ضد دعوة الرسل من كل وجه ، فإنهم دعوا إلى تقديم الوحي على الآراء والعقول وصار خصومهم إلى ضد ذلك ، فأتباع الرسل قدموا الوحي على الرأي والمعقول ، وأتباع إبليس أو نائب من نوابه قدموا العقل على النقل» [1] .

٢ - محاولات التجديد في الفقه وأصوله :

لا يرى العصرانيون التقيد في سنة رسول الله ﷺ في أمور المعاملات ، ولذلك فهم يدعون إلى تطوير أصول الفقه، ويرفضون الإجماع والقياس والفقه والتراث ويعتبرون أن الاجتهاد في المعاملات هو تخطي النص باسم المصلحة .

ولا يفتأون أن يرددوا التزامهم بالنص القطعي الوارد ، ومعنى هذا أنهم يلتزمون بالقرآن فقط، وحوالي أربعة عشر حديثاً متواتراً ، أما أحاديث الآحاد فإنهم ينهجون فيها منهج الخوارج والمعتزلة باعتبارها قضايا عين لا قياس عليها[2].

فالدعوة في ظاهرها تزعم فتح باب الاجتهاد ، ولكن ليس هو الاجتهاد كما عرفه الفقهاء استنباطاً من النص وكشفاً وإظهاراً لحكم الله ، وإنما اجتهاد لتخطي النص في المعاملات وبالذات تخطي سنة رسول الله ﷺ .

يقول أحد كتّابهم : « في العبادات ينبغي الأخذ بالقرآن وما صح من الحديث، وفي المعاملات يؤخذ بالقرآن وحده ، ويستأنس بالحديث استئناساً فقط . . . ويبرر هذا التفريق بالمأثور الشائع ، أنتم أدرى بشئون دنياكم » [3] .

ومن محاولات التجديد في الفقه وأصوله ما كتبه الدكتور الترابي في رسائله إذ يقول : « وكان الفقه القديم مؤسساً على علم محدود بطبائع الأشياء وحقائق

(١) مختصر الصواعق المرسلة : ١/ ٢٩٣ الموصلي .

(٢) العصريون معتزلة اليوم : يوسف كمال ص ٨-٩ دار الوفاء / مصر سنة ١٤٠٦ هـ .

(٣) أين الخطأ : عبد الله العلايلي ، ص ١٢١ - ١٢٢ ، طبعة دار العلم للملايين بيروت / ١٩٧٨ م .

الكون وقوانين الاجتماع ، بما كان متاحاً للمسلمين في زمن نشأة الفقه وازدهاره» « وأصبح لزاماً علينا أن نقف فى فقه الإسلام وقفة جديدة لنسخر العلم كله لعبادة الله ، ولعقد تركيب جديد يوحد بين علوم النقل وبين علوم العقل التى تتجدد كل يوم ، وبذلك العلم الموحد المتناهي نجد دفقهنا للدين وما يقتضيه فى حياتنا الحاضرة طوراً بعد طور » (١) .

ومن الذى قال إن الفقه الإسلامى كان مؤسساً على العلم بطبائع الأشياء وحقائق الكون وقوانين الاجتماع ؟

إن الفقة أسس على الكتاب والسنة والقياس والاجماع ليس إلا ، فهذه الدعوة، دعوة عامة تهاجم التقليد وتطالب بإعادة النظر فى التشريع الإسلامى كله دون قيد ، لينفتح الباب على مصراعيه للقادرين وغير القادرين ، ولأصحاب الورع وأصحاب الأهواء حتى ظهرت الفتاوى الغريبة التى تبيح الإفطار ولأدنى عذر، وتبيح معاملات الربا ، وتحظر تعدد الزوجات وتحذر من الطلاق ، وبذلك تحول الاجتهاد إلى تطوير للشريعة الإسلامية بهدف مطابقتها للحضارة الغربية (٢) .

أين هذا من اجتهاد العصر الأول بشروط الاجتهاد والمعروفة ؟ ؛ وابتداء بما رآه الإمام الشافعى من العلم بالقرآن ناسخه ومنسوخه والعلم بالسنة ، ومعرفة مواضع الإجماع والخلاف . . ؟! يرى العصريون أنها شروط حادثة لحدوث تدوين علم الأصول نفسه (٣) .

ولذلك فهم يهاجمون الإمام الشافعي رحمه الله ، لأنه قيد هذا العلم بما وضعه من أصول وقواعد .

---

(١) تجديد أصول الفقه الإسلامي : الترابى / ص ٨ / دار الفكر للطباعة / الخرطوم ١٤٠٠هـ .

(٢) انظر التجديد بين السنة النبوية وأدعياء التجديد المعاصرين ص ١١-١٢ د. محمود الطحان، والإسلام والحضارة الغربية / د. محمد محمد حسين ص ٧٠ .

(٣) رسالة فى أصول التشريع الإسلامي الاتجاه الإسلامي بجامعة الخرطوم ص ١٣ .

٣ - موقفهم من التشريع والحكم بما أنزل الله :

ما كان أحد يظن أن يتنازل المسلمون عن تحكيم شريعتهم بعد أن سادت أحكامها ثلاثة عشر قرناً ، وما كنا نظن أن ينبري نفر من أبناء جلدتنا ممن يتكلمون بلغتنا لهدم شرع الله ، ورفضه واستبداله بقوانين وافدة وضعية باسم التجديد والتطوير والانفتاح على حضارة الغرب .

بدأ هؤلاء يدعون إلى فصل الدين عن الدولة . يقول محمد عمارة « إن للدين مفاهيم عليا ومثلاً عليا ، ثم للناس أن يحددوا ويشرعوا ويطوروا حياتهم وفق المصلحة بعد ذلك » ومن ثم فهو يقرر أنه « ليس الحكم والقضاء ، وليست الإمامة والسياسة دينا وشرعاً وبلاغاً ، يجب فيهما التأسي والاحتذاء بما في السنة من وقائع وتطبيقات » [١] .

ويقول حسن حنفي : « العلمانية هى أساس الوحي ، فالوحي علماني في جوهره ، والدينية طارئة عليه من صنع التاريخ » [٢] .

ولذلك فإن الدكتور أحمد كمال أبو المجد يرفض رفضاً باتاً تلك النظرة الشمولية الدينية التى تستغرق أحوال الفرد والجماعة ، ويتعجب ممن سماهم (المسرفين) الذين يرون ضرورة إسقاط القوانين الوضعية) ويدعون من ثم إلى زلزلة قواعد الشريعة حيث لايقصر الاجتهاد على الفروع فحسب بل والأصول أيضاً[٣] . ليت شعري ماذا أبقى هؤلاء للدين ؟! .

وما الذى تركوه لرجال التبشير والاستعمار ؟!

كل العصرانيين يدندنون حول هذه المقولة ولا يملون .

يقول أحدهم : « نظام الحكم فى الإسلام مصدره الاجتهاد وليس النص . . .

---

١) المعتزلة واصول الحكم : د. محمد عمارة / سلسلة الهلال العدد ٤٠٠ / ١٩٨٤ .

٢) التراث والتجديد : د. حسن حنفى ص ٦٩ / طبعة المركز العربى للبحث والنشر / القاهرة / ١٩٨٠م.

٢) حوار لامواجهة : د. احمد كمال أبو المجد / نقلاً عن كتاب غزو من الداخل : جمال سلطان ص٤١-٤٢.

والفكر السياسي فى نظام الحكم هو فكر بشري خالص ، وتستطيع المؤسسات العلمية من أمثال كليات العلوم السياسية أن تجتهد فيه» [١] ، بقي أن يترك لكليات اللاهوت حق الاجتهاد في الإسلام « ويرى أن الديمقراطية هي نظام الحكم الحضاري الملائم ، وأن الخلافة ليست نظاماً شرعياً وإنما هى اجتهاد بشري ، وما كان كذلك لا يكون دينا وإنما يكون تشريعاً مدنياً » [٢] .

لقد شكك العصريون بنظام الخلافة ، وكبيرهم فى ذلك الشيخ علي عبد الرازق الذى وصف الخلافة بأنها « خطط دنيوية صرفة لا شأن للدين بها . . لقد تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة، وكل ما جرى من أحاديث النبي من ذكر الإمامة والخلافة والبيعة . . . لا يدل على شيء أكثر مما دل عليه المسيح حينما ذكر بعض الأحكام الشرعية عن حكومة قيصر » إلى أن يقول « ولا يتوقف صلاح المسلمين فى دنياهم على ذلك النوع من الحكومة التي يسميها الفقهاء خلافة ، فليس في حاجة إليها إلى أمور ديننا ولا دنيانا ، ولو شئت لقلنا أكبر من ذلك ، فإنما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الإسلام وعلى المسلمين وينبوع شر وفساد » [٣] .

إذا لم تستح فاصنع ماشئت. يرفض هؤلاء صراحة أحاديث صحيحة يقول ﷺ فيها : « عليكم بسنتي. وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » [٤] .

ويقول : « لانبي بعدي وستكون خلفاء فتكثر . . » [٥] .

فيافرحة أعداء الإسلام لقد كفاهم العصريون المؤونة .

(١-٢) الاجتهاد والحكم فى الإسلام : مجلة العربى / ٣٠٧ / رمضان سنة ١٤٠٤ د. محمد أحمد خلف الله ، وانظر غزو من الداخل ص ٤٧ .

(٣) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر : د محمد محمد حسين جـ ٢ / ٨٣ - ٨٤

(٤) رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح .

(٥) رواه الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمر .

٤ - تزويرهم للتاريخ الإسلامي :

«كان تحطيم التاريخ الإسلامي والعبث به ضرورة من ضرورات هذه المدرسة ، ولم تقف عملية التزوير عند عصر دون عصر أو عهد دون عهد ، بل شملت كافة عصور الإسلام بلا استثناء » [١] .

لم يسلم من أذى العصرانيين حتى صحابة رسول الله ﷺ، حتى العصور الذهبية لغزوات الرسول ﷺ ، والفتوحات الإسلامية ، فتوحات العقيدة والعدل .

« فحروب الردة لم تكن دينية ، ولا حرب علي مع خصومه كانت دينية لأنها كانت حرباً في سبيل الأمر ، أي الخلافة والرئاسة والإمامة ، وهذه سلطة ذات طبيعة سياسيه ومدنية ، ومن ثم كانت الحرب التى نشبت لأجلها سياسية ومدنية هي الأخرى » [٢] .

« حتى يوم السقيفة واحتجاج أبى بكر الصديق رضى الله عنه بقول النبى ﷺ: «الأئمة من قريش » [٣] .

« يرى الدكتور محمد عمارة أن هذا الكلام محض افتراء وكذب، وأنه نسب إلى السنة ليكون فكراً سياسياً قرشياً كان شائعاً فى ذلك العصر .

« أما الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيقرر عمارة أنه العلماني الأول فى الإسلام » [٤] .

وكان التطاول شديداً ، والجرأة عنيفة عندما يرى بعضهم أن غزوة بدر الكبرى كانت معركة بين الرسول وأصحابه بين الأرستقراطية القرشية الملكية وحلفائها .

وأن القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي هو القائد الإقطاعي البارز . . ويأسف

---

(١) غزو من الداخل : جمال سلطان ص ٨-٩ / دار الوطن للنشر / الرياض الأولى سنة ١٤١٢ هـ .

(٢) المعتزلة وأصول الحكم : محمد عمارة ص ٣٤٨ ، ٢٤٢ ، ٣٣٢ .

(٣) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده ، وانظر فتح البارى ١٣ / ١١ ط دار الفكر بيروت / ١٣٩٣ هـ

(٤) المعتزلة وأصول الحكم : محمد عمارة ص ٣٤٨ ، ٢٤٢ ، ٣٣٢ .

هذا المفتري لانتصار المسلمين في الحروب الصليبية لأنها أعادت الحيوية للإقطاع العربي [1] فيالضيعة الانبهار والمنبهرين عندما يفضحون أنفسهم بهذا التزوير . لقد اطمأنوا إلى أن أمتهم نائمه تغط فى سبات عميق .

أما الفتوحات الإسلامية التى شهد الأعداء بعدالة المسلمين ورحمتهم فيها، فإنها تغيظ المنهزمين روحياً وعقدياً ، فيتعجب الدكتور عبد المنعم ماجد من توهم بعض المستشرقين أن العرب المسلمين فتحوا البلدان بدافع إسلامى ، ويحاول أن يأتي بالغرائب العبقرية !

ليقول : « لا نوافق بعض المستشرقين فى قولهم : إن العرب كانوا مدفوعين نحو الفتوح بالحماس الديني ، فمن غير المعقول أن يخرج البدوي - وهو الذى لا يهتم بالدين - لينشر الإسلام » [2] .

أما الخلافة العثمانية فقد تناولها العصريون بحقد عجيب ، تشويهاً وتجريحاً وخاصة من قبل (المستنيرين) القوميين : [3]

إذ يحرص محمد جابر الأنصاري على أن يجرد العثمانيين من كل فضيلة حتى غدوا فى نظره «جماعة من الهمج والمتوحشين الذين دمروا الحضارة العربية الزاهية»[4] .

ويصف الدكتور محمد عمارة الفتح العثماني بأنه «طوفان الدمار التركي وأرجال الجيش العثماني الذى لف العالم العربي بردائه الأسود أكثر من أربعة قرون»[5] .

وقد مجد أصحاب هذه المدرسة الفرق المنحرفة، فالخوارج هم حزب العدالة

---

(١) فجر اليقظة القومية : د. محمد عمارة ص ١٠٣ ، طبعة القاهرة / ١٩٧٥ م .

(٢) التاريخ السياسي للدولة العربية جـ ١/ ٦٣ ١ طـ الانجلو المصرية / ١٩٧١ م .

(٣) انظر غزو من الداخل / جمال سلطان ص ١٥ - ١٧ .

(٤) نظرة فى الجذور : الدوحة القطرية / العدد ١٠١ / رجب / ١٤٠٤ هـ .

(٥) فجر اليقظة العربية : ص ٣٦٢ / محمد عمارة / عن غزو من الداخل ص ١٧ .

والجمهورية والـقيم الثورية التى جاء بها الإسلام، والقـرامطة هم الجناح اليسارى في الحركـة الشيعيـة ، والحركة الثورية ضـد الإقطاع ، أما القدرية فهي : حـركة فكرية لجـماعة من المفكـرين الأحرار تدعو لحـرية الرأي !! كمـا يرى د. محـمد عمارة[1].

وقد روجوا للاشتراكية واليسار والديمقراطية [2] .

ومن أقـوالهم : « ولم يكن هـنا ما يـغيـر من الاشـتـراكـيـة مـادامت تبـقي الإصلاحات الاقـتصادية وتطالب برفع الظلم عن كـاهل العمال والفقـراء، ولكنها اضحت فكراً خاطئاً حين لبست ثوب الأفكار الماركسية » [3] .

« واليسار المسلم يتـمسك بالديمقراطية إذ هى حكم الله فى المصـالح والعلاقات الإنسانية، وحيث لا يكون النص الإلهي الملزم القاطع فى وروده ودلالته . . »[4].

والآن ندع للقارىء الكريم الحكم على أفـكار هذه المدرسة فهل وجدت تخـريباً إلا اتبعـته ؟! وهل تركت حقـيقة ناصعـة إلا طمستـها أو شوهتهـا ؟! وهل خدم المسـتـعـمـرين والمنصـّرين أكـثـر من هؤلاء المنهـزمين العـاقين لأمـتـهم وتراثهـا وحضارتها؟! .

٥ - نظرتهم للمرأة :

لقد شكك العـصرانيـون بحجاب المرأة المسلمـة ، ودعوا إلى سـفورها ثم إلى عملـها تماماً كـالرجل، وهاجمـوا تعدد الزوجـات فى الإسلام وحـاربوا الطلاق، ينعقون : الجيل تلو الجيل بمؤامرة ليس لها نظير [5] .

---

(١) انظر : غزو من الداخل ص ٢٦ ، وكتابات محمد عمارة فى كتابه فجر اليقظة القومية / ص ١٤٤-١٧٠.

(٢) العصريون : يوسف كمال ص ٣٨ - ٤٠ .

(٣) حكمة الدين : وحيد الدين خان ص ٩ .

(٤) مجلة المسلم المعاصر : العدد الافتتاحى / فتحي عثمان .

(٥) انظر . كتابنا المرأة بين الجاهليـة والإسلام / فصل المؤامرة على المرأة فى ديار المسلمين ص ٢٥٩ - ٢٩٠ / ففيه تفصيل لهذا الموضوع .

وتبلغ الجرأة حداً غـريباً عندما يزعم كاتب عصراني : أن الحـجاب وهْمٌ صنعه الفرس والأتراك ، وأن الرجال يتمسكون بالحجاب ليستبدوا بالمرأة [١] .

ويرفض آخر أن تعود المرأة مكبلة بالحجاب ، ويعتـبر مسألة تعدد الزوجات من سمات عصر الإقطاع والدولة الإقطاعية [٢] .

وتزعم الدكتـورة نوال السعداوي أن نساء الـرسول لم يكن محجـبات، والذين ينادون بحـجاب المرأة لم يفـهمـوا المرأة المسلمة ، ولم يدرسـوا أحاديث الـرسول ﷺ، ولم يقرءوا القرآن قـراءة صحيحة ولم يطلعـوا على التاريخ . . . وتزعم أنه لا توجد آية واحدة تنص على تحجيب المرأة [٣] .

ويناقض بعـضهم بعـضاً شـأن أهل البدع جمـيعـاً . انظر إلى قول آخـر منهم «وبالنسبـة للحجاب واختـلاط المرأة بالرجال في الحياة العـامة فهذه مسـألة يقدرها المجتمع بحسب ظروفـه فلكل مجتمع لباسه وقواعده وأن مـا جاء فى القرآن بشأن الحجاب إنما كـان بخصوص نسوة الرسول . . وأن هذه الأحـكام ليست بالضرورة متعلقة بسائر النسوة » [٤] .

٦ - موقفهم من الجهاد [٥]:

كتب العـصريون المعجـبون بتيار الحـضارة الغربيـة الغازية مشككين بالجـهاد ، ومحـذرين من عودته فى العصـر الحاضر ، وداعين إلى السلم الموهوم ، يسـيرون على خطى دعـوات هدامة فى ذلك كـالقاديانيـه والبهائيـة والبابيـة ، وعلى منهج المدرسة الإصلاحـية بزعامة الشـيخ محمد عبـده صديق اللورد كرومرحـاكم مصر

---

(١) الأهالي القاهرية : موقـف القرآن من حجاب المرأة ، حسين احـمد أمين فى ٢٨/١١/ ١٩٨٤ / عن غزو من الداخل ص ٥٥ .

(٢) فجر اليقظة العربية : د. محمد عمارة ص ١١٨ سنة ١٩٨٣ / عن غزو من الداخل صـ٥٤ .

(٣) تحقيق: الأهالي القاهرية عدد ١٠٤ / ١٠ / ٥ .

(٤) جريدة الأخبار : د. عماد عبد الحميد النجار .

(٥) انظر: آفاق الجهاد فى سبيل الله صـ ٢٨١-٣٠٨ من كتابنا الحياة السياسية عند العرب.

آنذاك الذى قال : « كان لمعرفة الشيخ محمد عبده العميقة ، بالشريعة الإسلامية ولآرائه المتحررة أثرها في جعل مشورته والتعاون معه عظيم الجدوى » «وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع ، فهم الخلفاء الطبيعيون للمصلح الأوربي » [١] ، وهاهم الأحفاد يكملون المشوار يقول أحد رواد المدرسة العصرية الحديثة «إن العمل الصالح هو العمل المنتج، مثل أن يكون هو العبادة إن هذا العمل الصالح لهو اليوم أفضل جهاد فى سبيل الله» «ولقد صار البديل عن الجهاد هو العمل ، ولقد صار البديل عن الحرب هو التعايش السلمي بين الدول والشعوب» [٢] .

وممن نفر من العنف وأعجب بفكرة السلام العالمي الموهوم ، الكاتب الإسلامى: مالك بن نبي رحمه الله ، فهو يرى مثلاً : « أن الإسلام والهندوسية تنفيان سيف العقيدة » [٣] .

ولا يخفي مالك بن نبى إعجابه بغاندي العظيم ؟ فهو بطل السلام ، صاحب سياسة اللاعنف [٤] .

وتعمق هذا المفهوم عند بعض تلامذته كجودت سعيد ، وخالص جلبي [٥] .

ويسير على نفس الطريق عدد من الكتاب المعاصرين باسم تجديد الدين إذ يرون أن القتال يعطل رسالة التبليغ وأن للعصر الحاضر ظروفه وملابساته [٦] .

إن تطويع هذه الفريضة هو مادعا إليه الأعداء ، يقول (توماس بين) أحد المستشرقين الأمريكيين فى مقدمة كتاب السيف المقدس [٧] .

(١) انظر : منهج المدرسة العقلية الحديثة فى التفسير ص ٨٠٤ - ٨٠٨ // فهد الرومى .

(٢) نظرات فى الدين : عبد اللطيف غزالي / ٣٦ - ٣٧ .

(٣) كتاب الفكرة الأفريقية الأسيوية : مالك بني ص ـ١٤٨ دار الفكر/ دمشق .

(٤) فى مهب المعركة : مالك بن نبي ص ١٤٩ - ١٥٢ / دار الفكر / ١٩٨١ م .

(٥) انظر كتابه : مذهب ابن آدم الأول ، والنقد الذاتي لخالص جلبى .

(٦) مثل كتابات : فهمى هويدي ، محمد عمارة ، فتحي عثمان - عبد الله العلايلي .

(٧) واقعنا المعاصر : محمد قطب ص ٣٠٠ .

«وقد تغير الحال اليوم ، وأصبح المسلمون فى قبضة أيدينا ، ولكن ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى ، وإن الشعلة التى أوقدها محمد ﷺ فى قلوب أتباعه لهي شعلة غير قابلة للانطفاء » .

٧ - وحدة الأديان :

تتمثل عقيدة المسلمين في أن الإسلام جاء خاتمة للأديان ، ومكملاً لها ، وأنه دين الرسل الحق ينفي كل انحراف وقع فيه أهل الكتاب من يهود ونصارى .

لكنّ العصرانيين يرفضون إلا الاجتهاد حتى فى عقيدة المسلمين ، ودمجها فى عقائد ضالة منحرفة . ويكفي هنا أن ننقل إلى القراء الكرام بعض مقولاتهم فى هذا المجال .

يقول الدكتور عبد العزيز كامل : « ونحن فى منطقة الشرق الأوسط نؤمن بالتوحيد بطريقة أو بأخرى ، وأقولها واضحة ، يستوي في هذا الإسلام والمسيحية واليهودية ، حتى الإيمان بالأقانيم الثلاثة فى الفكر المسيحي يختم بإله واحد . هذه منطقة توحيد والصور تختلف وتفسيرها الفلسفي يختلف »(١) اللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا .

ويقول عبد اللطيف غزالي : « ولم يعتقد أتباع كل دين أن الله يختصهم بالجنة ويذر غيرهم ، وأكثر الناس فى النار ، إنّ إلها هذا شأنه وإن صح - وحاشا أن يصح- لا يكون إله طائفة قليلة بالنسبة لسائر الناس ، لأنه ليس ثمة دين يضم أكثر البشر »(٢) .

ولمحمد عمارة نظريته في وحدة الأديان ، فهو يرفض تقسيم الناس على هذا الأساس (المتخلف) إلي مؤمنين وكفار ، لأن ذلك التقسيم قد ارتبط بالعصور الوسطى وعهود الظلام » . «ويرى أن رفاعة الطهطاوي قد قدم فكراً مستنيراً فى

(١-٢) انظر العصريون : يوسف كمال ص ١٠٩ ، وكتاب الإسلام والعصر : عبد العزيز كامل ص ١٩٤ .

هذا الجانب حيث قدم تقسيماً جديداً ، لا يقوم على معايير الكفر والإيمان، وإنما يقوم على مقاييس التحضر والخشونة »[1] .

ويعجب فهمي هويدي من خطيب جمعة يتحدث فى خطبته عن أن المسلمين «خير أمة أخرجت للناس» ، وفرش المسجد ولباس الشيخ من صنع غير المسلمين؟! .

ويعجب الشيخ أبو رية فى كتابه « دين الله واحد » ، كيف سيحرم (أديسون) مخترع النور الكهربائى من الجنة ، وقد أضاء العالم كله حتى مساجد المسلمين باختراعه ؟ وعندما قيل له : إنه لم ينطق بالشهادتين قال : إذا كان هذا الرجل العظيم لم يدخل الجنة شرعاً ، أفلا يمكن أن يدخلها عقلاً بفضل الله ورحمته ، مادام يؤمن بخالق السماوات والأرض[2] ويتناسى هؤلاء أن الإسلام يدعو للعمل والبناء، وإقامة الحضارة المتوازنة ، إلا أن المسلمين هم الذين فرطوا وتخلفوا عن الركب حالياً .

التجديد بين الهدم والبناء :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَنْ يجدد لها دينها »[3] .

قال العلقمي : « معنى التجديد : إحياء ما اندرس من العمل من الكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما » .

وقال المناوي : « يجدد لها دينها ، أى يبين السنة من البدعة ويكثر العلم ، وينصر أهله ، ويكسر أهل البدعة ويذلهم .... »[4] .

---

(١) تيارات اليقظة الإسلامية : ص ٨٠ / سلسلة الهلال ١٩٨٤ م / غزو من الداخل / ص ٦٤ جمال سلطان

(٢) العصريون : معتزلة اليوم / يوسف كمال ص ١١٢ .

(٣) رواه أبو داود فى سننه - كتاب الملاحم ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ ٢ ص ١٥٠ رقم / ٥٩٩/ المكتب الإسلامى .

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير : ٢/ ٢٨١ للمناوي نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

« والظاهر أن أساطين الكفر أيقنوا بعد التجارب الطويلة أن هدم الإسلام من الخارج، والوقوف أمام تياره، طريق غير ناجح فسلكوا لهدمه طريقاً آخر من الداخل، يدعو لإصلاح الإسلام وتحديد أفكاره وأحكامه ، والاستخفاف بتراثه وبكل شيء قديم فيه وهي طريقة خادعة تجذب بعض الخاوين من الثقافة الإسلامية ، والعلوم الشرعية .

ولذلك ظهرت فئة - العصرانيين - في هذا العصر تدعو إلى تجديد الفكر الإسلامي، وتجديد أصول الفقه وأصول الحديث وتجديد العلوم الإسلامية ، لا بطريقة عرض تلك العلوم عرضاً سهلاً أو إيجاد بعض الأحكام الشرعية لمواجهة بعض المستجدات ، وإنما انصبت الدعوة على تغيير الأفكار الإسلامية ، وتغيير أصول العلوم الإسلامية » [(١)] .

وذلك ما شاهدناه خلال عرضنا للموضوعات الخطيرة التي أرادوا منها هدم العلوم الإسلامية ، ومسخ الهوية الإسلامية لهذه الأمة .

« فتجديد الدين يعني إعادة نضارته ورونقه وبهائه ، واحياء ما اندرس من سننه ومعالمه ، ونشره بين الناس » .

وجاء في الحديث : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » [(٢)] .

« فهذه الفئة أو الطائفة الموعودة يستحيل أن يكون المجدد من غيرها استحالة تامة، إذ هي القائمة بأمر الله المتبعة لشرعه السائرة على هدى نبيه ، ومن ثم فهي المجددة لهذا الدين ، الواقفة عند حدود الله حيث تباعدت الأهواء بأصحابها، فلم يبق لهم من الدين إلا الانتساب . . . » «فليس من التجديد هذا الاتجاه العقلاني

(١) مفهوم التجديد بين السنة النبوية وأدعياء التجديد المعاصرين : د. محمود الطحان / مكتبة التراث الكويت سنة ١٤٠٥ هـ .

(٢) رواه البخاري رقم : ٧٣١١ كتاب الاعتصام ومسلم / كتاب الإيمان رقم ١٥٦ .

الذى يحاول تفسير النصوص الشرعية وفق مقتضيات الفلسفة البشرية ،ولي عنق النصوص لياً ليتفق معها . . . وليس من التجديد تلك المناهج التى اختطها بعض الدعاة استجابة للضغوط الواقعية ، والمتغيرات الاجتماعية والدولية - كما زعموا- واقتنعوا بموجبه بضرورة استبعاد بعض القضايا الشرعية والعقدية المسلّم بها لدى الأمة وعلمائها منذ عصر الصحابة حتى اليوم » (١) .

فالتجديد المقصود ليس تغييراً فى حقائق الدين الثابتة القطعية لتلائم أوضاع الناس وأهواءهم ، ولكنه تغيير للمفهومات المترسبة، ورسم للحقائق الصحيحة الواضحة.

إن الحركة التجديدية بحاجة إلى أعلام كعمر بن عبد العزيز فى العلم وإقامة العدل ، والإمام الشافعي فى فقهه وتأصيله ، والأئمة ابن تيمية والإمام أحمد وابن عبد الوهاب رحمهم الله جميعاً .

أين فراخ العقلانيين العصريين المنهزمين أمام مادية الغرب وفجوره من هؤلاء؟! أين الثريا من الثرى ؟! أيجد فى دين الله من هو بحاجة إلى توبة نصوح، يقوّم فيها سلوكه وشطحات أفكاره فلا يهدم باسم البناء ، ولا يخرب باسم الإسلام؟!.

(١) التجديد فى الإسلام : إصدار المنتدى الإسلامي / لندن / ١٤١٠ هـ .

الحمـد لله الذى بفضله تتم الصالحـات، وحمداً لك اللهم على نعمـة الإسلام الذى قضى على ظلمات الجاهلية، ومايزال يطاردها كلما تجرد أبناؤه لله مخلصين، وآمنوا بهديه عن يقين وبصيرة.

لقد ظهرت حقـيقة الجاهلية واضحة، ومـهما زينها دعاة القوميـة، فهاهي تبدو شوهاء في كلام شعرائها، وخلال وصف كتاب الله لها.

كانت البشرية تدين بالتوحيـد، بالإسلام وهو دينها الذي جبلت عليه، وفطرتها التى خلقها الله عليه، وكانت كلما اجتالـتها الشياطين عن دينها، بعث لها الرحمن رسولا يدعوها إلى جادة الصواب، ويعيدها إلى دين الله الحق.

وكذلك كان العرب، كـانوا أمة موحدة، تدين بدين إبراهيم وإسماعـيل عليهما السلام.

وعندما طـال عليهم الأمد عـبدوا الأصنام، وقـدسوا الأوثان، وعـبد بعـضهم الشجر والكواكب أو الملائكة والجن ليتقربوا بها إلى الله زلفى.

ولم يبق من ديانة التـوحيـد، ديانة أبيـهم إبراهيم، إلا ذلك البصـيص الواهي الذى توارثه القوم باعتـباره عادات موروثة، وكان من تلك الأثارة الطيـبة أن عرف الجاهـليون لله تفـرده بالخلق، وقدرته عليـه، وتفرده بالرزق، وشـيئـا من مكارم الأخلاق وطيب العادات.

وبقي ماتناقلته الأخبار من صرخات ضـعيفة عند طائفة من الحنفاء، إلا أن هذه الصيحات كادت تضيع وسط ظلمات الجاهلية، وأمواجها المتلاطمة.

والغريب أنه لم يكن لليهـود والنصارى كبير أثر فى عـرب الجزيرة ـ على مافي ديانتهم من تحريف ـ بل إنهم تأثروا بالعرب وعاداتهم أكثر من تأثر العرب بهم.

* جاء الاسلام فانتشل هذه الأمة، وبقية العالم، من دياجير الجاهلية المدلهمة، ونشر أنواره المضيئة عقيدة صافية، وتوحيدا خالصا، وعبادة مستقيمة لله وحده بلا شريك .

نزل الوحي، وتتابـع القرآن، يعلم الناس أمور دينهـم عن طريق رسول أمين، علمهم الايمان: بأن يؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

علمهم حق الله وحق رسله الكرام، وأنهم بشر ولكنهم خـير البشر إصطفاهم ربهم لهداية الناس، فليسوا أبناء الله وليسوا شركاء لله.

علمهم أن الملائكة مخلوقـات كريمة مكرمة لايعصون الله مـا أمرهم، ويفعلون مايؤمرون.

تعلم المسلمـون أن الإيمان بالقـدر قوة إيجـابيـة أذهبت عنهم التـشاؤم والتطيـر وأبعدتهم على كل سلبيات الجاهلية وتكاسلها، وغرست في نفوسهم عقيدة التوكل على الله فأكسبتهم جرأة وإيجابية.

على أن الإسـلام قد أعلن حـرباً لا هوادة فـيهـا على كل مـعتـقدات العـرب الخرافية، وأعـمالهم المنحرفة، وكان من أخطر سقطات القـوم زعمهم أن الملائكة والأصنام بنات الله واتخاذهم إياها أربابا من دون الله.

وكذلك كان تقـربهم بالقرابين للأصنام، واستقـسامـهم عندها بالأزلام، وتسييب السوائب، وما شابه ذلك من عبادات منحرفة.

* جاء الاسـلام ليعلم عـرب الجاهليـة، وباقي الجاهليـات، أن العقائـد ليست معـارف تكدس في العـقول، وليـست ألاعيب في يد الرجـال (من زعمـائهم) إنما العقيدة إيمان يتجلى في القول والعمل والاعتقاد، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وأن المسلم حريص على إقامـة أركان الإسلام، إذ يتفرغ من مشـاغل الحياة بصلاة خاشعـة، يسمو بها في روحه مـعظما لربه جل وعلا، ومجدداً العـبودية له وحده آناء الليل وأطراف النهار.

ويصوم ويزكي، ليطهـر نفسه وماله بلا ريـاء ولا فخر، ويحج لبيت الله ملبـياً نداء أبيه إبراهيم عليه السلام، متبعا هدي نبـيه محمد ﷺ في مناسك الحج مبتعدا

عن رواسب الجاهلية التى حرمها الإسلام كالنسيء والطواف ببيت الله عارياً، وإشاعة الانحراف بالمكاء والتصدية.". أعاد الإسلام الى الحج صفاءه خالصا لله تعالى.

لقد حرر الإسلام أتباعه من الخرافات التى تغلغلت فى جسم المجتمع العربى الجاهلى، ونخرت فى عظامه، فحرم اللجوء الى الكهان والتطير بالبوم والغراب، وأن يفزع الناس إلى التمائم لتقيهم شر العاديات والمصائب.

لقد اجتث الإسلام ذلك الشبح المفزع من نفوس الناس، وغرس فى عقولهم وأفئدتهم إيمانا بالله وحده، وأنه هو النافع وهو الذى يُلجأ إليه سبحانه، فحرر العقول والنفوس، لتتحول إلى كيانات جديدة تحمل راية الدعوة فى أنحاء المعمورة، وليدخل الناس فى دين الله أفواجا.

* ولقد لاحَظْنا أن عرب الجاهلية كانوا يحكمون الرجال، ويتقاضون عند مشايخهم وحكمائهم ليحلوا خلافاتهم، وكان بعضهم يحكمون ماتبقى من ديانة إبراهيم عليه السلام فجاء الإسلام ليجعل حق التشريع لله وحده متمثلا فى شريعة سمحة فى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

* إذن جاء الإسلام وقد صحح العقائد والعبادات، وسارت هذه الأمة قروناً من الزمن ومايزال كثير منها على ذلك الهدي الصحيح.

أما المجتمعات الحديثة فقد حلت فيها انحرافات خطيرة، فهاهى تحاول ـ منذ قرنين من الزمان ـ التفلت من تعاليم دينها، تحاول الانتكاس نحو الجاهلية من جديد، فى كثير من مجالات حياتها.

صحيح أن الجاهلية المطلقة العامة قد ولت إلى غير رجعة، ببعثة الرسول ﷺ، إلا أن مظاهرها قد عادت كأشد ماعرف التاريخ من الجاهليات...

عاد الإلحاد إلى ملايين من البشر، ومايزال... وما عرفت الجاهلية العربية هذا الإلحاد مطلقا عاماً كما عرفته البشرية هذه الأيام.

إلحـاد جـديد يـعلن باسم العلم، ونظـريات العلم، ويُدافَع عنه، ويُـحـادّ الله ورسوله، ولا غيرة ولاحياء!.

وهاهي شريعة السماء تنحى عن الهيـمنة على حياة المسلمين، وتستورد القوانين الوضعـية فى معظم ديار المسلـمين، ويدافع عنها، وتفتح الجـامعات لتـدرس مواد القوانين الكافرة؟!

وكان ذلك من أسباب دعوات التطرف والغلو فى عدد من أقطار المسلمين.

وقد غزا الشرك بنوعيه ـ الأكبر والأصغر ـ مجتمعات المسلمين فقد عاد الطواف بالقبـور، ومن ثم شاع تقديم النذور لهـا وذبح القرابين عندها.. وانتشـر التوسل بغـير الله، وقـد تجرأ كـثير ممـن ينتسـبون لهـذا الدين على التشكيك بالأحـاديث الشـريفـة، فحـوربت السنة المطـهرة، وتفـشت البـدع الكثـيـرة، ناهيك عن بدع الاعتـقاد، فنخـرت فى جسم الأمـة، فأصـبحت قـابلة لدعوة كل ناعق مـن دعاة التغـريب والعصرانية، ومـهيأة للانفتـاح على حضارة التيـه والانحلال، والذوبان بالأمم الأخرى تحت شعارات وحـدة الأديان، والنظام العالمي الجديد فتفـقد هويتها وتنسى رسالتها السماوية.

* ورغما عن هذا الواقع المرير فإن الأمل بالله كبيـر. فشباب الإسلام ، ودعاة التوحـيد قادمـون بإذن الله، فهـاهم يتلمسون الطرق الـصحيـحة، لأن المستـقبل للإسلام وأهلـه ماداموا مـتمسكـين بهديه، مهـما تآمـر أعداؤنا علينا فى مـشارق الأرض ومغاربها.

وسيبقى فى هذه الأمة طائفة منصورة تتمسك بالكتاب والسنة حتى يأتي أمر الله «لاتزال طائفة من أمتي على الحق لايضرهـم من خالفهم حتى يأتى أمر الله» «رواه البخارى ومسلم».

فياشباب الإسلام العظيم، ويادعاة الحق المبين!

إن أمـتكم بانتظاركم لتنقـذوها مما هي فـيه، وإن العـالـم التـائه الحيـران بأمس الحاجة الى تصحـيح المسار على هدي دينكم ، فتأملوا مقدار مـسؤوليتكم، تمسكا بكتاب الله وسنة رسوله الأمين واعلموا أن الله (متم نوره ولو كره الكافرون).

اللهم ردنا والمسلمين الى ديـنك الحق وألهمنا الصـواب والاخلاص فى القـول والعمل إنك على كل شيء قدير.

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم (أ)

١ ـ الإبانة عن أصول الديانة: أبو الحسن الأشعري ـ مطابع جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية/ ١٤٠٠ هـ.

٢ ـ أثر الفكر الغربي فى انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية: خادم حسين إلهي بخش ـ دار حراء للنشر ـ الطبعة الأولى.

٣ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية: ابن القيم ـ مكتبة الرياض الحديثة ـ البطحاء ـ الرياض.

٤ ـ أدب الحنيفية في العصر الجاهلي: حبيب بن حنش الزهراني . رسالة ماجستير جامعة أم القرى/ ١٤٠٦ هـ.

٥ ـ الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: د. صالح بن فوزان الفوزان ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ ١٤١١ هـ.

٦ ـ الأركان الأربعة فى ضوء الكتاب والسنة: أبو الحسن الندوي ـ دار القلم ـ الكويت ـ الطبعة الرابعة.

٧ ـ أزمة الحوار الديني: جمال سلطان ـ دار الوطن للنشر ـ الرياض الطبعة الأولى ـ ١٤١٢ هـ.

٨ ـ أزمة العصر: د. محمد محمد حسين. مؤسسة الرسالة ـ بيروت الطبعة الثانية ـ ١٤٠٥ هـ.

٩ ـ الأمالي للقالي: طبعة دار الفكر مصورة عن دار الكتب المصرية

١٠ ـ الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة: أبو الأعلى المودودي ـ دار القلم ـ الكويت الطبعة الثالثة/ ١٣٩٨ هـ.

١١ ـ الإسلام والحضارة العربية: محمد كرد علي ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الثالثة/ ١٩٦٨ م.

١٢ ـ أصل الدين: عبدالمجيد يوسف الشـاذلي ـ دار طيبة الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.
١٣ ـ الإصابة فى تمـييز الصـحابة: ابن حجـر العسـقلانى ـ دار الكتـاب العربى/ بيروت.
١٤ ـ الأصنام: هشـام بن محـمد السـائب الكلبى ـ نشر الدار القـوميـة للطبـاعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥ م.
١٥ ـ أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ـ للشنقيطي ـ عالم الكتب بيروت.
١٦ ـ إطار إسـلامى للفكر المعـاصـر: أنور الجندي ـ المكتب الاسـلامى الطبعـة الأولى/ ١٤٠٠ هـ.
١٧ ـ الاعتصام: الإمام الشاطبى ـ مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض.
١٨ ـ أعلام السنة المـنشورة لاعتـقاد الطائفـة الناجية المنصـورة ـ حافظ بن أحـمد الحكمى. مكتبة السوادى للنشر والتوزيع ـ جدة.
١٩ ـ الأغاني: أبو الفرج الأصفهانى ـ دار الثقافة.
٢٠ ـ اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية. تحقيق د. ناصر العقل: ١٤٠٤.
٢١ ـ الإنسان ذلك المجهول: الكـسيس كاريل ـ تعريب شفيق أسعد فـريد مؤسسة المعارف ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة/ ١٩٨٠.
٢٢ ـ الإنصاف فيما قيل فى المولد من الغلو والإجحاف: للشيخ أبى بكر الجزائرى طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء / الرياض.
٢٣ ـ إلى التصوف ياعباد الله فإن المؤمن لايلدغ من جحر مرتين: أبوبكر الجزائرى المدينة المنورة/ ١٤٠٤ هـ.
٢٤ ـ الإيمان، أركانه، حقيـقته. نواقضه: د. محمد نعـيم ياسين. الطبعة الرابعة دار الكتب العلمية بيروت.
٢٥ ـ الإيمان: شيخ الإسلام ابن تيمية. المكتب الإسلامى ـ الطبعة الثالثة.

٢٦ ـ الإيمان: أثره فى حياة الإنسان د. حسن الترابى ـ دار القلم الكويت ـ الطبعة الأولى/ ١٣٩٤ هـ.

٢٧ ـ الإيمان بالغيب: بسام سلامة ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.

٢٨ ـ أين الخطأ: عبدالله العلايلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت / ١٩٧٨ م.

(ب)

٢٩ ـ البداية النهاية: للحافظ ابن كثير. طبعة دار الفكر ـ بيروت/ ١٩٧٨ م.

٣٠ ـ البدعة وأثرها السيىء فى الأمة: سليم الهلالى. المكتبة الإسلامية ـ عمان الطبعة الأولى/ ١٤٠٤ هـ.

٣١ ـ بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب: محمود شكري الآلوسي ـ الطبعة الثانية عمان/ ١٤٠٤ هـ.

٣٢ ـ البيان والتبيين: للجاحظ ـ تحقيق عبدالسلام هارون.

(ت)

٣٣ ـ تأملات فى سلوك الإنسان ـ د. الكسيس كارل ـ ترجمة د. محمد محمد القصاص ـ مكتبة مصر.

٣٤ ـ تاريخ المذاهب الإسلامية فى السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية: محمد أبوزهرة ـ دار الفكر العربى.

٣٥ ـ التبرك المشروع والتبرك الممنوع: د. علي بن نفيع العلياني - دار الوطن للنشر الرياض ـ الطبعة الأولى.

٣٦ ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية: د. مصطفى الخالدي ود. عمر فروخ الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٣٨٣ هـ.

٣٧ ـ تحكيم القوانين: محمد بن ابراهيم آل الشيخ ـ الطبعة الثانية الرياض/ ١٤٠٣ هـ.

٣٨ ـ تجديد أصول الفقه الاسلامي د. حسن الترابي ـ دار الفكر للطباعة ـ الخرطوم/ ١٤٠٠ هـ

٣٩ ـ التجديد في الإسلام: إصدار المنتدى الإسلامي، لندن/ ١٤١٠ هـ

٤٠ ـ تجديد الفكر الإسلامي: جمال سلطان ـ الطبعة الأولى ـ دار الوطن ـ ١٤١٢ هـ.

٤١ ـ التراث والتجديد: د. حسن حنفى، طبعة المركز العربى للبحث والنشر القاهرة/ ١٩٨٠ م.

٤٢ ـ الترغيب والترهيب: الحافظ المنذري ـ مطابع قطر الوطنية ـ الدوحة.

٤٣ ـ التعريفات للجرجانى على بن محمد بن على ـ دار الكتاب العربى ـ الطبعة الأولى/ ١٤٠٥ هـ.

٤٤ ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل): دار طيبة للنشر ـ الرياض ت: ضميرية - النمر - الحرش.

٤٥ ـ تفسير ابن كثير ـ طبعة دار الشعب بالقاهرة.

٤٦ ـ التكفير ـ جذوره، أسبابه، مبرراته، د. نعمان عبدالرزاق السامرائى المنارة للطباعة والنشر. الطبعة الثانية/ ١٤٠٦ هـ ـ بيروت.

٤٧ ـ التكفير والهجرة وجها لوجه: رجب مدكور. مكتبة الدين القيم، القاهرة ـ ١٤٠٥ هـ.

٤٨ ـ تلبيس إبليس: الحافظ ابن الجوزى. دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى/ ١٤١٣ هـ.

٤٩ ـ التمائم فى ميزان العقيدة: د. على بن نفيع العليانى. دار الوطن للنشر الرياض ـ الطبعة الأولى.

٥٠ ـ تهافت العلمانية: مناظرة نقابة المهندسين فى الاسكندرية طبعة دار الآفاق الدولية للإعلام ١٤١٣ هـ. إعداد: د. صلاح الصاوي.

٥١ ـ التوسل: أنواعه وأحكامه: محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة

٥٢ ـ تيارات عقدية وثقافية في الأدب الجاهلي: د. صالح آدم بيلو. مطابع الصفا بمكة المكرمة/ ١٤٠٩ هـ.

(ث)

٥٣ ـ ثقافة الضرار: جمال سلطان. دار الوطن للنشر ـ الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ.

(ج)

٥٤ ـ جامع بيان العلم وفضله: ابن عبدالبر ـ توزيع دار الباز ـ مكة المكرمة ـ ١٣٩٨ هـ.

٥٥ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر/ الطبعة الثالثة/ ١٣٨٨ هـ.

٥٦ ـ الجامع الفريد: محمد بن عبدالوهاب وأولاده، وابن تيمية، وابن القيم، رئاسة إدارة البحوث العلمية ـ السعودية.

٥٧ ـ جامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي البغدادي ـ مؤسسة الكتب الثقافية بيروت/ الطبعة الثانية/ ١٤١٠ هـ.

٥٨ ـ الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد القرطبي ـ دار الكتاب العربي القاهرة/ ١٣٨٧ هـ.

٥٩ ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم طبعة دار المعارف بمصر/ ١٩٧١ م.

٦٠ ـ جمهرة اللغة: لابن دريد.

(ح)

٦١ ـ حادي الأرواح الى بلاد الأفراح: ابن قيم الجوزية ـ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ.

٦٢ ـ حاضر العالم الاسلامي: لوثروب ستودارد الأمريكي: نقله الى العربية عجاج نويهض بقلم شكيب أرسلان ـ دار الفكر ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة.

٦٣ ـ حد الإسلام وحقيقة الايمان: عبدالمجيد الشاذلي ـ مركز البحث العلمى جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ـ الطبعة الأولى / ١٤٠٤ هـ.

٦٤ ـ الحركات الهدامة: القاديانية ـ أبو الحسن الندوى، المودودى، محمد الخضر حسين، نشر رابطة العالم الإسلامى ـ مكة المكرمة.

٦٥ ـ الحجة فى بيان المحجة: أبو القاسم الأصبهانى: رسالة دكتوراة إعداد محمد محمود أبو رحيم ـ جامعة أم القرى/ ١٤٠٦ هـ.

٦٦ ـ حقيقة لا إله إلا الله: المودودى ـ سيد قطب ـ الفوزان ـ مكتبة السنة القاهرة ـ الطبعة الأولى.

٦٧ ـ الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو ـ محمد سرور زين العابدين ـ دار الأرقم ـ ١٤٠٧ هـ.

٦٨ ـ حول تطبيق الشريعة: محمد قطب. مكتبة السنة ـ الطبعة الأولى/ ١٤١١هـ.

٦٩ ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلي: د. أحمد الحوفى ـ الطبعة الخامسة ـ دار نهضة مصر/ ١٣٩٢ هـ.

٧٠ ـ الحياة السياسية عند العرب: محمد الناصر ـ مكتبة السنة مصر ـ الطبعة الأولى/ ١٤١٢ هـ.

(خ)

٧١ ـ خصائص التصور الإسلامى ومقوماته: سيد قطب ـ دار القرآن الكريم ـ ١٣٩٨ هـ.

٧٢ ـ خزانة الأدب: عبدالقادر بن عمر البغدادى: مطبعة الخانجى ـ القاهرة تحقيق عبدالسلام هارون.

(د)

٧٣ ـ دره تعارض العقل و النقل: شيخ الإسلام ابن تيمية. الطبعة الأولى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ـ الطبعة الأولى/ ١٤٠١هـ.

٧٤ ـ دراسات فى الفرق (الشيعة، النصيرية، الباطنية، الصوفية، الخوارج) الدكتور صابر طعيمة، مكتبة المعارف، الرياض / ١٤٠٣ هـ.

٧٥ ـ دراسات قرآنية: محمد قطب ـ دار الشروق.

٧٦ ـ دستور الأخلاق فى الإسلام: د. محمد عبدالله دراز ـ مؤسسة الرسالة دار البحوث العلمية . الطبعة الثالثة/ ١٤٠٠ هـ.

٧٧ ـ الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) الدكتور محمد عبدالله دراز الطبعة الثالثة ـ دار القلم.

٧٨ ـ ديوان أمية: تحقيق د. عبدالحفيظ السطلي دمشق ١٩٧٧ م.

٧٩ ـ ديوان امرىء القيس: طبعة دار المعارف، مصر.

٨٠ ـ ديوان أوس بن حجر: طبعة بيروت.

٨١ ـ ديوان الخنساء : دار صادر بيروت/ ١٣٨٣ هـ.

٨٢ ـ ديوان الأعشى: دار بيروت / ١٩٨٣ م.

٨٣ ـ ديوان بشر بن أبى خازم: تحقيق د. عزة حسن.

٨٤ ـ ديوان حاتم: دار صادر ـ بيروت/ ١٩٦٣ م

٨٥ ـ ديوان زهير: دار صادر ودار بيروت/ ١٩٦٤ م.

٨٦ ـ ديوان طرفة بن العبد: تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال طبعة دمشق/ ١٣٩٥هـ.

٨٧ ـ ديوان عبيد بن الأبرص د. حسين نصار ـ طبعة الحلبى بمصر ١٣٧٧ هـ.

٨٨ ـ ديوان عنترة: تقديم وشرح محمد عبدالمنعم الخفاجي ـ مكتبة القاهرة عام ١٩٦٩ م

٨٩ ـ ديوان لبيد: تحقيق إحسان عباس ـ الكويت ط/ ١٩٦٢ م

٩٠ ـ ديوان النابغة الذبيانى: تحقيق د. شكري فيصل. دار الكتب بيروت/ ١٩٦٨ م.

(ر)

٩١ ـ الرد على النصارى فى مجموعة ثلاث رسائل نشر يوشع فنكل ـ المطبعة السلفية.

٩٢ ـ الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل ـ المطبعة السلفية عام ١٣٩٣ هـ.

٩٣ ـ الرقي على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة: د. على بن نفيع العلياني دار الوطن للنشر ـ الرياض ـ الطبعة الأولى.

٩٤ ـ الرسائل المفيدة: عبداللطيف بن عبدالرحمن حسن آل الشيخ ـ دار العلوم للطباعة القاهرة/ ١٩٧٧ م.

٩٥ ـ الرسالة التدمرية: شيخ الإسلام: ابن تيمية.

٩٦ ـ روح الدين الإسلامى: عفيف عبدالفتاح طبارة/ دار العلم للملايين ط/ ١١.

(ز)

٩٧ ـ زاد المعاد فى هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية. دارالفكر ـ الطبعة الثالثة ـ ١٣٩٢ هـ.

٩٨ ـ الزحف إلى مكة: د. عبدالودود شلبى ـ نشر الزهراء للإعلام العربى. القاهرة ـ الطبعة الأولى / ١٤٠٩ هـ.

(س)

٩٩ ـ السنة: أبوعبدالرحمن عبدالله بن أحمد بن حنبل ـ تحقيق د. محمد بن سعيد القحطانى الطبعة الأولى ـ دار ابن القيم.

١٠٠ ـ السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى: د. مصطفى السباعي ـ المكتب الإسلامى بيروت الطبعة الثالثة/ ١٤٠٢ هـ.

١٠١ ـ السيرة النبوية: لابن هشام. الطبعة الثانية/ ١٣٧٥ هـ/ البابى الحلبى

وأولاده بمصر.

١٠٢ ـ السيرة النبوية: أبو الحسن الندوى ـ دار الشروق ـ الطبعة الخامسة .

(ش)

١٠٣ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ـ الشيخ أبو القاسم اللالكائى تحقيق د. أحمد سعد الحمدان. دار طيبة/ الرياض

١٠٤ ـ شرح السنة: الإمام البغوى تحقيق ـ الأرناؤوط ـ الشاويش / المكتب الإسلامى.

١٠٥ ـ شرح السنة. أبو محمد الحسن بن على البربهارى تحقيق د. محمد بن سعيد القحطانى الطبعة الأولى/ دار ابن القيم.

١٠٦ ـ شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنبارى.

١٠٧ ـ شرح المعلقات العشر ـ التبريزى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت/ ١٩٨٥م.

١٠٨ ـ شرح العقيدة الطحاوية/ الإمام القاضى على بن محمد بن أبي العز الدمشقى الطبعة الأولى/ مؤسسة الرسالة ـ ١٤٠٨ هـ.

١٠٩ ـ الشرك الجاهلى وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام: د يحيى شامي الطبعة الأولى/ ١٩٩١ م دار الفكر اللبنانى ـ بيروت.

١١٠ ـ شعراء النصرانية: لويس شيخو. الطبعة الثانية ـ دار المشرق بيروت.

١١١ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف ١٩٥٨ م ـ الطبعة الثالثة.

١١١ ـ شفاء العليل فى مسائل القدر والحكمة والتعليل ابن قيم الجوزية ـ مكتبة السوادى / جدة.

(ص)

١١٢ ـ صحيح الجامع الصغير: محمد ناصر الدين الألبانى/ الطبعة الثانية/ ١٤٠٦ هـ ـ المكتب الإسلامى.

١١٣ ـ صحيح مسلم بشرح النووي: نشر وتوزيع رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية/ الطبعة الثانية.

١١٤ ـ الصوفية (نشأتها وتطورها): محمد العبدة، طارق عبدالحليم ـ الطبعة الأولى/ ١٤٠٦ هـ. دار الأرقم ـ الكويت.

(ط)

١١٥ ـ طبقات الشعراء: محمد بن سلام الجمحي ـ تحقيق أحمد شاكر.

١١٦ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين: ابن القيم (خرج أحاديثه، عمر بن محمود أبو عمر). الطبعة الأولى / دار ابن القيم.

(ظ)

١١٧ ـ ظاهرة التكفير (تاريخها، خطرها، أسبابها، علاجها) الأمين الحاج محمد أحمد، مكتبة دار المطبوعات الحديثة/ جدة / الطبعة الأولى/ ١٤١٢ هـ.

(ع)

١١٨ ـ عالم الملائكة الأبرار: د. عمر سليمان الأشقر ـ مكتبة الفلاح ـ الطبعة الرابعة الكويت .

١١٩- العبودية: شيخ الإسلام ابن تيمية، الطبعة الرابعة / المكتب الإسلامى/ بيروت / ١٣٩٧ هـ.

١٢٠ ـ العصر الجاهلى: شوقى ضيف. طبعة دار المعارف بمصر.

١٢١ ـ العصريون معتزلة اليوم: يوسف كمال. دار الوفاء بمصر/ ١٤٠٦ هـ.

١٢٢ ـ عقيدة المسلم: محمد الغزالي. نشر وتوزيع دار الثقافة ـ الدوحة.

١٢٣ ـ العلمانية: د. سفر الحوالى. الطبعة الأولي ـ دار مكة للطباعة والنشر.

١٢٤ ـ على من تعرض الصور: أحمد بن راشد السعيد، ود. عمر عبدالله سلطان الإصدار الثامن للمنتدى الإسلامى.

١٢٥ ـ عون الباري: شرح التجريد الصريح: أبو الطيب صديق القنوجي البخاري/ ١٤٠٤ هـ.

(غ)

١٢٦ ـ غزو من الداخل: جمال سلطان. الطبعة الأولى ـ دار الوطن/ ١٤١٢هـ.

١٢٧ ـ الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة/ عبدالرحمن اللويحق ـ الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة/ بيروت/ ١٤١٢ هـ.

(ف)

١٢٨ ـ الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم / مكتبة المعارف الرباط ـ المغرب.

١٢٩ ـ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: جمع وترتيب الشيخ أحمد ابن عبدالرزاق الدويش ـ دار أولي النهى.

١٣٠ ـ فتح الباري ـ شرح صحيح البخاري للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني / المكتبة السلفية ـ القاهرة.

١٣١ ـ فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني: دار الفكر للطباعة والنشر التوزيع عام/ ١٤٠١ هـ.

١٣٢ ـ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ/ طبع الرئاسة العامة لادارة البحوث العلمية والإفتاء/ الرياض/ ١٤٠٣ هـ

١٣٣ ـ فجر اليقظة القومية: د. محمد عمارة طبعة القاهرة عام/ ١٩٧٥ م.

١٣٤ ـ الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية: محمد المبارك. الطبعة الأولى دار الفكر / بيروت/ ١٣٨٧ هـ.

١٣٥ ـ الفكرة الأفريقية الأسيوية: مالك بن نبي. دار الفكر ـ دمشق.

١٣٦ ـ في ظلال القرآن: سيد قطب ـ الطبعة التاسعة ـ دار الشروق/ ١٤٠٠هـ.

١٣٧ ـ فى العقيدة الإسلامية: د. محمد أحمد خفاجى/ الطبعة الأولى ـ مطبعة الأمانة ـ القاهرة/ ١٣٩٩ هـ.

١٣٨ ـ فى مهب المعركة: مالك بن نبي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٩٨١ م.

(ق)

١٣٩ ـ القاموس المحيط: الفيروز آبادى.

١٤٠ ـ قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة: ابن تيمية ـ دار العربية/ بيروت/ ١٣٩٠ هـ.

١٤١ ـ القول الفصل فى حكم الاحتفال بمولد خير الرسل: الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصارى ـ الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء/ الرياض/ ١٤٠٥ هـ.

(ك)

١٤٢ ـ الكواشف الجلية عن معانى الواسطية: عبدالعزيز المحمد السلمان/ مؤسسة مكة للطباعة والإعلام.

(ل)

١٤٣ ـ لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة/ محمد قطب/ دار الوطن الرياض/ ط ١/ ١٤١٣ هـ

١٤٤ ـ لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية: للسفارينى ـ مكتبة أسامة الرياض ـ الطبعة الثانية/ ١٤٠٥ هـ.

(م)

١٤٥ ـ ما أصل الإنسان (إجابات العلم والكتب المقدسة) د. موريس بوكاى مكتب التربية العربى لدول الخليج.

١٤٦ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبوالحسن الندوى ـ طبعة الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الإسلامية/ ١٤٠١ هـ.

١٤٧ ـ مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها د. ناصر عبدالكريم العقل/ دار الوطن/ الطبعة الأولى.

١٤٨ ـ مبادىء الإسلام: د. أبو الأعلى المودودى/ الدار السعودية للنشر/ الطبعة الثانية/ ١٤٠٢ هـ.

١٤٩ ـ مختصر شعب الإيمان: الإمام أبو القاسم عمر بن عبدالرحمن القزوينى/ مكتبة دار البيان/ دمشق.

١٥٠ ـ مختصر العلو للعلي الغفار/ الحافظ الذهبى/ المكتب الاسلامى / الطبعة الأولى عام/ ١٤٠١ هـ.

١٥١ ـ المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام: محمد محمود الصواف/ مكة المكرمة/ ١٣٨٤ هـ.

١٥٢ ـ المحبر لابن حبيب. المكتب التجارى ـ بيروت، وطبعة دار الأمان الجديدة بيروت.

١٥٣ ـ مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية/ دار الراية للنشر الطبعة الأولى/ ١٤١١ هـ.

١٥٤ ـ مذاهب فكرية معاصرة: محمد قطب. طبعة دار الشروق الطبعة الأولى/ ١٤٠٣ هـ.

١٥٥ ـ المرأة بين الجاهلية والإسلام: محمد الناصر وخولة درويش/ دار الرسالة مكة/ ١٤١٣.

١٥٦ ـ المستشرقون: د. عابد السفيانى/ دار المنارة بمكة المكرمة/ ط١/ ١٤٠٨هـ.

١٥٧ ـ مسائل الجاهلية: الشيخ محمد بن عبدالوهاب/ مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ١٣٩٦ هـ.

١٥٨ ـ المصطلحات الأربعة فى القرآن: د. أبو الأعلى المودودى.

١٥٩ ـ المصنف فى الأحاديث والآثار للحافظ أبى بكر بن أبى شيبة/ الدار السلفية/ الهند.

١٦٠ ـ المفضليات: تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون / طبعة دار المعارف بمصر ـ الطبعة السادسة.

١٦١ ـ مفهوم التجديد بين السنة النبوية وأدعياء التجديد المعاصرين: د. محمود الطحان مكتبة التراث ـ الكويت/ ١٤٠٥.

١٦٢ ـ مفاهيم ينبغي أن تصحح: محمد قطب/ دار الشروق الطبعة الثانية/ ١٤٠٨ هـ.

١٦٣ ـ المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي دار العلم للملايين/ ط ٢ / ١٩٧٠ م.

١٦٤ ـ مفتاح دار السعادة: ابن قيم الجوزية/ دار نجد للنشر والتوزيع/ الرياض ١٤٠٢ هـ.

١٦٥ ـ مقدمة لنظرية الأدب الإسلامى: د. عبدالباسط بدر/ دار المنارة للنشر والتوزيع ـ جدة/ ط١/ ١٤٠٥ هـ.

١٦٦ ـ مقاصد المكلفين: د. عمر سليمان الأشقر/ دار النفائس ـ مكتبة الفلاح الطبعة الثانية/ ١٤١١ هـ.

١٦٧ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: للإمام أبى الحسن الأشعرى/ الطبعة الثالثة: دار النشر (فرانز اشتايز بفيسبادن/ ١٤٠٠ هـ).

١٦٨ ـ مقومات التصور الإسلامى/ سيد قطب دار الشروق/ ط١/ ١٤٠٦ هـ.

١٦٩ ـ معارج القبول بشرح سلم الوصول، الشيخ حافظ الحكمى/ دار ابن القيم للنشر والتوزيع ـ الدمام. ط ١/ ١٤١٠ هـ.

١٧٠ ـ معجم الشعراء: المرزباني/ دار إحياء الكتب العربية/ ١٩٦٠ م.

١٧١ ـ المعتزلة بين القديم والحديث: محمد العبدة وطارق عبدالحليم طبعة دار الأرقم/ ١٤٠٨ هـ.
١٧٢ ـ المعتزلة وأصول الحكم: د. محمد عمارة ـ سلسلة الهلال ـ العدد: ٤٠٠ عام ١٩٨٤ م.
١٧٣ ـ المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي: محمد محمود صيام (رسالة دكتوراه) جامعة أم القرى عام / ١٤٠٥ هـ.
١٧٤ ـ المعارف لابن قتيبة: تحقيق ثروت عكاشة/ دار المعارف بمصر/ ط ٢.
١٧٥ ـ معالم الانطلاقة الكبرى: جمع وإعداد محمد عبدالهادى المصرى/ دار طيبة للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ ط ١/ ١٤٠٨ هـ.
١٧٦ ـ المغني: ابن قدامة المقدسي ـ مكتبة الرياض الحديثة/ ١٤٠١ هـ.
١٧٧ ـ الملل والنحل: الشهرستانى ـ مكتبة الأنجلو المصرية/ ط/ ١٩٧٧ م.
١٧٨ ـ ملامح من دور الإسلام فى بناء العمارة العربية قبل البعثة المحمدية: تأليف د. محمود رشاد خليل/ ط ١/ ١٩٨٢ م.
١٩٧ ـ ملامح الفكر الدينى فى الشعر الجاهلى: د. صادق مكي/ دار الفكر اللبنانى/ بيرت/ ١٩٩١ م.
١٨٠ ـ المنتقى من منهاج الاعتدال (مختصر منهاج السنة): الحافظ الذهبي ـ مكتبة دار البيان ـ دمشق.
١٨١ ـ موقف العقل والعلم والعالم والدين من رب العالمين وعباده المرسلين: تأليف شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية سابقا (مصطفى صبري). دار إحياء الكتب العربية ودار القلم ـ الكويت/ ط ٤ / ١٣٨٩ هـ.
١٨٢ ـ المؤتلف والمختلف: للآمدى تحقيق عبدالستار فراج/ دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة/ ١٣٨١ هـ.
١٨٣ ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامى / الرياض/ عام / ١٤٠٩ هـ.
١٨٤ ـ الموالاة والمعاداة في الشريعة: محماس بن عبدالله الجلعود الطبعة الأولى/ ١٤٠٧ هـ الرياض.

١٨٥- المواجهة بين الإسلام والعلمانية إعداد: محمد صلاح الصاوي/ الآفاق الدولية للإعلام عام/ ١٤١٣ هـ.

(ن)

١٨٦ ـ النبأ العظيم: د. محمد عبدالله دراز ـ إدارة إحياء التراث الإسلامى/ قطر/ ١٤٠٥ هـ.

١٨٧ ـ نظرات فى الإسلام: د. محمد عبدالله دراز ـ دار الأرقم عام/ ١٣٩٣ هـ.

١٨٨ ـ نيل الأوطار: محمد بن علي الشوكانى/ مكتبة التراث/ القاهرة.

(هـ)

١٨٩ ـ هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى: ابن قيم الجوزية ـ تحقيق مصطفى الشلبي/ مكتبة السوادي ـ جدة ـ ١٤٠٨ هـ.

(و)

١٩٠ ـ واقعنا المعاصر: الأستاذ محمد قطب/ الطبعة الأولى/ ١٤٠٧ هـ مؤسسة المدينة ـ جدة.

١٩١ ـ وجهة العالم الإسلامى: مالك بن نبي/ إصدار ندوة مالك بن نبي / دار الفكر ـ دمشق/ ١٤٠٢ هـ.

١٩٢ ـ الولاء والبراء فى الإسلام: د. محمد بن سعيد القحطانى / دار طيبة ـ الرياض ـ ط ٣/ ١٤٠٩ هـ.

الصحف والمجلات

ـ جريدة الأخبار القاهرية.

ـ مجلة البيان: لندن المنتدى الإسلامى

ـ مجلة الدوحة القطرية.

ـ مجلة المسلم المعاصر.

ـ مجلة العربي.

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الباب الأول
أديان العرب قبل البعثة النبوية

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني
المعتقدات في الجاهلية والإسلام

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

صدر للمؤلفيْن الكتب التالية:

١ـ المرأة بين الجاهلية والإسلام   الناشر: دار الرسالة ـ مكة المكرمة

٢ـ الحياة الدينية عند العرب (دار عالم الكتب-الرياض)

٣ـ تربية الأطفال في رحاب الإسلام الناشر: مكتبة السوادي ـ جدة

٤ـ الحياة السياسية عند العرب محمد الناصر ـ دار الرسالة بمكة

٥ـ أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام محمد الناصر ـ دار الرسالة بمكة

٦ـ تأملات في رحاب البيت العتيق: محمد الناصر ـ دار المحمدي: جدة

٧- بدع الاعتقاد وأخطارها على المجتمعات المعاصرة: محمد الناصر-مكتبة السوادي - جدة

العصرانيون: بين مزاعم التجديد وميادين التغريب - محمد الناصر/ مكتبة الكوثر بالرياض.

٨ـ الزيارة بين النساء: خولة درويش مكتبة السوادي

٩ـ أطفالنا في رحاب الإسلام خولة درويش «ثلاث قصص»

الأولى دار طيبة ـ الرياض الثانية : دار الرسالة مكة المكرمة

١٠ـ القلب العامر وقصص أخرى: خولة درويش ١ـ دار طيبة ٢ـ دار الرسالة

١١ ـ إليك أختي المربية : خولة درويش الأولى دار طيبة في الرياض ـ والثانية: دار المحمدي ـ جدة.

١٢ ـ سلسلة الأسرة المسلمة صدر منها : «دار الرسالة   خولة درويش»

١ ـ التربية في ظلال الإسلام

٢ ـ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد

٣- ألعاب الطفل المسلم

١٣- سلسلة الأسرة المثالية: (نشر دار المحمدي) اعداد: خولة درويش.

١- الزوجة المثالية.

٢ - السلوك المثالي للطفل المسلم.

٣- البنت المثالية.

- القرآن الكريم معلي : تعليم الطفل وتهذيبه وتسليته إعداد خوله درويش، نشر دار الطرفين بالطائف.